

دار الكتب المصرية

صباح الألفية

الجزء الأول

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

كِتَابُ
صُنْحِ الْأَسْبَةِ
تَالِيفُ
الْشَيْخِ أَبِي الْغُبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِ

الجزء الأول

(حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب المصرية)

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلم بأجمليه، فصاحته وبيانه .
راقم حقائق المعاني بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على
ترجمة ما في الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذي حفظ برسوم الخطوط ما تكل
الأذهان السليمة عن حفظه . وتبلغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديته
بصورة معناه ولفظه .

أحمدته على أن وهب من بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذكُور الصوارم .
ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكaram .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوقَّع لصاحبها بالنجاة من النار .
ويُكْتَبَ قائلها في ديوان الأبرار . وأنت مجدا عبده ورسوله الذي آهتت لهيبته
الأسيرة وشرفت بذكره المنابر . وضائق عن دَرَكَ وصفه الطروس ونفدت دون
إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قلدوا أمور الدين فقاموا
بواجبها . وحملوا أعباء الشريعة فانتشرت بهم في مشارق الأرض ومغاربها . صلاة
تُسَطَّر في الصحف . وتفوق بهجتها الروض الأنف .

وبعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأريج البضائع وأنفعها . وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأعلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوك إلا إليها . ولا تعول في المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . خليفها أبدا خليف بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسْرَجَانِيهَا إِذَا مَا جَنَى الظَّمَا * وَتُرَوَّى بِجَارِيهَا إِذَا بَجَلَ القَطَرُ

وكانت الديار المصرية . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف عَلاَهَا ! قد تعلقْتُ من الثريا بأقراطها . وربحت سائر الأقاليم بغيراطها . بشر بفتحها الصادق الأمين، فكانت أعظم بُشْرَى . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمنَ الفاروق فجاسوا خلالَ الديار وعُرها وسهلها . وأقتطعتها أيدي المسلمين من الكفار (وكانوا أحقَّ بِهَا وأهلها) .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلى أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسلامية . وفُخِرَتْ مملكته بخدمة الحرمين . وخدمها سائر الملوك والأمم لحيازة القبلتين .

تَنَاهَتْ عِلَاءً وَالشَّبَابُ رَدَاؤُهَا * فَمَا ظَنُّكُمْ بِالْفَضْلِ والرَّأْسِ أَشَيْبُ؟

وحظيت من فضلاء الكُتَّاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ، ولا مصر من الأمصار . وحوّت من أهل الفضل والأدب مالم يحو قُطْر من الأقطار . فما برحت متوجهة بأهل الأدب في الحديث والقديم . مطرزة من فضلاء الكُتَّاب بكل مكين أمين ، وحفيظ عليم .

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ * بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

هذا . والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف . وتباينت
مواردهم في الجمع والتأليف . ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدا .
وأخرى جنت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . وطائفة آهتت بتدوين
الرسائل ليقبَس من معانيها ويُنسَك بأذيالها . وتكون أنموذجا لمن بعدهم يسلك
سبيلها ، من أراد أن ينسج على منوالها . ولم يكن فيها تصنيف ، جامع لمقاصدها .
ولا تأليف ، كافل بمصادرها الجلية ومواردها . بل أكثر الكتب المصنفة في بابها .
والتأليف الدائرة بين أربابها . لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ
الرائقة مما وقع اختيار الكُتَّاب عليه . أو طَرَف من اصطلاح قد رُفِض . وتغير
أنموذجه ويُقَض . فلا يغني النظر فيه المقلد من كُتَّاب الزمان . ولا يكتفي به القاصر
في أوَانٍ بعد أوَان . على أن معرفة المصطلح هي اللازم المحتم . والمهم المقدم .
لعموم الحاجة إليه . واقتصار القاصر عليه .

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً * حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ

وكان الدُّسْتُور الموسوم "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضل
الألمعي . والمصنَّع اللوذعي . ملك الكتابة وإمامها . وسلطان البلاغة ومالك زمامها .
المقر الشهابي "أحمد بن فضل الله العدوي العمري" سقى الله تعالى عهده العهاد ! .
وألبسه سواغ الرحمة والرضوان يوم المَعَاد ! . هو أنفَس الكتب المصنَّفة في هذا الباب
عقدا . وأعد لها طريقا وأعذبها ورذا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأعقمت
الأفكار عن مثله ففاز من الصنعة بأحد مذاهبها . فكان حقيقا بقوله في خطبته :

"يَا طَالِبَ الْإِنْشَاءِ خُذْ عِلْمَهُ * عَنِّي فَعِلْمِي غَيْرَ مَنْكُورٍ !"

"وَلَا تَقِفْ فِي بَابٍ غَيْرِي فَمَا * تَدْخُلُهُ (إِلَّا بِدُسْتُورِي)"

إلا أنه قد أهمل من مقاصد المصطلح أموراً لا يسوغ تركها . ولا ينبغي بالفدية لدى القوات نُسكها . كالبطاق، والملطقات، والمطلقات . المكبرة في جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغنى به عما سواه . ولا الاكتفاء بالنظر فيه عما عداه .

ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دستور المسمى "بتتقيف التعريف" مقتنيا أثره في الوضع، وجارياً على سنده في التأليف . مع إيراد ما أهمله في تعريفه . وذكر ما فات من مصطلح ما يكتب أو حدث بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وجوده . ووقع الضن به حتى يخل بإعارته من عرف كرمه وجوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنه التعريف مقاصد لا غنى بالكاتب عنها . ولا بد للتلبس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف، التي هي عمدة الكاتب . ومراكر البريد وأبراج الحمام، وغير ذلك من متمات الواجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كل من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد . ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا في معنى واحد .

وكيفما كان فالإقتصار على معرفة المصطلح قصور . والإضراب عن تعرف أصول الصنعة ضعف همة وفتور . والمقلد لا يوصف بالاجتهاد . وشتان بين من يعرف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جزم الاعتقاد .
ولم أر في عيوب الناس شيئاً * كتنقص القادرين على التمام

وقد ثبت في العقول أن البناء لا يقوم على غير أساس . والفرع لا ينبت إلا على أصل، والثمر لا يئتي من غير غراس .

وكننت في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة عند استقرارى في كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية، عظم الله تعالى شأنها! . ورفع قدرها! وأعز سلطانها!

أنشأت مقامة بنيتها على أنه لابد للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يتسكك بسببها .
وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له
العدول عنها إلى ما عداها . وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها .
وتقديمها على كتابة الأموال وترجيحها . ونهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء
من المواد . وما ينبغي أن يسلكه من الجوائد . وضمنتها من أصول الصنعة ما أربت به
على المطولات وزادت . وأودعها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مصادرها
أو كادت . وأشرت فيها إلى وجه تعلّق بحال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها ملياً .
وأنسابي إلى أهلها وإن كنت في النسبة إليها دعيّاً .

وَأَيْسَرَ دَعِيَ الْقَوْمِ فِي الْقَوْمِ كَالَّذِي * حَوَى نَسَبًا فِي الْأَكْرَمِينَ عَرِيقًا

إلا أنها قد وقعت موقع الوسخ والإشارة . ومالت إلى الإيجاز فاكثفت بالتلويح
عن واسع العبارة . فعزّ بذلك مطلبها . وفات على المحتجّي ببعد التناول أطيبها . فأشار من
رأيه مقرون بالصواب . ومشورته عريّة عن الارتباب . أن أتبعها بمصنّف مبسوط
يشتمل على أصولها وقواعدها . ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدِها . ليكون
كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتّمة لما لم يسقّه الفكر إليها . فامتثلت أمره
بالسمع والطاعة . ولم أتلكأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة . غير أن القرينة
بذلك لم تسمع . وصار المقتضى يضعف والمانع يترجّح . لأعذار قد تشابه محكمها .
وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فانه يعلمها . إلى أن لاحت لي بوارق الفتح . وظهرت
ولله الحمد آثار المنح . فعند ذلك بلغت النفس أمَلها . وأضفت مواهب الامتنان
حلّها . وتلا لسان العناية على الغبي الحاسد ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ
لَهَا ﴾ .

فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى (وما حاب من استخار) .
 وراجعت أهل المشورة (وما ند من استشار) . مستوعبا من المصطلح ما أشتمل عليه
 "التعريف" و"التثقيف" . موضحا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن
 التأليف . متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها . متنقلا
 من توجيه المقاصد ، وتبيين الشواهد ، بما يعرف به فرع كل قضية وأصلها . آتيا من
 معالم الكتابة بكل معنى غريب . ناقلا الناظر في هذا المصنف عن رتبة أن يسأل فلا
 يجاب إلى رتبة أن يسأل فيجيب . منها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون ، التي
 يخرج بمعرفة عن عهدة الكتابة ودرستها . ذاكرا من أحوال الممالك المكتبة عن هذه
 المملكة ما يعرف به قدر كل مملكة ومليكها . مبينا جهة قاعدتها ، التي هي محل الملك
 شرقا أو غربا ، أو جنوبا أو شمالا . معرفا الطريق الموصل إليها ، برا وبحرا ، وأقطعا
 واتصالا . ذاكرا مع كل قاعدة مشاهير بلدانها ، إكمالا للتعريف . ضابطا لأسمائها .
 بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشى في كتابة الإنشأ) راجيا من الله تعالى أن يكون
 بالمقصود وافيا . وللغليل شافيا .

وليعذر الواقف عليه ، فتأنيج الأفكار على اختلاف القرائح لا تنتهي . وإنما ينفق
 كل أحد على قدر سعته (لا يكف الله نفسا ألا ما آتاهها) . ورحم الله من وقف فيه
 على سهو أو خطأ فأصلحه عاذرا لا عذلا . ومُنِيلا لا نائلا . فليس المبرأ من الخطأ
 إلا من وقى الله وعظم . وقد قيل : الكتاب كالمكلف لا يسلم من المؤاخذه ولا يرتفع
 عنه القلم ، والله تعالى يقرنه بالتوفيق ! . ويرشد فيه إلى أوضح طريق ! . (وما توفيق
 إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

وقد رتبته على مقدمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة .

المقدمة

في مبادي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَقَّاقهم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في فضل الكتابة .

الفصل الثاني — في مدح فضلاء الكُتَّاب وذم حَقَّاقهم .

الباب الثاني

في ذكر مدلول الكتابة لغةً وأصطلاحاً، وبيان معنى الإنشاء ، وإضافة الكتابة إليه ، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عُرف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل ، وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة ، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصل الأول — في ذكر مدلولها ، وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه . ومرادفة التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل .

الفصل الثاني — في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة .

الفصل الثالث — في ترجيح النثر على الشعر .

الباب الثالث

في صفات الكُتَّاب وآدابهم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصل الثاني — في آدابهم .

الباب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام

وتفرقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في التعريف بحقيقته .

الفصل الثاني — في أصل وضعه في الإسلام وتفرقه بعد ذلك في الممالك بالديار

المصرية وغيرها .

الباب الخامس

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله ، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله

ولقبه الجازي عليه في القديم والحديث .

الفصل الثاني — في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويدبره ويصرفه بقلمه .

الفصل الرابع — في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم رب

كل وظيفة منهم ، وما كان عليه الأمر في الزمن القديم ، وما آسستقر عليه الحال

بعد ذلك ~~بذلك~~

المقالة الأولى

فيما يحتاج إليه الكاتب ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في الأمور العلمية ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما يحتاج إليه الكاتب في الجملة .

الفصل الثاني — فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالى ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ (وأنساب العرب) ، ومفانيرهم ، ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم في الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، وأصناف العلوم ، ومن برع في كل علم منها ، والكتب الفائقة في كل فن من فنونها وما يجري مجرى ذلك ؛ والمعرفة بصناعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحمد من ذلك وما يذم .

الفصل الثالث — في معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسنين على اختلاف الأمم فيها وتفاصيل أجزائها ، وما ينخرط في سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

الباب الثاني

فما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر آلات الخط من الدوى وما تتخذ منه ومقاديرها وكمياتها ، ومعرفة أصناف الأقلام وصناعة برآيتها : فتحا ونحتا وشقاً وقطاً ؛ ومقادير أطوالها وعدد ما يكون في الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحل الذهب ، وإذابة اللازورد والمغرة العراقية ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في كتابة الديوان .

الفصل الثاني — في الكلام على نفس الخط وأصل وضعه واختلاف الأمم فيه ، وما يخص من ذلك بالخط العربي من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة وتباين

أشكالها واختلاف أوضاعها؛ وما يستعمل منها في ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النقط والشكل والهجاء .

المقالة الثانية

في المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها، وبيان جهاتها الأربع، وما آسّمت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية؛ وبيان موقع الأقاليم العرفية كصر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصل الثاني — في ذكر البحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان في التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبئة في أقطار الأرض ونواحي الممالك مما هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصل الثالث — في استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها .

الباب الثاني

في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم في القديم وما أنطوت عليه

ممالكهم من الأقطار؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وخلفاء بني أمية بالشّيم، وخلفاء بني العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بني أمية بالأندلس، والمدعين الخلافة من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصل الثانى — فيما أنطوت عليه الخلافة العباسية فى الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هى عليه الآن .

الباب الثالث

فى ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها؛

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فى الديار المصرية وذكر فضائلها ومحاسنها ، وخواصها وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نبيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه ، وما ينتهى اليه فى الزيادة وما يصل اليه فى النقص ، والخلجان المتفرعة عنه ، وجسورها الحابسة لمياه النيل على أرضها ، وبحيرات الديار المصرية ؛ وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها ، ومواشيتها ووحوشها وطيورها ؛ وذكر حدودها وأبتداء عمارتها وتسميتها مصر ، وتفرع الأقاليم التى حولها عنها ؛ وذكر أعمالها وقواعدها القديمة ، والمباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ، وقواعدها المستقرة وما آشملت عليه من محاسن الأبنية ؛ وذكر من ملكها جاهلية وإسلاما قبل الطوفان وبعده ؛ وترتيب أحوالها ؛ وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها فى القديم والحديث ؛ وبيان وظائف دولها القديمة والمستقرة لأرباب السيوف والأفلام .

الفصل الثانى — فى البلاد الشامية وما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن — ببلاد الأرمن — وبلاد الدربندات المعروفة الآن ببلاد الروم — مما هو مضاف الى مملكة الديار المصرية ، وفضل الشام وخواصه

وعجائبه وحدوده وأبتداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعماله وجهاته وأجناده وكوره القديمة والمستقرة وقواعده العظام وما كانت عليه في الزمن السابق ومن ملكها جاهلية وإسلاما وما آستقرت عليه الآن من الثيابات ، وترتيب أحوالها ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب ثياباتها وما بها من وظائف وأرباب السيوف والأقلام وما آشتملت عليه من العربان .

الفصل الثالث — في البلاد الحجازية وما ينخرط في سلكتها ، وذكر فضل الحجاز وخواصه وعجائبه وأبتداء عمارته وتسميته حجازا ، وذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وقواعده وأعماله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

الباب الرابع

في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع

والطرق الموصلة إليها ، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في الممالك والبلدان الشرقية عن الديار المصرية ، وما سامت ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية ، وما آشتملت عليه هذه الجهة من مملكة إيران التي هي مملكة الفرس قديما ، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خوزستان وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كرمان وبلاد سيستان وبلاد أرمينية وأذربيجان وبلاد الجبال المعبر عنها بعراق العجم وبلاد الديلم وبلاد الجبل المعبر عنها بكيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغور

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعر عليه في معاجم اللغة التي بأيدينا وإن كان القياس لا يأباه .

وغيرها ، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديما ، وما آشتملت عليه من قسم ماوراء
النهر من بخارى وسمرقند ومضافتهما وبلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم
ودشت القبچاق المشتمل على خوارزم والدشت وأعمال السراى وبلاد القرم وبلاد
الأزق وما ينضم إلى ذلك من بلاد السرب والبغار وبلاد الأولاق وبلاد الآص
وبلاد الروس وغيرها ، وقسم ما بيد صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل
على بلاد الخطا وبلاد الصين ، وما اتصل بهاتين المملكتين مما إلى الجنوب من بلاد
البحرين ومملكة الين وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية ، وممالك
الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة في جزائر البحر الهندي .

الفصل الثاني — في الممالك والبلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية ، من
مملكة تونس المشتملة على بلاد أفريقية ، ومملكة تلمسان المشتملة على بلاد الغرب
الأوسط ، ومملكة فاس المشتملة على بلاد الغرب الأقصى إلى البحر المحيط وما إلى
ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقي منها بيد المسلمين وما استعاده منها ملوك الكفر .

الفصل الثالث — في الممالك والبلدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية
وما آشتملت عليه من بلاد السودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى
ومملكة الحبشة ، وبيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصل الرابع — في الممالك والبلدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما
بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارى من جزائر
بحر الروم بجزيرة قبرس وجزيرة رودس وجزيرة أقریطش وجزيرة المصطكى وجزيرة
صقلية وغيرها وما إلى ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية
ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقالة الثالثة

في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرهما من ذكر الأسماء والكنى والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات ونحوها على كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض في أول الدَّرَج وخاشيته وبعدها بين السطور في الكتابات، وبيان المستندات التي يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

الباب الأول

في الأسماء والكنى والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأسماء والكنى ومواضع ذكرهما في المكاتبات والولايات وما يجري مجراهما .

الفصل الثاني — في ذكر الألقاب وأصل وضعها وما استعمله الكُتَّاب منها وما كان يلقَّب به أهل كل دولة وما حدث من الزيادة بعد ذلك حتى صار الأمر إلى ما عليه الحال في زماننا، والألقاب التي أصطلح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وُضع منها لأهل الكفر، وبيان معنى كل لقب في اللغة ومن يقع عليه في الاصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها على بعض .

الباب الثاني

في بيان مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير

البياض الذي يراعيه الكاتب في كتابته؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقادير قطع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء في القديم والحديث

الفصل الثاني — في بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البياض الذي يراعيه الكاتب في أعلى الدّرج وحاشيته وبعده ما بين السطور في الكتابة .

الباب الثالث

في بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وفيه فصلان

الفصل الأول — في بيان المستندات التي يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلقى كاتب السر الأمر في ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلقى كتاب الدست بدار العدل ، أو شمول القصة بالخط الشريف ، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمة من ديوان الخصاص وغيره ، وكتابة الملخصات التي تكتب من الكتب المطولات الواردة على الديوان ، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصل الثاني — في بيان كيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما في معناها ، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل في دواوين الإنشاء من الكامل والثلاثين والنصف والثلاث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقليل الثلاث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعية في الكتابة في أعلى الدّرج وحاشيته وبعده ما بين السطور .

الباب الرابع

في الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الفواتح من البسملة والحمدلة والتصلية والسلام في أول الكتب والبعديّة التي يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعته.

الفصل الثاني — في الخواتم واللواحق من كتابة إن شاء الله في آخر المكتوب وكتابة التاريخ ومعرفة معناه ومعرفة التواريخ القديمة وأصل وضع التاريخ في الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذي يؤرخ فيه ؛ وبيان بناء التاريخ العربي على الليالي دون الأيام، واختلاف مذاهب النحاة والكتّاب في التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليالي، ومعرفة استخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخرة وكتابة المستند والحمدلة في آخر الكتب والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، والاختتام بالحسبة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقالة الرابعة

في المكاتبات ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات المكاتبات من أصول يعتمدها الكتّاب فيها من حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال وتقديم مقدمة تناسب المكتوب فيه في أول المكتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية في الخطاب ونحوه في المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيان لكل مقصد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب اليهم على قدر طبقة

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة في الكتابة إلى مَنْ يتعاناها، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الاختتام وما يجري مجرى ذلك، وبيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز وما يلائمها من المعاني، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصل الثاني — في بيان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومذاهب الكُتّاب فيما تُفتّح به المكاتبات في القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر في المكاتبات، وبيان كيفية طي الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه في الإضبارة .

الباب الثاني

في مُصْطَلَحِ المكاتبات الدائرة بين كُتّاب الإسلام في كل زمن من الصدر

الأول وإلى زماننا؛ وفيه ثمانية فصول

الفصل الأول — في الكُتُب الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام وملوك الكفر، واختلاف أفتتاحها بحسب المقاصد .

الفصل الثاني — في الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بني أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصل الثالث — في الكتب الصادرة عن الملوك ومن في معناهم مما كُتِب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وخلفاء

بنى أمية بالأندلس ، وبقايا الموحدين بأفريقية ؛ وما كتب به عن الملوك ومن في معانهم إلى الملوك ومن في معانهم من المكاتبات الدائرة بين ملوك الديار المصرية وملوك الشرق والغرب ، ووزراء الخلفاء ومُنْقِذِي أمر الخلافة اللاحقين بشأ الملوك ، وما يَلْتَحِقُ بذلك من المكاتبات الصادرة إلى ملوك الكفر واختلاف الافتتاح في ذلك .

الفصل الرابع — في الكُتُب الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة مما أ كثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية ، التي هي أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلى خلفاء بنى العباس ، وإلى أهل المملكة بمصر والشام والحجاز ، وإلى عظماء القانات بممالك الشرق كقن مملكة إيران الجامع لحدودها على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام أبي سعيد ثم من بعده من يبلغ شأوه من القانات الصغار كالشيخ واويس ومن تلاه إلى زماننا ، ومن بهذه المملكة من صغار الملوك والحكام ، وقانات مملكة توران من صاحب ما وراء النهر من بخاري وسمرقند وما معها ، وصاحب خوارزم والدشت والقان الكبير صاحب التخت ، وصاحب الهند ، وصاحب اليمن وإمام الزيدية بها . وملوك بلاد المغرب كصاحب تُونِس ، وصاحب تِلْمَسَان ، وصاحب فاس ، وصاحب غَرْناطة من الأندلس ، وملوك بلاد السودان كملك البرنو وملك الكانم ، وصاحب مالى ، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم من الجهة الشمالية ، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجنوبية وملك القُسْطَنْطِينِيَّة وسائر ملوك الفرنج وحكامهم بجزائر الروم وغيرها من تقدّم ذكره في الكلام على المسالك والممالك .

الفصل الخامس — في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية من ملوك الممالك المتقدمة الذكر وحكامها من أهل الإسلام والكفر من تردّ مكاتبة على هذه المملكة .

الفصل السادس — في المكتابات الإخوانيات مما كان عليه مُصطَلَح السلف
فَنَّ بعدهم في كل زمن وما استقرَّ عليه الحال في زماننا .

الفصل السابع — في مقاصد المكتابات من الأمور الخاصة بالملوك والخلفاء .
كالكتب بالإشارة بولاية الخلافة ، والجلوس على تخت السلطنة ، والدَّعَاية إلى الدين ،
والحثُّ على الجهاد ، والإخبار عن الفتوحات ، والأمر بلزوم الطاعة ، والتنبيه على مَوَاسِمِ
العبادة ، والمَوَاعِظُ عند حدوث الآيات السماوية ، والأوامر والنواهي ، والنهي عن
التنازع في الدين ، والكتب إلى مَنْ نكث العهد أو خَلَعَ الطاعة ، والتضييق على أهل
الجرائم ، والإشارة بالمواسم ، والأعياد ، ووفاء النيل ، وركوب الميادين ، والعود من الغزو ،
والكتب بالتلقيب على ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ، وبالإحسان والإحسان ،
والكتب قرين الإنعام السلطاني من الخيل والجوارح ، وسائر أصناف الإنعام ،
والاعتذار عن السلطان في الهزيمة ونحوها ، والأجوبة عن ذلك ، وما يشترك فيه الملوك
وَمَنْ عَدَاهُمْ من التهانى كالتهنئة بالوظائف ، وتكرمة السلطان ، وتجدد الأولاد ،
والمساكن ، والعود من الحج ، والقُدُوم من السفر ، والإبلال من المرض ، ورضا السلطان
وَعُزَّةُ السنة ، وشهر رمضان ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحي ، والنَّيروز ، والمهرجان ،
والدخول في دين الإسلام ، والصَّرف عن الخدمة في سلامة ؛ ومن التعازي كالتعزية
بالأب والأم والولد والقريب والصديق ، والتشويقات ، والشِّفَاعَات ، والتهادى ،
والاستراحة ، واستراحة الحوائج ، واختطاب المودة ، وخطبة الترويح ، والشكر ،
والشكوى ، والاعتذار ، والعتاب ، والمداعبة ، وغير ذلك .

الفصل الثامن — في معرفة إخفاء ما في الكتب من السرِّ إما بطريق المترجم ،
وإما بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار ، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقالة الخامسة

في الولايات ؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في بيان طبقات الولايات وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها مما يكتب في ولاية الخلافة والسلطنة والولايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية ، وغير ذلك .

الفصل الثاني — في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على

سبيل الإجمال .

الفصل الثالث — في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات .

الباب الثاني

في البيعات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في معنى البيعات .

الفصل الثاني — في ذكر تنويع البيعات مما يكتب للخلفاء ، وأصل مشروعيتها ؛ وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة ؛ وبيان صورة ما يكتب فيها ، واختلاف مذاهب الكُتّاب في ذلك ؛ وذكر نسخ من بيعات الخلفاء مما كان يُكتب به في الخلافة العباسية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بني أمية بالأندلس وما يلتحق بذلك مما يكتب به لخلفاء بني العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك على ما اصطاح عليه كُتّاب بلاد الغرب والأندلس .

الباب الثالث

في العهد؛ وفيه فصلات

الفصل الأول — في معنى العهد .

الفصل الثاني — في بيان أنواع العهود مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، وما يكتب به للولاء عن الخلفاء، وما يكتب به عن الملوك لولاء العهد بالسلطنة وللوك المنفردين بصغار البلدان، ومذاهب الكتاب في ذلك، وذكر نسخ من ذلك بجميعه مما كتب به ببلاد المشرق والمغرب والديار المصرية .

الباب الرابع

في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيوف

والأقلام وغيرهم؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، وخلفاء بني أمية بالاندلس، وخلفاء الفاطميين بمصر، ومدعين الخلافة من بقايا الموحدين ببلاد المغرب، ومذاهب كتاب الدول في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من مصطلح كتاب المشرق بعد انقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلح كتاب المغرب والاندلس في التقديم والحديث، ومصطلح كتاب الديار المصرية في الدولة الطولونية وماولياها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيوبية وماولياها من الدولة التركية، وما استقر عليه الحال فيها الى زماننا، مما يكتب لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية من التقاليد والتفاويض
والمراسيم والتواقيع على اختلاف مراتبها .

الفصل الثالث — فيما يكتب عن ثواب السلطنة بالممالك الشامية لأرباب
السيف والأقلام وغيرهم ، وذكر نسخ من ذلك .

المقالة السادسة

في الوصايا الدينية ، والمساحات ، والإطلاقات ، والطرخانيات ، وتحويل السنين ،
والتذاكر ، وذكر نسخ من ذلك ، وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية ، وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما لقُدماء الكُتّاب من ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من ذلك ، في زماننا .

الباب الثاني

في المساحات ، والإطلاقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يكتب في المساحات .

الفصل الثاني — فيما يكتب في الإطلاقات .

الباب الثالث

في طرخانيات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في طرخانيات أرباب السيوف .

الفصل الثاني — في طرخانيات أرباب الأقلام .

الباب الرابع

في تحويل السنين ، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية ،

وما يكتب في التذاكر ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصل الثاني — في التذاكر .

المقالة السابعة

في الإقطاعات والمقاطعات ، وذكر نسخ من ذلك ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في ذكر مقدمات الإقطاعات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها ، وأصل

وضعها في الشرع ، وأول من وضع ديوان الجيش في الإسلام ، ومن يستحق إثباته في الديوان ، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصل الثاني — في بيان حكم الإقطاع وانقسامه إلى إقطاع تملك واستغلال .

الباب الثاني

فما يكتب في الإقطاعات في القديم والحديث ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصل ذلك في الشرع ، وبيان ما أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم من البلاد والأرضين .

الفصل الثاني — في صورة ما كان يكتب في الإقطاعات في الزمن القديم عن خلفاء بني العباس بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بمصر ، وعن الملوك القائمين على الخلفاء بالعراق ، وملوك بني أيوب بالديار المصرية ، وما يكتب في الإقطاعات في زماننا مما استقر عليه الحال ، وما يكتب في ذلك من ديوان الجيش من المربعات وما هي مرتبة عليه ، وما يكتب في ذلك من ديوان الإنشاء من المناشير ، وبيان مراتبها ؛ وذكر قطع الورق الذي يكتب فيه ؛ وما يكتب في طرر المناشير وما يلحق بذلك من الطغراوات المشتملة على الألقاب السلطانية التي كانت تُلصق بأعلى المناشير بين الطرة والبسملة ؛ وما يختص من ذلك بالزيادات والتجديدات .

المقالة الثامنة

في الإيمان ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض في الإيمان ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يقع به القسم من الأقسام التي أقسم الله تعالى بها ، والأقسام التي يُقسم بها الخلق من أقسام العرب في الجاهلية ، والأقسام الشرعية التي يحلف بها

الفصل الثانى — فى بيان اليمين الغموس ولغو اليمين ، والتحذير من احنث والوقوع فى اليمين الغموس .

الباب الثانى

فى نسخ الأيمان الملوكة ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء .

الفصل الثانى — فى الأيمان المتعلقة بالملوك مما يحلف به المسامون من أهل السنة وأرباب البدع وأهل الملل من اليهود والنصارى ، والمجوس وما يحلف به الحكماء .

المقالة التاسعة

فى عقود الصلح والفُسُوخ الواردة على ذلك ؛ وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

فى الأمانات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصل الثانى — فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام ، وذكر أصل ذلك من السنة ، وإيراد نسخ من ذلك .

الباب الثانى

فى الدفن ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى أصله وكونه مأخوذاً عن العرب .

الفصل الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوكة .

الباب الثالث

فيما يكتب في عقد الذمة وما يتفرع على ذلك؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في متعلقات أهل الذمة، وإلزامهم بالجرى على ما يقتضيه عقد الذمة لهم .

الباب الرابع

في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهدنة وما يرادفها من الألفاظ، وبيان أصل وضعها في الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات واختلاف مذاهب كُتاب الشرق والغرب والديار المصرية في ذلك، وذكر نسخ منها، وبيان ما يكتب من ذلك من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرد من ذلك مما يكتب عن ملوك الكفر .

الباب الخامس

في عقود الصلح الواقعة بين ملوك مسلمين؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول تُعتمد في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يُكتب في عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به عن الخلفاء والملوك في القديم والحديث إلى زماننا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلّق
بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الحديّات ، وفيه ستة فصول

الفصل الأول — في المقامات وذكر نُسخ منها .

الفصل الثاني — في الرسائل : من الرسائل الملوكية المشتملة على الغزو والصيد
ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورد المدح ، والرسائل الواردة مورد الذم ، ورسائل
المفاخرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاخرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك ،
والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتة بالحوادث والمآثرات
وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصل الثالث — في قدمات البندق ، وذكر نسخ منه .

الفصل الرابع — في الصّدقات الملوكية ، وصدقات الأعيان .

الفصل الخامس — فيما يُكتب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفتاوى
وعراضات الكتب والمرويات ، وما يكتب على الكتب المصنّفة والقصائد من
التقريظات ، وما يكتب عن القضاة من التقاليد الحُكمية وإسجالات العدالة والمطلقات
وغير ذلك .

الفصل السادس — في العُمرات التي تكتب للحاج .

الباب الثاني

في الهزليات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما آتنت الملوك ببعضه .

الفصل الثاني — في سائر أنواع الهزل .

الخاتمة

في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها: من معرفة معنى البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام، وبيان معالمة .

الفصل الثاني — في ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشامية على اختلاف طرقها .

الباب الثاني

في مطارات الحمام الرسائل، وذكر أبراجها المقررة بالديار المصرية

والبلاد الشامية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر مطاراته وأعتناء الملوك بشأنه في القديم والحديث ومسافات طيرانه .

الفصل الثاني — في الأبراج المقررة له بالديار المصرية والبلاد الشامية .

الباب الثالث

في ذكر مراكز الثلج الواصل من البلاد الشامية إلى الملوك
بالديار المصرية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مراكزه .

الفصل الثاني — في هُجْنِه .

الباب الرابع

في المناور والمحرقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في المناور التي كان يُستعمل بها حركة التار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثاني — في المحرقات التي كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التار
ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقدمة

في المبادئ التي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء؛

وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمَقاهم؛

وفيه فصلان

الفصل الأول

(في فضل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى! نسب تعليمها إلى نفسه، وأعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه: ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتتح الوحي، وأول التنزيل على أشرف نبي، وأكرم مرسل صلى الله عليه وسلم! وفي ذلك من الأهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه.

ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلَّت قدرته: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته؛ ثم زاد ذلك تأكيداً ووفر محله إجلالاً وتعظيماً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يُسطر به فقال تقدست عظمته: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُنْجُونٍ ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجة تفضيلها، وأثرة تعظيمها وتبجيلها، أن الشارع ندب إلى مقصدها الأسنى، وحث على مطلبها الأغنى، فقال صلى الله عليه وسلم : ”قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ“ مشيراً إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المجتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صنعة لا بد له في معاناتها من مادة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدي إلى تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُستثمر من صنعته .

والكتابة إحدى الصنائع فلا بد فيها من الأمور الأربعة .

فأداتها ، الألفاظ التي تخيلها الكاتب في أوهامه، وتصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة؛ والخطّ الذي يخطه القلم، ويقيّد به تلك الصوّر . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكمل قوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صوره، ويؤمن عليه من التغير والتبدل والضّياع . وغايتها الشيء المستثمر منها، وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة، العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسمية في أمور الدين والدنيا . ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب، وقع الحُصّ من الشارع عليه، والحث على الاعتناء به تنبيهاً على أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائع متسعة؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسان بقلبه أو يحصّله في ذهنه .

قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : ”أُكْتُبُ شِعْرِي فَالْكِتَابُ أُعْجِبُ إِلَى مِنَ الْحِفْظِ
إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ لَيَنْسَى الْكَلِمَةَ قَدْ سَهَرْتُ فِي طَلَبِهَا لَيْلَةً فَيَضَعُ مَوْضِعَهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا
لَا تَسَاوِيهَا، وَالْكِتَابُ لَا يَنْسَى وَلَا يَبْدُلُ كَلَامًا بِكَلَامٍ“ .

وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لماسح حتى قال سعيد بن العاص: "مَنْ لم يكتب فيمينه يُسرى". وقال معن بن زائدة: "إذا لم تكتب اليد فهي رجل". وبالعكس مكحول فقال: "لأديّة ليد لا تكتب". قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسجل نبيٌ سجلاً ولا خليفة مرضى ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلا إذا استفتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور في السجلات التي سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل تجران وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في شرفه ونبله وسابقته ونجده .

ومن ثم قال المؤيد: "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة ؛ إليها ينتهي الفضل ، وعندها تقف الرغبة".

ومن كلام أبي جعفر "الفضل بن أحمد" في جملة رسالة "الكتابة أس الملك ، وعماد المملكة ، وأغصان متفرقة من شجرة واحدة . والكتابة قُطب الأدب ، وملاك الحكمة ، ولسان ناطق بالفصل ، وميزان يدل على رجاحة العقل . والكتابة نور العلم ، وفدامة^(١) العقول ويّدان الفضل والعدل . والكتابة حلّة وزينة وليّوس وجمال وهيبة وروح جارية في أقسام متفرقة ، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة ، ومن جهل حق الكتابة فقد وسِم بوسم الغواة الجهلة ؛ وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة ، ولو أن فضلا ونُبلا تصوّرا جميعا تصوّرت الكتابة ، ولو أن في الصناعات صناعةً مربوبة لكانت الكتابة ربّاً لكل صناعة .

قال صاحب موادّ البيان : ومن المعلوم أن جميع الصنائع وسائل إلى درك المطالب ونيل الرغائب ، وأن عوائدها متفاضلة في الكثرة والقلة بحسب تفاضلها في الرفعة

(١) من معاني القدماء المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّعَّة؛ إذا كان منها ما لا يفي بالبُلغة من قِوَام العيش : نحو الصنائع المهيّنة السُّوقِيَّة الداخلة في المرافق العامة، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويمجّز وحّد الكفاية ويُحظى بالمسال والنّعم الخطيرة وهي الصنائع الخاصّة، وإذا تُؤمّل ما هذه صفته منها علّم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها في هذا النوع، ولا ما يُكسب ما تُكسبه من الفوائد والمعاون مع حصول الرّفاهيّة والتّزّه عن دَناءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظويّة ورّفاهيّة العيش ومشاركة الملوك في آقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرّفيعة، والمراكب النّبيلة، والدوابّ النفيسة، والخدم المستحسنّة وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات المملوكيّة في أقرب المدد وأقلّ الأزمنة؛ وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وارتفاع حَظّها وسموّ قدرها إذ كان لها سعة لمثل هذه الحدودى التي لا يوجد مثلها في غيرها من الصنائع .

وكفى بالكتابة شرفاً أنّ صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلبه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه .

قال في موادّ البيان : ”ومن ثمّ صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخديم أرباب كلّ صناعة ومُصَرِّفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلّة له مع ترفّعه عن التلبّس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأنّفته أن يقع اسمٌ من أسمائها عليه“ قال: وذلك أنا نرى كل ملك وسلطان يُؤثّر أن يكون له حظ من بلاغة العبارة وجودة الخط، وفي ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضل من سائر المتحقّنين بغيرها من الصنائع الأتحرّ فقد علّم أن الصنائع كلّها معاين ومرافق، لا تتنظم عمارة العالم إلا بتضافرهم ومُرافدّة بعضها لبعض . وإنها على ضربين : خاصية وعامية، فالعاميّة صنائع المهنّة وأهل الأسواق والحرف وإن شاركهم الخاصّة في الحاجة إليها لأنّها تتنظم أمور المعاملات وتعمّر

البلاد؛ والخاصية التي تقع في حيز الملوك والسلاطين، ويتوزعها أعوانهم وأتباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التمييز بين أقدارها بالنظر إلى مقدار عائدتها في أمور الملك والسلطان والرحية مما كان معلقاً بالأمر الأهم، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أجسم، والفساد العائد بوقوع خلل فيه على أسباب المملكة أعظم؛ ومرتبته في الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعة تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج في انتظام أمور سلطانه إلى ثلاثة أشياء لا ينظم ملكه مع وقوع خلل فيها . أحدها رسم ما يجب أن يرسم لكل من العمال والمكاتبين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعد، وإحماذ وإذما . والثاني استخراج الأموال من وجوها . واستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها في مستحقها من أعوان الدولة وأولائها الذين يحسون حوزتها، ويسدون ثغورها ويحفظون أطرافها، ويؤدون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة ؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا كتاب السلطان ولا سبيل للكتاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبر في صنعة الكتابة، فهي إذن من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : ” من أين فضلها أن جعلت في علية الناس “ قال صاحب مواد البيان : ” وقد عُرِف أن الذين وضعوها وآبتدوها ورسومها هم الأنبياء عليهم السلام “ .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزير، وهارون ويوشع بن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام، وسليمان بن داود كان يكتب لأبيه، وآصف بن برخيا ويوسف بن عتقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد انتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفان ثم صار الأمر إليه فيما بعد . وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلى غير هؤلاء من أهل هذه الصنعة من فرع الدرّة العلية من السيادة ، والسنام الباذخ من الرياسة ، على تغير الدول وتنقلها بين العرب والعجم ؛ وفي ذلك ما يدل على علوّ خطرها ، وأرتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبّه قوم بالكتابة بعد الخمول ، وصاروا إلى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان رومياً خاملاً فرقّعه الكتابة وكتب لمعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان . ومنهم حسن النبطي كاتب المجلج ، وسالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبد الصمد ، وجبلّة بن عبد الرحمن ، وقحّظم جدّ المجاج بن هشام القحّظمي ، وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع ، والفضل بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، وآبن المقفّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وآبن عبد السلام الجندليّ أبوري ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) في العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام .

ونجاح بن سلامة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والريحان : مروان ابن الحكم، وعبد الملك بن مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو اعتبر من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحد . وهذا الوزير المهلب كان في أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى في سفره ضيقة حتى اشتفى اللحم ولم يتندر عليه فقال آرتجالا :

أَلَا مَوْتُ يَبَاعُ فَاشْتَرَيْهِ ! * فِهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ !
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي * يُخَلِّصُنِي مِنَ الْمَوْتِ الْكَرِيهِ !
 أَلَا رَحِمَ الْمُهِمِّنُ نَفْسَ حُرٍّ * تَصَدَّقُ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ !

وكان معه رفيق له فاشترى لحما وأطعمه . ثم ترقى بالكتابة حتى وُزِّرَ لمعز الدولة ابن بويه الديلمي في جلالة قدره . وهذا القاضي الفاضل أصله من بيسان من غير بيت الوزارة رفعته الكتابة حتى وُزِّرَ للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلت رتبته عنده حتى بلغ من رتبته لديه أن كان يكتب في كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرة السلام على الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين في كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغيرية قد جئت فيها أولا * ومن اقتفأها كان بعدى الثاني
 فرسولى السلطان فى إرسالها * والناس رسلهم إلى السلطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة مشددا في دينه، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أى فيمن تهبوا بالكتابة . وأما عدهما السابق ففى المكتوب لهم .

والمطيع وعز الدولة بن بويه : وجهد فيه عز الدولة أن يسلم فلم يقع له ؛ ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انما رثيت فضله .

قال في مواد البيان : "ولا عبرة بمن قعد به الجدد ، وتحلف عنه الحظ من أهل هذه الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . على أن المبرز في هذه الصناعة إن قعدت به الأيام في حال فلا بد أن يُرفع قدره في أخرى : لأن دولة الفاضل من الواجبات ، ودولة الجاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتب الفاضل ملكا فاضلا أورئيسا كاملا ، فإنه يوفيه حقه ويرقيه إلى حيث يستحقه . فن كلام بعض الحكماء : تسقط الحظوظ في دولة الملك الفاضل فلا يتسم الرتبة العلية إلا مستوجبها بالفضيلة .

وبالجملة ففضل الكتابة أكثر من أن يحصى وأجل من أن يستقصى ؛ وانما حرمت الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردا على الملحين حيث نسبوه إلى الاقتباس من كتب المتقدمين كما أخبر تعالى بقوله ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وما كنتم تتلوا من قبله من كتاب ولا تحطه نبيك إذا لارتاب المبطلون ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسلم ! يأتي من القصص والأخبار الماضية من غير مدارس ولا نظري كتاب بما لا يعلمه إلا نبي ، كما روى أن قريشا بمكة وجهت الى اليهود : أن عرفونا شيئا نسأله عنه ؛ فبعثوا إليهم أن سلوه عن أنبياء أخذوا أحدهم فرموه في بئر وباعوه ، فسأله فتزلت سورة يوسف جملة واحدة بما عندهم في التوراة وزيادة .

قال العتيبي : ”الأُمِّيَّة في رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ! فضيلةٌ وفي غيره تقيصة لأن الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكّن الإنسان بها من الحيلة في تأليف الكلام ، وأستنباط المعاني فيتوسل الكُفَّار إلى أن يقولوا آقندر بها على ما جاء به“ .

قال صاحب موادّ البيان : ”وذلك أن الإنسان يتوصل بها إلى تأليف الكلام المنشور وإخراجه في الصُّور التي تأخذ بمجامع القلوب ؛ فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج على تكذيب معانديه ، وحسم أسباب الشك فيه“ .

وقد حكى أبو جعفر النحاس : أن المأمون قال لأبي العلاء المنقري ”بلغني أنك أمي ، وأنت لا تقيم الشعر ، وأنت تلحن في كلامك“ فقال : ”يا أمير المؤمنين ! أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه ؛ وأما الأُمِّيَّة وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً وكان لا يُنشد الشعر“ . فقال له المأمون : ”سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل ؛ يا جاهل ! ذلك في النبي ، صلى الله عليه وسلم ! فضيلة وفيك وفي أمثالك تقيصة“ .

قال الجاحظ : ”وكلام أبي العلاء المنقري هذا من أوامد ما تكلم به الجهّال“ . على أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكوا وجهين في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يعلم الكتابة أم لا وصحّحوا أنه لم يكن يعلمها معجزةً في حقه كما تقدّم . قال أبو الوليد الباجي من المالكية : ”ولو كتب ، صلى الله عليه وسلم ! لكان مُعجزةً لخرق العادة . قال : وليست بأول مُعجزاته صلى الله عليه وسلم !“ .

وإذا كانت الكتابة من بين سائر الصناعات بهذه الرتبة الشريفة والذروة المنيفة ، كان الكتاب كذلك من بين سائر الناس . قال الزبير بن بكار : ”الكتاب ملوك وسائر الناس سُوقة“ . وقال ابن المقفع : ”الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك“ . ومن كلام المؤيد ”كتاب الملوك عيونهم المبصرة ، وأذانهم الواعية ، وألسنتهم الناطقة“ .

وكانت ملوك الفرس تقول: "الْكُتَّابُ نِظامُ الْأُمُورِ، وَجَمَالُ الْمُلْكِ، وَبَهَاءُ السُّلْطَانِ وَخَزَانُ أُمُوالِهِ، وَالْأُمْنَاءُ عَلَى رِعْيَتِهِ وَبِلَادِهِ وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْحِجَابِ وَالْكَرَامَةِ، وَأَحَقُّهُمْ بِمَحَبَةِ السَّلَامِ".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "لِلْكُتَّابِ أَقْرَبُ الْمُلُوكِ بِالْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ، وَإِلَيْهِمُ أَلْقِيَتِ الْأَعْيُنُ وَالْأُزِمَّةُ، وَبِهِمْ أَعْتَصَمُوا فِي النَّازِلَةِ وَالنَّكْبَةِ، وَعَلَيْهِمْ أَتَّكَلُوا فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالذَّخَائِرِ وَالْعَقْدِ وَوُلاةِ الْعَهْدِ وَتَدْبِيرِ الْمُلْكِ وَقِرَاعِ الْأَعْدَاءِ، وَتَوْفِيرِ الْفِيءِ، وَحِياطَةِ الْحَرِيمِ، وَحِفْظِ الْأَسْرَارِ، وَتَرْتِيبِ الْمَرَاتِبِ، وَنَظْمِ الْحُرُوبِ".

قال في موادّ البيان: "وما من أحد يتوسّل إلى السلاطين بالأدب، ويُمِثُّ إِلَيْهِمِ مِنَ الْعِلْمِ بِسَبَبٍ، إِلَّا وَهُوَ بِأَقْلِهِ لَا يَنْوَلُ مَا يُنَوَّلُهُ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْإِرْفَاقِ، خِلا الْكَاتِبِ فَإِنَّهُ يُنَوَّلُ الرِّضَا بِالعَظِيمَةِ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْتَحْقَاقِ، لِمَوْضِعِ الْإِفْتِقَارِ إِلَيْهِ وَالْحَاجَةِ؛ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ وَاسِطَةِ تَقُومُ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالرِّعْيَةِ لُبْعَدِ مَا يَبِينُ الطَّبَقَتَيْنِ: الْعُلِيَّا وَالْدُّنْيَا، وَلَيْسَ مِنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مَنْ يُسَاهِمُ الْمُلُوكَ فِي جَلَالَةِ الْقَدْرِ وَعَظِيمِ الْخَطَرِ، وَيُشَارِكُ الْعَامَّةَ فِي اتِّوَاضِ وَالْإِقْتِصَادِ سِوَى الْكُتَّابِ فَاحْتِجِ إِلَيْهِمْ لِلْسَّفَارَةِ فِي مَصَالِحِ الرِّعْيَةِ عِنْدَ السُّلَاطِينِ، وَأَسْتِيفَاءِ حَقُوقِ السُّلَاطِينِ مِنَ الرِّعْيَةِ وَالتَّلَاطُفِ فِي الصِّلَةِ بَيْنَهُمَا". قال: "وَلَعَلَّمَ الْمُلُوكَ بِخَطَرِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَأَهْلِهَا وَعَائِدَتِهَا فِي أُمُورِ السُّلْطَانِ صَرَفُوا الْعِنَايَةَ إِلَى الْكُتَّابَةِ وَخَصُّوهُمْ بِالْحُظُوتِ وَعَرَفُوا لَهُمْ فَضْلَ مَا جَمَعُوهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالصَّنَاعَةِ، وَكَانَتْ مِلُوكُ الْفُرسِ لِرَفْعَةِ رَتْبَةِ الْكُتَّابَةِ عِنْدَهُمْ تَجْمَعُ أَحْدَاثَ الْكُتَّابِ وَنَوَاشِئَهُمُ الْمُعْتَزِّينَ لِأَعْمَالِ الْمَلِكِ وَيَأْمُرُونَ رُؤَسَاءَ الْكُتَّابَةِ بِامْتِحَانِهِمْ فَمَنْ رُضِيَ أَقْرَبَ بِالْبَابِ لِيَسْتَعَانَ بِهِ، ثُمَّ يَأْمُرُ الْمَلِكُ بِضَمِّهِمْ إِلَى الْعُمَالِ، وَأَسْتِعْمَالِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ، وَيُنْقِلُهُمْ فِي الْحَدَمِ عَلَى قَدَرِ طَبَقَاتِهِمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يمكن أحد من عرض اسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا بأذن الملك .

وفي عهد سابور — ”ولكن كاتبك مقبول القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانه منك وما يظن به من لطافة موضعه عندك من الضراعة لأحد والمداهنة له ، ليحمله ما أوليته من الإحسان على محض النصيحة لك ، ومناذرة من أراد عيبك وانتقاص حقك“ . ولم يكن يركب المهاليج في أيامهم إلا الملك والكاتب والقاضى .

قلت : ولشرف الكتابة وفضل الكتاب صرف كثير من أهل البلاغة عنايتهم إلى وضع رسائل في المفارقة بين السيف والقلم ، إشارة إلى أن بهما قوام الملك وترتيب السلطنة ، بل ربما فضل القلم على السيف ورجح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلاً للقلم بقسم الله تعالى به :

إِنْ أَفْتَحَرَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ * وَعَدَّوه مِمَّا يُكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَّمَ
كَفَى قَلَمُ الْكُتَّابِ عِزًّا وَرِفْعَةً * مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وكما قال ابن الرومى :

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمُ السَّيْفَ الَّذِي خَضَعَتْ * لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الْأُئُمُّ
فَالْمَوْتُ ، وَالْمَوْتُ لَأَشْيَاءٍ يُغَالِبُهُ ، * مَا زَالَ يَتَّبَعُ مَا يَجْرَى بِهِ الْقَلَمُ
كَذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مَذْبُورِيَّتَ * أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مُدُّ أَرْهَقَتْ خَدَمُ

والمعنى فى ذلك أنها تؤثر فى إرهاب العدو على بُعد السيف لا تؤثر إلا عن قرب مع ما فضل به القلم من زيادة الجدوى والكرم ، وإلى ذلك يشير بعضهم بقوله مشيراً للقلم

فَلَكُمْ يَقُلُّ الْجَيْشُ ، وَهُوَ عَرَمَرَمٌ ، * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ
وَهَبَّتْ لَهُ الْأَجَامُ حِينَ نَشَأَ بِهَا * كَرَمَ السُّيُوفِ وَصَوْلَةَ الْأَسَادِ

الفصل الثاني

(في مدح فضلاء الكتاب وذم حقايم)

أما فضلاء الكتاب فلم يزل الشعراء يلهمون بمدح أشرف الكتاب وتقريظهم
ويتغالبون في وصف بلاغاتهم وحسن خطوطهم . فمن أحسن ما مدح به كاتب
قول ابن المعتز :

إذا أخذ القِرطاسَ خلتَ يمينُهُ * تُفتَحُ نوراً أو تُنظَّمُ جَوْهَرًا
وقول الآخر :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمُنْتَوِرَ مَنْطِقُهُ * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ
وقول الآخر :

وَكَاتِبٌ يَرْقُمُ فِي طَرِيسِهِ * رَوْضًا بِهِ تَرْتَعُ الْحَاظُهُ
فَالدَّرُ مَا تَنْظِمُ أَقْلَامُهُ * وَالسَّحَرُ مَا تَنْشُرُ الْفَاظُهُ
وقول الآخر :

إِنْ هَزَّ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْمَلَهَا * أَنْسَاكَ كُلَّ كَيْ هَزَّ عَامِلَهُ
وَإِنْ أَقَرَّ عَلَى رَقٍّ أَنْامِلُهُ * أَقَرَّ بِالرَّقِّ كُتَّابُ الْأَنَامِ لَهُ
وقول الآخر :

لَا يُخْطِرُ الْفِكْرُ فِي كِتَابَتِهِ * كَأَنَّ أَقْلَامَهُ لَهَا خَاطِرُ
الْقَوْلِ وَالْفِعْلُ يَجْرِيَانِ مَعًا * لَا أَوَّلُ فِيهِمَا وَلَا آخِرُ
وقول الآخر :

وَشَادِنٍ مِنْ بَنِي الْكُتَّابِ مُقْتَدِرٍ * عَلَى الْبَلَاغَةِ أَهْلَى النَّاسِ لِإِنْشَاءِ
فَلَا يُجَارِيهِ فِي مِيدَانِهِ أَحَدٌ * يُرِيكَ سَحْبَانَ فِي الْإِنْشَاءِ إِنْ شَاءَ

وكذلك أولعوا بدمم حمق الكتاب ولهجوا بهجوههم في كل زمن .
فن ذلك قول بعض المتقدمين يهجو كاتباً :

حمارٌ في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حرب في زياد
فدع عنك الكتابة لست منها ! * ولو غرقت ثيابك في المداد

وقول الآخر :

وكاتب كُتبه تُدكرني القُرءان حتى أظلل في عجب
فاللفظ "قالوا قلوبنا غُلف" . * والخط "تبت يدا أبي لهب"

وقول الآخر :

يحي غير ما قلنا ويكتب غير ما * يعيه ويقرا غير ما هو كاتب

وقول الآخر :

وكاتب أقلامه * معودات باللفظ
يكشط ما يكتبه * ثم يُعيد ما كشط

وقول ابن أبي العيناء يهجو أسد بن جهور الكاتب .

أوما ترى أسد بن جهور قد غدا * مُشَّهًا بأجله الكتاب ؟
لكن يُحرق ألف طومار إذا * ما أحتيج منه إلى جواب كتاب

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكتاب مما صاروا
به هزواً على ممر الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ
على بعض الخلفاء كتاباً يذكروه فيه حاضرطى فصحفه حاضرطى فسخر منه أهل المجلس .

ويروى إن كتاب الدواوين ألزموا بعض العمال مالاً مخرجاً عليه فبعث بحسابه إلى
عبيد الله بن سليمان فوقع عليه "هذا هذا" ورد الحساب إلى العامل فقدر العامل

بضعف آدابه أنه صحح حجتَه وقيل الحساب منه كما يقال في تثبت الشيء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكتّاب وناظرهم على أن ذلك يوجب إزالة المال الذي لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فردّ التوقيع إلى عبيد الله فلم يزد في الجواب على أن شدد الكلمة الأخيرة ووقع تحتها "الله المستعان" إعلاماً له أن لفظ هذا بالنشيد بمعنى الهذيان .

وحكى العباس بن أسد : أن أبا الحسن على بن عيسى كتب إلى أبي الطيب أحمد بن عيسى كتاباً من مكة فقرأه ثم رمى به إلى فقال : اقرأ . فقرأت : كتابي إليك يوم القتر ، بالرفع . فقال : ما معنى يوم القتر ؟ فقلت : القتر البرد فقال : إنما هو يوم القتر بالفتح ، حين يقرّ الناس بمئى ، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهاية الأرب : "وقد اتسع الخرق في ذلك ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة ، وزادوا عن الإحصاء ، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والطاء . قال : ولقد بلغنى عن بعض من أدخل نفسه في الكتابة وتوسّل إلى أن كتب في ديوان الرسائل : أنه رُسم له بكتاب يكتبه في حق رجل اسمه طرنطاي فقال لكتاب إلى جانبه طرنطاي يكتب بالساقط أو بالقائم . قال : وصار الآن حدّ الكاتب عند هؤلاء الجهال أنه يكتب على المجود مدّة ويؤمن بزعمه أسطرا فاذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة أصلح رزته ، وركب رذونه أو بغلته ، وسعى في الدخول إلى ديوان الإنشاء والانضمام إلى أهله ، ولعل الكتابة إنما يحصل ذمتها بسبب هؤلاء وأمثالهم . والله درّ القائل !

تَعَس الزمان ! فَقَدْ أَتَى بُعْجَابٌ ^(٢) * وَمَحَا فُنُونُ الْفَضْلِ وَالْآدَابِ
وَأَتَى بِكُتَّابٍ لَوْ أَنْبَسَطَتْ يَدَى * فِيهِمْ رَدَدُهُمْ إِلَى الْكُتَّابِ

(١) في ضوء الصبح (من مئى) .

(٢) في الأصل بعجائب وقد اخترنا رواية الضوء .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالخط
الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ^(١) والأثوك
لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ
في مخاطبتهم أبكم ؛ ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وَصِنَاعَتِي عَرَبِيَّةٌ وَكَأَنِّي * أَلْقَى بِأَكْثَرِ مَا أَقُولُ الرُّومَا
فَلِمَنْ أَقُولُ؟ وَمَا أَقُولُ؟ وَأَيْنَ لِي؟ * فَاسِيرَ، لَا بَلْ أَيْنَ لِي فَأُقِيمَا؟

وقد حكى أبو جعفر النحاس عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأجمعت
عن مسألة حاجتي لكثرة جمعه ، فرأيت أنه قد أملى على كاتبه ”ولم أكتب بخطي إليك
خوفا من أن تقف على رداوته“ فكتب كاتبه ”رداءته“ على ما يجب فقال : أما تحسن
الهجاء ؟ أين الواو ؟ فأثبتها الكاتب فحس حينئذ في عيني ، فأجترأت عليه فدنوت
منه وسألته حاجتي .

وحكى صاحب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء : أنه تقدم إلى كاتبه بأن يكتب
ألقاب أمير ليثبتها على بُرج أنشأه فكتب ”أمر بعمارة هذا البرج أبو فلان فلان“
وآستوفى ألقابه إلى آخرها ، ودفع المثال إلى الوزير ليوقف عليه فلما قرأه غضب حتى
ظهر الغضب في وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب
أبى فلان بالياء محتجاً عليه بأن أبو من ألقاظ العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن
الحال اقتضت رفعه من حيث إنه في هذا الموضع فاعل ؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متى
رأيت الأمير فاعلا في هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة على رأسه حتى تنسبه
إلى هذا ؟ والله لولا سالف خدمتك لفعلت بك ! .

(١) في الأصل أعجما . . . أبكا .

قال ابن حاجب النعمان: ولما كان أرباب الأمور وولائتها من الخلفاء فمن دونهم ينقدون ما يكتب به الكتاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطأ أو يدخلها من خلل، ويقدمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة. ويرفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتبتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولما انعكست القضية في تقديم من غلط بهم الزمان. وغفل عنهم الحدثنان. وأستولت عليهم شرّة الجهل. ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضل. وصار العالم لديهم حشفاً، والأديب محارفاً، والمعرفة منكراً، والفضيلة منقصة، والصمت لُكنه، والفصاحة هُجئة، اجتنبت الآداب اجتناب المحارم، وهجرت العلوم هجر كبار المآثم. ولو أنصف أحدهؤلاء الجهّال، لكان بالحشف أولى، وبالحرقة والمنقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها^(١). وسفه حقّ المروءة وأفسد أوضاعها ويوصف بالحى الناطق، والصامت أرحى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق.

الباب الثانى

من المقدمة

في ذكر مدلول الكتابة لغة وأصطلاحاً، وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسيل؛ وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النشر على الشعر؛ وفيه ثلاثة فصول.

(١) في الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهى من زيادة الناصح كما هو ظاهر.

الفصل الأول

في ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع للكتابة
الإنشاء في عُرف الزمان، والتعير عنها بصناعة الترسل

الكتابة في اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابةً ومكتبةً وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كتبية، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شفرها بحلقه أوسير ونحوه، ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمي خرز القربة كتابة لضم بعض الخرز إلى بعض . قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى يعلمون . وعلى حد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذ وغيره ” إِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ كَاتِبًا “ . قال ابن الأثير في غريب الحديث ” أراد عالماً سمي بذلك لأن الغالب على مَنْ كان يعلم الكتابة أن عنده علماً ومعرفةً وكان الكاتب عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً “ .

أما في الاصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان : بأنها صناعة روحانية تظهر بالآلة، جُمَانِيَّةٌ، دالّةٌ على المراد بتوسط نظمها . ولم يبين مقاصد الحد ولا مادخل فيه ولا مانح عنه، غير أنه فسّر في موضع آخر معنى الروحانية فيها بالألفاظ التي يتخللها الكاتب في أوهامه ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه . والجُمَانِيَّةُ بالخط الذي يُحْطُّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة . وفسر الآلة بالقلم وبذلك يظهر معنى الحد وما يدخل فيه ويخرج عنه ، ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطَّره القلم مما يتصوره الذهن ويتخلله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من

المعنى اللغوي . على أن الكتابة ، وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها ، لاتخرج عن أصلين : هما كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال وما في معناهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتى كانت الكتابة إذا أُطلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكتاب إذا أُطلق لا يراد به غير كتابها حتى سُمي العسكريّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء ، وسُمي ابن الأثير كتابه "المثل السائر" في أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب في زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال حتى صار الكاتب إذا أُطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء آسمان : خاص يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الإنشاء ، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذي هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها أو أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه .

وأما تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كُتاب الدست ومن جرى مجراهم بما يُعتمد في القضية التي رُفعت القصة بسببها ، ثم أُطلق على كتابة الإنشاء جملة .

قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكُتاب : ومعناه في كلام العرب التأثير القليل الخفيف ، يقال : جنب هذه الناقة موقّع إذا أثرت فيه حبال الأحمال تأثيراً خفيفاً .

وحكى أن أعرابية قالت لجارتها "حديثك ترُويع وزيارتك تَوَقِّع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَعَ الأمر إذا حَقَّ ولَزِمَ ومنه قوله تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَعَ الصَّيْقُلُ السيف إذا أقبل عليه بميقته يحلوه لأنه بتوقيعه فى الرقعة يحلوا اللبس بالإرشاد إلى ما يُعتمد فى الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر - وهى المكان الذى يألفه من حيث إن الموقع على الرقعة يألف مكاناً منها يُوقَّع فيه كحاشية القصة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين - وهو المكان المرتفع فى الجبل لارتفاع مكان الموقع فى الناس وعلو شأنه أو غير ذلك .

وجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقسّم أن التوقيع فى الأصل أسم لما يُكْتَب على القِصص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المَكاتِبَات والولايات ونحوها إنما يبنى على ما يخرج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو تُكَّاب الدست ومن فى معناهم ؛ وحينئذ يكون التوقيع هو الأصل الذى يبنى عليه المنشئ، وقد يكون سَمَّى بأصله الذى نشأ عنه مجازاً، وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشيء بأعم أجزائه إذ الترسُّل والمكاتِبَات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغنى عنها ملك ولا سُوقَةٌ، بخلاف الولايات فإنها مختصة بأرباب المناصب العلية دون غيرهم ؛ وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه "حُسن التوسُّل، إلى صناعة الترسُّل" .

(١) عبارة اللسان والقاموس والوقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل . فلعل ما فى الأصول من تصحيف الناصح فتأمل .

الفصل الثانى

(فى تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة)

قد تقدم فى الفصل الذى قبله أن الكتابة وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها لا تخرج عن أصلين : كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال .

فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل مارجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى : من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الأقطاعات والمُهدن والأمانات والأيمان وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المال وصرفه وما يجرى تجرى ذلك ككتابة بيت المال والخزائن السلطانية ، وما يُجى إليها من أموال الخراج وما فى معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والتفقات وغير ذلك ، وما فى معنى ذلك ككتابة الجيوش ونحوها مما ينجر القول فيه إلى صنعة الحُساب ، ولا شك أن لكل من النوعين قدرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا ، إلا أن أهل التحقيق من علماء الأدب ما برحوا يرجحون كتابة الإنشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها ، ويحتجون لذلك بأمور .

منها أن كتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبه من ولاياته ومكاتباته مما يتعلق بكتابة الأموال إلى أن يمثل لهم فى وصاياه من صناعتهم ما يعتمدونه ، ويبين لهم ما يأتونه ويذرونه ، فلا بد أن يكون عالمًا بصناعة من يكتب له . بخلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد على رسوم مقررة وأُمُودجات محزنة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيها إلى تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها آسْتَمَالُ كتابة الإنشاء على البيان الدالّ على لطائف المعاني التي هي زُبْدُ الأفكار وجَوَاهِرُ الألفاظ، التي هي حِلْيَةُ الألسنة، وفيها يتنافس أصحابُ المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثر من تنافسهم في الدرّ والجوهر .

ومنها ما تستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيحة، وذكاء القريحة، وجودة الروية : لما يحتاج إليه من التصرف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبّر بها من سبق إلى استعمالها مع حفظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها؛ وفي ذلك من المشقة ما لا يخفاء فيه على من مارس الصناعة، خصوصاً إذا طلب الزيادة والعلو على من تقدمه في استعمالها، أو هذا حدّ ورسوم المبرزين الذين ينتحلون الكلام ويوقعونه مواقع مع مراعاة رشاقة اللفظ، وحلاوة المعنى، وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعاني الأبيكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها، ولا سبق سابق إلى كتابتها - لأنّ الحوادث والوقائع لا تنتهي ولا تقف عند حدّ .

ومن هنا تنقّص الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر المقامات الحريّة وأزدرها جانحاً إلى أنها صور موضوعة في قوالب حكايات مبنية على مبدأ ومقطع بخلاف الكتابة فإن أهوالها غير متناهية ؛ ولو روعي حال ما يكتبه الكاتب في أدنى مدّة لكان مثل المقامات مرّات .

ومنها اختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقربه منه وإعظام خواصّه وأعتادهم في المهمات عليه، مع كونه أحرز بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين في الأموال .

وقد قال بعض الحكماء : الكتاب كالجوارح كل جارحة منها ترّفد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح المازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسّه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أخرى - كما سيأتي له بعد .

قال في موادّ البيان ”ولا شك في صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل في تقليده ما يعتمد عليه ويتصفح ما يرد منه ويصرفه بالأمر والنهى على ما يؤدى إلى استقامة ماعدق به ، وهو حلية الملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرها ، ويعلي ذكرها ، ويعظم خطرها ، ويدلّ على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترغيب ، والإحماذ والإذماذ ، واقتضاب المعانى التى تُقتر الوالى على ولايته وطاعته ، وتعطف العدو العاصى عن عداوته ومعصيته . على أن بعض المتعصبين قد ربح كتابة الأموال على كتابة الإنشاء بمغالطات أوردتها ، وتزويرات زخرفها وتمقّها ، لا تخفى على متأمل ، ولا تستغنى على ذى ذهن سليم .

وقد أورد الحريرى في ”المقامة الثانية والعشرين“ المعروفة بالفرائية ألفاظا قلائل في المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال على لسان أبى زيد السروجى .

”اعلموا أنّ صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكاتبه خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب ، وأساطير البلاغة تُسخّ لتُدّرس ، ودساتير الحسابات تنسخ وتُدّرس ، والمنشئ جُهينة الأخبار ، وحقيبة الأسرار ، ونجى العلماء ، وكبير الندماء ، وقلمه لسان الدولة ، وفارس الحولة ، ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمم ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ، به تُستخلص الصياصى ، وتُملك النواصى ، ويُقتاد العاصى ، ويُستدنى القاصى ، وصاحبه برىء من التّجمات ، آمن كيد السّعات ، مقرّظ بين الجماعات ، غير معترض لنظم الجماعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

(١) فى الضوء عرق بالعين المهمة والزأى وهو المناسب ولعل ما فى الاصل تصحيف .

”إلا أن صناعة الحِساب موضوعةٌ على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنيةٌ على التلقيق، وقلم الحاسب ضابط، وقلم المنشيء خابط، وبين إتاوة توظيف المعاملات، وتلاوة طوامير السجلات، بون لا يُذكره قياس، ولا يعتوره التباس؛ إذ الإتاوة تملأ الأيكاس، والتلاوة تفرغ الراس، ونحارج الأوارج يُغنى الناظر، واستخراج المدارج يُعنى الخاطر.

ثم إن الحسبة حفظة الأموال، وحملة الأثقال؛ والنقلة الأثبات، والسفرة الثقات، وأعلام الإنصاف والانتصاف، والشهود المقانع في الاختلاف؛ ومنهم المستوفي الذي هو يدُ السلطان، وقُطبُ الديوان، وقسطاس الأعمال، والمهيمن على الأعمال، وإليه المال في السلم والهرج، وعليه المدار في الدخل والخرج؛ وبه مناط الضر والنفع، وفي يده رباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحِساب، لأودت ثمرَةُ الاكتساب، ولا تصل التغابن إلى يوم الحِساب؛ ولكان نظامُ المعاملات محلولاً، وجرحُ الظلمات مطلولاً، وجيدُ التناضف مغلولاً، وسيُفُ التظامُ مسلولا. على أن يراعَ الإنشاء متقول، ويراعَ الحِساب متأول، والحاسب مناقش، والمنشيء أبو براقيش؛ ولكلِّهما حمة حين يرقى، إلى أن يلتقي ويرقى، وإعنات فيما يُنشا، حتى يُغشى ويُرشى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

قلت : وقد أوردت في المقامة التي أنشأتها في كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر في خطبة هذا الكتاب من فضيل الكتابة ما يشدو بذكره المترنم، وأودعتها من شرف الكتاب ما يُذعن له الخصم ويسلم.

الفصل الثالث

(في ترجيح النثر على الشعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازُن أجزائه وتساوى قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، مع طول بقائه على ممر الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه النقلة لتمكّن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلّق بعضها ببعض، مع شيوعه واستفاضته وسرعة انتشاره وبعْد مسيره وما يؤثّر من الرقعة والضعة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده يجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وذكر المفاز وتعدد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر الميّد من الجاء الجسيم والمنح الفائق، الذي يستحقّه بحسن موقع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأريحية، وقبوله لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثرة في النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجري مجراها وما يُستدلّ به منها في تفسير القرآن الكريم وكلام من أُوتِيَ جوامع الكلم، ومجامع الحكم، صلى الله عليه وسلم ! وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكّنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمّة، والمفانير الضخمة، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقامًا، وأحسن نظامًا، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تُلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ والكلام المنشور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا اعتبرت ما نُقل

من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته . ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين
على كرم الله وجهه ! ” قِيمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مِائِي حَسَنٍ “ : أنه لما نقله الشاعر إلى قوله
فَيَا لَأَيْمَى دَعْنِي أَغَالِي بِقِيَمَتِي * فَقِيَمَةُ كُلِّ نَاسٍ مِائِي حَسَنُونَهُ

قد زادت ألفاظه وزهبت طلاوته ، وإن كان قد أفرد المعنى في نصف بيت فإنه
قد احتاج إلى زيادة مثل ألفاظه مرة أخرى توطئة له في صدر البيت ومراعاة
لإقامة الوزن ، وزاد في قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ أمرئ
بلفظ الناس ولا شك أن لفظ أمرئ هنا أعذب وألطف ، وغير قوله يُحَسِّنُ إلى قوله
يُحَسِّنُونَهُ ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتد به مستوخم ، وإذا
اعتبرت . انقل من معاني النظم إلى النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حسنا ورونقا
ألا ترى إلى قول المتنبي يصف بلدا قد علقت القتلى على أسوارها ؟ :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير في قوله يصف بلدا بالوصف المتقدم :
” وكأنا ما كان بها جنون فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم “
فإنه قد جاء في غاية الطلاوة خصوصا مع التورية الواقعة في ذكر العزائم مع ذكر
الجنون ، وهذا في النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ ولم يزل على صفة نظم الشعر بل نزهه عنه بقوله
﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ وحرم نظمه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
تشريفا لمحله وتزجيا لمقامه منها على ذلك بقوله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ وذلك
أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل على الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاورة للحد، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، وسب الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأخله. بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخطب والترسل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق؛ إذ الخطب كلام مبنئ على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتذكير والترغيب في الآخرة والترهيد في الدنيا والحض على طلب الثواب، والأمر بالصالح والإصلاح، والحث على التعاضد والتعاطف، ورفض التباعد والتقاطع، وطاعة الأئمة، وصلة الرحم، ورعاية الدم، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى مما هو مستحسن شرعاً وعقلاً. وحسبك رتبة قام بها النبي صلى الله عليه وسلم! والخلفاء الراشدون بعده. والترسل مبنئ على مصالح الأمة وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة الناس في مهمات الدين وصالح الحال وبيعات الخلفاء وعهودهم، وما يصدر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها. إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر.

قال في مواد البيان "وقد أحست العرب بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنشور كما حكى أن أمراً القيس بن حجر هم أبوه بقتله حين سمعه يترنم في مجلس شرا به بقوله :

اسْقِيَا حُجْرًا عَلَى عِلَّاتِهِ * مِنْ كَيْتٍ لَوْهَا لَوْ الْعَلَقِ

وما يروى أن النابغة الجعدي كان سيذا فى قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وخطأ رتبته". قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر آتباء لهواه بدون دليل واضح".

قال فى الصناعتين: "ومع ذلك فإن أكل صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتباً". قال: "والذى قصر بالشعر كثرتُه وتعاطى كل أحد له حتى العامة والسفلة فلحقه بالنقص ما لحق الشَّطرنج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام على احتياج الكاتب للشعر فى بيان ما يحتاج إليه الكاتب فيما بعد إن شاء الله تعالى!

الباب الثالث

فى صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(فى صفاتهم؛ وهى على ضربين)

الضرب الأول

(الصفات الواجبة التى لا يسع إهمالها؛ وهى عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام — ليؤمن فيما يكتبه ويمثله. ويوثق به فيما يذره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهب للعدو بوقع كلامه، والجاذب للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يوثق أحد من أهل الكفر؛ إذ يكون عينا للكفار على المسلمين، ومطلعا لهم على خفائهم فيصلون به إلى ما لا يمكن استدراكه، وقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

أَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۖ وَالْمُرَادُ بِالْبَطَانَةِ فِي الْآيَةِ مَنْ يَطَّلِعَ عَلَى حَالِ الْمُسْلِمِينَ كَالْأَطْلَاعِ عَلَى مَقْدَارِ خَزَائِنِهِمْ مِنَ الْمَالِ، وَأَعْدَادِ جَيْشِهِمْ مِنَ الْخَيْلِ وَالرِّجَالِ .

قال أبو الفضل الصُّورِي فِي تَذَكُّرِهِ ”وَإِنْ مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي جُبِلَ كُلُّ أَحَدٍ عَلَيْهَا حَتَّى كُلُّ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَنْ يَرَى رَأْيَهُ وَيَدِينُ دِينَهُ“ قَالَ : ”وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ فِي نَفْسِهِ ، وَلِذَلِكَ شَرَطَ بَعْضُهُمْ فِي الْكَاتِبِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَذْهَبِ الْمَلِكِ الَّذِي يَتَذَهَّبُ بِهِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ مُوَافِقًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ“ .

وَلَمَّا فَتَحَتِ الصَّحَابَةُ (رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) مِصْرَ ، بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ يَأْمُرُهُ أَنْ لَا يَسْتَعْمَلَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ كَافِرًا فَأَجَابَهُ عُمَرُو : بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الْبِلَادِ ، وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى مَقَادِيرِ خِرَاجِهَا ، وَقَدْ أَجْتَهَدْتُ فِي نَصْرَانِيَّ عَارِفٍ مَنَسُوبٍ إِلَى أَمَانَةٍ إِلَى حِينَ مَعْرِفَتِنَا بِهَا فَنَعْزِلُهُ ، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ : كَيْفَ تُؤْمِنُهُمْ وَقَدْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ ؟ وَكَيْفَ تُعِزُّهُمْ وَقَدْ أَذْهَمَهُمُ اللَّهُ ؟ وَكَيْفَ تُقَرِّبُهُمْ وَقَدْ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ ؟ ثُمَّ تَلَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الْآيَةَ وَقَالَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ ”مَاتَ النَّصْرَانِيُّ وَالسَّلَامُ“ .

وَقَدْ رَوَى أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَعَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ فَأَعْجَبَ عُمَرُ بِخَطِّهِ وَحِسَابِهِ ، فَقَالَ عُمَرُ ”أَحْضِرْ كَاتِبَكَ لِيَقْرَأَ“ فَقَالَ أَبُو مُوسَى ”إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ“ فَزَبَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ ”لَا تُؤْمِنُوهُمْ ، وَقَدْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا تُدْنُوهُمْ ، وَقَدْ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا تُعِزُّوهُمْ وَقَدْ أَذْهَمَهُمُ اللَّهُ“ .

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ الْأَمِّ : ”مَا يَنْبَغِي لِقَاضٍ وَلَا وَاِلِ أَنْ يَتَّخِذَ كَاتِبًا ذِمِّيًّا ، وَلَا يَضَعَ الذِّمِّيَّ مَوْضِعًا يَفْضُلُ بِهِ مُسْلِمًا . وَيَعِزُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردي والقاضي أبو الطيب والبندنجي وابن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون مسلماً وهو الأصح الذي عليه الفتيا في المذهب .

وإذا اشترط الإسلام في كاتب القاضي والوالي ففي كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرر به .

قال أبو الفضل الصوري : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواحيه وأوامره ، والتدبير لقوارعه وزواجره ، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ؛ وهو الذي يَسُدُّ قُوَى الكلام ، ويثبت صحته في الأفهام ؛ فتي خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عارية من الفضائل : لأنه الحجة التي لا تُدَحَّض ، والحقيقة التي لا تُرْفَض ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شيء ، وكانت كتابته مغسولة من أفضل الكلام . وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصرة عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمى حفظ شيء منه وكتبه فقد أيجت حرمة كتاب الله تعالى وأتتهكت ، وأمكن منه من يتخذ هزوا ولعبا والله سبحانه يقول في كتابه المكنون ﴿ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم " قال : "ولا يحتاج بالصابي وأنه كتب للطبع والطائع من خلفاء بني العباس ، ومعز الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعُضْدُ الخلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابي كان من أهل ملة قليلة أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته .

الصفة الثانية، المذكورة — فقد صرح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشترط في كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا اشترط ذلك في كاتب القاضى ففى كاتب السلطان أولى لما تقدم من عموم النفع والضربه . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فى حق النساء ”جَنَّبُوهُنَّ الْكِتَابَةَ، وَلَا تُسْكِنُوهُنَّ الْغُرَفَ، وَأَسْتَعِينُوا عَلَيْهِنَّ بِلا : فَإِنَّ نَعْمَ تُضَرِّيَهُنَّ فى الْمَسْأَلَةِ“ . ومروا على كرم الله وجهه على رجل يعلم امرأة الخط . فقال ”لَا تَزِدِ الشَّرَّ شَرًّا“ .

ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال : ”أَفْعَى تُسْقَى سُمًّا“ والله البسامى حيث يقول ! :

مَا لِلنِّسَاءِ وَلِلْكَأ * بِهِ وَالْعَالَةِ وَالْخَطَابَةِ !
هَذَا لَنَا وَلِهِنَّ مِنَّْا أَنْ يَتَّعْنَ عَلَى جَنَابِهِ

فإن قيل : قد كُنَّ جماعة من النساء يكتبن ولم يرد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روى أبو جعفر النحاس بسنده إلى الحسن أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتب فى مكاتباتها بعد البسملة : من الْمُبَرَّاةِ عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ حَبِيبَةِ حَبِيبِ اللَّهِ . وحكى جعفر بن سعيد أنه ذكر لعمر بن مسعدة كاتب المأمون توقعات جعفر بن يحيى فقال : ”قَرَأْتُ لَأَمِّ جَعْفَرٍ تَوَقِّعَاتٍ فى حَوَاشِي الْكِتَابِ وَأَسَافَلَهَا فَوَجَدْتُهَا أَجُودَ اخْتِصَارًا وَأَجْمَعَ لِلْعَانِي“ . وذكر محمد بن على المدائنى فى كتاب القلم والدواة أن عاملا لُزْبَيْدَةَ كَتَبَ إِلَيْهَا كِتَابًا فَوَقَّعَتْ فى ظَهْرِهِ ”أَنْ أَصْلَحَ كِتَابُكَ وَإِلَّا صَرَفْنَاكَ عَنْ عَمَلِكَ“ فتأمله فلم يظهر له فيه شىء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه فى الدعاء لها وأدام كرامتك، فقال : ”إِنَّمَا تَحِيلُ أَنْتَ دَعْوَتَ عَلَيْهَا فَإِنَّ كِرَامَةَ النِّسَاءِ دَفْنٌ“ فغير ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ؛ ومن كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرح فيه بأنها كتبت بنفسها ولعلها أمرت من يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دونه ، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها ، ومن عداها من النساء لأُعْبَر به .

الصفة الثالثة ، الحرّية — فقد شرطوا في كاتب القاضى أن يكون حرا : لما فى العبد من النقص ، فلا يُعتمد فى كل القضايا ، ولا يُوثق به فى كل الأحوال ؛ فكاتب السلطان كذلك بل أولى كما تقدم .

الصفة الرابعة ، التكليف — كما فى كاتب القاضى فلا يعول على الصبيّ فى الكتابة إذ لا يُوثق به ولا اعتماد عليه .

الصفة الخامسة ، العدالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة ، ورتبة خطيرة ، يحكم بها فى أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف أو كتّم شيئا قد علمه أو تأول لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته ، أدّى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر ، ونفع من يجب الإضرار به ، وكان قد موّه على الملك حتى مدح المذموم وذمّ المدوح . فتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ويزعه عن احتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، وأثر فعله من الأضرار ما لم تؤثر السيوف ، ولله القائل !

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بَنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّمَا بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ

وأیضا فإنه لا يُقبل قول الفاسق فتضيع به المصالح ، وربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدین على وهن يدخله على الدین بقلمه ، أو ضرر يجلبه بلسانه .

وأيضاً فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئاً من أمور المسلمين ؛ وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماورديُّ من أصحابنا الشافعية القولَ باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدم .

الصفة السادسة ، البلاغة — بحيث يكون منها بأعلى رتبة وأسمى منزلة ؛ فإنه لسان السلطان الذي ينطق به ، ويده التي بها يكتب . وربُّ كاتبٍ بلغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى عن الكاتب ، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيض القواضب ؛ وإذا كان جيد الفطنة صائب الرأي حسن الألفاظ ، نتأثي له المعاني الجزلة فيجلوها في الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الاختصار ، ويطيل حيث لايجد عن الإطالة بُدأً ويتهدد فيملاء القلوب روعةً ، ويشكر فيلقي على النفوس مسرةً ؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عظم مملكة سلطانه ونغمها في معارض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده .

الصفة السابعة ، وفور العقل ، وجرالة الرأي — فان العقل أسُّ الفضائل وأصل المناقب ؛ ومن لا عقل له لا انتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله ؛ فاذا كان تام العقل كامل الرأي ، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كل أحد عن سلطانه بما يقتضيه الحال التي يكون عليها ؛ فيشتد ما كانت الشدة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ، ويوبخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويذم من تعدى الى ما يستوجب الذم ؛ ويبقى بالمكاتبات التي يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعها صائبةً مراعيها .

الصفة الثامنة ، العلم بمواد الأحكام الشرعية ، والفنون الأدبية ، وغيرها مما يأتي بيانه — إذ الجاهل لا تميزه بين الحق والباطل ، ولا معرفة تُرشده إلى الطرق المعتمدة في الكتابة . ومن سلك طريقاً غير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زل .

الصفة التاسعة، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكتب الملوك عن ملكه . وكل كاتب يجذبه طبعه وجيلته وخيمته في الكتابة إلى ما يميل إليه ، ومكتابة الملوك أحوجُ شيء إلى التفضيم والتعظيم ، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ، فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشدَّ عزما وأعلى همة ، كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من كتابته .

الصفة العاشرة، الكفاية لما يتولاه — لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسلمين ؛ وربما عاد عليهم عجزه بالوبال ، أو أدى بهم ضعفه إلى الاضطراب والاختلال .

الضرب الثاني

(الصفات العرفية)

قال المهذب بن مماتي في كتابه "قوانين الدواوين" : "ينبغي أن يكون الكاتب أدبيا ، حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جرأة ، ثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه ثؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدام " .

قال محمد بن ابراهيم الشيباني : من صفة الكاتب اعتدال القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وخطف الإشارة ، وملاحة الزى . قال : ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستقر المركب ،

ولا يكون مع ذلك قَصْفًا جِلْمَةً، متفاورًا الأجزاء، طويل الحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة؛ والله القائل !

وَيُشْمَلُ كَأَنَّمَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتُبِ“

وقال أبو الفضل الصوري : ”ينبغي أن يكون الكاتب فصيحًا بليغًا أدبيًا، سنيّ الرتبة، قوى الحجّة، شديد العارضة، حسن الألفاظ؛ له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود“ .

قال المذهب بن ممتى : ”أما حسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال خدمومه من إثاره إظهار نعمته على من هو في خدمته أو إخفاءها“ . قلت : وهذا قد يخالف ما تقدّم : من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بهي الملبس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدم في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل ويعظمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربما كان التعظيم في الفضل لَرث الحالة المنحط الجانب أكثر، وترجيحه على غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتب المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة : ”لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جحلا بهيا، ولبّاسا نبيلًا . وإذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليلًا قبيحًا : وبأد الهيئة دميما، وخامل الذكرا، مجهولا : ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي درج واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الديميم على التبدل الجسيم، وللباد الهيئة على ذى الهيئة؛ ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب على مساواته له سببا للتعجب به، والإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أياس، ومن حسده أبعد؛ فلما ظهر منه خلاف ما قدره وتضاعف

(١) في الأصل المعارضة وهو تصحيف من التامخ .

(٢) هو فعل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح منظره وإجنامه في الأصول تصحيف فتنه .

حُسْنُ كلامه في صدورهم كِبَرٌ في عيونهم: لأن الشيء من غير معدنه أغرب؛ وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف؛ وكلما كان أطرف كان أعجب؛ وكلما كان أعجب كان أبعد؛ وإنما ذلك كنوادر الصبيان وملح المجانين؛ فإن استغراب السامعين لذلك أعجب، وتعجبهم منه أكثر. قال: "والناس موكِّلون بتعظيم الغريب واستظراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ؛ وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون مَنْ هو أعمُّ نفعاً، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤنةً وأكثر فائدةً".

الفصل الثاني

(في آداب الكتاب؛ وهي على نوعين)

النوع الأول

(حُسْنُ السيرة وشرف المذهب؛ ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوى الله تعالى في الأسرار والإعلان، والإظهار والإبطان، والمحافظة عليها، والاستناد إليها في مبادئ الأمور وعواقبها. فإنها العروة التي لا تنفصم، والحبل الذي لا ينصرم، والركن الذي لا ينهدم، والطريق التي من سلكها آهتدى، ومن حاد عنها ضلّ وتردى؛ والمحافظة على شرائع الدين التي فرضها الله تعالى على خلقه، والحذر من الاستخفاف فيها بحقه، وتوقُّ غضبه بتأديتها، والاستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقيها^(١).

(١) كذا في الأصول من الوفاية ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل.

ومنها طلب الأجر بما يُئله من عز سلطانه ويُجديه من فواضل نعمائه ؛ وهذا هو أصح الأغراض التي يجب على كل عاقل أن يقدمه على كل غرض ، ويحصل منه على السهم الوافر ؛ فلا خير في دنيا تنقطع السعادة عنها ، وإنما السعادة بعد الموت ﴿ والدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ ؛ ومن آختر الفاني المنصرم على الباقي الدائم ، فقد خسرت صفقته ، وبارت تجارتَه .

والطريق الموصّل إلى هذا المقصد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان ، وقصدُ النفع العام له ولرعيته ، والاجتهادُ في إغاثة الملهوف ، والأخذ بيد الضعيف ، والنفع بجأهه عند سلطانه ، وحمله على العدل في الرعية ، فإذا توثق ذلك فاز بثواب الله تعالى ، وقضى حق السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر ، وقابل نعمة الله التي أقدّر بها على هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقر بها لديه .

ومنها : بجانب الرّيب والتزّه عنها ، والطهارة منها . فانها تُسخط الله تعالى ، وتذهب بمهابة المرء ، وتُسقطه من العيون والقلوب . وأحقّ من راعى ذلك من نفسه من بين أتباع السلطان أهل هذه الصناعة لأختصاصهم به ، ولطف منزلتهم عنده . إذ المشهور عند نقلة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورهم ومشايخها كانوا من جلة العلماء ، وسادة الفقهاء ، وأفاضل أهل الورع ، المبرّئين من الدّنس والطمع ، المميزين على القضاء والحكّام ، في الاستقلال بعلوم الإسلام ؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب ، ورواية الأشعار ، والعلم بالأيام والسير ، والارتياض بآداب الملوك وعِشرتهم ورسوم صحبتهم ، وغير ذلك مما ينظم في صناعتهم . فقد ساوَوْهم في علم الدّين ، وفاقَوْهم فيما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدّين قرينان لا يفترقان ، وعونان على صلاح البلاد والعباد ، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدّين لأنه تابعه ورديفه .

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنها لزوم العَفَاف والصَّيَانَة فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الذميمة . والمطاعم الوخيمة ، والترفع عن المكاسب اللثيمة ؛ فان ذلك يجمع القُرْبَة إلى الله تعالى والحُطْوة عند السلطان ، وجميل السيرة عند الرعية — حتى إن هذه الطريقة قد تقدم بها عند السلطان المتخلفون في الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لا يقاربونه في غِنَاء ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على مَنْ كان قريبا ، ومن لا مكانة له ولا حرمة على مَنْ له مكانة وحرمة ، وأستدنى لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذي يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَاف الذي عليه نظام معيشتة ، والأرتفاق فيما يحل ويطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل ”الزم الصحة يلزمك العمل“ . لا أنه يمتنع من المنافع التي تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلص من قبيح الأُخْدُوثة وإطلاق ألسن الحَسَدَة بالظعن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان ونفوذ الأمر من غير خيانة للوُثَمين ولا اشتكاء للرعية — فانه أولا هذه المنافع لغنى الانسان بالقناعة ، ورضى بالكفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه ودنياه في سلامة السلطان . اذ لا يجوز أن يستفرغ وسعه ويعرض نفسه للخطر فيما لا تحسن له عائده ، ولا تخلص منه فائده ، في جاه ولا مال . وقد علم ما كان عليه أهل هذه الطبقة في سائر الدول وما حصلوه من الذخائر وأقتنوه من القُنِيَات النفيسة ، التي أقدرتهم على إظهار مُروءاتهم ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم على الدوائر والأعقاب . وإنما حصلوا على ذلك من حيث معرقهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة وذميمة الطعم — لأنهم كانوا في أزمئة لا يعضى فيها عن متكسب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وإن جلت منزلته وعظمت مرتبته

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلاها رتبة — لأنه يتلو الأجر في البقاء والدوام ، وكلما كانت المهمة أعظم وأشرف ، كانت إليه أرغَبَ وبه أَكثَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعليه الناس حتى قال الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ . وأولى الناس باقتناء ذخائر الحمد وأقراض فرض الشكر من عرض الله تعالى جابه ، وطول يده ، وأمضى عند السلطان لسانه ، فينبغي أن يختار هذه المَكْرُمة ، ويقوم بالنصيب الأوفر منها ، ولا يتخل بجابه ولا ماله على قاصد ولا مؤمل ولا ذى رَحِمٍ وذِمَامٍ ، ولا يُضَجِّع في أمر بطانته وحاشيته وأصحابه ، ولا يَضَيِّق عليهم مع سَعَتِهِ ، ولا يقصِّر بهم في كِفَايَتِهِ ، ويجعل آكتسابها بجابه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ما أوْتُمِنُوا عليه في هذا الغرض ورَضُوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوال النعم ، وسقوط الرتبة وذهاب المال ، والوسم يسم الخيانة والبوار إلى الأبد . ولا يبالغ في آبتناء المعالي واقتناء المحامد وبذل الرغائب وارتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغي لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفَاخِرًا ولا مُكَاثِرًا ولا مقاييسا ، فيكون قد عدا طوره ، وأضلَّ رُشدَه ، وتعرض للعطب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلى سوء الظن به ، وفوق سهام الحسدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالطعن عليه ؛ وربما أدى به ذلك إلى سقوط المنزلة ان سامت نفسه .

ومنها الاقتصاد في طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهُم ما يتناولونه من ذلك بسلوك طريقة مجودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال على اللذات . والانهماك في الشهوات . فان ذلك غير مُستَحْسَنٍ للملك ولا سَوْقَةٍ لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها في صلاح المعاش

وأمر الآخرة؛ ولكن لا يكلف ترك اللذات جملة — اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبلت عليه الطبائع من الميل إليها والرغبة في الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم في آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النوع الثاني

حُسن العشرة — التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعا والحاصلة بالتخلق تكسبا وتطبعا ، وأعوها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامة وحصول الثناء والشكر والمودة من الأفاضل الأخيار ، وكفاية الأراذل الأشرار ، وان لم يلتزمها الكاتب طوعا حمل عليها كرها .

وأعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأول

(عشرة الملوك والعظماء)

قال على بن خلف : ولا يقوم بأدائها وأكل رسومها إلا من علّت فى الأدب درجته ، وسمت فى رجاحة العقل منزلته ، وتميّز بغريزة فاضلة وأدب مكتسب ، وصبر على المشاق فى التحلّى بالهمم الشريفة ، والسمو إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكّن من تصريف النفسين الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخذها بقبول ما تُرشد اليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبه راكب خطر جسيم ، بتلكه نفسه لمتحكم فى شعره وبشره ، قادر على نفعه

وَضُرَّه؛ لَا يَرِدُّه عَنْ مَقَابِلَتِهِ عَلَى يَسِيرِ الْخِيَانَةِ بِكَبِيرِ النَّكَايَةِ إِلَّا مَا يُؤْمَلُ مِنْ صَفْحِهِ وَمَسَاحَتِهِ، وَيَرْجُو مِنْ عَطْفِهِ وَرَأْفَتِهِ . وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُتَّصِلِ بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ أُمُورِهِ وَحِفْظُ نَفْسِهِ مِنْ جَرِيرَةٍ يَحْزِرُهَا عَلَيْهَا بِإِغْفَالِهِ فَرَضًا مِنْ فُرُوضِ طَاعَتِهِ، وَتَضْيِيعُهُ الْمَحَافِظَةَ عَلَى حَقُوقِ خِدْمَتِهِ، وَالْعِلْمُ أَنَّ لِكُلِّ مُصْحُوبٍ خُلُقًا يَغْلِبُ عَلَيْهِ، وَيَرْجِعُ بِغَرِيزَةِ الطَّبْعِ إِلَيْهِ، لَا يُمْكِنُ التَّزْوِجُ عَنْهُ وَلَا الْمَفَارَقَةُ لَهُ؛ إِذَا الْإِنْتِقَالُ عَنِ الطَّبَاعِ، شَدِيدُ الْإِمْتِنَاعِ، فِي الْخِدْمَةِ وَالْإِتْبَاعِ؛ فَكَيْفَ الْمُلُوكُ وَالرُّؤَسَاءُ الَّذِينَ لَا يَقَابِلُونَ بُلُومَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ؛ بَلِ الْعَادَةُ جَارِيَةٌ فِي أَدَبِ خِدْمَتِهِمْ أَنَّ يَصُوبُوا مَا يَرْكَبُونَهُ مِنْ خَطَاٍ وَيَحْسِنُوا مَا يَوَاقِعُونَهُ مِنْ قَبِيحٍ . فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ أَخْلَاقِهِ لِأَخْلَاقِ سُلْطَانِهِ، وَمَا خَالَفَ سَبِيحَتِهِ فِي إِصْلَاحِ زَمَانِهِ؛ وَأَنْ يَنْزِلَ عَنْ هَوَاهُ لِهَوَاهُ، وَيَتَّبِعَ فِيمَا يَسْخَطُهُ وَيَأْبَاهُ، مَا يُؤَثِّرُهُ سُلْطَانُهُ وَيَرْضَاهُ . وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَعْزِضَ نَفْسَهُ لِمَا يُسْقِطُ مَنَزَلَتَهُ وَيُفْسِدُ عَاقِبَتَهُ وَلَا يُوجِدَ لِلزَّمَنِ طَرِيقًا إِلَى التَّنْكِرِ لَهُ، وَيُعِينَهُ بِتَفْوِيقِ سِهَامِهِ وَالتَّصَدَّى لِمَوَاقِعِهَا . وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الزَّمَانَ وَإِنْ عَمَّ بِنَوَائِبِهِ فَإِنَّهُ يَخْصُصُ صَاحِبَ السُّلْطَانِ مِنْهَا بِمَا يَزِيدُ عَلَى نَصِيبِ غَيْرِهِ . وَمَنْ أَشَقَّ الْأَحْوَالُ أَنْ يُدْفَعَ الْإِنْسَانُ إِلَى تَغْيِيرِ السُّلْطَانِ مَعَ كَوْنِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ شَيْئًا جَزَاهُ إِلَى نَفْسِهِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ، لِمَا يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ مَرَارَةِ النَّكْبَةِ، وَحَرَارَةِ الْمَغَبَّةِ، وَتَقْرِيعِ مَنْ يُزْرَى عَلَى عَقْلِهِ، وَيُؤْنَبُهُ بِجَهْلِهِ . ثُمَّ إِنَّهُ يَلْزِمُهُ بَعْدَ الْإِحْتِيَاطِ فِيمَا تَقْدَمُ عِدَّةُ خِصَالٍ أَيْضًا .

مِنْهَا الْإِخْلَاصُ وَهُوَ قِيَامُ الْأَمْرِ فِي الْمَصَاحِبَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ صَحِبَ سُلْطَانًا بِعَقِيدَةٍ مَدْخُولَةٍ فِي وَلايَتِهِ، مَشُوبَةٍ فِي مَحَبَّتِهِ، لَمْ يَنْتَظَمْ لَهُ وَلَا لِسُلْطَانِهِ أَمْرٌ : لِأَنَّ الضَّمَائِرَ الْمَذْذُوقَةَ وَالنِّيَّاتِ السَّقِيمَةَ لَا بَدَّ أَنْ يَصْرَحَ بِمَا فِيهَا وَيُظْهَرَ مَا فِي دَخِيلَتِهَا؛ وَإِذَا آتَضَحَ ذَلِكَ لِلْسُّلْطَانِ لَمْ يَقْنَعْ إِلَّا بِإِتْلَافِ نَفْسِهِ، وَإِذْهَابِ مُهْجَتِهِ .

(١) لَعَلَّ الْمَذْذُوقَةَ . أَيْ غَيْرَ الْخَالِصَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ مَذَّقَ فُلَانٍ الْوَدَّ إِذَا لَمْ يَخْلُصْهُ . تَأَمَّلْ .

ومنها النصيحة ، وهى ترب الإخلاص . والطريق الموصل إلى التوفية بها أن يطالع السلطان بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاص أموره وعامتها ؛ وعلى من استخلصه السلطان لنفسه ، وأتمته على رعيته ، وأنطقه بلسانه ، وأخذ وأعطى بيده ، وأورد وأصدر برأيه ، وتخير هذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستر عنه دقيقاً ولا جليلاً من أحوال ما فوضه إليه ، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجملة توقياً من لوم لائم ، ولا يحمله فرط النصح له على الإضرار برعيته ، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضييع حقوقها ، ولا القيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها . ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يبقى في ذلك ممكناً ، ولا يدع فيه شأواً للاحق .

ومنها كتمان السر . وهو من أفضل الآداب في حجة السلطان وغيره ، وأعودها بالفلاح على صاحبها : لأن كثرة الانتشار الداخل على الدول إنما توجه بتفريط بطائنها وصاحبها في أسرارها ، وإظهارهم بما تقرّر في أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهروه ؛ فيجد العدو بذلك الطريق إلى معالجة آرائهم بما ينقضها ، ومقابلتها بما يُفسدها . على أن إفشاء السر من الأخلاق التى طبع أكثر الناس عليها ، وحيل بينهم وبين الإقلاع عنها ؛ فمن علم من نفسه ذلك فليحذر معاملة السلطان في أسرارهِ وبواطنِ أموره ، ولا سيما ما وجد منها في باب حروبه ومكايده ، فإنه إن ظهر منه على خيانة في السر ، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشكر فإنه وإن كان واجبا على الإنسان مع أ كفائه ونظرائه فإنه مع السلطان الذى يستظل بظله ، ويستدرّ أخلاف فضله أوجب . إذ المرء قد يقدر على مكافأة عارفة صديقه بما يضاهاها ويزيد عليها ، ولا يقدر على مكافأة سلطانه إلا

بشكر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته . ثم الشكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرئوس، والخادم والمخدوم، إلا السير الذي يقضى به حق الخدمة : لأن الإكثار منه داخل في حكم الملق والثقل ؛ وإنما يظهر شكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهم الخصال اللازمة وأكدها ؛ إذ هو الطريق إلى صلاح العباد وعمارة البلاد ؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحه ودوام عمله ، والسبب الذي لأجله ترغب السلاطين في صحبته : لأنهم ما برحوا يقرّبون صاحب هذه الخصلة ويرونه أهلاً للاختصاص ، موضعاً للثقة ؛ ولا أسوأ حالاً ممن نزل هذه المنزلة وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصد المخالصة، ومقابلة كل نعمة تُفاض عليه بالنهضة فيما ^(١)أستند إليه : ليدعو ذلك سلطانه إلى رب ^(٢)النعمة لديه ، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، في حال سعادته، وإقبال دولته، وفي حال تولّيها عنه وعُطلته . أمّا في حال إقبال الدولة عليه فإن يصحبه بقلبه دون بدنه ولا يتطلب صاحباً غيره ينتقل إلى صحبته ، ويستبدل بخدمته من خدمته ؛ ولا يحدث نفسه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه ؛ ولا أن يرتّب له جهة أخرى يجعله مقدّمة لأمر يترقّب : لما في ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدم وجوبه . وأما في حال أنصراف الدولة عن صاحبه ، فإنه لا يباينه مباينة المساعد للزمان عليه ، الموافق للقادير فيه ، ولا يخونُه عند حاجته إليه ، ولا يُضيع حقوقه عنده وصنائعه لديه ؛ ولا ينحاز بكليته إلى من أقبلت أمور السلطان عليه ؛ فإن ذلك

(١) في الضوء . أسند . وهى أوضح .

(٢) أى زيادة النعمة .

مما يدل على خُبث السجية ومقابلتها على الإحسان بالإساءة ، وأستعمال العقوق ،
وأطراح الحقوق .

ومنها مجانبة الإدلال . إذ الدالة على السلطان والرئيس من أعظم مصارع اتّلف ،
وأقرب الأشياء إلى زوال النعم ، ولأجلها هلك من هلك من بطانة السلطان وخاصته
وزرائه ؛ وفي قصصهم عبرة لمن أنعم النظر في تأملها . وعليه أن يعول في الاعتداد
بخدمته ونصائحه له على أشتهارها وظهورها ، ولا يفيض في تعديدها وذكرها ، ولا
يواصل التثقيب بأغراضه والإلحاف بأسئلته ، ولا يظهر التشحّب عند التقصّر به ،
ولا الغضب اتكالا على سالف خدمة ، وقليل حرمة ؛ وأن يتناسى ما أسلفه من
الخدمة والصحبة ، ويكون في كل حال عارفا بعوارفه ، معتدا بفواضله ، موجبا
الفروض له لاعايه ، فإن السلطان مجبول على أنفة النفس وعزّتها ، ولا يحتمل التنازل
لأحد : لتزيله الكلّ منازل الخدم والأرقاء ، وأعتقد أنه سبب النعمة السابغة على
الكافة ، وثقته بوجود العوض عمن يفقده من الأعوان والأصحاب ، ومناصرة الناس
على خدمته والانتساب إلى متابعتة لما يصلون إليه من الخطوة ، وينالونه من الجاه
والثروة . وإن كان في باطن حاله على خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والاعتداد وتلطّف
في بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمه كاتبا ، ولا لسانه مخاطبا ؛ فإن ذلك
إضرار على همة المصحوب ، ودلالة على إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة
وسُبُوغها ، والمِنَّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ
آماله ، وسداد أموره ، وسهولة مطالبه . وإذا زاده السلطان رفعة وتشريفاً ازداد له
تعظيما وتوقيرا . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل ما يئسّينه ، وإذا خصّه بأثرة
وتقريب أن يزيد الخاصة والعامة بشرا وإيناسا ، وإن آتهم بهفوة لم يأنه في إقامة
العُذر والاحتجاج على براءة الساحة إلى الغاية القصوى . بل يتوسط في ذلك ويسأل

من حُسْن الصَّفح والإقالة وجميل التَّغْمَد والعفو ما يجعل للإحسان وجهًا ، ولتَعَقُّبه للسخط سببا . فإنه إذا صدع بالحمجة في براءة الساحة ، فلا وجه لمعذرتة وفيه تكذيب لرئيسه ، وربما أدى إلى فساد ومُفَاقَّة .

ومنها التمسك بآداب الخدمة بالمواظبة عليها ، وصرف الاهتمام إليها ، إذ هي أعظم الذرائع إلى نيل الرتب وبلوغ المآرب ، والسبب الذي يقرب البُعداء ، ويرفعهم على أهل الوسائل والحُرم ، وذوى المَوَاتِ^(١) والخَلْدَمِ ؛ ويُعَمِّي عن كل شَيْن ، وَيُصِمُّ عن كل طعن . وما نال أحد عند السلطان مرتبةً إلا والمواظبة على خدمته سببها والمواصلة موجبها . وأولى الناس بلزوم السلطان تُكَّابُهُ الذين لا غنى به عن حضورهم ، في ليله ونهاره ، وأحيان شغله وفراغه : لأنه ربما بَدَّه ما يحتاج إلى استكفائه إِيَّاه وإسناده إليه ، وإن تأخر عنه في تلك الحال استدعى من مَوْجِدته واستَجَرَّ من لائمه مالا يُزِيلُه العذر إلا في المدة الطويلة . وَرُبَّمَا اضْطُرَّ لغيبته إلى احضار من يستكفيه ماعَرَضَ له وأدَّى ذلك إلى أصطناعه وتصويره في مقامه وإن كان لا يساويه في فضل ولا علم ولا غناء ، بخلاف ما إذا وجده مُسَارِعًا إلى أمثلته ؛ فإن ذلك يزيد في حُظوته ، ويدعو إلى استخلاص مودَّته .

فيجب عليه أن يَخْصَّ سلطانه من زمانه بالقسم الأوفر ، والنصيب الأغزر ، ولا يُؤْثِرَ نيل لذة عليه ، ولا بلوغ وَطَرٍ إذا أدى إلى تنكُّره ؛ فإن استطاع أن يوافقه على وقت يفرضه له يتمكن فيه من بلوغ أوطاره ، والوصول إلى مقاصده ، كان أحمد لعاقبته وأبلغ لقصده ، وأحسم لأسباب الائمة في غيَّته . ولا ينهمك في الملاذ أنهماك الآمن

(١) التغمد الستر من قولهم تغمده الله برحمته أى ستره .

(٢) جمع مائة — وهى الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحد الذي يُبقي فيه فضلة لعوارض السلطان ومهماته الحادثة في آناء الليل، وساعات النهار . فإن تعبته في صلاح زمانه وراحة سلطانه مستبقي لتعمته ، مستدع لزيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يتهيج بما أصلحه منها حتى ينظر في عواقبه ، ويسوس ما رُد إليه بالسياسة الفاضلة : قَلِيلٌ في غير ضعف ، ويشدُّ في غير عُنف ، ويعفو عن غير خور ، ويسطو من غير جور ، ويقرب بغير تدله ، ويبعد بغير نُكر ، ويخص في غير مجازاة ، ويعم في غير تضييع ، فلا يشقى به المِحَقُّ وإن كان عدواً ، ولا يسعد به وإن كان ولياً .

ومنها إذا حضريين يدعى سلطانه أو رئيسه في المجلس الخاص أو العام أن يعتمد مقابله بالإجلال والإعظام ، والتوقير والإكرام ، ولا يحمله تأكيد الخدمة وتطاول الصحبة على إهمال ذلك بل يحفظ رسمه ولا يغير عاداته .

ومنها أن يتخير لخطابه في الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلق سره فيها ، وفراغ باله ، وأنشراح صدره ، وارتفاع الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيه أمراً عائداً بانتظام سلطانه ، واستقامة زمانه ، داخلاً في مهمات أعماله التي متى أخرها نُسب إلى التقصير ، فيقدم الكلام فيها خف أو ثقل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره في أمر من الأمور ، فعليه أن يرعيه عينه ويُصِت إليه سمعه ، ويشغل به فكره ، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتى يستوعب ما يلقيه إليه ، ويحييه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت في حال إقباله عليه إلى غيره ، ولا يصغى إلى كلام متكلم ، ولا حديث متحدث ، حتى لو امتحنه باستعادة ما فاضه فيه وجده قد أحرز جميعه ؛ فإن التقصير في ذلك مما ينكره الملوك والرؤساء ، ويستدلون به على ضعف المخاطب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالأعذار عنه : لئلا ينسب إلى التقصير بتأخيره عند الكشف عنه ؛ وإن كان فيه ما يخالف الصواب

أَمْضَاهُ ؛ وَإِنْ تَعَذَّرَ السَّبِيلُ إِلَى فِعْلِهِ لَمْ يَظْهَرِ التَّقَاعُصُ عَنْهُ لِتَخَطُّئِهِ ، بَلْ يَقَابِلُهُ بِالْأَسْتِصْوَابِ . ثُمَّ يَتَلَطَّفُ فِي تَعْرِيفِهِ مَكَانَ الْخَطِإِ فِيمَا رَأَاهُ .

وَمِنْهَا أَنْ يَجْرَى فِي الْحَالِ فِي مَجَالِسِهِ عَلَى مَا يَعُودُ بِوَفَائِهِ وَإِرَادَتِهِ . فَإِنْ مَالَ إِلَى الْإِنْبِسَاطِ أَطْلَقَ عَيْنَانَهُ فِيهِ إِطْلَاقَ الْمُتَجَنِّبِ لِلْهَجْرِ وَالْفُحْشِ ، وَرَفَثَ الْقَوْلِ تَابِعًا لِإِيثارِهِ ، قَاضِيًا لِأَوْطَارِهِ . وَإِنْ أَظْهَرَ الْإِقْبَاضَ ذَهَبَ مَذْهَبَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخَالِفَهُ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ ، فَإِنَّ مِنْ شُرُوطِ هَذِهِ الْخِدْمَةِ أَنْ يَتَصَرَّفَ صَاحِبُهَا فِي كُلِّ مَا يُصَرَّفُ فِيهِ ، وَيُسْرِعَ الْإِتْقِيَادَ إِلَى كُلِّ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ ، وَلَا يَكْثُرُ مِنَ الدَّعَاءِ لِرَأْسِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالشُّكْرِ عَلَى مَا يُولِيهِ مِنَ الْعَوَارِفِ فَإِنْ مِثْلُ ذَلِكَ يَسْتَثْقِلُ .

وَمِنْهَا أَنْ لَا يَحْضُرُ سُلْطَانَتَهُ فِي مَلَابِسِهِ الَّتِي جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَنْفَرِدَ بِهَا كَالْوَشْيِ وَنَحْوِهِ ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَشْرَفُ بِهَا ، وَأَنْ يَقْتَصِدَ فِي لِبَاسِهِ : فَيَنْحَطَّ عَمَّا يَلْبَسُهُ سُلْطَانَتُهُ وَيَرْتَفِعَ عَمَّا يَلْبَسُهُ السُّوقَةُ ، وَيَصْرِفُ عِنَايَتَهُ إِلَى التَّنْظُفِ وَالتَّعَطُّرِ ، وَقَطْعِ الرَّائِحَةِ الْكَرِيهِةِ مِنَ الْعَرَقِ وَغَيْرِهِ ، حَتَّى لَا تَنْقَعُ عَيْنُ رَأْسِهِ عَلَى دَنَسٍ فِي أَثْوَابِهِ ، وَلَا يَجِدَ مِنْهُ كَرِيهَ رَائِحَةٍ فِي حَالِ دَنْوِهِ مِنْهُ ؛ وَيُوَاضِلُ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبِ وَالْبَخُورِ الْفَائِقِ وَالتَّضَمُّنِ بِالْمَسْكِ ؛ فَإِنْ الْمُلُوكُ تَرَى أَنْ مَنْ أَغْفَلَ تَعَهُدَ نَفْسَهُ كَانَ لَغِيرِهَا أَشَدَّ إِغْفَالًا .

وَمِنْهَا أَنْ يَتَجَنَّبَ التَّفَاضُحَ وَالتَّعَمُّقَ فِي مَخَاطَبَةِ رَأْسِهِ ، وَالْإِفْتِخَارَ عَلَيْهِ بِالْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ : لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّرَفُّعِ عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ . بَلْ يَجْعَلُ مَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِ مِنْ أَلْفَافٍ تَدُلُّ عَلَى مَعَانِيهَا بِسَهُولَةٍ مَعَ غَضٍّ مِنْ صَوْتِهِ ، وَخَفِضٍ مِنْ طَرَفِهِ ، وَسُكُونٍ مِنْ أَعْضَائِهِ : لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَسَاحَرُ بِالْإِيتَانِ بِالْفَصَاحَةِ وَالذَّهَابِ بِمَذْهَبِ الْحَزَّالَةِ لِلْخُطْبَاءِ الَّذِينَ يُنْتَوْنَ عَلَى الْمُلُوكِ فِي الْمَوَاقِفِ الْعَامَّةِ ضَرُورَةً أَحْتِيَاجَهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ أَلْفَافٍ تَقَعُ فِي الْإِسْمَاعِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ .

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يُجمل القول في خاصته وعامته ، ويحسن الوساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنب القدح عنده في أكفائه ونظرائه من بطانته ، والمقرين من حضرته ، ليكون ذلك داعياً إلى محبته والثناء عليه مكافأة له وإمسالك الألسن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشير فيه ، ويورده إيراد مستفيد لا مفيد ، ومتعلم لا معلم ، ويتلطف في أن يوقعه من نفسه موقعا يدعو إلى العمل به . فإن من عادة الملوك والرؤساء الأنفة من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة ؛ وإن تمكن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادعة بذلك لنفسه الأبية وعزته المتعاسة .

الضرب الثاني

(آداب عشرة الأكفاء والنظرَاء)

قال علي بن خلف : ولا شك أن طريقة الاعتدال في ذلك الموافاة في الإخاء ، والمساواة في الصفاء ، ومقابلة كل حالة بما يُضاهيها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاء عن قصر ، والمحافظة على ود من قرط ، فلا خلاف في فضله والتمدح بمثله ، لا سيما لمثل أهل هذه الصناعة التي يرتفع حق الاعتراء اليها عن حقوق القربات الدانية ، والأنساب الراسخة . ولذلك وقع في كلام بعضهم « الكتابة نسب » . قال علي ابن خلف : والمعنى فيه أن التناسب الحاصل بين أهلها تناسب نفساني لا جسماني ، يحصل عن تناسب الصور القائمة في نفوسهم بالقوة ، وعن تناسبها بعد خروجهما وظهورها من القوة إلى الفعل ، بدليل ما نراه من اتفاق خواطرهم على كثير من المعاني التي يستنبطونها ، وتواردتهم فيها . ولولا تناسب الغرائز وتشابهها ، لم يكن أن يتواطئوا في أكثر الأحوال على معانٍ متكافئة متوافية .

قال : « وإذا كنا نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب الجسمية التي لاتعارف بينها فأولى أن نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب : « الكتابة نفسٌ واحدة تجزأت في أبدان متفرقة » . وقال : لآبرة بما يقع بين بعضهم من التنافر والتباين ، لأن المناسبة إنما تقع عند المساواة . أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصر حاسدا لمن فوقه ، للتقصير الذي فيه » .

وبكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم ، ويحفظ مناسبتهم ، ويتوَّخى مناسبتهم ، ويتلقاهم بالإكرام والتميز ، ويجعلهم في أعلى المراتب عنده ، ويزيدهم على الإنصاف ولا يقصرهم عما يستوجبونه ويستحقونه ، ويتخول بمثل ذلك نظراءه في الرياسة من غير الكُتَّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلى ملتصقهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل في المستقبل ، وأجتهد في الوفاء به .

الضرب الثالث

(آداب عشرة الأتباع)

قال علي بن خلف : وهي لاحقة بعشرة الأكفاء : لأن الذين يستعين بهم الكاتب يُدْعَوْنَ كُتَّابًا ولا يُدْعَوْنَ أَعْوَانًا ، وإنما الأعوانُ خُدَّامُ الشرطة ومن يجرى مجراهم . قال : « وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءوسيه وأتباعه ، فاسم الكتابة يجمع بينهم وبينهم ، ومعاشرتهم داخلية في باب التكرم ، والتفضيل ، والاستئثار بحاسن الأفعال ومكارم الشيم » .

ثم قال بعد ذلك : « وينبغي أن يخصَّهم بالنصيب الأوفر ، من إكرامه ، والقسم الأغزر ، من ملاحظته وأهتمامه ، ويفرض لهم من التقديم والاختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذي يتهدى إليه أمل المروء من الرئيس : ليجعل خدمتهم له بذلك خدمة مِقة ومودة، لا خدمة خوف ورهبة ؛ وأن يحب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ؛ وإنالهم من الترفيه في بعض الأوقات ما يجدون به السبيل إلى الأخذ بنصيب من لذاتهم وأوطارهم التي تميل النفوس إليها، وتنافت عليها ؛ فإنهم متى لحقهم التعب والنصب ، أعترضهم الضجر والمَلال ، فقصروا في الأعمال ، وتهاونوا بالأشغال ؛ فلا بد لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكلال ، ولا يفسح لهم في مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يحمل على سوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يحفظ لهم حقوق الصُحبة والخدمة ويوجد لهم من الإعانة ما فيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبدُهم بذلك ويستخلص مودتهم إذ القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها .

الضرب الرابع

(آداب عشرة الرعية)

قال ابن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاض بالسلامة . إذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ، ونفورهم عنه ، وإن علت عند السلطان رتبته ، وأرتفعت طبقته ، وظن بنفسه الاستغناء عنهم" . قال : "فينبغي أن يوفر^(١) العناية على استصلاحهم له ، واستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووطأة الكد ، وخفض الجناح ، والبسط والإيناس وتأليفهم : كما يوفرها على استصلاح السلطان وسياسته ، لتصح له رتبة التوسط بين الطبقتين ، ويسلم من طعن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويبرأ من البغض والشحناء ، وينقلهم عما تسرع إليه الطباع الرديئة :

(١) أى ديانة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلى التألف والمودة . وقد أذب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

الضرب الخامس

(آداب عشرة من يُمْتُ إليه بحُرْمَةٍ ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدِلُّ بحقِّ
المُفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة في الصِّبا ، والصدقة
بين الآباء وغير ذلك من الحُرْم التي لا يَطْرَحُهَا أَهْلُ المروءات)

قال ابن خلف : ”وينبغي أن يوفيه حقوقهم ، وينهض بما يستحق من أوطارهم ومهماتهم ، ويعينهم على ما يحدث من نوائب زمانهم ، ويسعد في بلوغ مطالبهم من سلطانهم ، ولا يرضن عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُخَيِّبَ أَمَلِهم ولا قَصْدَهُ ، ويفرض لهم من إذعانه وأعتنائه ما يعز جانبهم ، ويسمل مآربهم ، ويكف الضيم والظلم عنهم ، ويسط العدل والإنصاف عليهم . فإنه إذا التزم ذلك لهم التزموا له الإعظام والإجلال ، وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والاعتداد بأياديه ، وأشاعوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا له مودتهم وتعصبهم له“ .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكما لها أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتها الذين فتحوا أبوابها ، ودلّوا سبلها ، وسهلوا طرقها ، ويعاملهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرها ، وأتعبوا فيه روياتهم فيترهم منازلهم ولا يتخسهم حقوقهم . فمن آفات هذه الصنعة على ذوى الفضل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادعاء منزلة المبرز بل لا يعفيه من ادعاء التقدم في الفضل عليه ، والمبرز في الفضل لا يقدر على إثبات نقص المتخلف ﴿والله يعلم المُقْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليه، ويُنْبِئُهَا الذى تَفَجَّرَتْ منه، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، التى كتبها إلى الكُتَّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حَفِظَكُمُ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكُتَّابَةِ، وَحَاطَكُمُ وَوَفَّقَكُمُ وَأَرْشَدَكُمُ ! فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ؛ وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سُوءًا، وَصَرَّفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصِّنَاعَاتِ، وَضُرُوبِ الْمَحَاوَلَاتِ إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ، وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ ؛ بِفَعْلِكُمْ مَعْشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلَ الْأَدَبِ، وَالْمُرُوءَةِ، وَالْعِلْمِ، وَالرَّوَايَةِ . بَلَّغْتُمْ لِلْخَلِيفَةِ مَحَاسِنَهَا، وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا ؛ وَبِنَصَائِحِكُمْ يَصْلَحُ اللهُ لِلخَلْقِ سُلْطَانُهُمْ، وَتَعْمُرُ بِلَادُهُمْ . لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ، وَلَا يَوْجِدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ ؛ فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ، وَأَبْصَارُهُم الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ، وَأَلْسِنَتُهُم الَّتِي بِهَا يَنْطَقُونَ، وَأَيْدِيهِم الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ . فَأَمَتَّكُمْ اللهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ ! وَلَا تَزَعْ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ ! .

وليس أحدٌ أَحْوَجَ إِلَى أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ، وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ، مِنْكُمْ أَيُّهَا الْكُتَّابُ، إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثِقُ بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ، فَهِيمًا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، وَمِقْدَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ، وَمُحْجَاً فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ^(١)، مُؤَثِّرًا لِلْعَفَافِ، وَالْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ، كَتُمُوا لِلْأَسْرَارِ، وَفِيًّا عِنْدَ الشَّدَائِدِ، عَالِمًا بِمَا يَأْتِي مِنَ النَّوَازِلِ؛ وَيَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالطَّوَارِقَ أَمَا كُنْهَا . قَدْ نَظَرْتُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعُلُومِ فَأَحْكَمْتُهَا، فَإِنْ لَمْ يُحْكَمْهَا أَخَذْتُ مِنْهُ بِمِقْدَارِ يَكْتَفِي بِهِ . يَعْرِفُ بَغَرِيْزَةَ عَقْلِهِ، وَحُسْنَ أَدَبِهِ، وَفَضْلَ تَجَرُّبَتِهِ، مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وَرُودِهِ

(١) فى غير هذا الكتاب ومجملها .

وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتناقسوا يا معشر الكتاب، في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين؛ وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم .

ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها؛ وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج؛ وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها، وسفساف الأمور ومحآقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب؛ ونزهوا صناعتكم عن الدنآآت، وآريؤا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابؤا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصؤا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فأعطفؤا عليه ووأسؤه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وأستظهروا بفضل تجربته، وقدم معرفته . وليكن الرجل منكم على من أصطنعه وأستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه . فان عرضت في الشغل محمدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فان العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء؛ وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه الرجل، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، وأحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سره، وتديير أمره، ما هو جزاء لحقه . ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والأضطراب إلى مآلديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء، والشدة، والحرمات،
والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من
أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله
وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقا،
وللظلم منصفًا، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل
حاكما وللاشراف مكرما، وللنفى موقرا، وللبلاد عامرا، وللرعية مثاقفا، وعن
أيديهم متخلفا؛ وليكن في مجلسه متواضعا حلما، وفي سبيلات خراجها، وأستقضاء
حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلأقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها
أعانه على ما يوافق من الحسن وأحال لصرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة،
وأبجل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة
أخلاقها، فإن كانت رموحا لم ينجها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقأها من قبل
يديها، وإن خاف منها شرودا توقأها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق
هواها في طريقها، فإن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف
من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره
من الناس وينظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أو لى بالرفق بصاحبه، ومداراته،
وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم
خطابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . ألا فامعنوا رحمكم الله
في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهموه
النبوة، والاستثقال والحقوة؛^(١) ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة
والشفقة إن شاء الله تعالى .

(١) كذا في الأصل . ولعل ثبوت الباء قبل الراء من زيادة النسخ

ولا يحاوزنَّ الرجلُ منكم في هيئةِ مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه
 وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حقه . فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف
 صنعتكم خدمة لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تُحْتَمَل منكم أفعال
 التضييع والتبذير : وآستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته
 إليكم . وأحذروا متآلف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنهما يُعْقِبَان الفقر ويُدْلَان
 الرقاب؛ ويفضّحان أهلها ولا سِيَّ الكُتَّاب، وأرباب الآداب؛ وللأمر أشباه
 وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتلف أفعالكم بما سبقت إليه تجربتكم؛
 ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوصحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدها عاقبة .

وأعلموا أن للتدبير آفةً مُتَلِفَةً — وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله
 ورؤيته؛ فليقتصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته، وليؤخر في آبدائه
 وجوابه؛ وليأخذ يجمع حُججه؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن
 إكثاره . وليضرع إلى الله في صلة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط
 المضرب بدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظاناً، أو قال قائل، إن الذي برز من
 جميل صناعته وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تديره، فقد تعرّض
 بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف،
 وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مُرَافقه في صناعته
 ومُصاحبه في خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الأبواب مَنْ رُمى بالعُجب وراء
 ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحد في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين
 أن يعرف فضل نعم الله جلّ شأؤه من غير اغترار برأيه، ولا تركية لنفسه، ولا تكاثر

على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيرته، وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته“ .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل (من يلزم الصحة يلزمه العمل) وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه ، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرًا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ! فإن ذلك إليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع

من المقدمة

فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه فى الإسلام،

وتفرقه بعد ذلك فى الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(فى التعريف بحقيقته)

لا خفاء فى أنه أسمٌ مرَّكبٌ من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للموضع الذى يجلس فيه الكُتَّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس فى صناعة الكتاب ”وفتحها خطأ“ قال : ”وأصله دِوَان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان“ ويجمع على دواوين . وأختلف فى أصله ، فذهب قوم إلى أنه عربى . قال النحاس : ”والمعروف فى لغة العرب أن الديوان الأصل الذى يرجع إليه ويُعمل

بما فيه“ ومنه قول ابن عباس : « إذا سألتُموني عن شيءٍ من غريب القرآن فالتمسوه في الشَّعر فإنَّ الشَّعرَ ديوانُ العَرَبِ » . ويقال دَوْنَتُهُ أى أثبتته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلى أنه عجمي وهو قول الأَصمعيّ وعليه أقصر الجوهريّ في صحاحه ، فقال الديوان « فارسيّ معرّب » . وقد حكى الماورديّ ” في الأحكام السلطانية “ في سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما — أن كسرى ذات يوم أطلع على كُتَّابِ ديوانه في مكانٍ لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال ”ديوانه“ أى مجانين فسمي موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، فقل ديوان وعليه أقصر أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب .

والثاني — أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمي الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجليّ منها والخفيّ .

وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه وأخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتل أمرين :

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتُبتدأ منه .

والثاني — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمّها ، وربما قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الاسم وشهر به واستمر عليه إلى الآن .

الفصل الثاني

(في أصل وضعه في الإسلام وتفريقه عنه بعد ذلك في الممالك)

إعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة؛ رضوان الله عليهم! ويكتبونه. وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام؛ وبعث إليهم رسله بكتبه: فبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك الفرس، ودحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر، وسليط بن عمرو إلى هوزة بن علي ملك اليمامة، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين إلى غير ذلك من المكاتبات. وكتب لعمر بن حزم عهداً حين وجهه إلى اليمن. وكتب لقيم الدارمي وإخوته بإقطاع بالشام. وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قریش عام الحديبية. وكتب الأمانات أحياناً إلى غير ذلك مما يأتي ذكره في الاستشهاد به في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش، فإن أول من وضعه وربته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته.

على أن القضاعي قد ذكر في تاريخه "عيون المعارف". وفنون أخبار الخلائف "أن الزبير بن العوام، وجههم بن الصلت كانا يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم أموال الصدقات، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له حرص النخل، وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات. فان صح ذلك فتكون هذه الدواوين أيضاً قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنها ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه صلى الله عليه وسلم: كما تقدم من متعلقات كتابة الإنشاء.

وقد رأيت في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم نيف وثلاثون كاتباً : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وأبان أخوه ، وسعيد أخوهما ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وحنظلة بن الربيع الأسدي ، وأبي بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وزيد بن ثابت ، وشريحيل بن حسنة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن زيد ، وجهم بن الصلت ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن رباح ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ، ومعيقب بن أبي فاطمة ، وطاحه بن زيد بن أبي سفيان ، والأرقم بن الأرقم الزهري ، والعلاء بن عتبة ، وأبو أيوب الأنصاري ، وبريدة بن الحصيب ، والحصين بن نمير ، وأبو سلمة الخزومي ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب ، وحاطب بن عمرو ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان ألزمهم له في الكتابة معاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت .

وكتب لأبي بكر عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وعثمان هو الذي كتب عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة عن أبي بكر رضوان الله عليه كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضي الله عنه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن خلف .

وكتب لعثمان رضي الله عنه مروان بن الحكم .

وكتب لعلي رضي الله عنه بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسعيد ابن نجران الهمداني .

وكتب للحسن بن عليّ رضي الله عنهما عبدُ الله بن أبي رافع كاتب أبيه .

ثم كانت دولة بني أمية فتوات خلفاؤهم من معاوية بن أبي سفيان فبن بعده ، وأمر ديوان الإنشاء في زمن كل أحد مفوضٌ إلى كاتبٍ يُقيمه إلى حين أنقراض دولتهم . وكان الخليفة هو الذي يوقع على القصص ويُحدثها بنفسه ، والكاتب يكتب ما يبرز إليه من توقيعه ويصرفه بقلمه على حكمه . وكان ممن اشتهر من كتّابهم بالبلاغة وقوة الملكة في الكتابة حتى سار ذكره في الآفاق ، وصار يضرب به المثل على ممت الأزمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم .

فلما بزغت شمس الخلافة العباسية بالعراق وولي الخلافة أبو العباس السفّاح أول خلفاء بني العباس ، استوزر أبا سلمة الخلال . وهو أول من لقّب بالوزارة في الإسلام على ما سيأتي ، وتواتت الوزراء بعده لخلفاء بني العباس من يومئذ . وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلى الوزارة ، فيكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بقلمه ، ويتولى أحواله بنفسه ، وتارة يُفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بكلامه ، ويصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها ، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشي على ما يليق إليه من توقيعه ، وربما وقع الخليفة بنفسه حتى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبني ساجوق وغيرهم على الأمر والأمر على ذلك تارة وتارة إلى أنقراض الخلافة من بغداد . وكان ممن اشتهر من وزراءهم بالبلاغة حتى صار يضرب به المثل يحيى بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون ، وأبن المقفع مترجم كتاب "كليلة ودمنة" ، وسهل بن هرون الذي ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل ابن العميد ، والصاحب كافي الكُفّاء إسماعيل بن عبّاد ، وأبو إسحاق الصابى في جماعة آخرين منهم .

ثم لما أنقرضت الخلافة من بغداد في وقعة هولاكو ملك التتار في سنة (ست وخمسين وستمائة) وأستولت المغل والأعاجم على بغداد ، بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكتب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية ؛ والأمر على ذلك إلى زماننا على ماسياتي بيانه في الكلام على دواوين الأمصار في المكاتبات والولايات وغيرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت بلاد الغرب والأندلس بأيدي نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامي في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولا عناية لهم بديوان الإنشاء للتقرب من البداوة ، وغايته المكاتبه إلى ديوان الخلافة ونحو ذلك ؛ فلما غلب بنو العباس على الخلافة هرب طائفة من بني أمية إلى بلاد المغرب ، وجازت البحر إلى الأندلس فآثروا من التواب الذين كانوا به وملكوه ، وصاروا ينصبون فيه خليفة بعد خليفة ، جارين على سنن ما كانوا عليه بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين خلافة بني العباس ببغداد : من إقامة شعار الخلافة ، واتخاذ ديوان الإنشاء ، واستخدام بلغاء الكتاب وتعدت دولتهم إلى بر العدو من بلاد المغرب فحكوه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المستوليين المستبدين عليهم بالأمر إلى أن أنقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب ، وأستولت عليهما طوائف من الملوك وتقلت بهم الأحوال في استيلاء الملوك على كل ناحية منهما ، وتتابعت الدول في كل حين كلما خبت دولة نجت أخرى على ما سأتى ذكره في مكاتبات ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحضارة والبداهة ، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشاء ؛ وإذا استحضرت الدولة صرفت آهاتها إلى ديوان الإنشاء وترتيبه إلى أن استقر ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعت الفرج منه بأيدي بني الأحمر ، والغرب الأقصى بيد بني مرين ،

والغرب الأوسط بيد بنى عبد الواد، وإفريقية بيد بقايا الموحدین من أتباع المهديّ
آبن تومرت؛ وداخلتهم الحضارة، فأخذوا في ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك،
ومعانة البلاغة في المكاتبات ونحوها؛ وأستمر الحال على ذلك إلى زماننا .

ومن أشهر بالبلاغة من كُتّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زيدون،
والوزير أبو حفص بن برد الأصفر الأندلسي، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم،
والوزير أبو القاسم محمد بن الحدي في جماعة أخرى من متقدمي كتابهم . ومن متأخريهم
عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن المتيني، وأربى على كثير من المتقدمين آبن
الخطيب وزير آبن الأحمر صاحب غرناطة من الأندلس ممن أدركه من عصرناه .

أما الديار المصرية فلديوان الإنشاء بها خمس حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة
الطولونية، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةً بديوان
الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار على المكاتبات لأبواب الخلافة، والترز
اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدر عنهم ما يؤدون في الكتب ولا
يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية
أحمد بن طولون، وأستفحال مُلك الديار المصرية في الإسلام، وترتيب أمرها، وإلى
حين أقراض الدولة الاخشيدية؛ وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها، وأنتظم
أمر المكاتبات والولايات؛ وكان ممن أشهر من كُتّابهم بالبلاغة وحسن الكتابة،
أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود بن عبد : كان كاتب أحمد بن طولون، وكان
مبدأ الكُتاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمأرويه بن أحمد بن طولون إسحق بن
بصر العبادي النصراني، وتوالى الكُتاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة — ما كان الأمر عليه من ابتداء الدولة الفاطمية وإلى انقراضها .

ولما ولي الفاطميون الديار المصرية ، صرّفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتبه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم : ما بين مسلم وذمى ؛ فكتب للعزیز بالله ابن المعز أبو المنصور بن سوردین النصرانی ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر البهزكي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر . وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى . وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة الحلبي إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرأسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجد المبصرى المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودى . ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق ابن الحلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ؛ وبه تخرج القاضى الفاضل البيسانى . ثم شرك العاضد مع الموفق ابن الحلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محمود بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤتمن كاسيويه . ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق ابن الحلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم .

الحالة الرابعة — ما كان الأمر عليه من ابتداء دولة بنى أيوب إلى آخر

انقراضها .

قد تقدّم أن القاضي الفاضل رحمه الله كان قد كتب بين يدي الموفق ابن الخلال في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبني العباس على ما تقدّم في الكلام على ملوك مصر، فوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا ، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين ، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبي بكر . ثم مات ، وكتب للكامل بن العادل القاضي أمين الدين سليمان المعروف بكتاب الدرج إلى أن توفى ، فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة ، وتوالت كتاب الإنشاء في الولاية إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب فولّى ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهيرا . ثم صرفه وولّى بعده صاحب نحر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعدي ، فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية .

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه في الدولة التركية مما هو مستقر إلى الآن .
قد تقدّم أن صاحب نحر الدين بن لقمان بقى في ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية .

ولما صارت المملكة إلى الدولة التركية ، بقى في صحابة ديوان الإنشاء أيام أبيك التركمانى ، ثم أيام المظفر قطز ، ثم أيام الظاهر بيبرس ، ثم أيام المنصور قلاوون . فباشر ديوان الإنشاء في أيامه مدّة ، ثم نقله إلى الوزارة ، وولّى مكانه بديوان الإنشاء القاضي فتح الدين بن القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر في حياة والده ، فبقى حتى توفى المنصور قلاوون ، واستقر بعده ابنه الأشرف خليل ، واستمرّ عنده في كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معه إلى الشام ، فمات بالشام فولّى الأشرف مكانه القاضي تاج الدين أحمد بن الأثير ، وقفل السلطان راجعا إلى مصر ، فمات

القاضي تاج الدين في أثناء الطريق بمضى شهر من ولايته ، فوئى مكانه القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الأولى ، وأيام العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاجين ، وأيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثانية ، وأيام المظفر بيبرس الجاشنكير ، وبرهة من أيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثالثة .

ثم نقله إلى كُتّاب السرب دمشق المحروسة عوضاً عن أخيه القاضي محي الدين بن فضل الله ، ووئى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعده منه حين كان معه في الكرك ، وبقي حتى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فاستدعى الملك الناصر القاضي محي الدين بن فضل الله من الشام ، فولّاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية في المحرم سنة تسع وعشرين وسبعائة .

وكان ولده القاضي شهاب الدين هو الذى يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات إلى سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة فأعادهما الملك الناصر إلى دمشق ، ووئى مكانهما القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود في شعبان من السنة المذكورة ، فبقي حتى حج السلطان وعاد إلى مصر ، فأعاد القاضي محي الدين ولده القاضي شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعائة .

وفي أواخر ذلك تغير السلطان على القاضي شهاب الدين المذكور وصرفه عن المباشرة وأقام أخاه القاضي علاء الدين مكانه يباشر مع والده ، وبقي الأمر على ذلك مدة لطيفة .

ثم سأل القاضي محي الدين السلطان في العود إلى دمشق ، وقد كبرت سنه وضعفت حركته ، فأعاده وصحبته ولده القاضي شهاب الدين وكتب له تقليد في قطع

الثَّلاثِينَ : بأن يستمر على صحابة دواوين الإنشاء بالملك الإسلامية ، وأن يكون جميع المباشرين لهذه الوظيفة بالبواب الشريف فمن دونه نوابه ، وأنه حيث حلّ يقرأ القصص والمظالم ، ويقرر الولايات والعزل والرواتب وغير ذلك ، ويوقع فيها بما يراه ، ويُجهز إلى مصر ليعلم عليها العلامة الشريفة ؛ وفوض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضي علاء الدين استقلالاً ، وتجهز القاضي محي الدين للسفر ، فمضى ومات بعد أيام قلائل في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعائة بالقاهرة . ثم نُقل إلى دمشق سنة تسع ، وبقي ولده القاضي علاء الدين فبقى في الوظيفة بقية أيام الملك الناصر ، ثم أيام ولده المنصور أبي بكر ، ثم أخيه الأشرف بك ، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خلع الناصر أحمد نفسه في سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلى الكرك ، توجه القاضي علاء الدين معه ، فأقام عنده ؛ وأستقر الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون في السلطنة بعد أخيه أحمد ، فمقرّر في ديوان الإنشاء القاضي بدر الدين محمد بن محي الدين بن فضل الله ، فبقى في الوظيفة إلى أن عاد أخوه القاضي علاء الدين من الكرك ، فأعيد إلى منصبه ، وبقي بقية أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيام أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفر حاجي ، ثم أيام أخيه الناصر حسن في سلطته الأولى ، ثم أيام أخيه الصالح صالح ، ثم أيام الناصر حسن ثانياً ، ثم أيام المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون قُوتق ؛ وولى الوظيفة بعده ولده القاضي بدر الدين محمد ، فبقى بقية أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور علي ، ثم أيام أخيه الصالح حاجي بن شعبان إلى أن خلع ؛ وجاءت الدولة الظاهرية برقوق فمقرّر في ديوان الإنشاء القاضي أوحّد الدين عبد الواحد بن التركماني ، فبقى حتى توفى فأعيد القاضي بدر الدين

المذكور وبقى حتى خلع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجي بن الأشرف شعبان إلى السلطنة وهو مستمر المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكرك حضر معه القاضي علاء الدين علي الكركي ، فولاه كتابة السر وبقى حتى توجه صحيفة السلطان إلى الشام في طلب منطاش ، فمات القاضي علاء الدين ، وكان القاضي بدر الدين صعبته فأعيد إلى الوظيفة في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد موالي صحيفة الركاب الشريف السلطاني . ثم توجه صعبته إلى الشام عند وصول تمر لبغداد ، فمضى ومات هناك ، فولى الظاهر مكانه القاضي بدر الدين محمود السراي الكسستاني في شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وحضر صحيفة الركاب الشريف إلى الديار المصرية ، فبقى حتى توفى في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة ، فولى الظاهر مكانه المقر العالى الفتحي فتح الله ، ففتح الله به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مغلقا ، وأصغى به من ورده ما كان مكذرا .

وأنقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلى ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم على عادة أبيه . ثم صرفه عن الوظيفة في شهور سنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه في الوظيفة المقر السعدى إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله في وظائف الديار المصرية والمشار إليه . وأقام بها مدة لطيفة ، وعادت إلى المقر الفتحي فتح الله المشار إليه ، وقيل : (هَذِهِ بَصَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا) بفرى فيها على الأسلوب الأول والمهيج السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلى الخلق ، وإيصال البر إلى مستحقه ، والمساعدة في الله لمن عرف ومن لم يعرف ، والله هو الكافى لعباده على جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَمْ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ * لَنْ يَذْهَبَ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

الباب الخامس

من المقدمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

(في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله
ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث)

أما رفعة محله وشرف قدره، فأرفع محل وأشرف قدر؛ يكاد أن لا يكون عند الملك
أخص منه ولا أزم لمجالسته؛ ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل
زمن، مقدماً لديهم على من عداه: يُلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم،
ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل والولد، وناهيك
برتبة هذا محلها !

قال صاحب مواد البيان " ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته
أخص من كاتب الرسائل . فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له
عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء اليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله
وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات
مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته وثقت به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب
رُكُونَه إليه، ومحلّه منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محلّ قلبه الذي يؤامره في مشكل
رأيه حتى يتنقح، ويراجعه في مهمّ تديره حتى يتضح؛ ولسانه الذي يقرر بترغيه
أولياءه على الطاعة والموافقة، ويستقر بترهييه عن المعصية والمشاققة، ويقر بأوامره

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف عن يقرر . أو يستقر كما يقتضيه المقام .

ونواحيه أمور سلطانه، ويُتْرَافُ منازلها في متمدن مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعمارة بلاده، ومصالحة رعيته، واجتلاب مودتهم، واستخلاص نياتهم؛ وعينه التي تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرعى بها مهمات شأنه؛ وأذنه التي يثق بما وُعدته، ولا يرتاب بما سمعته؛ ويده التي يسطرها بالإنعام، ويبطش بها في النقض والإبرام .

قال : ومن كانت هذه رتبته فالسبب الذي رتبته فيها أفضل الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والاستيجاب .

قال ابن الطوير في ترتيب الدولة الفاطمية " وكان هذا المنصب لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة، ويُخاطب بالأجل، وإليه تسلم المكتبة واردة مختمة فيعرضها على الخليفة من يده؛ وهو الذي يأمر بتزليلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالي؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره " . قال "وهو أول أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاض والمُسند، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دوائه أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة " .

قلت : ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة، ومحلّه أعظم محل؛ إليه تلقى أسرار المملكة وخفائها، وبرأيه يُستضاء في مشكلاتها. وعلى تديره يعول في مهماتها، وإليه ترد المكتبات، وعنه تصدر؛ ومن ديوانه تُكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعُه على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان؛ وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير في منزله حتى ما يُكتب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من المُرَبَّعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرّض لأخذ علامة سلطانية البتّة، وناهيك بذلك رفعةً وشرفاً باذخاً .

وأما لقبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا فى زمن بنى أميّة وما قبله يعبرّون عنه بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك كما أشار اليه القضاعى فى "عيون المعارف" . فلما جاءت الدولة العباسيّة، واستقر السّفاح أوّل خلفائهم فى الخلافة، لُقّب كاتبه أبا سلمة الخلال بالوزارة وترك اسم الكاتب؛ واستقر لقب الوزارة على من يليها من أرباب السيوف والأفلام إلى انقراض الخلافة من بغداد . وتقدّم أيضاً أن هذا الديوان كان تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوضه إلى من يتحدّث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيث انفرد عن الوزارة لُقّب متوليه بما يتضمّن إضافته إلى صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهوراً بديوان الرسائل، كما كان فى الزمن الأوّل، لُقّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولّى ديوان الرسائل، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات، أو متولّى ديوان المكاتبات، وحيث كان الديوان مشهوراً بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصريّة لُقّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيماً لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلاميّة . وعلى هذا مصطلح كُتّاب الديوان فى زماننا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليد أو غيره؛ على أنه لو قيل ناظر دواوين الإنشاء لكان أعلى فى الرتبة لما اشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلى من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطميّة بالديار المصريّة كاتب الدّست" .

قلت : وأتتهى الأمر إلى أوائل الدولة التركية والحال في ذلك مختلف ، فتارة إلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بـ **كاتب الدست** ، وربما عُبِّر عنه بـ **كاتب الدرج** ، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بـ **كُتَّاب الدست** . ويقال إنهم كانوا في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر ، أرفعهم درجةً القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر . وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون على ما تقدّم ذكره ، فُلِّقَ بـ **كاتب السر** ، ونقل لقب **كاتب الدست** إلى طبقة دُونَهُ من كُتَّاب الديوان . واستمر ذلك لقباً على كل من ولى الديوان إلى زماننا على ما سياتى ذكره . ويضاهيه في ذلك من الأعراف العام متولى ديوان الإنشاء بدمشق ، وبحلب ، وبطرابلس ، وبجماه ، وبصَفَد ، إلا أنه لا يقال في واحد منهم في مصطلح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال في متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ؛ بل يقال في متولى ديوان دمشق صاحب ديوان الإنشاء بالشام ، وفي متولى ديوان حلب صاحب ديوان المكاتبات بحلب ، وكذا في الباقيات . أما غَزَّة ، والكرك ، والإسكندرية وغيرها من النيابات الصّغار فإنما يقال في متولى شئ من دواوينها كاتب درج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

وأعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السّرِّيم فيقولون **كاتب السر** ، وهو صحيح المعنى ؛ إما لأنه يَكْتُم سرّ الملك ، أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة وإن كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصل الثانى

(في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى في مقدمة تذكرته : ” يجب أن يكون صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، رفيحاً في حيّه ، وقوراً ، حليماً

مؤثراً للجد على الهزل، كثير الأناة والرفق، قليل العجلة والخرق، نزر الضحك، مهيب المجلس، ساكن الظل، وقور النادى، شديد الذكاء، متوقد الفهم، حسن الكلام إذا حدث، حسن الإصغاء إذا حدث، سريع الرضا، بطيء الغضب، رؤوفاً بأهل الدين، ساعياً في مصالحهم، محباً لأهل العلم والأدب، راغباً في نفعهم؛ وأن يكون محباً للشغل أكثر من محبته للفراغ، مقسماً للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءاً منه حتى يستوعبه في جميع أقسامها، ملازماً لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازماً للديوان إذا لم يكن الملك جالسا : ليتأشى به سائر كتاب الديوان، ولا يجحدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم ؛ وأن يغلب هوى الملك على هواه ويرضاه على رضاه — ما لم ير في ذلك خلافاً على المملكة، فإنه يجب أن يهتدى النصيحة فيها للملك من غير أن يوجد فيه تقصير من رأيه فساداً أو نقصاً، لكن يتحلى لتقص ذلك وتهجينه في نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنٍّ وأفضل تطفٍ؛ وأن يتحلل الملك صائب الآراء ولا ينتحلها عليه؛ ومهما حدث من الملك : من رأي صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه ونغمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمده عليه وشكره . وإذا قال الملك قولاً في مجلسه أو بحضرة جماعة ممن يخدمه فلم يره موافقاً للصواب، فلا يجهمه بالرد عليه واستهجان ما أتى به — فان ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر إلى حين الخلو، ويدخل في أثناء كلامه ما يوضح به نهج الصواب من غير تلقى برد، ولا يتبجح بما عنده، ويكون مائلاً للملك على أخلاقه الفاضلة، وطباعه الشريفة : من بسط المعدلة ومد رواق الأمانة، ونشر جناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وجبر الكسير، والإنعام على المعتز المستحق، والتوفير على الصدقات، وعمارة بيوت الله تعالى، وصرف الهمم إلى مصالحها، والنظر في أحوال الفقهاء، وحمل كتاب الله العزيز بما يصلح، والاتفات إلى عمارة البلاد، وجهاد الأعداء،

ونشر الهيبة، وإقامة الحدود في مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها .
 فيكون لجميع ذلك مؤكداً، ولأفعاله فيه موطداً ممهداً . وإن أحسن منه بخلة تُنافى
 هذه الخلال، أو فعلة تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بالطف سعى وأحسن تدرّيج،
 ولا يدع ممكناً في تبين قبّحها، وإصلاح رداءة عاقبتها، وفصيلة مخالفتها إلا بينه
 وأوضحه إلى أن يعيده إلى الفضائل التي هي بالملك النبلاء أليق، وأن يكون مع
 ذلك بأعلى مكانة من اليقظة والاستدلال بقليل القول على كثيره، وبعض الشيء
 على جميعه، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء، بل الرمز والإيحاء: لينبه الملك
 على الأمور من أوائلها، ويعرفه خواتم الأشياء من مفتحاتها، ويحذّره حين تبدّوله
 لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بن برمك:
 "أنه كان مع خطبة في معسكر، جالسين في خيمة إذ نظر خالد إلى سرب من الأطباء
 قد أتى حتى كاذ يخالط العسكر، فأشار على خطبة بالركوب فسأله عن السبب،
 فقال الأمر أعجل أن أئين سببه . فركب وأركب العسكر، فلم يستثموا الركوب إلا
 والعدو قد دهمهم، وقد آستعدوا له فكانت النصرة لهم على العدو . فلما آتقضى
 الحرب سأل خطبة خالداً من أين أدرك ذلك؟ فقال: رأيت الأطباء وقد أقبلت حتى
 خالطت العسكر، فعرفت أنها لم تفعل ذلك مع نفورها من الإنس إلا لأمر عظيم
 قد دهمها من ورائها". وأن لا يكتب عن الملك إلا ما يقيم منار دولته ويعظمها،
 ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها . ولا يكتب ما يكون فيه عيب على المملكة:
 ولا ذم لها على غابر الأيام، ومستأنف الأحقاب؛ وإن أمر بشيء يخرج عن ذلك،
 تلطف في المراجعة بسببه، وبين وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به إلى الواجب .
 وأن يكون من كتمان السر بالمتزلة التي لا يُدانى فيها أحد، ولا يقاربه فيها بشر، حتى
 يقرّر في نفسه إمامة كل حديث يعلمه، ويتناسى كل خبر يسمعه . وأن لا يطلع والدا

ولا ولدا؛ ولا أخا شقيقا، ولا صديقا صدوقا، على ما دقَّ أو جلَّ؛ ولا يُعلمه بما كُثر منه ولا قلَّ؛ ويتوهم بل يتحقق أنَّ في إداعته ما يعلم به وُضِعَ منزلته وُحِطَ رتبته، ويجتهد في أن يصير له ذلك طَبْعاً مرغباً وأمرأ ضرورياً .

قلت : وهذه الصفة هي الشرط اللازم، والواجب المحتم : بها شهر، وبالإضافة إليها عُرِفَ . وقد قال المأمون وهو من أعلى الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علماً : ”الملوك تحتملُ كلَّ شيء إلا ثلاثة أشياء : القُدْحُ في الملك، وإفشاءُ السرِّ، والتعرُّضُ للحَرَمِ“ .

ومن كلام بعض الحكماء : ”سرك من دمك“ قال صاحب العقد : يعنون أنه ربما كان في إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مَحَجَّنَ الثقفى بقوله :
قد أظعنُ الطَّعنةَ النَّجلاءَ عَنْ عُرِيضٍ * وَأَكُتُمُ السَّرَّ فِيهِ ضَرْبُهُ الْعُنُقِ

وقال الوليد بن عتبة لأبيه : ”إن أمير المؤمنين أسرَّ إلىَّ حديثاً أفلا أُخبرك به ؟ قال يا بُنَيَّ : إِنْ مَنَ كَتَمَ سَرَّهُ كَانَ الْخِيَارُ لَهُ وَمَنْ أَفْشَاهُ كَانَ الْخِيَارُ عَلَيْهِ ؛ فَلَا تُكُنْ مَمْلُوكاً بَعْدَ أَنْ كُنْتَ مَالِكاً“ . وقد كانت ملوك الفرس تقول ”أعظمُ الناس حقاً على جميع الطبقات مَنْ وَلِيَ أسرار الملوك“ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ إِفْشَاءُ السَّرِّ بِمَا أَفْضَى إِلَى الْهَلَكَةِ خُصُوصاً أَسْرَارَ الْمُلُوكِ ، فعلى صاحب هذه الوظيفة القيامُ من ذلك بواجبه وكتْمُ السَّرِّ حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَقَدْ حَكِيَ صَاحِبُ ”الرَّيْحَانِ وَالرَّيْعَانِ“ : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ تَذَاكُرَ النَّاسَ فِي مَجْلِسِهِ حَفَظَ السَّرَّ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

وَمُسْتَوْدِعِي سِرّاً تَضَمَّنْتُ سَرَّهُ * فَأَوْدَعْتُهُ فِي مُسْتَقَرِّ الْحَشَا قَبْراً

فَقَالَ ابْنُهُ عُبَيْدُ اللَّهِ ، وَهُوَ صَبِيٌّ :

وَمَا السَّرُّ مِنْ قَلْبِي كَتَاوٍ بِحُفْرَةٍ * لِأَنِّي أَرَى الْمَدْفُونَ يَنْتَظِرُ الْحَشَرَ

وَلَكِنِّي أَخْفِيهِ حَتَّى كَأَنِّي * مِنْ الدَّهْرِ يَوْمَ مَا أَحْطَتْ بِهِ خَبْراً

وعلى صاحب هذه الرتبة الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك بأن لا يتلقاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : " لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحدا إلا خالياً فإنه أصون للسر وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أو ثقت من إفشائه إلى اثنين وإفشائه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رهن بما أفشى اليه . والثاني مطلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، وإذا كان السر عند واحد كان أخرى أن لا يظهره رغبة أو رهبة ، وإن كان عند اثنين كان على شبهة ^(٢) واتسعت عن الرجلين المعارضي ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن آتمهما آتهم بريئا بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه " .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدهما بحضرة الآخر لتكون العهدة في دركه على واحد بعينه . على أنه ربما أفشى السر مع احتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الحق تنقل الأخبار ، وتُفشى ما تطلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن علي بن الجهم أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين المتوكل فرأيت الفتح بن خاقان وزيره واقفا على غير مرتبته التي يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مطرقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلى ، وإذا صرفت وجهي إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لي الخليفة يا علي أنكرت شيئا ؟ - قلت نعم يا أمير المؤمنين ! - قال : ما هو ؟ - قلت : وقوف الفتح بن خاقان في غير منزلته ، - قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام ، - قلت :

(١) في الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .

(٢) لعل الأظهر على .

ما السبب يا أمير المؤمنين ؟ — قال : خرجت من عند جارية لي فأسررت إليه سرا
فأعداني السر أن عاد إلى . — قلت لعلك أسررت إلى غيره ، — قال : ما كان
هذا ! — قلت ففعل مستمعا أستمع إليك ، — قال لا ولا هذا أيضا . قال فأطرفت
ملياً ثم رفعت رأسي ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا . —
قال وما هو ؟ — قلت : خبر أبي الجوزاء ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين قال حدثنا
المعتمر بن سليمان عن أبي الجوزاء قال : طلقت امرأتى في نفسي وأنا بالمسجد ثم
أنصرفت إلى منزلي ، فقالت لي امرأتى : طلقني يا أبا الجوزاء ! قلت من أين لك
هذا ؟ قالت حدثتني به جارتى الأنصارية قلت : ومن أين لها هذا ؟ قالت ذكرت
أن زوجها أخبرها بذلك قال : فغدوت على ابن عباس رضى الله عنهما فقصةصت
عليه القصة فقال : أما علمت أن وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل ؟ فمن
هنا يفشو السر ، فضحك المتوكل ، وقال إلى يا فتى ! فصب عليه خلعة ، وحمله
على فرس ، وأمر له ببال ، وأمر لي بدونه فأنصرفت إلى منزلي ، وقد شاطرنى
الفتح فيما أخذ فصار إلى الأكثر .

قال أبو نعيم وكان في نفسي من حديث أبي الجوزاء شيء حتى حدثني حمزة
ابن حبيب الزيات . قال : خرجت سنة أريد مكة فبينما أنا في الطريق إذ ضللت
راحلتى فخرجت أطلبها فإذا أنا بأثنين قد قبضا على أحس حسهما ولا أرى شخصهما
بل أسمع كلامهما ، فأخذاني إلى شيخ قاعد وهو حسن الشيبة فسألت عليه فرد على
السلام فأفرخ روعي . ثم قال من أين وإلى أين ؟ قلت من الكوفة إلى مكة .
قال : ولم تخلفت عن أصحابك ؟ قلت ضللت راحلتى فجئت أطلبها ، فرفع رأسه
إلى قوم عنده ، وقال : أنيخوا راحلته ، فأنيخت بين يدي . ثم قال : تقرأ القرآن ؟

(١) في الأصول بالجمع وهو تصحيف . وصوابه بالحاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه . انظر القاموس .

قلت نعم . قال فافقرأ ، فقرأت حم الأحقاف حتى أتيت ﴿وإذ صرَفْنَا إِلَيْكَ فَرَآ مِنْ الْجَنِّ﴾ فقال مكانك ، أتدري كم كانوا ، قلت لا . قال كُتُأُ أربعة : وكنت أنا المخاطب عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ثم قال أقول الشعر ؟ قلت لا . قال فترويه ؟ قلت نعم . قال هاته ، فأنشدته قصيدة زهير بن أبي سلمى "أَمِنْ أَمْ أَوْفَى" فقال لمن هذه ؟ قلت لزهير بن أبي سلمى قال الجنى ؟ قلت لا بل الإنسى . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال اتُّونى زهير فَأُتِيَ بِشَيْخٍ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ لَحْمٍ فَأُلْقِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ — قال يا زهير — قال ليك ! قال "أمن أم أوفى" لمن هي ؟ قال لى — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزهير بن أبي سلمى ؛ قال : صدق وصدق ، قال وكيف هذا ؟ قال هو الذى من الإنس وأنا تابعه من الجن ، أقول الشيء فألقيه اليه فى فهمه ويقول الشيء فأخذ عنه ، فأنا قائلها فى الجن وهو قائلها فى الإنس . قال أبونعيم : فصدق عندى حديث أبي الجوزاء أن وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل .

الفصل الثالث

(فما يتصرف فيه صاحبُ هذا الديوان بشديده ، ويصرفه بقلمه ،

ومتعلق ذلك اثنا عشر أمراً)

الأمر الأول

(التوقيع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة على الرِّقَاع والقِصَص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات فى الأمور المتعلقة بالملكة ، والتحدث فى المظالم ؛ وهو أمر جليل ، ومنصب جليل ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنع ، والوصل والقطع ، والولاية والعزل

إلى غير ذلك من الأثوار المهمات والمتعلقات السنيّة . وأعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء ، فكان الخليفة هو الذي يُوقّع في الأمور السلطانية ، وفصل المظالم ، وغيرهما .

الأمر الثاني

(نظره في الكتب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصوري : ” كان الواجب أن لا يقرأ الكتب الواردة على الملك إلا هو بنفسه ؛ ولما كان ذلك متعذرا عليه لوفورها ، وآتساع الدولة ، وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الخدم ، ووصول الكتب إليه من الأفطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضيق الزمان عن تفرغه لذلك ، وجب تفويضه إلى متولى ديوان رسائله “ . قال : ” ولما كان حال متولى صاحب الديوان كذلك لأشغاله بالحضور عند الملك في بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة ، وتقرير ما يجب به عن كل منها ، مع شغله بتصفّح ما يكتب في الديوان والمقابلة به ، احتاج أن يرّد أمرها إلى كاتب يقوم مقامه “ على ما سيذكر في صفات كتاب الديوان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق برده الأجوبة عن الكتب الواردة على لسانه)

قال أبو الفضل الصوري : ” ومن أهم ما يلزم صاحب هذا الديوان إشعار الملك ما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أن من أعظمها خطرا أن يُصدّر جواب كل كتاب يصل إليه في يومه ولا يؤخره إلى غده ويؤرخ في آخره بتاريخ ذلك اليوم “ فيقال ” وكتب في يوم وصول كتابك ، وهو يوم كذا “ فإن ذلك يقيم للملك هبة كبيرة ، ويدل

على تطلُّعه للأُمور، وانتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأُمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شئونها، ويؤثر في نفس المكاتبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حذرا وخيفة“. قال : ”ووينبغي أن يأخذ جميع أرباب الخدم في البلاد بتاريخ كتبهم ويحذِّرهم من ترك ذلك ؛ فإن في إهماله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرخ لم يعلم بعدُ العهد بما ذكر فيه من قُربه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمَّنه أم لا ؛ وإذا كان مؤرخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل إليه كتاب اقتضى تاريخه زيادة زمن على مسافة الطريق، أنكر ذلك على حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجَّة على أنه لم يتأخر به قدرا زائدا على مسافة طريقه، وأن العذر من تقدُّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك على مرسله إنكارا يردُّعه عن ذلك ويزجره عنه .

الأمر الرابع

(نظره فيما تنفاوت به المراتب في المكاتب والولايات : من الافتتاح

والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب في الزمن المتقدم في غاية الضبط والتحرير، خصوصا في زمن الخلفاء من بنى العباس والفاطميين ؛ لا يزداد أحد في الألقاب على ما لُقِّب به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمَح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها . أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلى نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتبين وأرباب الولايات منزله على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط ؛ وحينئذ فعليه أن يحتاط في ذلك ويأخذ كتاب الإنشاء بالمشاحة فيه، والوقوف عند ما حُدِّ لهم من غير إفراط ولا تفريط . فقد قال صاحب مواد البيان : ”إن الملوك تسمَح ببدرات المال، ولا تسمَح بالدعوة الواحدة“ وناهيك بذلك تشديدا واحتياطا .

الأمـر الخامس

(نظره فيما يُكتب من ديوانه وتصفّحه قبل إخراجـه من الديوان)

قال أبو الفضل الصوري : ” على متولّي الديوان أن يتصفح ما يُكتب من ديوانه من الولايات والمناشير والمكاتبات ؛ إذ الكاتب غير معصوم من الخطأ واللحن وسبق القلم ؛ وعيب الإنسان يظهر منه لغيره مالا يظهر له ، فما أبصره من لحن أو خطأ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحذّر من مثله فيما يستأنفه ، فإن تكرّر منه زجره عن ذلك ، وردّعه عن العود إلى مثله ؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كلّ ما يُكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأً ولفظاً ومعنى وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً ، فربما زلّ الكاتب في شيء فيزِل بسببه متولّي الديوان . بل السلطان . بل الدولة بأسرها . قال : فإذا فرغ من عرض الكتاب والوقوف عليه ، كتب عليه بخطه ما يدلّ على وقوفه عليه ليكون ملزماً بدركه “ .

وكانه يشير إلى ما تقدّم من كلامه : من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ؛ وإن كان منشوراً ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال : ” فإن كان متولّي الديوان مشغلاً بحضور مجلس السلطان ومخاطباته والتلقّي عنه ، ولا يمكنه مع ضيق الزمان توفية كلّ ما يُكتب بالديوان حقّ النظر فيه وتصفّح ألفاظه ومعانيه ، نصب له في ذلك نائباً كامل الصنعة حسن الفطنة موثقاً به فيما يأتي ويذرّ ، يقوم مقامه في ذلك “ . قال : ” وليس ذلك لأنه يغني عن نظر متولّي الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثر الكل ويصير إليه وقد قارب الصحة أو بلغها فيحصل على الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلى ما لعله خفى على المتصفح من دقائق المعاني وعوِص المـدارك^(١) ، فيقلّ زمنُ النظر عليه ، ويظفر بالغرض المطلوب في أقرب وقت “ .

(١) العوِص بالهمزة المهملة وهو ما يعسر فهمه . وإجماعه في الأصول تصحيف .

الأمر السادس

(نظره في أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان،

وأكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : ”وَلَيْتَكَ حِجَابِي وَعِزَّتِكَ عَنْ أَرَبِ : هذا المنادى إلى الله في الصلاة والفلاح فلا تَعُوجَّهْ عَنِّي ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحبُ الطعام ، فإن الطعام إذا أُعيد تسخينه فسدَ ، وطارقُ الليل فلا تَحْجُبْهُ فَشَرٌّ مَا جَاءَ بِهِ ، ولو كان خيرا ما جاء في تلك الساعة ؛ ورسولُ الثَّغَرِ ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنةٍ فأَدْخِلْهُ عَلَيَّ ولو كنت في حِلَافِي“ . وقد تقدّم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذي يتلقّى المكاتبات الواردة ويقرؤها على السلطان ويجاوبُ عنها ، فيجب على صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقظا لما يَرُدُّ على السلطان من نواحي ممالكه وقاصيات أعماله فإنه المعتمد عليه في ذلك والمعول عليه في أمره .

وقد كان أمرُ البريد في الزمن المتقدم والدوادرية يومئذ أمراء صغار وأجناد معدون لصاحب ديوان الإنشاء ، تخرج رسالة السلطان على لسان بعض الدوادرية بما يرسم به لمن يركب البريد في المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلى صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدّم في تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نحاس كلُّ لوح منها بقدر راحة الكفِّ أو نحوها منقوش على أحد وجهيه ألقابُ السلطان ، وعلى الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وفي رقبته شُرابة من حرير أصفر يجعلها راكب البريد في عنقه ويرسل اللوح على صدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلى كاتب السر دفع إلى البريديّ لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلى أميرأخور البريد بالإصطبل السطانيّ بما تبرّزه الرسالة من الخيل ،

ويكتبُ اسمَه في آخر الكتاب الذي يُنفذ معه بين السطور ، ويُختم الكتاب ،
ويُسَلِّمُ إليه ، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلى جهة قصده ، وحمله على ما رَسِمَ
له به من خيل البريد على ما سيأتى ذكره في الكلام على كتابة أوراق الطريق ،
ويترك اسمَه وتاريخ سفره ، والجهة التي توجه إليها ، والشغل الذي توجه بسببه بدفتر
بالديوان .

فلما عظم أمر الدوادارية واستقر عند الدوادار كاتبٌ من كتّاب الدست يعلّق
عنه الرسالة على ما تقدّم في الكلام على تعليق الرسالة ، رجع أكثر الأمر في ذلك إلى
الدوادار ، وصار كاتب الدست الذي يُخدمه يعلّق الرسالة عنه بذلك كما يعلّقها عنه
في غيره على ما تقدّم . فإن كان البريد إلى جهة الشام كتب في ورقة لطيفة يرسم
برسالة المقرّ المخدم الفلاني أمير دوادار الناصري أو الظاهري مثلاً أعز الله تعالى
أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلاني المرسوم له بالتوجه إلى
الجهة الفلانية ، ويحمل على فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد . ثم يؤرّخ .
وإن كان البريد إلى الوجه القبلي أو البحري أو غير ذلك كتب : أن يكتب ورقة
فريس بريد باسم فلان الفلاني من غير تعرّض لذكر ورقة طريق ، وباقي الكلام على
نحو ما تقدّم ، ويؤرّخ ويجهّز تلك الورقة صحبة البريدي إلى صاحب ديوان الإنشاء
فيخلّد الورقة بديوانه عند دواذاره في جملة أضيّير الديوان ، ويكتب له في ورقة
صغيرة أيضاً ما مثاله : أميرأخور البريد المنصور ، يحمل فلان الفلاني على فرس واحد
أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلى الجهة الفلانية ويؤرّخ ، ويدفع
إلى البريدي ليدفعها إلى أميرأخور البريد تحلّد عنده ، ويكتب اسم البريدي
في آخر الكتاب على ما سيأتى في أول المكاتبات إن شاء الله تعالى ، ويُختم الكتاب
ويدفع إليه .

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدي عنده شربة حرير صفراء يجعلها في عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدي إلى مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلى اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلى الأبواب السلطانية من نيابة من نيابات المملكة في ورقة الطريق وخيل البريد . ولصاحب ديوان الإنشاء التنبيه على مصالح مراكز خيل البريد في الديار المصرية وغيرها .

وسأتي الكلام على مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة في موضعها إن شاء الله تعالى . وأعلم أنه يجب على الناظر في أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتاط فيمن يرسله في الأمور السلطانية ، فيوجه في كل قضية من يقوم بكفائها وينهض بأعبائها ، ويختص الملوك وأكابر النواب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التجارب منهم ، خصوصا في المهمات العظيمة التي يحتاج الرسول فيها إلى تميق الكلام ، وتحسين العبارة ، وسماع شبهة المرسل إليه ، ورد جوابه واقامة الحجج عليه ، فإنه يقال : يُستدل على عقل الرجل بكتابته وبرسوله . وقد قيل : من الحق على رسول الملك أن يكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين وأستحكام منعة ، وأن يكون بصيرا بخارج الكلام وأجوبته ، مؤديا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا بريئا من الطمع . وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه في مقاصده ، ولا يرسل إلى الملوك الأجانب ، إلا من آخبره بتكرير الرسائل إلى نوابه وأهل مملكته . فقد كان الملوك فيما سلف من الزمن إذا آثروا إرسال شخص لمهم ، قدموا امتحانه بإرساله إلى بعض خواص الملك ممن في قرار داره ، في شيء من مهماته ، ثم يجعل عليه عينا فيما يرسل به من حيث لا يشعر ، فإذا أدى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملك عينه ، فإن

طابق ما قاله الرسول ما أتى به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه ، صارت له الميزة والتقدمة عند الملك ووجهه حينئذ في مهمات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخر ملوك الفرس يقول : ”حق على الملك الحازم إذا وجه رسولا إلى ملك أن يرده بأخر ، وإن وجه برسولين وجه بعدهما باثنين ، وإن أمكنه أن لا يجمع بين رسله في طريق فعل“ .

ومن الحزم أن الرسول إذا أتاه برسالة أو كتاب في خير أو شر أن لا يتحدث في ذلك شيئا حتى يرسل مع رسول آخر يحكي له كتابه أو رسالته حرفا وحرفا ومعنى معنى فإن الرسول ربما فاتته بعض ما يؤمله فافعل الكتب ، وغير ما شوفه به فافسد ما بين المرسل والمرسل إليه : من ملك أو نائب ونحوهما ؛ وربما أدى ذلك إلى وقوع فتنة بين الملكين ، أو خروج النائب عن الطاعة وتفاقم الأمر بسبب ذلك وسرى إلى ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجه رسولا إلى بعض ملوك الشرق بخفاء برسالة شك الإسكندر في حرف منها فقال له : ”وَيْلَكَ ! إن الملوك لا تخلو من مقوم ومسدد إذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعاني ، وقد وجدت فيها حرفا ينقضها ؛ أفعلني يقين أنت من هذا الحرف أم شك فيه ؟ فقال بل على يقين منه أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تكتب الألفاظ حرفا وحرفا ويعاد إلى الملك الذي جاء ذلك الرسول من عنده مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له . فلما وصل الرسول الثاني إلى ذلك الملك وقرأ عليه ما كتب إليه به الإسكندر في أمر ذلك الرسول ، أنكر ذلك الحرف الذي أنكره الإسكندر وقال للترجم : ”ضع يدك على هذا الحرف“ فوضبها فأمر أن يعلم بعلامة وقال : ”إني أجل ما وصل عن الملك أن أقطعه بالسكين ، ولكن ليصنع هو فيه وفي قائله ما شاء“ . وكتب إلى الإسكندر : ”إن من أس المملكة صحة لهجة الرسول ؛ إذ كان عن لسانه ينطق ، وإلى أذنه

يؤدى". فلما عاد الرسول إلى الإسكندر دعا برسوله الأول وقال : "ما حملك على كلمة قصدت بها إفساد ما بين ملكين ؟" فأقر أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك ، فقال له الإسكندر : "فأراك قد سعت لنفسك لا لنا ! فاتك ما أملت بما لا تستحقه على من أرسلت إليه فجعلت ذلك ثأرا تُوقعه في الأنفس الخطيرة الرفيعة ! ثم أمر بلسانه فتزع من قفاه . " وكأنه رأى إتلاف نفس واحدة أولى من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقعه بين الملكين من العداوة ويثير من الإحن وضغائن الصدور .

وقد كان أردشير بن بابك يقول : "كم من دم سَفَكَه الرسولُ بغيرِ حِلَّة ! وكم من جُيُوش هُزِمَتْ وقُتِل أكثرها ! وكم حُرْمَةٌ أَتَهَكَّت ! وكم مالٌ نُهِب وعقد نُقِض بخيانة الرُّسل وأكاذيب ما يأتون به ! " .

الأمر السابع

(نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته)

سيأتى فيما بعد أن شاء الله تعالى أن بالديار المصرية أبراجا للحمام الرسائلى يحمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان ؛ منها بُرج بقلعة الجبل ، وأبراج بطريق الشام بمدينة بليّس ، وأبراج بطريق الإسكندرية . وكان قبل ذلك يدرج إلى قوص ، ومنها إلى أسوان وعيذاب ما يقطع ^(١) ذلك الآن . وحمام كل برج يُنقل منه في كل يوم إلى البرج الذى يليه ليطلب برجه الذى هو مستوطنه إذا أُرسِل . فإذا عرض أمرٌ مهم أو ورد بريد أو غيره ممن يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام ، كتب إليها المتحدث فيها بذلك للأبواب السلطانية ، وبعث بها على أجنحة الحمام . وقد جرت العادة

(١) كذا فى الأصل ولعله فاقطع ذلك الآن .

(٢) صوابه عما كان هو واضح .

أن تكتب بطاقتان وتؤرخان بساعة كتابتهما من النهار ، ويعلق كل منهما في جناح طائر من الحمام الرسائلي ويُرسلان ، ولا يكتفى بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنع من الوصول إلى مقصده . فاذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه ، أمسكه البراج وأخذ البطاقة من جناحه وعلقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه أى من المتقول إلى ذلك البرج ، وعلى ذلك حتى ينتهى إلى برج القلعة فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدوادر الكبير فيعرض عليه ، فيضع البطاقة عن جناحه بيده . فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلى مطالعة السلطان به ، استقل الدوادر به ؛ وإن كان مهماً يحتاج إلى إعلام السلطان به ، استدعى كاتب السر وطلع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة . وكذلك الحكم فيما يطراً من المهمات بالأبواب السلطانية فإنه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلقة بذلك المهم . وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق ، وحلب ، وطرابلس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات ، على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثامن

(نظره في أمور النداوية)

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط ابن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! ، من فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وهم فرقة من الشيعة معتقدهم معتقد غيرهم من سائر الشيعة أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم !

أنتقلت بالنص إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ثم إلى أبنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم تنقلت في بنى الحسين إلى جعفر الصادق، ثم هم يدعون أنتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى أبنه إسماعيل، ثم تنقلت في بنه .

وسموا الفداوية لأنهم يُقَادُونَ بالمال على مَنْ يَقْتُلُونَهُ . وَيُسَمَّوْنَ في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يُبْطِنُونَ مذهبهم وَيُخْفُونَهُ، وتارة بالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد . وهم يُسَمَّوْنَ أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية . وسأأتى الكلام عند ذكر تخليفهم في الكلام على الأيمان إن شاء الله تعالى . وكانوا في الزمن المتقدم قد علت كلمتهم، وأشدت شكيمة، وقويت شوكتهم، وأستولوا على عدة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشام . فأما بلاد العجم فكان بداية قوتهم وانتشار دعوتهم في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي في المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدميهم رجل اسمه عطاش فنشأ له ولد يسمى أحمد فتقدم في مذهبهم وارتفع شأنه فيهم، وألم به من في بلاد العجم منهم، فغلب على قلعة بأصبهان، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدم ذكره، وقلعة بالطالقان تعرف بقلعة الموت؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصباح ذو شهامة وتقدم في علم الهندسة والحساب والنجوم والسحر، فآتهم بالدعوة للخلفاء الفاطميين، وهم من جملة طوائف الإسماعيلية ففر الحسن بن الصباح منه هاربا إلى مصر، وبها يومئذ المستنصر بالله خامس خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نزل، وأمره بأن يخرج إلى البلاد للدعوة إلى إمامته فأجابه إلى ذلك، وسأله من الإمام بعده، فقال له : ابني نزار وهو الذي تنسب إليه التزارية منهم . فخرج ابن الصباح من مصر وسار إلى الشام، والجزيرة، وديار بكر، وبلاد الروم يدعو إلى إمامة المستنصر . ثم أبنه نزار من بعده، وسار إلى نحر آسان وجاوزها إلى ما وراء النهر، ودخل كاشغر يدعو إلى ذلك، ثم عاد إلى الطالقان وأستولى على قلعة الموت في سنة ثلاث وثمانين

وأربعائة ، ثم استولى على قلعة أصبهان واستضاف إليها عدة قلاع بتلك النواحي في سنة تسع وتسعين وأربعائة ، وقويت شوكة هذه الطائفة بتلك البلاد ، وعظم أمرها ، وخافها الملوك وسائر الناس ، وبقي ابن الصياح على ذلك حتى مات في سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وتقلت تلك القلاع بعده حتى صار أمرها إلى شخص من عقبه يسمى جلال الدين بن حسن الكي الصياحي فأظهر التوبة في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، وبقي على ذلك إلى سنة ثمان وستمائة ، فأظهر شعائر الإسلام ، وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام ، فأقيمت فيها ، وبقي حتى توفي سنة ثمان عشرة وستمائة ، وقام بعده ابنه علاء الدين محمد ، وتداول مقدموهم تلك القلاع إلى أن خرج هؤلاء على بلاد العجم في سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عيهم وفسادهم ، فخرّب قلاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشام فكان أول قوتهم بها أنه دخل منهم إلى الشام رجل يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسد ابادي ببغداد في أيام تاج الملوك بوري صاحب الشام ، وصار إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها ، وعاضده سعيد المردغاني وزير بوري حتى علت كلمته في دمشق وسلم له قلعة بانياس ، فعظم أمر بهرام وملك عدة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلى الآن ، وهي سبع قلاع بين حماه وحمص متصلة بالبحر الرومي على القرب من طرابلس : وهي مضيايف ، والرصافة ، والحواني . والقُدُموس ، والكهف ، والعليقة ، والمينقة ، ومن هنا سُميت بقلاع الدعوة . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتل في حرب جرت بينه وبين أهل وادي التيم ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل ، وأقام الوزير المردغاني عوض بهرام بدمشق رجلا منهم اسمه أبو الوفاء فعظم أمره بدمشق حتى صار الحكم له بها ، وهم بتسليمها

(١) لملها بانياس . قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص .

للفرنج على أن يسلموا له صورَ عوضاً منها، فشعر به بوري صاحب دمشق فقتله وقتل وزيره المردغانى ومن كان بدمشق من هذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقل بالشام لواحد بعد واحد من مقدميهم إلى أن كان المقدم عليهم في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشد الدين سنَّان البصرى وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين مباينةً ووثبوا عليه مراتٍ ليقْتلوه فلم يظفروا بذلك إلى أن حاصر قلاعهم في سنة اثنتين وسبعين وخمسةً وضيق عليهم، فسألوه الصَّفْح عنهم فأجابهم إلى ذلك وبقي راشد الدين سنَّان مقدماً عليهم حتى مات في سنة ثمان وثمانين وخمسةً .

قال في مسالك الأبصار: "وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهرًا لهم، ولذلك يتولونه ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من النعيم الأكبر بزعمهم". قال: "ولصاحب مصر بمشايعتهم منيةٌ يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يُقتل بعده، ومن بعثه إلى عدوله فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه وقتلوه".

قلت: وكانوا في الزمن المتقدم يُسمون كبيرهم المتحدث عليهم تارة مقدم الفداوية، وتارة شيخ الفداوية. أما الآن فقد سمو أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين في الزمن المتقدم تمنح هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها إلا من رُسِم له بالخروج لما يتعلق بالسلطان ولا يُمكن أحد من التجار من الدُّخول إلى بلادهم لشراء قماش وغيره. وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجه بها لنائب الشام المحروس. وسيأتى إيراد شيء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم في الولايات إن شاء الله تعالى!

الأمر التاسع

(نظرة في أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة . وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره وإليه رجوع تديره واختيار رجاله وتصريفهم . فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريد والرسل : لأن الرسول قد يتوجه إلى الصديق وقد يتوجه إلى العدو والجاسوس لا يتوجه إلا إلى العدو ، وإذا وثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا في الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يؤثق بنصيحتته وصدقه ، فإن الظنين لا ينتفع بخبره وإن كان صادقا لأنه ربما أخبر بالصدق فأثّم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما أثر الضرر لمن هو عين له إذ المتهم في الحقيقة عينٌ عليك لا عون لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة : ليدرك بوقور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو والمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدل فيما هو فيه ببعض الأمور على بعض فإذا تفرّس في قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوى بحثه فيها بانضمام بعض القرائن إلى بعض .

ومنها أن يكون كثير الدّهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلى كل موصل ، ويدخل بحيلته في كل مدخل ، ويدرك مقصده من أى طريق أمكنه . فإنه متى كان قاصرا في هذا الباب أو شك أن يقع ظفر العدو به أو يعود صقر اليدين من طليته .

ومنها أن يكون له دُرْبَةٌ بالأَسْفار ومعرفةً بالبلاد التي يتوجه إليها : ليكون أغنى له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربما كان في السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربما وقع في العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عينا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها لِيَلْتَقَطَ ما يَقَع من الكلام فيما يذهب بسببه مَن يخالطه من أهل تلك المملكة وسُكَّان البلاد العالمين بأخبارها ، ولا يكون مع ذلك ممن يُتَّهَمُ بمَمْلَأَةِ أَهْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ من حيث إن الغالب على أهل كل لسان اتِّحَادُ الجَنَسِ ، والجَنَسِيَّةُ علة الضم .

ومنها أن يكون صَبُورا على ما لعله يصير إليه من عُقُوبَةٍ إن ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مَلِكِهِ ولا يُطْلِعُ عَلَى وَهْنٍ في مملكته ؛ فإن ذلك لا يَنْجُلِّصُهُ من يد عدوه ، ولا يَدْفَعُ سَطَوَتَهُ عنه . بل ولا يعترف أنه جاسوس أصلا ؛ فإن ذلك مما يَحْتَمُّ هلاكه وَيُقْضَى إِلَى حَتْفِهِ : إلى غير ذلك من الأمور التي لا يسع استيعابها . فإذا وَجَدَ من العيون والجواسيس مَنْ هو مستكمل لهذه الشرائط وما في معناها ، فعليه أن يُظْهِرَ لَهُمُ الْوُدَّ والمصافاة ولا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ في زمن تصرفه له أنه يَتَّهَمُهُ ولا أنه غير مأمون لديه ؛ فربما أذاه ذلك في أَضْيَقِ الْأَوْقَاتِ أَن يكون عينا عليه ؛ فإن الضرورة قد تلجئه لمثل ذلك ، خصوصا ان جَذَبَهُ إِلَى ذَلِكَ جاذب يستميله عنه مع ما هو عليه من الضرورة ، والضرورة قد تحمل الإنسان على مفاسد الأمور ، وَيُجْزِلُ لَهُمُ الْإِحْسَانَ والبرَّ ، ولا يُغْفَلُ تَعَاهُدُهُمُ بِالصَّلَاتِ قبل احتياجه إليهم . ويزيد في ذلك عند توجههم إلى المهمات ، ويتعهد أهلهم في حضورهم وغيبتهم ليملك بذلك قلوبهم ويستصفي به خواطرهم . وإن قُضِيَ على مَنْ بعثه منهم بقضاء أحسن إلى مَنْ خَلَفَهُ من أهله ، وجعل لهم من بعده من الإحسان ما كان يجعله له

إذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره على النصيحة . وإن قُدر أن عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبية وهو ثقة ، فلا يستوحش منه بل يؤليه الجميل ، ويعامله بالإحسان ؛ فانه إن لم ينجح المرة نجح الأخرى . وعليه أن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا لا سيما عند التوجه للمهمات . وإن أستطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل ، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره ، بخلاف ما إذا آتخص الواحد بالسر . وأيضا فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه وملائمتهم لعدوه . وكذلك يحترز عن تعرف أحد من عسكره عيونه وجواسيسه ؛ فان ذلك ربما يؤدى إلى انتشار السر والعود بالمفسدة . وعليه أن يصنع إلى ما يليقه إليه كل من جواسيسه وعيونه وإن اختلفت أخبارهم ويأخذ بالأحوط فيما يؤديه إليه آجتاده من ذلك ولا يجعل اختلافهم ذنبا لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله ؛ إذ كل واحد قد يرى ما لا يرى الآخر ، ويسمع ما لا يسمعه . وإذا عثر على أحد من جواسيسه بزلّة فليسرّها عنه وعليه ، ولا يُعاقبه على ذلك ولا يُوجّه عليه فان وجّهه ففى خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما فى ممالأة العدو والخيانة من الوبال فى الآخرة . ولا بأس بأن يُجرى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودته وأنه مع العدو على غرر لا يدرى ما هو صائر إليه ؛ فان ذلك أدعى لاستصلاحه . ولا شك أن استصلاحه إما فى الوقت أو فيما بعد خير من ثبات فساد ، فربما أداه ذلك الى ممالأة العدو ومباطّته ، لا سيما اذا كان العدو معروفا بالحلم والصفح ، وكثرة البذل والعطاء . وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوه أستعمل فيه التثبت ودوام البشر ولا يُظهر تهافتا عليه تظهر معه الخفّة ، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة ، ولا يُظهر له كراهة ما يأتیه به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمان السر عنه فيما يكره فيؤدى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثر مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممن يمنع بلانده أو عسكره من جواسيس عدوه . فيجب الاحتراز منهم بكتان السرّ وبستر العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان إلى أن يعترف الملكُ عدوّه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوسَ عدوه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتّى يستخرج نصيحته ، فينثذ يلقى إليه ما أراد تبليغه إلى صاحبه الاوّل مما فيه المكيدة فيوصله إليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه .

الأمر العاشر

(نظرة في أمور القُصّاد الذين يسافرون بالملطّفات من الكتب)

عند تعذر وصول البرّد الى ناحية من النواحي)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وأكدها . وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه : أن أوّل من اتخذ السّعاة من الملوك معز الدولة بن بويه أوّل ملوك الديلم بعد الثلاثين والثلاثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركن الدولة ابن بويه بأصبهان ومأمعها فأراد معز الدولة سرعة إعلام أخيه ركن الدولة بتجدّات الأخبار فأحدث السّعاة وانتشّى في أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش ، وكان أحدهما ساعى السنة والآخر ساعى الشّبيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

(١) كذا في الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسير في كل يوم نيفاً وأربعين فرسخاً ، وأستمر حكم السَّعة ببغداد إلى زماننا حتَّى إنَّ منهم ساعيين لِرِكَّاب السلطان يمشيان أمامه في الموكب وغيرها على قرب .

قلت : ”وقد رأيتهما في خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر في دولة الظاهر برقوق فازا من تمر“ . أمّا الديار المصرية فإنه لا يتعانى ذلك عندهم إلاَّ خِفافُ الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العدو إلا أنه إذا طرأ مهم سلطاني يقتضى إيصال ملطّف مكاتبه عن الأبواب السلطانية إلى بعض النواحي وتعدّر إيصاله على البريد لحيولة عدوّ في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، أنتدب كاتبُ السرِّ بأمر السلطان من يُعرف بسرعة المشي وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطّف إلى المكتوب إليه والإتيان بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فاكثُر إلى الشخص الواحد في المعنى الواحد ويجهز كل منهما صحيفة قاصد مفرد خوف أن يُعترض واحد فيمضى الآخر إلى مقصده كما تقدّم في بطائق الحمام الرسائلي . وقد أخبرني بعض من سافر في المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم في الغالب عند خوف العدو يمشون ليلاً ويكنّون نهاراً وإذا مشوا في الليل يأخذون جانباً عن الطريق الجادة ، يكون بين كل اثنين منهم مقدار رمية سهم حتّى لا يسمع لهم حسٌّ فاذا طلع عليهم النهار كمنوا متفرّقين مع مواعدهم على مكان يتلاقون فيه في وقت المسير .

الأمر الحادى عشر

(نظرة في أمر المناور والمُحرقات)

أما المناور فسياقنى أنه في الزمن المتقدم عند وقوع الحروب بين التار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفترات بأخر الممالك الشامية وإلى قريب من بليّس من أعمال

الديار المصرية أمكنةً مرتبةً بـءوس جبال عوالٍ ، بها أقوام مقيمون فيها ، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدو من بلاد التتار ، وآنصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحليّة : فإن كان ذلك في الليل أُوقدت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبال فينظره من بعده ، فيوقد النار فينظره من بعده ، فيوقد النار وهكذا حتى ينتهي الوقود إلى المكان الذي بالقرب من يلبس في يوم أو بعض يوم ، فيرسل بطاقته على أجنحة الحمام بالإعلام بذلك فيعلم أنه قد تحرك عدو في الجملة فيؤخذ في التأهب له حتى تصل البرد بالخبر مفصّلا .

وأما الحُرقات فسيأتي أنه كان أيضا قوم من هذه المملكة مرتبّون بالقرب من بلاد التتار يَحْمِلُونَ على إحراق زروعهم بأن تُمسك الثعالب ونحوها وتربط الخرق المغموسة في الزيت بأذنان تلك الثعالب وتوقد بالنار وترسل في زروعهم إذا يبست فيأخذها الدُعر من تلك النار المربوطة بأذنانها فتذهب في الزروع آخذة يمينا وشمالا فما مرّت بشيء منه إلا أحرقته وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتحرق المزرعة عن آخرها .

قلت : وهذان الأمران قد بطل حكمهما من حين وقوع الصالح بين ملوك مصر وملوك التتار على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثاني عشر

(نظره في الأمور العاقبة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة)

قد تقدّم في أول هذا الفصل في الكلام على بيان رتبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب موادّ البيان أنه ليس في منزلة خدّم السلطان والمتصرفين في مهماته

أخص منه ، من حيث إنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه وأنه لا غنى به عن مفاوضته في آرائه والإفضاء إليه بمهمات ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، وأنه لا يثق بأحد من خاصته يثق به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب رُكُونَه إليه ؛ ومن كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألوه نُصْحًا فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأمر لبلاده وأرغم لأعدائه وحُسادِه وأثبت لدولته وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن علي بن زيد الكاتب : أنه صحب بعض الملوك فقال للملك : "أصحبك على ثلاث خلال — قال وما هي ؟ — قال لا تهتك لي سترًا ، ولا تشتم لي عِرْضًا ، ولا تقبل في قول قائل حتى تستبرئ . فقال له الملك — هذه لك عندى فمالى عندك ؟ قال : لا أفشى لك سرًا ، ولا أؤخر عنك نصيحةً ، ولا أؤثر عليك أحدا — قال نعم الصاحب المستصحب أنت ! .

فإذا انتهى إلى صاحب الديوان خبر يتعلق بجلب منفعة إلى المملكة أو دفع مضرة عنها ، أطلع السلطان عليه في أسرع وقت وأعجله قبل فوات النظر فيه وتحله فيه صائب رأيه ، ثم رد النظر فيه إلى رأى السلطان ليخرج عن عهده . وإن آرتاب في خبر المخبر أحضره معه إلى السلطان ليشافهه فيه حتى يكون بريئًا عن تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرد الريبة لاحتمال صحته في نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال في سائر ما يرجع إلى صلاح المملكة وحسن تدبيرها .

الفصل الرابع

(في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم ربّ كل وظيفة منهم فيما كان الأمر عليه في الزمن القديم وأستقرّ عليه الحال في زماننا)
أما في الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصّوريّ في مقدّمة تذكرته أن أرباب الوظائف فيه على ضربين :

الضرب الأول — الكُتّاب

(١) (وقد عدّاهم إلى سبع كتاب)

الأول — كاتب ينشئ ما يُكُتّب من المكاتبات ، والولايات ، نتصدّي للإنشاء ملكته وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقاً بصفات متولّي الديوان بحيث يكون كاملاً في الصفات ، مستوفياً لشروط الكتابة ، عارفاً بالفنون التي يحتاج إليها الكاتب ، مشتملاً على التقدّم في الفصاحة والبلاغة ، قوى الحجّة في المعارضة ، واسع الباع في الكلام بحيث يقتدر بملكته على مدّح المذموم وذم المحمود وصرف عَنان القول إلى حيث شاء ، والإطناب في موضع الإطناب ، والإيجاز في موضع الإيجاز ؛ فإنه أجلُّ كُتّاب الديوان ، وأرفعهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه ، وتلقّى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فينشئ على ذلك كلاماً طويلاً ، ويأتى منه بالعبارة الواسعة ؛ وهو لسانُ الملك المتكلّم عنه ، فهما كان كلامه أبدع ، وفي النفوس أوقع ، عظمت رتبة الملك ، وارتفعت منزلته على غيره من الملوك . وهو الذي ينشئ العهود والتقاليد في الولايات والكُتّاب في الحوادث الجار ، والمهمّات العظيمة التي

تتلى فيها الكتب على صياصي المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكي أن يزيد بن الوليد كتب إلى إبراهيم بن الوليد ، وقد همَّ بالعصيان : أما بعد فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأعتمد على أيهما شئت والسلام ؛ فكان سبباً لإقلاعه عما همَّ به .

الثانى — كاتب يكتب مكاتبات الملوك عن ملكه ؛ وقد شرط فيه مع ما شرط فى المتصدى للانشاء المتقدم ذكره أن كان هو الذى ينشئ المكاتبات بنفسه عن الملك أن يكون على دين الملك الذى يكتب عنه ومذهبه ؛ لما يحتاج إليه فى مكتبة الملك المخالف من الاحتجاج على صحة عقيدته ، ونصرة مذهبه ، وإقامة الدلائل على صحة ذلك ، ولن يحتاج للملة أو المذهب من اعتقد خلافه بل المخالف إنما تبدؤله مواضع الطعن لا مواضع المحتاج . وكذلك أن يكون من علو الهمة ، وقوة العزم ، وشرف النفس بالمحل الأعلى ، والمكان الأرفع ؛ فإنه يكتب عن ملكه ، وكل كاتب فإنه يحوزه طبعه وجيلته وخيمته إلى ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوى جانباً وأشدَّ عزماً وأعلى همة ، كان على التفضيم والتعظيم ، والتهويل والترغيب والترهيب أقدر ، وكلما نقص من ذلك نقص من كتابته بقدره ؛ وأن يكون عالماً بقدر طبقة المكتوب إليه فى معرفة اللسان العربى فيخاطب كل قوم على قدر رتبته فى ذلك وما يعرف من فهمهم .

الثالث — كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها ، وولاتها ، ووجوهها من النواب والقضاة والكتاب والمشارفين والعمال ، وإنشاء تقليدات ذوى الخدم الصغار والأمانات ، وكتب الأيمان والقسمات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبين المتقدمتين فهى جليلة الخطر عالية القدر ؛ ويجب أن يكون لاحقاً برتب الخدمة منها ، وأن يكون مأموناً على الأسرار ، كآف اليد ، نزه النفس عن العرض

الذنيوى لأنه يطّلع على أكثر مايجرى في الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمصروف قبل صرفه، ويكون مع ذلك سريع اليد في الكتابة، حسن الخط اذ كان هذا الفن أكثر ما يُستعمل ولا يكاد يقلّ في وقت من الأوقات

الرابع — كاتب يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقة بالمنزلة التي قبلها وكأنها جزء منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كئوماً للسر؛ فيه من الأدب ما يأمّن معه من الخطأ والخن في لفظه وخطه، ويكون حسن الخط أو بالغاً فيه القدر الكافي . ولكن لما كان هذا الشغل واسعاً وهو أكثر عمل الديوان والذي لا ينفك منه، لم يكّد يستقلّ به رجل واحد فيحتاج إلى معاضدته بآخر يكون دونه في المنزلة، ويُجعل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها مما يمليه صاحب الديوان ويصدر عنه في نسخ تكون مخددة فيه لا تُغادر المبيضه بحرف لتكون موجودة متى احتيج اليها .

الخامس — كاتب يبيض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها . قال الصوري : لما كانت البلاغة التامة التي يصلح صاحبها للإنشاء وحسن الخط قلما يجتمعان في أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيض يرسم الإنشاءات والسجلات والتقليدات، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلى الغاية الموجودة بحيث لا يكاد يوجد في وقته أحسن خطاً منه لتصدر الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكل للملكة، وأكثر تفخيماً عند من يكتبه وتعظيماً لها في صدره . ويجب أن يكون مع ذلك في الأمانة، وكتمان السر، ونزاهة النفس على ما تقدّم .

السادس — كاتب يتصفّح ما يكتب في الديوان . قد تقدم أنه لما كان كل واحد من تقدم ذكره غير معصوم من السهو والزلل والخطأ والخن وعترات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه ويظهر له عيب غيره، وكان زمن متولّى الديوان أضيق من أن يُوفى بكل ما يكتب بديوانه حقّ النظر، وكان القصد أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً، حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً، وجب أن يستخدم متولّى الديوان معينا يتصفح جميع الإنشاءات والتقليدات والمكاتبات وسائر ما يُسَطَّر في ديوانه .

قال أبو الفضل الصوري : وينبغي أن يكون هذا المتصفح على المنزلة في اللغة والنحو وحفظ كتاب الله تعالى، ذكياً، حسن الفطنة، عاقلاً، مأموناً وأن يكون مع ذلك بعيداً من الغرض والعداوة والشحناء حتى لا يبخس أحداً حقه، ولا يُحايى أحداً فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده في الحق على حدٍّ واحد لا يترجح واحد منهم على الآخر . وعليه أن يلزم الكُتاب بعرض جميع ما يكتبونه وينشئونه عليه قبل عرضه على متولّى الديوان — فإذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعترف رضاه عنه ليلتم بدرك ما فيه ويرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمّنة لمتعلّقات الديوان .

قال الصوري : ويجب أن يُختار لذلك كاتبٌ مأمونٌ، طويل الروح، صبور على التعب؛ قال : والذي يلزمه من متعلّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع في الديوان تذاكر تشتمل على مهمّات الأمور التي تُنهى في ضمن الكتب، ويظن أنه ربما سُئل عنها أو أحتج إليها، فيكون أستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتتقيق عنها من الأضابير . قال : ويجب أن تسلّم إليه جميع الكتب الواردة بعد أن يُكتب بالإجابة عنها ليتأمّلها وينقل منها في تذاكره ما يحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله، ويعمل لكل صفقة

أوراقا من هذه التذاكر على حدة ، تكون على رؤوس الأوراق علامات باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى ، أو المشارف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرغ السنة يستجد للسنة الأخرى التى نتلوها تذكرة أخرى . وكذلك يجعل له تذكرة يسطر فيها مهمات ما تخرج به الأوامر فى الكتب الصادرة لئلا تغفل ولا يجاب عنها ؛ وتكون على الهيئة المتقدمة من ذكر النواحي وأرباب الخدم . وإذا ورد جواب عن شىء مهم نزل عنده فيقول : ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمن كذا ، فإنه إذا اعتمد هذا وجد السلطان جميع ما يسأل عنه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثانى — أن يضع فى الديوان دفترا بالقبال الولاية وغيرهم من ذوى الخدم ، وأسمائهم ، وترتيب مخاطبتهم ؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطب : بكاف الخطاب أو هاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يدعى له به فى السجلات والمكاتبات والمناشير ، والتوقيعات : لاختلاف ذلك فى عرف الوقت . وكذلك يضع فيه ألقاب الملوك الأبعد والمكاتبين من الآفاق وكنابهم وأسماءهم ، وترتيب الدعاء لهم ، ومقداره . ويكون هذا الدفتر حاضرا لدى كتاب الإنشاء ينقلون منه فى المكاتبات ما يحتاجون إليه : لأنه ربما تعدد حفظ ذلك عليهم — ومتى تغير شىء منه كتبه تحته . ويكون لكل خدمة ورقة مفردة فيها اسم متوليها ولقبه ودعاؤه — ومتى صرف كتب عليه صرف بتاريخ كذا ، وأستخدم عوضا منه فلان بتاريخ كذا وأجرى فى الدعاء على مناجاه ، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافل عن ذلك : فإنه متى أهمل شىء من ذلك زلّ بزلله الكتاب وصاحب الديوان بل والسلطان نفسه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترًا للحوادث العظيمة وما يتلوهما مما يجري في جميع المملكة ؛ ويذكر كلا منها في تاريخه ؛ فإن المنفعة به كثيرة حتى إنه لو جمع من هذين الدفترين تاريخ لاجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكتب الصادرة والواردة مفصلاً مُسَانَةً ومشاهرة ومياومة ، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته ”كتاب ورد بتاريخ كذا“ ، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه أو ينسخه جميعه إن دعت الحاجة إلى ذلك ، ويسلمه بعد ذلك إلى الخازن ليتولى الاحتفاظ به على ما سيأتى ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للأنشاءات ، والتقاليد ، والأمانات ، والمناسير وغير ذلك مشاهرة في كل سنة بجميع شهورها ؛ وإذا أنقضت سنة استجد آخر ، وعمل فيه على مثل ما تقدم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربى من الرومى والفرنجى وغيرهما مصرحاً بمعنى كل كتاب ومن ترجمه على ما تقدمت الإشارة إليه . قال الصورى : فإذا رُوِّعَتْ هذه القوانين انضبطت أموره ولم يكدر بخَلٍّ منه شيء ، وكان جميع ما يُلتَمَس منه موجوداً بأيسر سعي في أسرع وقت .

الضرب الثانى

(غير الكتاب ؛ وهما آشان)

أحدهما الخازن . قال الصورى : ”ينبغى أن يختار لهذه الخدمة رجلٌ ذكى فطن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ فى الأمانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع إلى الحد الذى لا يزيد عليه : فإن زمام جميع الديوان بيده ؛ ففى كان قليل الأمانة ربّما أمالته الرشوة إلى

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرٍّ من الأسرار فيضرب بالدولة ضرراً كبيراً . ويجب أن يكون ملازماً للحضور بين يدي كُتَّاب الديوان فتى كتب المنشئ أو المتصدى لمكتبة الملوك، أو المتصدى لمكتبة أهل الدولة، أو لكاتبه المناشير وغيرها شيئاً، سلمه للمتصدى للنسخ فينسخه حرفاً بحرف، ويكتب بأعلى نسخه كتاب كذا— ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته على ما تقدم في موضعه؛ ويسلمه للخازن . وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خطَّ الكاتب الذي كتب جوابها بما مثاله . «ورد هذا الكتاب من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لأجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لأجواب عنه لتبرأ ذمته منه ولا يتأول عليه في وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يعلم به . ثم يجمع كل نوع إلى مثله، ويجمع متعلقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجمع لكل شهر إضبارة، يجمع فيها كُتُب من يكتب من أهل تلك الأعمال، ويجمع عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية في الشهر الفلاني» ثم يجمع تلك الأضابير ويجمعها لإضبارة واحدة لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل استخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب على هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان من الكتب الواردة ونسخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم احتفاظاً شديداً .

الثاني — حاجب الديوان . قال الصوري : ” ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقيم لديوانه حاجباً لا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إليه، ما خلا أهله الذين هو معدوق بهم، فإنه يجمع أسرار السلطان الخفية فمن الواجب كتمها ومتى أهمل

(١) في الضوء معزوق بهم بالعين المهملة والزاي [وهي أصرح في المقام ففي القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمن أن يُطلع منها على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثر الغاشون له والداخلون إليه، أمكن أهل الديوان معه إظهار الأسرار اتكالا على أنها تُنسب إلى أولئك، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم احتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن ينسب إليهم إذا ظهر“ .

وأما ما استقر عليه الحال في زماننا فكتاب الديوان على طبقتين :

الطبقة الأولى — كتاب الدست ؛ وهم الذين يجلسون مع كاتب السر يجلس السلطان بدار العدل في المواعيد على ترتيب منازلهم بالقدمة ^(١) ويقراءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسُموا كتاب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه : لجلوسهم للكتابة بين يديه ؛ وهؤلاء هم أحق كتاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين : لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم .

وقد تقدم أنهم كانوا في أوائل الدولة التركية في الأيام الظاهرية ببيرس وما والاها قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثة كتاب ، رأسهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلى أن صاروا في آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أونحوها ، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا خصوصا في سلطنة الظاهر برقوق ، وآبئه الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين وهم أخذون في التزايد .

وقد كانت هذه الرتبة لاحقة بشاؤ كتابة السر في الرفعة والرياسة إلى أن دخل فيها الدخيل ، وقدم فيها غير المستحق ، ووليها من لا يؤهل لها هو دونها ، وأنحطت رتبها وصار أهلها في الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوجها الا الأفذاذ من علت رتبته وقليل ما هم .

(١) المقدمة بالضم السابق . ولعل مراده سبق في الفضل .

الطبقة الثانية — كُتَاب الدَّرَج ، وهم الذين يَكْتُبُونَ ما يُوَقَّعُ به كاتبُ السَّر أو كُتَّاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير ، أو رسالة الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وُسِّمُوا كُتَّاب الدَّرَج لكَاتِبَتِهِمْ هذه المكتوبات ونحوها في دُرُوج الورق ، والمراد بالدَّرَج في العُرف العام الورق المستطيل المركَّب من عدَّة أوصال ، وهو في عُرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير . قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكُتَّاب : وهو في الأصل اسمٌ للفعل أخذنا من درَجَت الكتاب أدْرَجُه درَجًا إذا أسرعت طيِّه وأدرَجته إدراجًا فهو مُدرَج إذا أعدته على مطاويه وأصله الإسراع في حالة ، ومنه مدرجة الطريق التي يُسرِع الناس فيها وناقَّة دُرُوج إذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء لأنهم يَكْتُبُونَ ما يُنشَأ من المكاتبات وغيرها مما تقدَّم ذكره ، ولا يجوز أن يطلق عليهم لَقَب الموقَّعين لما تقدَّم من أن المراد من التوقيع الكتابةُ على جوانب القصص ونحوها . وكما زاد كُتَّاب الدست في العدد زاد كتاب الدَّرَج حتَّى خرجوا عن الحد ، وبلغوا نحوًا من مائة وثلاثين كاتبًا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وأنحط مقدارها حتَّى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلاً . على أن كُتَّاب الدست الآن هم المتصدِّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرَج : كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير ، وصار كتاب الدَّرَج في الغالب مخصوصين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها . وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب في القطع الصغير ، وربما شارك أعلاهم كُتَّاب الدست في التقاليد وكبار التواقيع وما في معناها إذا كان حسن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملةً بل كل أحد يَلْفَق ما يَتَيَّأ له من كلام المتقدمين غير مُبالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مبهِّجاً بذلك مطالعا

لغيره في أنه الذي ابتدعه وإبتكره . وكل من لفق منهم شيئا أو أنشأه كتبه بخطه على أية طبقة كان في الخط، ما خلا عهود السلطنة ومكاتب القانات من ملوك الشرق فانه رُبما انتخب لها أعلى أهل الزمان خطا، تنويعا بذكرها، ورفعاً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمرا في بعضها كتابة ما في المكاتب الواردة والصادرة بدفتر في الديوان إلى آخر مباشرة القاضي بدر الدين بن فضل الله في الدولة الظاهرية برقوق ، ثم رُفِض ذلك وترك وأقتصر على ما يرد من المكاتب وما يكتب من الملتخصات وكتابة الموقع الذي يكتب الجواب بسد كل فصل تحته ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وأكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصار هو المتولى لحفظ ذلك وإيداعه في الأضيير على نحو ما تقدم؛ وكذلك صار أمر حجابة الديوان إليه . ثم للديوان أعوان يسمون المدرا جمع مدير، شأنهم أخذ القصص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دونه من كتاب الديوان ليكتب كل منهم ما يلزمه من متعلقها ولذلك سُموا بهذا الاسم .

المقالة الأولى

بعد المقدمة

(في بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان)

الباب الأول

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العلمية، وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الأول

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد اختلفت مقاصدُ المصنِّفين في ذلك : فابنُ قتيبة بعد أن بنى كتابه أدب الكاتب على أمور من اللغة والتصريف وطرف من الهجاء قال : "وليس كتابنا هذا لمن لم يتعلَّق من الإنسانية إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسم ، ولم يتقدَّم من الأداء ، إلا بالقلم والدواء : ولكنه لمن شدا^(١) شيئا من الإعراب فعرف الصَّدر والمصدر ، وأنقلبَ الياء عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشبه ذلك من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفة ، والقيس ، والمدورات ، والعمودين ؛ وتمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر، فإن المخبر عنه ليس كالمعاني . وذكر أن العجم كانت تقول : من لم يكن عالما بأجراء المياه ، وحفر فُرُض

(١) كذا في الأصل وأدب الكاتب . وفي القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا .

والذي في الضوء سدد .

المشارب ورّدم المَهَاوِي ، ومجَارَى الأَيَّام في الزيادة والنقصان ، ودَوَرَانِ الشمس ، ومَطَالِيعِ النجوم ، وحَالِ القمر في آسْتِهْلَالِهِ وَاِتِّصَالِهِ ، ووَزْنِ الموازين ، وذَرْعِ المثلث والمربّع والمختلف الزّوَايا ، ونَصَبِ القناطر ، والجُسُور ، والدَّوَالِي ، والنَّوَاعير على المياه ، وحال أدوات الصَّنَاع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا في حال تَجَابُتِهِ . ثم قال : ولا بَدَلَهُ مع ذلك من النَّظَرِ في جَمَلٍ من الفقه والحديث ، ودراسة أخبار النَّاسِ ، وحِفْظِ عُيُونِ الأخبار لِيُدْخِلَهَا في تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاور . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر في ذلك كله على القُطْبِ وهو العقل وجودة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعالى كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصر .

وتابعه أبو هلال العسكري في بعض ذلك فقال في بعض أبواب كتابه «الصناعتين» : ”ينبغي أن تعلم أن الكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدوات جَمَّةٍ : من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة وغير ذلك مما ليس هذا موضع ذكره وشرحه“ .

ولا يخفى أن ما ذكره بعض ما ذكره ابن قتيبة ، يتواردان فيه في المعنى وإن اختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس في كثير من ذلك فذكر في أول كتابه ”صناعة الكتاب“ في المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الكتابة البلاغة ، ومعرفة الأضداد مما يقع في الكتب والرسائل ، والعلم بترتيب أعمال الدواوين ، والخبرة بمجَارَى الأعمال ، والدُّرْبَةُ بوجوه آسْتِخْرَاجِ الأموال ، مما يجب ويمتنع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميّز بذاته ، ولا آنفرداً باسم يخصه ؛ وإنما هو جُزْءٌ من الكتابة وأصلٌ من أركانها . أما الفقه والفرائض والعلم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والتَّجْوِيم ، والمعرفة بأجزاء المياه ، والعلم بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياء منها نحو ما يُكتب بالآلف والياء، وإلى شيء من المقصور والمدود. ولو كلف الكاتب ما ذكره من ذكره لجعل الأصعب طريقا للأسهل والأشق مفتاحا للأهون وفي طباع الناس التفار عما ألزمهم من جميع هذه الأشياء .

قلت : والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوعها، فكل نوع من أنواعها يحتاج إلى معرفة فن أو فنون تختص به .

وقد حكى أن عمرو بن مسعدة وزير المعتصم قال : لما خرج المعتصم من بلاد الروم وصار بناحية الرقة، قال لي ويحك يا عمرو ! لم تزل تتدعنى حتى وليتُ عُمر بن الفرج الرُّحَجي الأهواز، وقد قعد في سرّة الدنيا يأكلها خضما وقضما ! فقلت يا أمير المؤمنين فإنا أبعث إليه حتى يؤخذ بالأموال ولو على أجنحة الطير— قال : كَلَّا بل تخرج إليه بنفسك كما أشرت به— فقلت لنفسى : إن هذه منزلة خسيصة، بعد الوزارة أكون مستحشا لعامل خراج ! ولم أجد بدا من الخروج رضا لأمير المؤمنين— فقلت : ها أنا خارج إليه بنفسى يا أمير المؤمنين ! قال : فضّع يدك على رأسك وأحلف أنك لا تقيم ببغداد، ففعلت وأحدثت عهدا باخوانى ومتزلى وأتى إلى بزورق ففرش لي فيه، ومضيت حتى إذا صرت بين دَيْرِ هِر قُل ودَيْرِ العاقول إذا شاب على الشط يقول : يا ملاح ! رجل غريب يريد دَيْرِ العاقول فاحملنى بأجرِك الله !— فقلت : يا غلام

(١) فى الأصل عمرو ... الرحى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت فى الكلام على رُحج مثال رُحج : وينسب إلى الخرج فرج وابنه عُمر بن فرج وكافا من أعيان الكتاب فى أيام المأمون إلى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعتز يهجو عمر بن فرج . فن قوله فيه يحاطب نجاح بن سلة أبلغ نجاحا فى الكتاب مألوكه * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا لا يخرج المال عفوا من يدي عمر * أو تغمد السيف فى فوديه إغماذا الرُّحجيون لا يوفون ما وعدوا * والرُّحجيات لا يخلفن ميعادا

قَرَّبَ له — فقال : جُعِلَتْ فِدَاكَ ! يُؤْذِيكَ وَيُضَيِّقُ عَلَيْكَ — فقلت : قَرَّبَ له لا أَمَّ لك ! فقَرَّبَ له وحمله على مؤخَّر الزورق . وحضر الطعام ، فهِمَّمْتُ أَنْ لَا أَدْعُوهُ إِلَى طَعَامِي ، ثُمَّ قُلْتُ : هَلُمَّ يَا قَتِي ، فَوَشَّ وَجَلَسَ ، فَأَكَلَ أَكْلَ جَائِعٍ نَهَمَ إِلَّا أَنَّهُ نَظِيفُ الْأَكْلِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنَ الطَّعَامِ أَحْبَبْتُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ الْعَوَامُ فَيَتَنَحَّى وَيَغْسِلَ يَدَيْهِ نَاحِيَةً فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَعَمَزَهُ الْغِلْمَانُ لِيَقُومَ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَتَنَاقَشْتُ عَمْدًا لِنَهَضَ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَاسْتَوَيْتُ جَالِسًا وَقُلْتُ يَا قَتِي ! مَا صِنَاعَتُكَ ؟ فقال جعلت فداك ! أنا حائك . فقلت في نفسي : أنا والله جَلَبْتُ هَذِهِ الْبَلِيَّةَ ، وَتَغَيَّرَ لَوْنِي ، فَفِطِنَ أُنَى اسْتَنْقَلَتْهُ ، فقال : جُعِلَتْ فِدَاكَ ! انك قد سألني عن صناعتي فأجبك ، فأنت ما صناعتك ؟ فقلت : هذه والله أَضَرُّ مِنَ الْأَوَّلَى إِلَّا يَنْظُرُ إِلَى غِلْمَانِي وَنِعْمَتِي فَيَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يُسْتَلُّ عَنِ الْحِرْفَةِ ؟ وَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْجَوَابِ ، فَلَمْ أَذْهَبْ إِلَى الْمُرْتَبَةِ الْعَظِيمَى مِنَ الْوِزَارَةِ لَكِنِّي قَرَّبْتُ عَلَيْهِ ، فقلت : أَنَا كَاتِبٌ — فقال جعلت فداك الْكُتَّابُ خَمْسَةٌ فَأَيُّهُمْ أَنْتَ ؟ فَأُورِدَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَسْمَعْ بِهِ قَبْلُ — فقلت : يَنْبَنُّهُمْ لِي — قَالَ نَعَمْ ، هُمْ كَاتِبُ رِسَائِلٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ الْمَفْصُولَ وَالْمَوْصُولَ ، وَالْمَقْصُورَ وَالْمَمْدُودَ ، وَالْأَبْتِدَاءَ وَالْجَوَابَ ، حَازِقًا بِالْعُقُودِ وَالْفَتْوحِ — قلت : أَجَلٌ وَمَاذَا ؟ قَالَ : كَاتِبُ نَحْرَاجٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ السُّطُوحَ ^(١) وَالْمِسَاحَةَ وَالتَّقْسِيطَ ، خَبِيرًا بِالْحِسَابِ وَالْمُقَاسِمَاتِ . قلت : وَمَاذَا ؟ قَالَ : كَاتِبُ قَاضٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، وَالتَّائِيلَ وَالتَّنْزِيلَ — وَالتَّمْشَابَةَ وَالْحُدُودَ الْقَائِمَةَ وَالْفَرَائِضَ ، وَالْإِخْتِلَافَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْفُرُوجِ ، حَافِظًا لِلْأَحْكَامِ ، حَازِقًا بِالشُّرُوطِ — قلت : وَمَاذَا ؟ قَالَ : وَكَاتِبُ جُنْدٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ الْحِلَّ وَالشَّيْءَ — قلت : وَمَاذَا ؟ قَالَ : وَكَاتِبُ شُرْطَةٍ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ الْقِصَاصَ وَالْإِحْرَاحَاتِ ، وَمَوْضِعَ الْحُدُودِ ، وَمَوَاقِعَ الْعَفْوِ فِي الْجُنَايَاتِ — قلت حَسَنَ . قَالَ : فَأَيُّهُمْ أَنْتَ ؟ فَكُنْتُ مَتَكِنًا فَاسْتَوَيْتُ جَالِسًا مُتَعَجِّبًا مِنْ قَوْلِهِ ، فقلت :

(١) فِي نَسْخَةِ الطُّسُوجِ . وَهُوَ كُنْتُورُ النَّاحِيَةِ ، وَرَبْعٌ دَائِقٌ مَرْبُوحٌ قَامُوسٌ .

أَنَا كَاتِبُ رَسَائِلَ - قَالَ : فَإِنْ أَحَا مِنْ إِخْوَانِكَ وَاجِبَ الْحَقِّ عَلَيْكَ مَعْتَنِيَا بِأَمْرِكَ لَا يَغْفُلُ مِنْهَا عَنْ صَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ يَكْتُبُكَ فِي كُلِّ مَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ وَأَنْتَ لَهُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ تَزَوَّجْتُ أُمَّهُ كَيْفَ تَكْتُبُ إِلَيْهِ ؟ أَتُهْنِيهِ أَمْ تُعْزِيهِ ؟ - قُلْتُ أَهْنِيهِ . قَالَ فَهَنَّهُ فَلَمْ يَنْجِ لِي شَيْءٌ - فَقُلْتُ : لَا أَعْزِيهِ وَلَا أَهْنِيهِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ لَا تَغْفُلُ لَهُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا تَبْدُ بُدَاً مِنْ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ - فَقُلْتُ : أَقْلَنِي فَأَنَا كَاتِبُ خَرَجٍ - قَالَ : فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَجَّهَ بِكَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَمَرَكَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَأَنَّكَ لَا تَدْعُ شَيْئاً مِنْ حَقِّ السُّلْطَانِ يَذْهَبُ ضَيَاعاً ، وَحَذَّرَكَ الظُّلْمَ وَالْجَوْرَ ، فَخَرَجْتَ حَتَّى قَدِمْتَ النَاحِيَةَ فَوْقَهُوكَ عَلَى قَرَارٍ أَرْضُ خَطِّهِ قَابِلٌ قَسِيّاً كَيْفَ تَمْسَحُهُ - قُلْتُ : أَخْذُ وَسَطَهُ وَأَخْذُ طُولَهُ فَأَضْرِبُهُ فِيهِ - قَالَ : تَخْتَلِفُ عَلَيْكَ الْعُطُوفُ - قُلْتُ : أَخْذُ طُولَهُ وَعَرْضَهُ مِنْ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ - قَالَ : إِنْ طَرَفَيْهِ مُحْدُودَانِ وَفِي تَحْدِيدِهِ تَقْوِيْسٌ وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ فَأُعْيَا نِي ذَلِكَ - فَقُلْتُ : أَقْلَنِي فَأَنَا كَاتِبُ قَاضٍ - قَالَ : فَإِنَّ رَجُلًا هَلَكَ وَخَلَّفَ زَوْجَةً حُرَّةً وَسُرِّيَّةً حَامِلَتَيْنِ فَوَضَعَتَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَضَعَتِ الْحُرَّةُ جَارِيَةً ، وَوَضَعَتِ السُّرِّيَّةُ غَلَامًا ، فَوُضِعَتِ الْجَارِيَةُ فِي مَهْدِ السُّرِّيَّةِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَتِ السُّرِّيَّةُ قَالَتِ الْغَلَامُ لِي ، وَقَالَتِ الْحُرَّةُ بَلْ هُوَ لِي كَيْفَ تَحْكُمُ بَيْنَهُمَا ؟ - قُلْتُ : لَا أَدْرِي فَأَقْلَنِي ، فَأَنَا كَاتِبُ جَنَدٍ ، قَالَ : فَإِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ أَتِيَاكَ أَسْمَهُمَا وَاحِدًا ، وَأَحَدُهُمَا مَشْقُوقُ الشَّقَةِ الْعُلْيَا ، وَالْآخَرُ مَشْقُوقُ الشَّقَةِ السُّفْلَى ، وَرَزَقَ أَحَدُهُمَا مِائَةً وَالْآخَرُ أَلْفَ كَيْفَ تُحْلِمُهُمَا ؟ - قُلْتُ : فَلَانِ الْأَعْلَمُ وَفَلَانِ الْأَعْلَمُ ، قَالَ : إِذَنْ يَجِيءُ هَذَا وَرِزْقُهُ مِائَةٌ فَيَأْخُذُ الْأَلْفَ ، وَيَجِيءُ هَذَا وَرِزْقُهُ أَلْفٌ فَيَأْخُذُ الْمِائَةَ - قُلْتُ : أَقْلَنِي : فَأَنَا كَاتِبُ شُرْطَةٍ ، - قَالَ : فَإِنَّ رَجُلَيْنِ تَوَاتَبَا فَشَجَّ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ مُوَضِعَةً ، وَشَجَّ الْآخَرُ مَأْمُومَةً كَيْفَ يَكُونُ الْحُكْمُ فِيهِمَا ؟ - قُلْتُ : لَا أَدْرِي فَأَقْلَنِي ، . قَالَ فَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ سَأَلْتَنِي فَبَيِّنْ لِي - قَالَ نَعَمْ .

أما الذى تزوجت أمه فكتب إليه : أما بعد فإن الأمور تجري على غير محاب الخلقين والله يختار لعباده ، نفاً الله لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء والسلام .

وأما القراح من الأرض ، فإنك تسمح أعرجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه فإذا استوى فى يدك عقد تعرفه ضربت طرفه فى وسطه . وأما الحرة والسرية فيوزن لهنما فأيهما كان لبنها أخف فالبنت لها . وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم والمشقوق الشفة السفلى فأفليح . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلث . وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل . فقلت : ألسن تزعم أنك حائك ؟ فقال : أنا حائك كلام لا حائك نساجة . قال عمرو بن مسعدة : فأحسنن جائزته وأستصحبته معى حتى عذت إلى المعتصم ، فسألنى عما لقيت فى طريق ، فقصصت عليه القصة فأعجب به وقال : لم يصلح ؟ فقلت : للعلماء . فقرره فيها وعلت رتبته ، فكنن ألقاه فى المركب النبيل فيترجل لى فأنهاه ، فيقول : هذه نعمتك وأنت أفدتها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادة يحتاج إليها بمفردها ، وآلة تخصها لا يستغنى عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنى عن علم ولا يسعه الوقوف عند فن ، فقد قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله الناذبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة فما ظنك بما فوق هذا وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنسب إليه ، فيقال فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يقتدر إليه من الخوض فى كل فن .

وأعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم والخوض فى سائر الفنون فليس احتياجه إلى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهى مواد الإنشاء التى يستمد منها ويقتبس من مقاصدها : كاللغة التى منها استمداد الألفاظ ، والنحو الذى به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعانى والبيان والبديع التى هى مناط التحقيق والتحسين والتقييح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى . وعلى هذا أقصر الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله فى كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يحتاج إليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ، فإنه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه لينظم ذلك فى خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس . وربما احتاج إلى معرفة مأهو دون ذلك فى الرتبة كمعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به فى قدمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به فى دسكرة فتوة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج إلى معرفة مصطلح سفل الناس لكتابة أمور هزلية : كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به لطفيلى أقتراحا أو امتحانا للخاطر أو ترويحاً للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج إلى

وصفه كأوصاف الأبطال والشجعان، والحواري والغلمان، والحيل والإبل، وجيل
الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمائم الهدى،
وسائر أنواع الطير؛ والسلاح بأنواعه؛ وآلات الحصار، والآلات الملوَّكِيَّة، وآلات
السفر، وآلات الصَّيد، وآلات المعاملة، وآلات اللُّهُو والطَّرَب، وآلات اللعب،
وآلات الشربة؛ والمدن، والحصون؛ والمساجد، وبيوت العبادات؛ والرياض،
والأشجار، والأزهار، والثمار؛ والبراري، والقفار، والمفاوز، والجبال، والرمال،
والأودية؛ والبحار، والأنهار، وسائر المياه؛ والسفن، والكواكب، والعناصر،
والأزمنة، والأنواء، والرياح، والمطر، والحر، والبرد، والثلج، وما يتعلق بكل واحد
من هذه الأشياء أو يخطر في سلكه؛ ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلى وصفه في حالة
من حالات الكتابة على ماسياتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء
الله تعالى .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الأولى

(فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل الغرض منه على خمسة عشر نوعاً)

النوع الأول

(المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأول

(في فضلها وما آخضت به على سائر اللغات)

أما فضلها فقد أخرج ابن أبي شَيْبَةَ بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: "تَعَلَّمُوا اللَّحْنَ وَالْفَرَائِضَ فَإِنَّهُ مِنْ دِينِكُمْ". قال يزيد بن هارون: "اللَّحْنُ هُوَ اللُّغَةُ". ولا خفاء أنها أمتُّ اللغات وأصحُّها بياناً، وأذْلَقُها لساناً، وأمدُّها رُواقاً، وأعذبُها مذاقاً؛ ومن ثمَّ اختارها الله تعالى لأشرف رُسُلِهِ، وخاتمِ أنبيائه، وخيرته من خَلْقِهِ، وصَفْوَتِهِ من بَرِيَّتِهِ؛ وجعلها لغةَ أهلِ سَمَائِهِ وَسُكَّانِ جَنَّتِهِ، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يَأْتِيهِ الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ .

قال في صِنَاعَةِ الكُتَّابِ : "وقد اتَّعَدَّتِ اللُّغَاتُ كُلُّهَا لِلُّغَةِ الْعَرَبِ، فَأَقْبَلَتْ الْأُمَمُ إِلَيْهَا يَتَعَلَّمُونَهَا".

وأما ما آخِصَّتْ به على غيرها من اللغات، فقد حكى في "صناعة الكتاب" أنها اللغة التامة الحُرُوف، الكاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشِينها نُقصانُه، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته؛ وإن كان لها فروع أخرى من الحُرُوف فهي راجعة إلى الحُرُوف الأصلية؛ وسائر اللغات فيها حروف مَوْلدة، وينقص عنها حروف أصلية: كاللغة الفارسية: تجد فيها زيادة ونقصانا. وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد في الفارسية وغيرها: كالحقِّ والباطل، والصواب والخطأ، والحلال والحرام، فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربيا. قال الفراء: "وجدنا للغة العرب فضلا على لغة جميع الأمم آختصاصا من الله تعالى وكرامة أكرمهم بها؛ ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات". قال: "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسَّعوا فيها، فقالوا للضرب في الوجه لطم، وفي القفا صفع، وفي الرأس إذا أدمى شجَّ؛ فكان قولهم لطم أوجز من ضرب على وجهه". قال في "المثل السائر": "حضرت مع رجل يهودي عارف باللغات بفرى ذكر اسم الجمل فقال: لا شك أن العربية أوجز اللغات، فإن اسم الجمل بالعبرانية كومل فسقط منه الواو وحولت الكاف إلى الجيم". قال أبو عبيد: وللعرب في كلامها علامات لا يشتركهم فيها أحد من الأمم كعلامة إدخالهم الألف واللام في أول الاسم، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه مع نقلهم كل ما احتاجوا إليه من كلام العجم إلى كلامهم؛ فقد نقل ما قالت حكاة العجم والفلاسفة إلى العربية ولم يقدر أحد من الأمم على نقل القرآن إلى لغته لكمال لغة العرب. على أن الكثير من الناس حاولوا ذلك فعسر عليهم نقله، وتعذرت عليهم ترجمته؛ بل لم يصلوا إلى ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد.

المقصد الثاني

(في وجه احتياج الكاتب إلى اللغة)

لامرية في أن اللغة هي رأس مال الكاتب، وأُسُّ كلامه، وكثر إنفاقه؛ من حيث إن الألفاظ قوالبٌ للعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة؛ وحينئذ يحتاج إلى طول الباع فيها، وسعة الخطو، ومعرفة بسائطها : من الأسماء والأفعال والحروف، والتصريف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية : ليقدر بذلك على استعمالها في محالها، ووضعها في مواضعها اللائقة بها، ويحد السبيل إلى التوسع في العبارة عن الصور الزائفة في نفسه فيتسع عليه نطاق النطق، وينفسح له المجال في العبارة، وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، وتدعو الضرورة إلى نعته؛ فيستظهر على ما ينشبه، ويحيط علماً بما يذره ويأتيه؛ إذ المعاني وإن كانت كامنة في نفس المعبر عنها فإنما يقوى على إبرازها وإبانها من توفر حفظه من الألفاظ، وأقداره على التعرف فيها : ليأمن تداخلها وتكريرها المهيجين للعاني — وناهيك أن ابن قتيبة لم يضمن كتابه "أدب الكاتب" غير اللغة إلا التزوير اليسير من الهجاء؛ وأبا جعفر النحاس ضمن كتابه "صناعة الكتاب" جزءاً وافراً من اللغة؛ وأبا الفتح كشاجم لم يزد في كتابه "كثر الكتاب" على ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقصد الثالث

(في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من اللغة؛ ويرجع المقصود منه إلى خمسة أصناف)
الصنف الأول — الغريب، وهو ما ليس بمألوف الاستعمال، ولادائر على الألسنة وذلك أن مدار الكتابة على استخراج المعاني من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والشعر؛ وألفاظها لا تخلو عن الغريب؛ بل ربما غلب الغريب منها في الشعر على

المألوف لاسيما الشعر الجاهلي . وقد قال الأصمعي "توسلت بالمُلح ونلت بالغريب" . قال صاحب "الريحان والرياعان" : والغريب وإن لم يُنفق منه الكاتب فإنه يجب أن يُعلم ويُتطَلع إليه ويُستَشرف ؛ فُرِبَ لفظه في خلال شعر أو خطبة أو مثل نادر أو حكاية ، فإن بقيت مُقفلة دون أن تُفتَح لك ، بقي في الصدر منها حُرَازة تُخَوِّج إلى السُّؤال ؛ وإن صُنّت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجهال . وقد عاب ابن قتيبة رجلا كتب في وصف يزدون : "وقد بعثت به أبيض الظهر والشفقين" فقيل له : هَلَّا قلت في بياض الشفتين أرثم ألمط ؛ فقال لهم : فبياض الظهر ، قالوا لا ندرى ، فقال : إنما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر . وذم قوما من وجوه الكُتّاب بأنه آجتماع معهم في مجلس فتذاكروا عُيوب الرقيق فلم يكن فيهم من يُفَرِّق بين الوكع والكوع ، ولا بين الحنف والفدع^(١) ، ولا بين اللى والألطع . ثم قال : "وأى مقام أحرزى لصاحبه من رجل من الكُتّاب أصطفاه بعض الخلفاء ، وآرتضاه لِسِرّه ، فقرأ عليه يوما كتابا فيه مُطرنا مطرا كثر عنه الكلا" ، فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلا ؟ فتردد في الجواب ، وتعثّر لسانه ثم قال : لا أدري ؛ فقال : سل عنه" . قال أبو القاسم الزجاجي في شرح مقدمة أدب الكاتب : وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عمار ، وكان يتقلد العِرض عليه ؛ وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمد بن عمار الكتاب وسأله عن الكلا فلم يعرفه ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! خليفة أمي ، وكاتب عامي ؛ ثم قال من يُقرب منا من كُتّاب الدار فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف على قهزيمة الدار فأمر بإشخاصه ، فلما مثل بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال : النبات كله رطبُه

(١) هو بالفاء والذال المهملة اعوجاج الرُسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم الى أنسها . قاموس . وفي الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنه .
(٢) هو من باب دخل كما في المختار .

ويأيسه، فإذا كان رطباً قيل له خلا، وإذا كان يابساً قيل له حشيش، وأخذ في ذكر النبات من ابتدائه إلى آكتهاله إلى هيجه، فقال المعتصم "ليتقلد هذا العرض علينا"، ثم خص به حتى استوزره.

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التي هي من أهم شأنه، وأغنى مقاصده. وجل كتب اللغة المصنفة في شأنها راجعة إليه، كصاح الجوهري، ومحكم ابن سيده، ومجمل ابن فارس وغيرها من المصنفات التي لا تكاد تُحصى كثرة والصاح أقربها مأخذاً، والمحكم أمثلها طريقة، وأكثرها جمعاً، وأكملها تحقيقاً. وقد صرف قوم من المصنفين العناية من ذلك إلى الإقتصار على ذكر الأسماء والأوصاف: كأوصاف الرجال والنساء المحمود والمذمومة، وما يختص من ذلك بالرجال والنساء؛ وأوصاف الخيل، وأعضائها، وألوانها، وشياتها، وأسنانها، وسيرها، وعدوها وما يخص الذكور والإناث منها؛ وأوصاف الوحوش: من السباع والظباء والوعول والبقر والحمر الوحشيين؛ وأسماء الطير: من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة، وبغاث الطير كالرخم، وصغاره كالنحل والجراد؛ وأوصاف الهوام كالخشرات: من الحيات والوزغ ونحو ذلك؛ وأوصاف العلويات: من السماء والسحاب والرياح والأمطار؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك؛ وأسماء النباتات: من الشجر البري كالطلع والأراك، والبساتني كالنخل والعنب؛ والنبات البري كالشيع والقيصوم؛ وأنواع المرعى؛ وأسماء الأماكن: من البراري والقفار، والرمال والجبال والأحجار، والمياه والبحار والأنهار والعيون والسيول؛ والرياض والمحال والأبنية؛ وأسماء جواهر الأرض: من اليواقيت ونحوها؛ وسائر مستخرجات المعادن، كالنحاس والرصاص وما يجري مجراها؛ ومستخرجات البحر: من اللؤلؤ والعنبر والمرجان وغيرها؛ وأسماء المأكولات: من الحبوب، والفواكه، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة؛ وأسماء الأشرية : كالماء، واللبن، والعسل، والخمر؛ وأسماء السلاح : من السيوف، والرماح، والقيسي، والسهم، والدروع وغيرها؛ وأسماء اللباس : من الثياب على اختلافها؛ وأسماء الأمتعة، والآنية وسائر الآلات؛ وأسماء الطيب : من المسك، والتند، والغالية، والزعفران، وما أشبهها . وكذلك كل ما يجري هذا المجرى . و”كفاية المتحفظ“ لابن الأجدابي، و”المذهبة والمعقبة“ لابن أصبغ كافتان بالكثير من ذلك . وفي ”أدب الكاتب“ لابن قتيبة و”فقه اللغة“ للشعالبي الجزء الوافر من ذلك .

وصرف آخرون عنايتهم إلى التأليف في الأفعال وتصاريدها كابن درستويه وغيره . وفي ”فصيح ثعلب“ جزء وافر من ذلك ؛ ولعصرينا الشيخ مقبل الصرغتمشيّ النحويّ كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثاني — الفروع المتشعبة في المعاني المختلفة، وهي فروع كثيرة متسعة الأجزاء، متباينة المقاصد؛ لا يكاد يجمعها مصنف، وإن كان الكاتب لا يستغني عن شيء منها، ولا يحسن به تركه .

منها المتباين والمترادف . فأما المتباين فهو ما دلّ لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى، كالسواد والبياض، والطول والعرض؛ ويحتاج إليه في التعبير عن المعاني المختلفة لاتساع نطاق الكلام . وأما المترادف فهو المتوارد الألفاظ على مسمى واحد كالأسد والسبع للحيوان المفترس؛ والثنية والقُلوص للناقاة، ونحو ذلك . ويحتاج إلى معرفة ذلك للمخلص عند ضيق الكلام عليه في موضع لطول لفظة أو قصرها أو اختلاف وزنها في شعر، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة في ثر، أو غير ذلك مما يضطر فيه إلى إيراد بعض الألفاظ بدل بعض، كما في قوله :

وَتَيْنِيَّةٍ جَاوَزَتْهَا بَثْنِيَّةٌ * حَرْفٍ يُعَارِضُهَا جَنْبٌ أَذْهَمُ

فإنه أراد بالثنية الأولى العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ؛ والجنب الأذم استعارة لظلمها . فالثنية من حيث وقوعها على الناقة والعقبة أوفق للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التي هي الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب^(١) الفقه ونحوها .

ومنها الحقيقة والمجاز . والحقيقة هي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي كالأسد للحيوان المقترس ، والجمار للحيوان المعروف . والمجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة ، كالأسد للرجل الشجاع بعلاقة الشجاعة في كل منهما ، والجمار للبلد بعلاقة البلادة في كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلى الاستعارة والتمثيل والكناية لما بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليد فإنها في أصل اللغة للبحارحة أُطلقت على القوة والنعمة مجازا ، من حيث إن القوة تظهر في اليد والنعمة تُولى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما في معناها .

ومنها الألفاظ المتضادة وهي التي تقع كل لفظة منها على ضد ما تقع عليه الأخرى كالأمانة والخيانة ، والنصيحة والغش ، والفتق والرتق ، والنقص والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيرا ما يبنى على الأضداد وربما غلط الكاتب بفعل مقابل الشيء غير ضده فيلزمه النقص في صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطباق اللذين هما من أحسن أنواع البديع . وفي "صناعة الكتاب" لأبي جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك ، وفي "كثر الكتاب" لأبي الفتح كشاف جملة جيدة منه أيضا . ومنها تسمية المتضادين باسم واحد كالجون للأسود والأبيض ، والقرء للطهر والحيض ، والصريم لليل والنهار ، ووراء لخلف وقدام ، ونحو ذلك . ويحتاج إليه للتمييز بين الحقائق التي يقع اللبس فيها . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

ومنها المقصور والمدود كالندى للجود وندى الأرض ، والحقا لكلال القدم والخابر ، والمدود كالسما للقلك وكل ما علاك ، والبقاء لضد الفناء ، وبحود ذلك ؛ وما يجوز فيه المد والقصر جميعا كالزناء والشرء^(١) وما أشبههما . ويحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبار المد والقصر كلفظ الهوى فإنه إن قصر كان بمعنى هوى النفس ، وإن مد كان بمعنى ما بين السماء والأرض . الثانى أنه إذا أضيف المدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يحتاج إلى زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان مما يجوز فيه المد والقصر، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كالبلاء والقلاء ، فإنه إذا كسر أو طما قُصرا وكُتبا بالياء وإذا فتح مُدّا وكتب بالالف . وكالبقاء فإنه إذا خفف مُدّ وإذا شدد قُصر ؛ ففى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته ، وفى "أدب الكاتب" من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلف أحواله باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور . وذلك أن المؤنث على ضريين : أحدهما ما فيه علامة من علامات التأنيث الثلاث ؛ وهى الهاء نحو حمزة وطلحة ، والألف المدودة نحو حمراء ، والألف المقصورة نحو حُبلى . وضرب لا علامة فيه وإنما يؤخذ من السماع : كالسما ، والأرض ، والقوس ، والحرب ، وما أشبهها . وربما كان منه ما يجوز فيه التذكير والتأنيث كالطريق ، والسبيل ، والموسى ، واللّسان ، والسُّلطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب من يذكّر ذلك ومنهم من يؤنّثه . وربما وقع لفظ التأنيث على الذكر والأُنثى جميعا

(١) أهمله فى الأصل وهو من افعال الناح.

(٢) قوله ولو كان مما يجوز الخ كذا فى الأصل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محل الوجه الثالث الذى سقط من قلم الناح وحاصله أن الداعى إلى معرفتها إما أن يرجع إلى المعنى وهو الأول أو إلى الرمم والكتابة وهو الثانى أو إلى النطق والرمم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسُّخْلَةِ والحَيَّةِ والحَمَامَةِ والنَّعَامَةِ والبَطَّةِ ونحوها . وأيضا فإن من وَصَفَ المؤنث ما يُحْدَفُ منه الهاء باعتبار تأويل آخر كصِغَةِ فَعِيل : فإنه إن كان بمعنى مفعول كقَتِيلٍ بمعنى مقتول وخَضِيبٍ بمعنى مخضوب، حُدِفَتِ الهاءُ من مؤنثه : فيقال امرأةٌ قَتِيلٌ وكَفَّ خَضِيبٌ وما أشبه ذلك، وإن كان بمعنى فاعل كعَلِيمٍ بمعنى عالم ورحيمٍ بمعنى راحم، تَبَيَّنَتِ الهاءُ في مؤنثه : فتقول فيه عَلِيْمَةٌ وَرَحِيْمَةٌ . وعلى العكس من ذلك فَعُولٌ فإنه إن كان بمعنى فاعل كان بغير هاء نحو امرأةٌ صَبُورٌ وشَكُورٌ بمعنى صابرةٌ شاكرةٌ، وإن كان بمعنى مفعول كان مؤنثه بالهاء كالخُلُوبَةُ بمعنى المحلوبة ، والرَّكُوبَةُ بمعنى المركوبة ؛ وصِغَةُ مُفْعِلٍ مما لا يُوصَفُ به الذكور تكون بغير هاء كامرأة مُرْضِعٌ ، فإن أرادوا الفعل قالوا مُرْضِعَةٌ ؛ وصِغَةُ فاعلٍ مما لا يكون وصفاً لمذكر تكون بغير هاء أيضا نحو امرأة طالقٍ وحاملٍ ، وربما حُدِفَتِ الهاءُ مما يكون للذكر والمؤنث جميعا فتقول امرأة عاقِرٌ ورجلٌ عاقِرٌ . وفي "أدب الكاتب" و"فصيح ثعلب" جملة من ذلك . وفي كتب النحو المبسوطه قواعدٌ موصَّلةٌ إلى مقاصده .

ومنها المَهْمُوزُ وغيرُ المَهْمُوزِ فإن المعنى قد يختلف في اللفظ الواحد باعتبار الهمز وعدمه : كما تقول عَبَّاتُ المتاع بالهمز، وَعَبَّيْتُ الجليش بغير همز، وبارَأْتُ الكَرِيَّ بالهمز من الإبراء، وبارَيْتُ فلانا من المفارقة بغير همز. وتقول زنى من الزنا بغير همز، وزنأ في الجبل إذا رقى فيه ونحو ذلك . وربما جاء الهمزُ وعدمه في الكلمة الواحدة كما تقول شئت بالهمز وشيت بإسكان الياء من غير همز ونحو ذلك . فتنى لم يكن الكاتب عارفا بالهمز ومواضعه ضلَّ في طريق الكتابة . وفي "أدب الكاتب" باب مفردٌ لذلك .

ومنها ما ورد من كلام العرب مُزْدَوِجاً كقولهم الطَّمَّ والرَّمَّ، يريدون بالطَّمَّ البحرَ وبالرَّمَّ الثرى، وكقولهم الحجرَ والمدَرَّ، فالحجر معروف والمدَرُّ الترابُ النَّدَى ونحو ذلك .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكن من وضعه في مواضعه لتحسين الكلام وتتيقنه في الطباق والمقابلة ؛ وفي "أدب الكاتب" نبذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنى إما على سبيل التغليب : كقولهم القمران يريدون الشمس والقمر، والعمران يريدون أبا بكر وعمر، وإما على الحقيقة : كقولهم ذهب منه الأطيبان، يريدون الأكل والنكاح واختلف عليه الملوآن أو الجديدان، يريدون الليل والنهار، ونحو ذلك ؛ وفي "أدب الكاتب" أيضا طرف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتباً كقولهم أوّل النوم النعاس، وهو الاحتياج إلى النوم ؛ ثم الوسن، وهو ثقل النعاس ؛ ثم الكرى والغمض، وهو أن يكون بين النائم واليقظان ؛ ثم التفريق، وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم ؛ ثم الإغفاء، وهو النوم الخفيف ؛ ثم التهجع، وهو النوم القليل ؛ ثم الرقاد، وهو النوم الطويل ؛ ثم الهجوع، وهو النوم الغرق ؛ ثم التسبيخ^(١)، وهو أشد النوم، وما أشبه ذلك، وفي "فقه اللغة" للتحالبي قدر صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مَورد الدعاء : إما على بابه في الدعاء كقولهم "استأصل الله شأفته" يريدون أذهب الله أثره كما يذهب أثر الشأفة، وهى قرحة تخرج في القدم فتكوى فتذهب ؛ وقولهم "أباد الله خضرأهم" أى سوادهم ومُعظمهم . أو لم يقصد به حقيقة الدعاء، كقولهم "تربت يدك" أى ألصقت بالتراب من الفاقة، وقولهم "أرغم الله أنفه" أى ألصقه بالرغام، وهم لا يقصدون به الدعاء . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

ومنها ما تختلف أسماءه مع المشابهة في المعنى كالظفر للإنسان، والحافر للفرس والبغل والحمار، والظلف للبقر، والمنسم للبعير، والبرثن للسمك، وما يجري هذا المجرى. وفي "فقه اللغة" جزء وافره منه .

ومنها ما تختلف أسماءه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يقال فيه كأس إلا اذا كان فيه شراب وإلا فهو قدح، ولا مائدة إلا اذا كان عليها طعام والا فهي خوان، ولا قلم إلا اذا كان منبريا والا فهو أنبوبة، ولا حاتم إلا وفيه قص وإلا فهو فتحة ونحو ذلك، وفي "فقه اللغة" جملة منه .

ومنها معرفة الأصول التي تُشتق منها الأسماء كتسمية القمر قمرًا لياضه، إذ القمر هو الأبيض، وتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلة البدر لمبادرة الشمس القمر بالطلوع، أو لتماحه وأمتلائه حينئذ من حيث إن كل تام يقال له بدر، وتسمية النجم نجمًا، أخذًا من قولهم نجم إذا طلع ونحو ذلك، وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) ومنها ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب، لعدم وجوده في لغتهم وهو المغرب كالكف والساق والدلال والوزان والصراف والجمال والقصاب والبيطار وما أشبه ذلك، وفي "فقه اللغة" جزء من ذلك كاف .

ومنها ما أشترك فيه العربية والفارسية، كاللثور، والخيبر، والدينار، والدرهم، والصابون، وما أشبه ذلك، وفي "فقه اللغة" أيضا نبذة منه .

ومنها ما اضطررت العرب إلى تعريبه وأستعماله في لغتهم من اللغة العجمية كالكوز، والإبريق، والطست، والخوان، والطبق، وغيرها من الآنية، والسجاج، والزيرباج، والطبايح، والجوداب، ونحوها من الأطعمة، والجلاب، والسكنجيين، ونحوهما

(١) قوله وهو المغرب كذا في الأصل .

من الأشربة، والحوْلَنجان، والكافور، والصَّنْدل، وغيرها من الأَفَاويه، والطَّيب ونحو ذلك؛ وفي "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيِّدة. إلى غير ذلك من الأمور التي لا يَسَع استيفائها مما في أدب الكاتب وفقه اللغة الكثيرُ منه.

ومنها ما تعددت لغائهُ؛ وتَعَلَّم أن لغة العرب متعدّدة اللّغات متسعة أرجاء الألسن بحيث لا تُساويها في ذلك لغة. فمن ذلك ما فيه لغتان كقولهم رَطْل ورَطْل بكسر الراء وفتحها وسمّ وسمّ بفتح السين وضمها؛ وما فيه ثلاث لغات مثل بُرُقِع بضم القاف وُبرُقِع بفتحها وُبرُقُوع بضم الباء وزيادة الواو، وخاتم بكسر التاء وخاتم بفتحها وخَيْتام؛ وما فيه أربع لغات مثل تَطَع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَع بفتح النون والطاء جميعا وكَسَر النون؛ وصَدّاق بفتح الصاد وصِدّاق بكسرها وصُدّاق بضمها وصُدّقة بضم الصاد وسكون الدال؛ وما فيه خمس لغات كقولهم رِيح الشَّمال بفتح الشين من غير همز، والشَّمال بالهمز، والشَّمال بغير همز، والشَّمْل بفتح الميم، والشَّمْل بسكونها؛ وما فيه ستُّ لغات كفُسْطاط بضم الفاء وفِسْطاط بكسرها، وفُسْطاط بضم الفاء وإبدال الطاء تاء، وفِسْطاط بكسر الفاء، وفُسْطاط بضم الفاء وتشديد السين، وفِسْطاط بكسر الفاء؛ وما فيه تسع لغات كالأُتملة بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الميم وضمها وكسرها؛ وما فيه عشر لغات كالأصْبِع بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الباء وضمها وكسرها والعاشر أَصْبُوع. وفي "أدب الكاتب" جملةٌ من هذا النمط.

الصنف الثالث — الفصيح من اللغة. وأَعْلَم أن اللغة العربيّة قد تنوّعت وأختلفت بحسب تنوّع العرب واختلاف ألسنتهم؛ والذي أَعْتَمَدَهُ حُدّاق اللغة وجهازة العربيّة من ذلك مناطق به فُصحاء العرب، وهم الذين حلّوا أوساط بلاد العرب، ولم يخالطهم من سِوَاهم من الأمم كثير مخالطة، ولم يُصَابِقُوا بلاد العجم

فَبَقِيَتْ أَلْفَاظُهُمْ سَالِمَةً مِنَ التَّغْيِيرِ وَالْإِخْتِلَاطِ بِلُغَةِ غَيْرِهِمْ : كَقُرَيْشٍ ، وَهَذِيلٍ ، وَكَانَةَ ، وَبَعْضُ تَمِيمٍ ، وَقَيْسُ عَيْلَانَ ، وَنَحْوُهُمْ مِنْ عَرَبِ الْحِجَازِ ، وَأَوْسَاطِ نَجْدٍ .
بِخِلَافِ الَّذِينَ حَلُّوا فِي أَطْرَافِ بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَجَاوَرُوا الْأَعْجَمَ فَتَغَيَّرَتْ أَلْفَاظُهُمْ
بِمَخَالِطَتِهِمْ : كَحِمَيْرَ ، وَهَمْدَانَ ، وَخَوْلَانَ ، وَالْأَزْدَ : لِمَجَاوَرَتِهِمْ بِلَادَ الْحَبَشَةِ ، وَطَيْئَ
وَعَسَّانَ : لِمَجَاوَرَتِهِمْ بِلَادَ الرُّومِ بِالشَّامِ ، وَبَعْضُ تَمِيمٍ ، وَعَبْدُ الْقَيْسِ : لِمَجَاوَرَتِهِمْ أَهْلَ
الْحِزْرِ وَفَارِسَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَدْخُلُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ عِدَّةِ وَجُوهِ :

مِنْهَا أَنْ تُبَدِّلَ كَلِمَةٌ بِغَيْرِهَا : كَمَا يَسْتَعْمَلُ أَهْلُ اللُّغَةِ الْحِمَيْرِيَّةِ "ثَبَّ" بِمَعْنَى 'أَجْلَسَ' ،
وَهِيَ فِي عَامَّةِ لُغَةِ الْعَرَبِ لِلْأَمْرِ بِالطَّفْرِ . قَالَ الْقَاضِي الرَّشِيدُ فِي شَرْحِ أُمْنِيَّةِ الْأَلْمَعَى
"وَرَبَّمَا غَلَبَتْ الْعُجْمَةُ عَلَى أَحَدِهِمْ حَتَّى لَا يُفْهَمَ عَنْهُ شَيْءٌ" .

وَمِنْهَا أَنْ تُبَدِّلَ حَرْفًا مِنَ الْكَلِمَةِ بِحَرْفٍ آخَرَ : كَمَا تُبَدِّلُ حِمِيرُ كَافِ الْخَطَابِ شِينًا
مَعَجَمَةً يَقُولُونَ فِي قُلْتُ لَكَ قُلْتُ لَشَّ ؛ وَرَبَّمَا أَبَدَلُوا التَّاءَ أَيْضًا كَافًا يَقُولُونَ
فِي قُلْتُ قُلْكَ ، وَكَمَا تُبَدِّلُ رُبْعَةُ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ مِيمًا يَقُولُونَ فِي بَكَرَ مَكْرَ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
وَكَأَيْسِدِلُ بَعْضُ الْعَرَبِ الصَّادَ الْمَهْمَلَةَ بِالسَّيْنِ الْمَهْمَلَةَ يَقُولُونَ فِي صَابِرٍ سَابِرٍ ، وَكَأَيْسِدِلُ
بَعْضُهُم الطَّاءَ الْمَهْمَلَةَ بِتَاءِ الْمُثَنَاءِ فَوْقُ يَقُولُونَ فِي طَالَ تَالٌ وَتُسْمَعُ مِنْ عَرَبِ
أَهْلِ الشَّرْقِ كَثِيرًا ، وَكَأَيْسِدِلُ قَوْمِ التَّاءِ الْمُثَنَاءِ فَوْقُ بِضَادٍ مَعَجَمَةً يَقُولُونَ فِي أَتْرَأْضِرْ .
وَمِنْهَا أَنْ يُعَاقَبَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ فِي الْكَلِمَةِ كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ فِي بَلَّغْ فَلَخْ ، وَفِي أَصْبَهَانَ
أَصْفَهَانَ .

وَمِنْهَا أَنْ يَأْتِيَ بِحَرْفٍ بَيْنَ حَرْفَيْنِ فَيَأْتُونَ بِكَافٍ بِحَيْمٍ يَقُولُونَ فِي كَلَّ جَمَلٌ . قَالَ
أَبْنُ دُرَيْدٍ : "وَهِيَ لُغَةٌ فِي الْيَمَنِ كَثِيرَةٌ فِي أَهْلِ بَغْدَادٍ" وَيَأْتُونَ بِحَيْمٍ كَكَافٍ

على العكس من الأول فيقولون في رَجُل رَكُل يقتربونها من الكاف، ويأتون بشين معجمة بحيم فيقولون في أَجْتَمَعُوا أَشْتَمَعُوا، ويأتون بصاد مهملة كزاي فيقولون في صِرَاطٍ زِرَاطٍ، ويأتون بحيم كزاي فيقولون في جابر زابر، ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة، قاله ابن سعيد عن سماعه من العرب؛ ولا يكاد يوجد منهم من يَنْطِقُ بها على أصلها الموصوف في كتب النحويين . وقد ذكر الشيخ أنير الدين أبو حيان ذلك جميعه في شرحه على تسهيل ابن مالك .

الصنف الرابع — ما تأيّن فيه العامة وتغيّره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأول والعامة تكسره : كقولهم في جَفْن العين بفتح الجيم جَفْن بكسرها ؛ أو مفتوح الأول والعامة تضمّه : كقولهم في القَبُول الذى هو خلاف الرَدِّ قَبُول بضمها ؛ أو مكسور الأول والعامة تفتحه : كقولهم في دِرْهَم بكسر الدال دَرِهَم بفتحها ؛ أو مكسور الأول والعامة تضمّه : كقولهم في التَّمْسَاح بكسر التاء تُمْسَاح بضمها ؛ أو مضموم الأول والعامة تفتحه : كقولهم في العُصفور بضم العين عَصْفُور بفتحها ؛ أو مضموم الأول والعامة تكسره : كقولهم في الظُّفْر بضم الظاء ظُفْر بكسرها ؛ أو مفتوح الوَسْط : كقولهم في القَالِب بفتح اللام قَالِب بكسرها ؛ أو مكسور الوسط والعامة تفتحه : كقولهم في الرجل المُوَسَّوس ، والبرّ المَسَّوس ، والجبن المدوّد بكسر الواو في الثلاثة : مُوسَّوس ومُسَّوس ومدوّد بفتحها ؛ أو مضموم الوسط والعامة تفتحه كقولهم في الجُدُد جمع جديد جُدَد بفتحها ؛ أو محزك الوسط والعامة تسكّنه : كقولهم في التَّحْفَة بفتح الحاء تحْفَة بإسكانها ؛ أو ساكن الوسط والعامة تحزّكه : كقولهم في الحَلَقَة بإسكان اللام حَلَقَة بفتحها ؛ أو مشددا والعامة تخفّفه : كقولهم في العارِيَة بتشديد الياء عارِيَة بتخفيفها ؛ أو مخففا والعامة تشدّده : كقولهم في الكَرَاهِيَة بتخفيف الياء كَرَاهِيَة بتشديدها ؛ أو مهموزا والعامة تحذف الهمز من أوّله : كقولهم في الإِهْلِيلَج بإثبات همزة في أوّله

هَلِيجَ بِحَذْفِهَا ؛ أَوْ مَهْمُوزَ الْوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَسْهَلُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْمِرْءَاةِ بِإِثْبَاتِ الْهَمْزَةِ مِرَاةً بِحَذْفِهَا ، أَوْ غَيْرِ مَهْمُوزِ الْأَوَّلِ وَالْعَامَّةُ ثَبَتِ الْهَمْزَةَ فِي أَوَّلِهِ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْكُرَّةِ ، أُكْرَّةً^(١) ، أَوْ كَانَ بِالْظَاءِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ كَالْوِظِيفَةِ وَنَحْوِهَا ، أَوْ بِالضَّادِ بِفَعْلَتِهِ بِالْظَاءِ : كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي الْبَيْضَةِ بَيْظَةً ، أَوْ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ كَالذَّرَاعِ ، أَوْ كَانَ بِالْجِيمِ بِفَعْلَتِهِ بِالْقَافِ : كَقَوْلِهِمْ فِي مَجَادِيفِ السَّفِينَةِ مَقَادِيفَ ؛ أَوْ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ بِفَعْلَتِهِ بِالنَّاءِ الْمُثَنَّى فَوْقَ : كَقَوْلِهِمْ فِي دَخَارِ بَصِ الْقَمِيصِ تَخَارِ بَصِ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا شَاعَ وَذَاعَ وَفِي ”أَدَبِ الْكَاتِبِ“ لِأَبْنِ قَتَيْبَةَ نُبْدَةٌ مِنْ لَحْنِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، وَكَاتِبٌ ”تَثْقِيفُ اللِّسَانِ“ لِأَبْنِ مَكِّي التُّونِسِيِّ مَوْضُوعٌ فِي لَحْنِ أَهْلِ الْغَرْبِ ، وَفَصِيحٌ ثَعْلَبٌ مُشْتَمَلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْمَقْصِدِ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ — الْأَلْفَاظُ الْكَاتِبِيَّةُ ، وَهِيَ الْأَفْظَاءُ الَّتِي يُخْتَارُ الْكُتَّابُ وَاتَّقَوْهَا مِنْ اللُّغَةِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَتَمَيُّزًا لَهَا فِي الطَّلَاوَةِ وَالرَّشَاقَةِ عَلَى غَيْرِهَا . قَالَ الْجَاهِظُ ”مَا رَأَيْتُ أَمَثَلَ طَرِيقَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ ، فَإِنَّهُمْ اتَّسَّوْا مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مَتَوَعَّرًا حُوشِيًّا ، وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا“ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي ”الْمَثَلِ السَّائِرِ“ : أَنَّ الْكُتَّابَ غَرِبُوا لُغَةً وَاتَّقَوْا مِنْهَا الْأَفْظَاءَ رَائِقَةً اسْتَعْمَلُوهَا .

ثُمَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ أَسْمَاءٌ وَأَفْعَالٌ : فَالْأَسْمَاءُ كَقَوْلِكَ فِي الْمَدْحِ فَلَانُ غُرَّةِ الْقَبِيلَةِ ، وَسَنَامُهَا ، وَذَوَاتُهَا ، وَذِرْوَتُهَا ، وَهُوَ نَبْعَةُ أَرْوَمَتِهِ وَأَبْلَقُ كَتِيبَتِهِ وَمِدْرَهُ عَشِيرَتِهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَالْأَفْعَالُ كَقَوْلِكَ فِي إِصْلَاحِ الْفَاسِدِ : أَصْلَحَ الْفَاسِدَ ، وَلَمْ الشَّعْثَ ، وَرَأَبَ الشَّعْبَ ، وَضَمَّ النَّشْرَ ، وَرَمَّ الرِّثَّ ، وَجَمَعَ الشَّتَاتَ ، وَجَبَرَ الْكُسْرَ ، وَأَسَا الْكَلِمَ ، وَرَقَعَ الْخَرَقَ ، وَرَتَّقَ الْفَتَقَ ، وَشَعَبَ الصَّدْعَ . وَفِي ”كِتَابِ الْأَلْفَاظِ“ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَيْسَى الْكَاتِبِ كِفَايَةٌ مِنْ ذَلِكَ . وَلَهُ مَخْتَصَرُ أَرَبِيٍّ عَلَيْهِ . وَفِي ”كَتَرِ الْكُتَّابِ“ لِكُشَّاحِمٍ مَا فِيهِ مَقْنَعٌ .

المقصود الرابع

(في كيفية تصرف الكاتب في الألفاظ اللغوية . وتصريفها في وجوه الكتابة)

لاخفاء أنه إذا أكثر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعرف الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد والمتقاربة المعاني ، تمكن من التعبير عن المعاني التي يضطر إلى الكتابة فيها بالعبارات المختلفة ، والألفاظ المتباينة ؛ وسهل عليه التعبير عن مقصوده ، وهان عليه إنشاء الكلام وترتيبه . وفي الأمثلة التي أوردناها كشاجم في "كثر الكتاب" ، حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق في ذلك ، ويهدي إلى سلوك الجادة الموصلة إلى القصد منه .

وهذه نسخة مكتوبة منه في التهنئة بمولود يستضاء بها في ذلك ، وهي :

قد جعلك الله من نبعة طابت مغارسها ، أرومة رسخت عروقها ؛ شجرة زكت غصونها ؛ فرع شرفت منابته ، معدن زكت علائقه ؛ جوهر شاعت مكارمه ؛ عنصير بسقت فروعه ؛ تحمد ذاعت محامده ؛ أصل نجبت مآثره ؛ سنخ خلصت مناقبه ؛ نصاب صرحت مفاخره ؛ تجرمت مساعيه ؛ أصل فضلت معالمه ؛ عنصير نصرت محاسنه ؛ متمى كثرث مناقبه . فالزيادة فيها زيادة في جوهر الكرم ، مظاهر في نحو ثرى الإفضال ، ذخيرة نفيسة لذوى الآمال ، نعمة كاملة السعادة ، غبطة شاملة البشاشة ، سرور يواجه الأولياء ، حُبور تحتويه الأعداء ، غبطة تصل إلى الأحرار ، آتجاج لذوى الأخطار . فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الوافية ، بالولاية الكافية ، الكفاية المتظاهرة ، الدفاع الكالى ، الحفاظ الداعى ، الصنع الجميل ، الدفاع الحسِن ، العافية المتكاثفة . وبلغنى الخبرُ بهبة الله المستجدة ، الولد المبارك ، الفرع الطيب ، السليل الرضى ، الولد الصالح ، الابن السار ، الثمرة المثمرة ، السلالة الزكية ، النجل

الميمون، الذى عمر أُنْيَةَ السَّيَادَةِ . زاد فى مواثيق العهد والرياسة ، أرسى قَوَاعِدَ
السيادة ، ثَبَّتَ أَسَاسَ الرِّقْعَةِ ، أَوْثَقَ عُرى المجد ، مَكَّنَ أركان الفضل ، وَطَّدَ أَسَاسَ
الْمَكَارِمِ ، أَكْثَدَ علائِقَ الشَّرَفِ ، أَبَدَ أَوَانِي الكرم ، أَرَمَ جِبَالَ الجُودِ ، أَمَرَّ أَسْبَابَ
الطُّولِ ، شَيَّدَ بُيُوتَ الْكَمَالِ ، أَحْصَفَ أَيْدِي السَّمَاةِ ، أَحْكَمَ قُوَى الرَّجَاحَةِ ، أَوْثَقَ
عَقْدَ الْعُلَا ، رَفَعَ دَعَائِمَ الظُّهَارَةِ ، أَنَارَ أَعْلَامَ الْغَارَةِ ، أَظْهَرَ عِلَامَاتِ الْخَيْرِ . فَنَبَّاشَتْ
بِهِ ، أَنْهَجَتْ ، أَجْتَذَلَتْ ، أَغْبَطَتْ ، فَرِحَتْ ، سُرِرَتْ ، اسْتَبَشَّرَتْ . جعله الله بَرًّا
تَقِيًّا ، سَيِّدًا ، حَمِيدًا ، مَيْمُونًا ، مُبَارَكًا ، طَيِّبًا ، عَزِيزًا ، سَعِيدًا ، ظَهِيرًا ، عَوْنًا ، نَاصِرًا ،
رَاجِحًا ، زَكِيًّا ، وَزَرًا ، مَلْجَأً . يَتَقَبَّلُ سُلْفَهُ ، وَيَقْتَنِي أَثَرَهُ ، يَسْلُكُ مِنْهَا جِهَهُ ، يَسُنُّ
سُنَّتَهُ ، يَتَّبِعُ قَصْدَهُ ، يَسِيرُ سِيرَتَهُ ، يَسْعَى مَسَاعِيَهُ ، يَنْحُو مِثَالَهُ ، يَحْدُو حَذْوَهُ ،
يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِمْ ، يَتَبَصَّرُ بِصِيرَتِهِمْ ، يَنْوُطُ أَعْمَالَهُمْ ، يَتَرَسَّمُ رُسُومَهُمْ . وَأَيْمَنَ بِهِ عِدْدَكَ ،
كَثَّرَ بِهِ دُرَيْتَكَ ، أَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمْلِكَ ، شَفَعَهُ اللَّهُ بِأَخْوَةِ بَرَّةٍ ، وَفَقَّهُهُ اللَّهُ لِأَدَاءِ حَقِّكَ ،
جَعَلَهُ خَيْرَ خَلْفٍ كَمَا هُوَ خَيْرُ سَلَفٍ . زَيْنَ بِهِ الْعَشِيرَةَ ، وَهَبَ لَهُ التَّمَاءَ ، بَلَغَ بِهِ
أَشْكَالَ الْعُمُرِ ، مَكَّنَ لَهُ فِي رَفِيعِ الْمَرَاتِبِ ، حَقَّقَ فِيهِ فِرَاسَتَكَ ، وَهَبَ لَهُ تَمَامَ الْفَضِيلَةِ ،
وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، أَجَارَكَ فِيهِ مِنَ الثُّكُلِ ، سَرَّكَ بِفَائِدَتِهِ ، أَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْتِهِ ، أَطَابَ
عَيْشَكَ بِهِ ، مَتَّعَكَ بِعَطِيَّتِهِ ، أَلْهَمَكَ شُكْرَ مَا خَوْلَكَ ، وَاصَلَ لَكَ الْمَزِيدَ بِرَحْمَتِهِ .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عدة كتب بتهنئة
بولد ، فعل . كما إذا قال : قد جعلك الله من نَبْعَةٍ طَابَتْ مَغَارِسُهَا ، فَالزِّيَادَةُ فِيهَا زِيَادَةٌ
فِي جَوْهَرِ الْكَرَمِ ، فَتَوَلَّى اللَّهُ نِعْمَهُ عِنْدَكَ بِالْحِرَاسَةِ ، وَبَلَّغْنِي الْخَبْرُ بِهَيْبَةِ اللَّهِ الْجَدِيدَةِ
الْمُسْتَجِدَّةِ ، الْوَلَدِ الْمُبَارَكِ الَّذِي عَمَّرَ أُنْيَةَ السَّيَادَةِ ، فَنَبَّاشَتْ بِهِ ، جعله الله تعالى بَرًّا

تقيا، يتَقِيلُ سَلَفَهُ، وأَيْمَنَ بِهِ عَدَدَكَ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ، وَوَصَلَ لَكَ الْمَزِيدَ بِرَحْمَتِهِ، كَانَ ذَلِكَ كِتَابًا كَافِيًا فِي هَذَا النُّوعِ . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ وَقِسْ عَلَيْهِ .

النوع الثاني

(المعرفة باللغة العجمية، وهى كل ما عدا العربية : من التركية، والفارسية،
والرُومِيَّة، والفِرَنْجِيَّة، والبربرِيَّة، والسُّودَان، وغيرهم؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللغات العجمية)

لا يَخْفَى أَنَّ الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ فِي كَمَالِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ لُغَةِ الْكُتُبِ الَّتِي تَرِدُ عَلَيْهِ لِلْمَلِكَةِ
أَوْ أَمِيرِهِ لِيَفْهَمَهَا وَيُجِيبَ عَنْهَا مِنْ غَيْرِ أَطَّلَاعِ تَرْجُمَانٍ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَصَوْنٌ لِسِرِّ مَلِكِهِ،
وَأَبْلَغُ فِي بُلُوغِ مَقَاصِدِهِ .

وقد روى محمد بن عمر المدائني في "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت
رضي الله عنه أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّهُ يَرِدُ عَلَى أَشْيَاءَ
مِنْ كَلَامِ السُّرْيَانِيَّةِ لَا أَحْسِنُهَا فَعَلِمْتُ كَلَامَ السُّرْيَانِيَّةِ فَعَلَّمْتُهَا فِي سِتَّةِ عَشَرَ يَوْمًا)) وفي رواية
قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أَتَحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ؟ فَإِنَّهُ يَأْتِنِي كُتُبُهَا،
قُلْتُ لَا . قَالَ فَعَلَّمْتُهَا فَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةِ عَشَرَ يَوْمًا، فَكُنْتُ أَجِيبُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقْرَأُ كُتُبَ يَهُودَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ)) وفي رواية، قال : قال لي
رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يَأْزِيدُ تَعَلُّمَ كِتَابِ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَمْنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي
قَالَ فَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ فَمَا مَرَّ لِي سِتُّ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَدَّثْتُهُ فَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ
إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأُجِيبُ إِذَا كَتَبَ)) وفي رواية العبرانية بدل السُّرْيَانِيَّةِ .

قال محمد بن عمر المدائني بل قد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفهم اللغات كلها وإن كان عربياً لأن الله تعالى بعثه إلى الناس كافة ولم يكن الله بالذي يبعث نبياً إلى قوم لا يفهمهم، ولذلك كَلَّمَ سَلْمَانَ بالفارسية . وساق بسنده إلى عكرمة أنه قال : سئل ابن عباس هل تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفارسية قال نعم، دخل عليه سلمان فقال له درسته وسادته قال محمد بن أميل : أظنه مَرَجَباً وأهلاً .
وحينئذ فيكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر زيدا بتعلم كتابة السريانية أو العبرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعلم لغتهم .

المقصد الثاني

(في بيان ما يتصرف فيه الكاتب من اللغة العجمية)

اعلم أن الذي ينبغي له تعلمه من اللغات العجمية هو ما تتعلق به حاجته في المخاطبة والمكاتبة .

أما المخاطبة فإن يكون لسان ملكه بعض الألسن العجمية أو كان الغالب عليه لسان عجمي مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية على ملوك الديار المصرية ، وكما غلبت اللغة الفارسية على ملوك بلاد العراق وفارس ، وكما غلب لسان البربر على ملوك بلاد المغرب مع تبعية عسكر كل ملك في اللسان الغالب عليه له في ذلك فيحتاج الكاتب إلى معرفة لسان السلطان الذي يتكلم به هو وعسكره ليكون أقرب إلى حصول قصده : من فهم الخطاب وتفهمه ، وسرعة إدراك ما يليق إليه من ذلك ، وتأدية ما يقصد تأديته منه ؛ مع ما يحصل له من الخطوة والتقريب بالموافقة في اللسان ؛ فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوس ملوك الديار المصرية وأمرائها وجُنُدها لمن يتكلم بالتركية : من العلماء والكتّاب ومن في معانهم على ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكتبة فبأن يكون يعرف لسان الكتب الواردة على ملكه لترجمها له ويُجيب عنها بلغتها التي وردت بها ؛ فإن في ذلك وقعاً في النفوس ، وأستجلاباً للقلوب ، وصونا للسِر عن اطلاع ترجمان عليه ؛ وأمرُ النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلّم السريانية أو العبرانية على ما تقدّم ظاهرٌ في طلب ذلك من الكاتب وحثّه عليه .

ثم اللغات العجمية على ضربين : أحدهما ماله قلم يُكتب به في تلك اللغة كاللغة الفارسية ، واللغة الرومية ، واللغة الفرنجية ونحوها ؛ فإن لكل منها قلماً يخصّه يُكتب به في تلك اللغة . والثاني ما ليس له قلم يكتب به ، وهي لغات القوم الذين تغلب عليهم البدّاءة كالترك والسودان . ولأجل ذلك ترد الكتب من القانات ملوك الترك ببلاد الشمال المعروف في القديم بيت بركة ، والآن بمملكة أذربك باللغة المغلية بالخط العربي ؛ وترد الكتب الصادرة عن ملوك السودان باللفظ العربي والخط العربي . أما اللغات التي لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتب الواردة من ملوك الروم والفرنج ونحوهما ممن للغة قلم يخصه على اختلاف الألسنة واللغات .

النوع الثالث

(المعرفة بالنحو ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إليه)

لا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية ، وميزان تقويمها ؛ وقد تقدّم في النوع الأول أن اللغة العربية هي رأس مال الكاتب ، وأُسُّ مقالته ، وكثر إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرق الإعراب، والأخذ في تعايط ذلك حتى يجعله دأبه،
ويُصيره ديدنه : ليرتسم الإعرابُ في فكره، ويدور على لسانه، وينطلق به مقالُ قلمه
وكلمه، ويزول به الوهم عن سجيته، ويكون على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتى من
البلاغة بأعلى رتبة ولحن في كلامه، ذهب محاسن ما أتى به، وأنهدمت طبقة كلامه
وألغى جميع ما حسنه، ووقف به عند ما جهله . قال في "المثل السائر" : وهو أول
ما ينبغي إثبات معرفته به، على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة بل بكل علم ؛ لا : بل
ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرة اللحن . قال صاحب
"الريحان والرياعان" ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم يحثون
على تعلم العربية، وحفظها والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، والمحل
المخصوص . قال عثمان المهرى : « أنا أنا كتابُ عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ونحن
بأذريجان يأمرنا بأشياء، ويدكر فيها : "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل، وتزيد
في المروءة" . وكان لخالد بن يزيد بن معاوية أخٌ بجاء يوماً فقال : إن الوليد
ابن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال
يا أمير المؤمنين ! : إن الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله وأستصغره ، وعبد الملك
مطرق فرفع رأسه وقال : ((إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا)) الآية — فقال خالد :
((وإذا أردنا أن نهلك قرية)) الآية — فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى ؟ وقد دخل
على فإقام لسانه لحنًا — فقال خالد : أفعلى الوليد تقول ؟ فقال عبد الملك : إن
كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان — فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه
خالد في كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوماً لبنيه : "ما ضرَّ أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ؟
أيسرَّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمتيه ؟" . ومن كلام مالك بن أنس

”الإعراب حَلَّى اللِّسَانِ فلا تَمْنَعُوا أَلْسِنَتَكُمْ حُلِيِّهَا“ . والله دَرَّ أبى سعيد البصرى !
حيث يقول :

النَّحْوُ يَسُطُّ مِنْ لِسَانِ الْأَلَكَيْنِ * وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَرْبِ
وَإِذَا طَلَبَتْ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ

قال صاحب ”الريحان والريعان“ واللحن قبيح في كبراء الناس وسراتهم ، كما أن الإعراب جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السفلة ويرتقي به إلى مرتبة تلحقه بمن كان فوق نمطه وصنّفه . قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنى ؛ فإن اللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراد به إلى ضده حتى يفهم السامع خلاف المقصود منه . وقد روى أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجزء رسوله فتوهم عطفه على المشركين فقال : أوبرئ الله من رسوله ؟ ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية . على أن الحسن قد قرأها بالجزء على القسم وقد ذهب على الأعرابي فهم ذلك لخفائه . وقرأ آخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ برفع الأول ونصب الثانى ، فوقع في الكفر بنقل فتحة إلى ضمة وضمة إلى فتحة فقل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفظن له . وسمع أعرابى رجلا يقول : أشهد أن محمدا رسول الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجل لآخر ما شأنك ؟ بالنصب فظن أنه يسأل عن شين به فقال عظم في وجهى . وقال رجل لأعرابى : كيف أهلك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهله فتوهم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صلبا . ودخل رجل على زياد بن أبيه فقال : إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله — فقال زياد للذى أضعته من كلامك أضر عليك مما أضعته من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال من عند أهلونا ، ففسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا والله أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ فأضحك كلُّ منهما من نفسه . قال صاحب "الريحان والريعان" وكان من يؤثر عقله من الخلفاء يعاقب على اللحن وينفر من خطي القول ، ولا يميز أن يُخاطب به في الرسائل البلدانية ، ولا أن يُوقف به على رءوسهم في الخطب المقامية قال : وهو الوجه . فأنذيتهم مَطْلَب الكمال ، ومَطَان الصواب في إحكام الأفعال ، فكيف في إحكام الأقوال . قال ابن قادم النحوى : "وجه إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبي : وهو أمير فأحضرني فلم أدِر ما السبب ، فلما قُرِبت من مجلسه تلقاني كاتبه على الرسائل ميمون بن إبراهيم وهو على ذاية الهلع والجزع ، فقال لي بصوت خفي إنه إسحاق ! ومرة غير متلبث حتى رجع إلى إسحاق ، فراغني ما سمعتُ ، فلما مثلت بين يديه ، قال كيف يقال وهذا المال مالٌ أو وهذا المالٌ مالا ، فعلمت ما أراد ميمون الكاتبُ فقلتُ له الوجهُ وهذا المالُ مالٌ ويموز وهذا المالُ مالا ، فأقبل إسحاق على ميمون كاتبه بغلظة وفظاظة ثم قال : «ألزم الوجه في كُتُبك ودع ما يجوز ! » ورمى بكتاب كان في يديه ، فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حملة إليه فقال «وهذا المالُ مالا» ، نخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته تكتائني باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجاوز موضع اللحن في قراءة الكتاب فقامت عند إسحاق ، فكان ميمون الكاتبُ بعد ذلك يقول : لا أدري كيف أشكر ابن قادم ببق على رُوحى ونعمتى . ووقف بعضُ الخلفاء على كتاب لبعض عماله فيه لحن في لفظه فكتب إلى عامله : قنع كاتبك هذا سوطاً معاقبةً على لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدار أهل العلم ، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه وإلحذر من الزلل . قال صاحب "الريحان والريعان" : فكيف لو أبصر بعضُ كتّاب زماننا هذا ؟ . قلت قد قال ذلك في زمانه هو وفي الناس بعض الرمق والعلمُ ظاهر وأهله مُكرمون ، وإلا فلو عمر إلى زماننا نحن لقال ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ .

ثم المرجع في معرفة النحو إلى التلّقى من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر في الكتب المعتمدة في ذلك من كتب المتقدمين والمتأخرين .

وأعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسّطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة في زماننا عند أبناء المشرق "المفصل" للزمخشري و"الكافية" لابن الحاجب . وعند المصريين كتبُ ابن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ابن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلّمي العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجّون بما يزعمون أن القاسم بن مُخَيَّمرة قال : « النحو أوله شغل وآخره بنى » قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل وأول الحساب شغل وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ؟ . قال وأما قوله « وآخره بنى » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حدّقه صار فيه زهو واستحقار من يلحن فهذا موجود في غيره من العلوم : من الفقه وغيره في بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبنى التجاوز فيما لا يحلّ فهذا كلامٌ محالٌ فإن النحو إنما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيما للعلماء حتى دخل فيهم من لا يستحقُّ هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبعُدَتْ عليهم معرفة الهمزة التي ينضمُّ ويفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لا معنى لها : في كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . — أما التعمّق في الإعراب والمبالغة فيه فإن حكمه في الاستكراه حكم التقعّر في الغريب ؛ وقد كانوا يذمّون من يتعاناه ، ويسخّرون من يتعاطاه . قال الأصمعي

خاصم عيسى بن عمر النحوي رجلا إلى بلال بن أبي بردة فجعل عيسى يُسبِّح الإعراب ويتعمق في الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه - فقال له القاضي: "لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليه من تركه الإعراب، فلا تتشاغل به وأقصِدْ بِحُجَّتِكَ". وخاصم نحويّ نحويّا آخر عند بعض القضاة في دين عليه فقال: "أصلح الله القاضي! لي على هذا درهمان" - فقال خصمه: "والله أصلحك الله! إن هي إلا ثلاثة دراهم ولكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما". فهذا وشبهه قد صار مذموما والمتشبه به مَلُوماً، ولذلك كان بعضُ الكتاب لشدة اقتداره على الإعراب يُعرب كلامه ولا يُخَيِّلُ إلى السامع أنه يُعرب، فإن عرض مع التعمق في الإعراب لحن، كان ذلك أبلغ في الشناعة، وأجدر بتوجه اللوم على صاحبه والسخرية من المتكلم به. وقد قال الجاحظ: «إن أقبح اللحن لحن أصحاب التعجير والتشديق والتعطيط والجمهوريّة والتفخيم». قال «وأقبح من ذلك لحن الأعراب النازلين على طريق السابلة وبُقرَبِ مجامع الأسواق». وعلى الجملة فالنحو لا يُستغنى عنه ولا يوجد بد منه، إذ هو حُلُّ الكلام، وهو له كما قيل كالمِلح في الطعام. قال في "المثل السائر": والجهل بالنحو لا يُقدَح في فصاحته ولا بلاغته ولكنه يُقدَح في الجهل به نفسه لأنه رُسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب أتباعهم؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مجراها وإِنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة. قال: ولذلك لم يكن اللحن قادحا في نفس الكلام: لأنه إذا قيل جاء زيد راكب بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا في حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته وإنما الغرض أمر وراء ذلك - وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من المنشور مع

ما حكي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدمين في شعرهم ، كقول أبي نؤاس في محمد الأمين :

يا خيرَ مَنْ كَانَ وَمَنْ يَكُونُ * إلا النَّبِيُّ الطَّاهِرُ المَأْمُونُ

رفع المستثنى من الموجب . وكقول المتنبي :

أرأيتَ هِمَّةَ نَاقَتِي في نَاقَةٍ * نَقَلَتْ يَدًا سُرْحًا وَخُفًّا مُجْمِرًا
تَرَكْتُ دُخَانَ الرِّمِّثِ في أوطَانِهَا * طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ العَنَبْرَا
وَتَرَكَمْتُ رُكْبَاتُهَا عن مَبْرَكِ * تَقَعَانِ فِيهِ وِلَيْسَ مِسْكَ أَذْفَرَا

بجمع في حالة التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلا رُكْبَتَانِ وقد قال رُكْبَاتُهَا .

وأعلم أن اللحن قد فشا في الناس ، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيباً ، والنطق بالكلام الفصيح عيباً . قلت : والذي يقتضيه حال الزمان ، والجري على منهاج الناس أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والكلام المسجوع ، وما يُدَوَّن من الكلام ، ويكتب من المراسلات ونحوها ؛ ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم ؛ وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام مذسدت الألسنة ، وتغيرت اللغة حتى حكي أن الفراء مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو دخل يوماً على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفراء أتلحن يا يحيى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضرة اللحن فاذا حفظت أو كتبت لم أَلْحَنُ وإذا رجعت إلى الطبع لَحَنْتُ — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" « ومتى سمعت حفظك الله نادرةً من كلام الأعراب فإياك أن

تَحْكِيهَا إِلَّا مَعَ إِعْرَابِهَا وَمَخَارِجِ أَلْفَاظِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ غَيَّرْتَهَا بَانَ لَحْنَتَ فِي إِعْرَابِهَا
أَوْ أَخْرَجْتَهَا مَخْرَجَ كَلَامِ الْمُؤَلَّدِينَ وَالْبَلَدِيِّينَ ، نَخَرَجْتَ مِنْ تِلْكَ الْحِكَايَةِ وَعَلَيْكَ فَضْلٌ
كَبِيرٌ ، وَإِنْ سَمِعْتَ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ الْعَوَامِّ وَمُلْحَةً مِنْ مُلَحِّهِمْ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ لَهَا
الْإِعْرَابَ أَوْ تُغَيِّرَ لَهَا لَفْظًا حَسَنًا ، فَإِنْ ذَلِكَ يُفْسِدُ الْإِمْتَاعَ بِهَا وَيُخْرِجُهَا مِنْ
صُورَتِهَا الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا وَيُذْهَبُ اسْتِطَابَتُهُمْ إِيَّاهَا . » قَالَ : « وَاللَّحْنُ مِنَ الْجَوَارِي
الظَّرَافِ ، وَمِنْ الْكَوَاعِبِ النَّوَهِدِ ، وَمِنْ الشَّوَابِّ الْمَلَّاحِ ، وَمِنْ ذَوَاتِ الْخُدُورِ أَيْسَرُ
وَرَبَّمَا اسْتَمْلَحَ الرَّجُلُ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَا لَمْ تَكُنِ الْجَارِيَةُ صَاحِبَةً تَكْلُفَ » وَلَكِنْ إِذَا كَانَ
اللَّحْنُ عَلَى سَبِيحَةِ سُكَّانِ الْبَلَدِ كَمَا يَسْتَمْلِحُونَ اللَّفْظَ إِذَا كَانَتْ حَدِيثَةَ السَّنِّ فَإِذَا أَسْنَتَ
وَأَكْتَهَلَتْ سُمِّ ذَلِكَ الْاسْتِمْلَاحُ . قَالَ : « وَمَنْ اسْتَمْلَحَ اللَّحْنَ فِي النِّسَاءِ مَالِكُ بْنُ أَسْمَاءَ
فَقَالَ فِي بَعْضِ نِسَائِهِ :

أُمُغْطَى مِئْنَى عَلَى بَصْرَى لِلنَّحْبِ أَمْ أَنْتِ أَكَلِ النَّاسِ حُسْنًا ؟
وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مِمَّا * تَشْتَبِيهِ الْأَسْمَاعُ يُوزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقُ صَائِبٍ وَتَلَحُّنُ أَحْيَا * نَا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا »

وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِحَسَبِ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَرَبَ وَإِنْ تَغَيَّرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ
بِمَخَالِطَةٍ مِنْ عِدَاهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُو كَلَامُهُمْ مِنْ مُوَافَقَةِ الْإِعْرَابِ فِي بَعْضِ الْكَلَامِ
وَالْجُرِّيِّ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ خُصُوصًا عَرَبِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْهُمْ . وَقَدْ قَالَ
الْجَاهِظُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ « وَلِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَلْسِنَةٌ ذَلِيقَةٌ ، وَأَلْفَاظٌ حَسَنَةٌ ، وَعِبَارَةٌ جَيِّدَةٌ ،
وَاللَّحْنُ فِي عَوَامِّهِمْ فَايَشَ وَعَلَى مَنْ لَمْ يَنْظُرْ مِنْهُمْ فِي النَّحْوِ غَالِبٌ » .

المقصود الثاني

(في كيفية تصريف الكاتب في علم العربية)

وأعلم أن انتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يليحق به . ومن أهم ما يعتنى به من ذلك النسب لكثرة استعماله في الألقاب ونحوها ، وكذلك العدد فإنه مما يقع فيه اللبس على المبتدئ ؛ ومحل ذلك كله كتب النحو . الثاني فيما يقع الكاتب فيه بطريق العرض ، فيحتاج من ذلك إلى معرفة النحاة ومشاهير أهل العربية كأبي الأسود الدؤلى ، وسيبويه ، والفرّاء ، وأبي على ، وأبي عثمان المازنى وغيرهم من المتقدمين ؛ وأبن عُصفور وأبن مالك وأبن مُعطى وغيرهم من المتأخرين ؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة في هذا الفن : من المبسوطات والمختصرات من كتب المتقدمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التي أصطلحوا عليها : من ذكر الأسم ، والفعل ، والمعرفة ، والنكرة ، والمبتدأ ، والخبر ، والحال ، والتمييز ، وألقاب الإعراب : من الرفع والنصب والجر والجزم وغير ذلك مما تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم في استعمالهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك يُدرج ما عَن له من ذلك في خلال كلامه حيث أحتاج إليه في التواقيع والمكاتبات وغيرها .

قال في « التعريف » في وصية نحوى : وهو زيد الزمان ، الذي يضربُ به المثل ، وعمرو الأوان ؛ وقد كثر من سيبويه المثل ومازنى الوقت لكنه لم يستبح الإبل ، وكسائى الدهر الذي لو تقدم لما اختار غيره الرشيدُ للأمون ، وذو السُودد لا أبو الأسود على أنه ذو السابقة والأجر الممنون . وهو ذو البرِّ المأثور ، والقدر المرفوع ولو أنه المنسوب وذيلُ نخاره المجرور . والمعروف بما لا يُنكر لمثله من الجزم ، والذهابُ عمله الصالح بكل العوامل التي لم يبق منها لحسوده إلا الجزم . وهو ذو الأينية التي

لا يفصح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرف أفصح منها فيما أُخذ عن الأعراب .
والذى أصبحت أهدأه فوق عمام الغائم ثلاث ، ولم يزل طول الدهر يُشكر
منه أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات ثلاث . فليُتصد للإفاده ، وليُعلمهم مثل
ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزياده . وليُكن للطلبة نَجْمًا به يُهتدى ، ويرفع
بتعليمه قدر كل حبر يكون خبراً له وهو المبتدا . وليُقدّم منهم كل من صلح للتبريز ،
وأستحق أن يُنصب إماماً بالتمييز . وليُورد من موارده أعذب النّطاف ، وليُجزّ إليه كل
مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم على حقائق الأسماء ، ويعرفهم دقائق البحوث
حتى اشتقاق الأسم هل هو من السمو أو من السماء . وليُبين لهم الأسماء العجمية
المنقولة والعربية الخالصة ، ويدلّهم على أحسن الأفعال لا ما يتشبهه بصفات كان
وأخواتها من الأفعال الناقصة ، وليُحفظهم المثل وكلمات الشعراء ، وليُنصب نفسه لحد
أذهان بعضهم ببعض نَصَب الإغراء . وليعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف ،
ومع هذا كله فليترقّق بهم فما بلغ أحدٌ علماً بقوة ولا غايةً بعسْف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من جملة توقع مدرس : «ولأنه
في البيان ذو الانتقاد والانتقاء . والعربيّ الذى كان لِرِقَاب الفضلاء ابن مالك فإن
قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى رسالة اقترحت عليه فى هذا
الباب وهى : «حرس الله نعمة مولاي ! ، ولا زال كَلِمُ السعد من أسمه ، وفعله ،
وحرف قلبه يأتلف ، ومنادى جوده لا يُرخم وأحمدُ عيشه لا ينصرف . ولا عليم
مستوصل الرّزق من براعته التى لا تقف الوصل ^(١) ولا عَدِمَتْ نَحْاة الجُود

من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود . ولا خاطبت الأيام مُلتَمِسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه الا بلام الجحد . هذه المفاوضة اليه أعزّه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدنا له فعلا غدا به متصببا للكايد ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوت صُحْبته تكررت بخاز قطعها بسبب ذلك التكرير . وسيدنا يعلم بالعلمية المدكُون من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضا على الإضافة . وكان الظن أن الأشغال التى بُجِعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لا تكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرف ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبح معرب إحسانه مبنيا ، وأن نزيل كرمه يكون للنكرات بأى محكيها أو أن يأتى سيدنا بالماضى من الأفعال فى معنى الاستقبال ، أو أن يجعل بدل غلطه الإبدال للأشتمال . أو يدغم من مودته مظهرًا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُخْبِرًا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدير سيدنا مصدرا . ولا يرح سيدنا نسيج وحده فى أموره ! ولا زال حلمه يتناسى الهفوات لا يشتغل مفعوله عن فعله بضميره .

النوع الرابع

(المعرفة بالتصريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليها ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ، ضلّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالبدال المهملة . ودُكِّن المتاع تضديد بعضه على بعض وهو غير مناسب لفعله مصحف عن المذكور بالزاي بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظهورا واضحا
 فيما إذا قيل للنحوى الجاهل بعلم التصريف كيف تصغر لفظة اضطراب فإنه يقول
 ضطريب^(١)، ولا يلام في ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون
 إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفه منها، نحو
 قولهم في منطلق مطيلق وفي جحمرش جحيمرش^(٢) . ولفظة منطلق على خمسة أحرف
 وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها معنى فلذلك لم تُحذف
 وحُذفت النون . وأما لفظة جحمرش فخاسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا .
 فإذا بنى النحوى على هذا الأصل ، فيما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف
 أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء ، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف
 الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلي فيصغر
 لفظة اضطراب حينئذ على ضطريب ، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى اضطراب مبدلة
 من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضطريب
 فإن هذا مما لا يعلمه إلا التصريف والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك آتاكلا منهم
 على تحقيقه من علم التصريف ، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ،
 فتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف إلى معرفة ذلك كتكليفه ما ليس من علمه .
 قال : فثبت بما ذكر أن علم التصريف مما يحتاج إليه لئلا يغلط فى مثل ذلك .
 قال : ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم
 وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأخفهم شأنا قد قال فى معاش معاش بالهمز ،
 وهذه اللفظة مما لا يجوز همزه بإجماع من علماء العربية : لأن الياء فيها ليست

(١) أى باثبات الياء بعد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفعال كما قد يتوهم بل ألف
 الأفعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحيمرش كما تقتضيه القواعد الصرفية . أنظر باب التصغير من الكتاب .

مبدلة من همزة وإنما الياء التي تبدل^(١) من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا يكون عينا نحو سَفَّان ، ولم يعلم نافع الأصل في ذلك فأخذ عليه وعيب عليه من أجله وذلك أنه اعتقد أن معيشة على وزن فَعِيلَة تجمع على فَعَائِل ولم ينظر إلى أن الأصل في معيشة معيشة على وزن مَفْعِلَة لأن أصل هذه الكلمة من عاش لكن أصلها عيش على وزن فَعَل ، ويلزم مضارع فَعَل المعتل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعِيش ثم تنتقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيش ثم يبنى من يَعِيش مفعول فيقال مَعْيُوش به كما يقال مَسِير به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشَة . ومن جملة من عابه أبو عثمان المازني فقال في كتابه في التصريف : إن نافعا لم يدر ما العريية .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر في بعض كُتُب الكُتَّاب فإذا فيه حرف مُصْلَح هو : وقد لَهَوْتُ عن جباية الخراج ، فاغتاط وقال لا يحكه غيري فخَّكه فأصلحه وقد لَهَيْت بالياء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه في الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُسَاناةً ثم صارت مشاهرة ثم صارت مُياومةً ثم صارت مُسَاعاةً ، فأخطأ ، وكان يجب أن يقول مُسَاوَعَة . قال في "المثل السائر" : وكثيرا ما يقع أهل العلم في مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا أَطْلَاع لهم عليها ، وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِب قَدْحا ولا طَعْنًا . قال : وقد وقع الغلط لأبي نُوَّاس فيما هو أظهر من ذلك ، وهو قوله في صفة الخمر :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا^(٣) * حَصْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

(١) أى التي تكون الهمزة بدلا منها .

(٢) لعله التي كما يقتضيه السياق .

(٣) المشهور فَوَاقِعُهَا . انظر شرح الأشموني في باب أفعل التفضيل .

فإن فُعِلَ أفعَلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعِلَ
التي لا أفعَلَ لها نحو حُبِلَ إلا أن تكون فُعِلَ أفعَلَ مضافةً، وها هنا قد عَرِيت عن
الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كَانَ الصَّغْرَى والكُبْرَى أو كَانَ
صُغْرَاهَا وَكُبْرَاهَا . فانظر كيف وقع أبو نُوَاس في مثل هذا الموضع مع قُرْبِهِ
وسُهُولِهِ . وغلط أبو تمام أيضا في قوله :

بِالْقَائِمِ النَّامِينَ الْمُسْتَخْلَفِ أَطَّادَتْ * قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُتَمَدًّا لَهَا الطُّولُ

فقال أَطَّادَتْ والصواب أَتَطَدَّتْ لأن التاء تُبَدَل من الواو في موضعين أحدهما
مقيس عليه كهذا الموضع : لأنك إذا بنيت أَفْعَل من الوعد قلت أَتَعَدَّ وكذلك
أَتَطَدَّتْ في البيت فإنه من وَطَدَ يَطْدُ كما يقال وَعَدَ يَعِدُ، فإذا بُنِيَ منه أَفْعَل قيل
أَتَطَدَّتْ ولا يقال أَطَّادَ . وأما غير المقيس فقولهم في وُجَاهِ نُجَاهٍ وَقَالُوا تُكْلَانِ وَأَصْلُهُ
الواو لأنه من وَكَلْ فأبدلت الواو تاء للاستحسان . ثم قال : إن المخطئ في التصريف
أندر وقوعا من المخطئ في النحو لأنه قلما تقع له كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال
والنقل في حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام في تصرف الكاتب
في التصريف على ما تقدم في النحو .

النوع الخامس

(المعرفة بعلوم المعاني ، والبيان ، والبدیع ، وفيه مقصدان)

المَقْصِدُ الْأَوَّلُ

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنيّة على سلوك سُبُل الفصاحة واقتفاء سَنَنِ

البلاغة، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطّر الكاتب إلى معرفتها، والإحاطة بمقاصدها: ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريا في ذلك على قوانين اللغة في التركيب، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء: من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها عن اللكن، وتأدية المطلوب بها، وتكامل الأقاويل الشعرية ثرا كانت أو نظما، في بلوغها غايتها وتأدية ما هو مطلوب بها، وأنها كيف لتعين بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخييل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشئ يذكّر بضده، فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض.

قال أبو هلال العسكري: "فإن صاحب العربية إذا أخلّ بطلب هذه العلوم، وقطّ في التماسها، فأنته فضيلتها، وعَلَقَتْ به رذيلة فوّتها، وعَفَى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرّق بين كلام جيد، وآخر رديء؛ ولفظ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد، بأن جهله، وظهر نقصه؛ وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يضع قصيدة وقد فأنته هذه العلوم، مزج الصفو بالكدر، وخط الغرر بالغرر؛ فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وغبرة للعاقل. وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه، ساء اختياره، وقبح آثاره؛ فأخذ الرديء المردود، وترك الجيد المقبول؛ فدلّ على قصور فهمه، وتأخر معرفته؛ مع ما في هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمدّ الكاتب شريف المعاني، ويستعير فصيح الألفاظ؛ بل منهما تُستفاد سائر العلوم، وتقتبس نفائس الفضائل". قال: "وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به، والقارئ المقتدى بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن

مناظرته، وتعام آله في مجادله، وشدة شكيته في حجاجه؛ وبالعربي الصليب،
والقرشي الصريح، أن لا يعرف فهم إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها منها
الزنجي والنبطي، وأن يستدل عليه بما يستدل به الجاهل الغبي“ .

على أن الشيخ بهاء الدين السبكي رحمه الله قد ذكر في شرح تلخيص المفتاح أن
أهل مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرّونها بالطبع، فقال في أثناء خطبته :
”أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم،
والفهم المستقيم، والأذهان التي هي أرق من النسيم، والطف من ماء الحياة في الحيا
الوسيم، أكسبهم النيل تلك الخلاوة، وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه
الطلاوة؛ فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الأغمار، الأعمار،
ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار، خلف الأستار .

والسيف ما لم يلف فيه صيقل * من طبعه لم يتففع بصقال

فيا لها غيمة لم يوجف عليها من خيل ولا ركاب، ولم يزحف إليها بعد وعيدة^(١)
ولا بلحاق لاحق وأنسكاب سكاب؛ فلذلك صرفوا همهم إلى العلوم التي هي
نتيجة أو مادة لعلم البيان، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن“ . ثم قال :
”وأما أهل بلاد الشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم، ولا سيما العلوم العقلية
والمنتطق، فاستوفوا همهم الشاغخة في تحصيله، وأستولوا بجدهم على جملة وتفصيله .
ووردوا مناهل هذا العلم فصّدروا عنها بملء سجلهم، وكيف لا وقد أجلسوا عليه
بجيلهم ورجلهم . فلذلك عمروا منه كل دارس، وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد
عنه الحارس . وبلغوا عنان السماء في طلبه، ولو كان الدين في الثريا لئله رجال من

(١) أي نوق نجائب منسوبة إلى بني العبد حتى من العرب . ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران .
انظر اللسان .

فارس“. إلى أن خرج عنهم المفتاح، فكأن الباب أغلق دونهم، وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح، فكأنما حيل بينه وبينهم. وأدارت المنون على قطبهم الدوائر، فتعطلت بوفاته من علومه أفواه الحابر وبطون الدفاتر. وأنقطعت زهراتهم الطيبة عن المقتطف، وتسلط على العضد لسان من يعرف ”كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِيف“. فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة رحمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مخض هذا العلم فألقى للطالب زبدته، ومخض النصح فنشر على أعطاف العارى برده، ولا حملت قبول القبول إلينا عنهم بطاقه، ولا حصلت للتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقه، ولا رأينا بعد أن أنطمست تلك الشموس المشرقة، وأندرست طبقة تحترق الفرقة، ولم يبق إلا رسوم هي من فضائلهم مسترقه. من أطلع غصن قلبه من روض الأذهان زهرة على ورقه، ولا من علق شنه بطبقتهم فيقال وافق شئ طبقه، بل ركدت بينهم في هذا الزمان ريحه، وخبث مصايحه، وناداهم الأدب سواكم أعني: و”رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ دَعْنِي“.

وما بعض الإقامة في ديار * يَهَابُ بها الفتى إلا بلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل، وأذن بالتحول.

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله * في مَتَرٍ فالرأى أن يتحول

وفزع إلى مصر فألقى بها عصا التسيار، وأنشد من نادى من تلك الديار.

أفنت بأرض مصر فلا ورائى * تحبُّ بي الركب ولا أَمَامِي

ولقد أحسن رحمه الله في بيان السبب، والتعويل في أنجبال أهل مصر على هذا العلم على علاقة الصهر والنسب. حيث قال في أوائل خطبته في أثناء الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما خفقت للبلاغة راية

نَجْدٍ فِي بَنِي غَالِبٍ بْنِ فِهْرٍ ، وَتَعَلَّقَتْ بِأَزْمَةِ الْفَصَاحَةِ أَهْلَ مِصْرَ : لِمَا لَهُمْ مِنْ نَسَبٍ وَصِهْرٍ ” .

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه ” حسن التوسل إلى صناعة الترتيل “: وهذه العلوم وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذهن الثاقب، والطبع السليم، والقريحة المطاوعة والفكرة المتقحة، والبديهة الحكيمة، والروية المتصرفة، لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني، وصناعة الكلام؛ يقول عن علم، ويتصرف عن معرفة، وينتقد بحجة، ويتخير بدليل، ويستحسن ببرهان، ويصوغ الكلام بترتيب .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاتب العارفين عن هذه العلوم قاصران عن أدنى رتب الكمال يحيدان ، ولا يدريان كيف يُجيبان . فلو سئل كل منهما عن علة معنى آستحسنه أو لفظ آستحلاه أو تركيب آستجاده ، لم يقدر على الإتيان بدليل على ذلك .

وقد حكى الإمام عبد القادر الجُرْجَانِي قال : ” ركب الكِنْدِيُّ الْمُتَفَلِّسُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ حَشْوَ — فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ فِي أَيْ مَوْضِع — قَالَ : وَجَدْتُ الْعَرَبَ يَقُولُ عَبْدَ اللَّهِ قَائِمٌ ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ قَائِمٌ ثُمَّ يَقُولُونَ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ لِقَائِمٌ فَالْأَلْفَاظُ مَتَكَرِّرَةٌ وَالْمَعْنَى وَاحِدَةٌ — فَقَالَ لَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ : لَا ، بَلِ الْمَعْنَى مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ ، فَقَوْلُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ قَائِمٌ إِنْخِبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ ، وَقَوْلُهُمْ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ سَائِلٍ ، وَقَوْلُهُمْ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ لِقَائِمٌ جَوَابٌ عَلَى إِنْكَارٍ مُنْكَرٍ قِيَامِهِ ، فَمَا أَحَارَ الْمُتَفَلِّسُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هَذَا عَلَى الْكِنْدِيِّ فَمَا الظَّنُّ بغيره ؟ وَإِنْ كَانَ مِنْ مُحَاسِنِ الْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي أَمْتَرَاةٍ بِالْقُلُوبِ غَيْرُ الذُّوقِ الصَّحِيحِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ قُتِرَ الْوَرَى غَيْرُ الَّذِي * يُدْعَى الْجَمَالَ وَلَسْتُ أُدْرِى مَا هُوَ
لكن الغالب فى الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتعليل مواده تمكينه . ويُجَابَ
عن العلة فى انحطاطه وارتفاعه ، ويذكر المعنى فى ارتفاعه من حضيض القول
إلى يقاه .

قلت : وهذا العلم وإن شُحِنَ أئمةُ الكُتَّابِ ^(١) — كما قال أبو هلال العسكري فى كتابه
”الصناعتين“ والوزير ضياء الدين بن الأثير فى ”المثل السائر“ والشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي فى ”حسن التوسل“ فإنه ليس مختصا بفن الكتابة بل هو آلة لكل
كلامٍ اقتضى البلاغة ، كما أن المنطق آلة لكل العلوم العقلية ، التى يُحتاج منها إلى
تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنّفات فيه كالرّمّانى والجرجانى وغيرهما ؛ وأكثر اعتماد
أهل الزمان فيه على تلخيص المفتاح للقاضى جلال الدين القزوينى فأغنى ما وضع
فيه عن إirاده هنا .

المقصود الثانى

(فى كيفية انتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طرقها ، أتى فى كلامه بالسحر الحلال ؛ وصاغ
من ألفاظه ومعانيه ما يقضى له بالفصاحة التامة ، والبلاغة الكاملة ، من وجوه تحقيق
الكلام ، وتحسينه وتديبجه وتنميقه . وإذا فانت هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها ،
نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك . ثم كما يحتاج إلى هذه العلوم بطريق
الذات ، كذلك يحتاج إليها بطريق العرض من جهة المعرفة بالبلقاء الذين يضربُ

بهم المثل في البلاغة كقُتس بن ساعدة ، وسحبان وائل ، وعمرو بن الأهتم ، ونحوهم من بلغاء العرب ؛ وابن المقفع ونحوه من المحدثين . وكما قيل في عيِّ باقل - وهو رجل انتهى به العيُّ إلى أنه اشترى ظيباً بأحد عشر درهماً ، فسأله سائل في الطريق ، وهو ممسك الظبي : بكم اشتريته ؟ فلم يُحسن التعبير عن أحد عشر ، ففزع أصابعه العشرة وأخرج لسانه مشيراً إلى أحد عشر فتفكَّت الظبي وفزهارباً - . وكعِرفة أئمة الصنعة : كالجرجاني والرَّماني . وكذلك المعرفة بالأسماء التي أصطلح عليها أهلها : من الفصل ، والوصل ، والتشبيه كما تقدم ، والمقابلة ، والمطابقة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما احتياجه إلى المعرفة بأسماء البلغاء ولغة أهل الصنعة ، فلائنه ربما احتاج إلى تفضيل بعض من يكتب له ممن يُنسب مثله إلى البلاغة فيفضله بمساواته لبليغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنعة : كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير في ذم كاتب : هَذَا وهو يدعى أنه في الفصاحة أئمة وحده ، ومن قُتس إباد وسحبان وائل عنده ؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفاً له :

أَنَا وَمَا دَانَاهُ سَحْبَانُ وَائِلٌ * بَيَانًا وَعِلْمًا بِالذِي هُوَ قَائِلٌ
فَمَا زَالَ عِنْدَ اللَّقْمِ حَتَّى كَانَهُ * مِنَ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِأَقْلٍ

ومما أتى على ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولِي في كلام قليل جاء ذكره في آخر رسالة كتبتُ بها في تقرّيط المقرّ الفتحي ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية - وهو : "على أني أستقيل من التقصير في إطرائه ، والتعزُّض في مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو أن الحافظ نصيري ، وابن المقفع ظهيري ، وقُتس بن ساعدة يُسعدني ، وسحبان وائل يُخجِدني ، وعمرو

آبن الأهم يُرشدنى ؛ لكان أعترا فى بالتقصير أبلغ مما آتبه ، وإقرارى بالقصور أولى مما أخفيه ، من توالى طوله وأياديه .

وأما احتياجه إلى معرفة ألفاظ أهل الصناعة ، فلا أنه ربما ورى بها فى تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زين الدين أبو بكر بن العجمى على البديعية التى نظمها عيسى العالیه الشاعر ، مضاهيا بها بديعية الصغى الحلى فقال :

”وبعد فقد وقفت على هذه المعجزة التى أحيا بها عيسى ميت البديع ، وجود ماشاء فيها من التصريح والترصيع ، ورقم لأعطافها حلل التوشيح والتوشيع ، ونظم لأجیاد أبیاتها فرائد المعانى المستخرجة من بحر فكره على يد يراعه المريع ، وقلدها من درر لفظه بما هو أزهى من زهر الزهر على نهر الحجرة وهالات البدور ، وشفت المسامع منها بما هو أبهى من النور فى العیون وأوقع من الشفاء فى الصدور ؛ وأولج الليل فى النهار بما طرس به الطروس ، وأطلع فى ذلك الليل من ناصع معانيه نجوما تزهى على الشمس ، وأودع المهارق شذورا تزيّف ذهب الأصائل ؛ وشفّر عن وجوه حسان تفوق ابتسام تغور الأزاهر بين الخمائل ؛ وسلك فى البديع طريقة مثلى ، أظهر فيها من شهد ألفاظه وجواهر معانيه ماحلا وحلى ؛ ولم يدع للحلى فى بهجتها محلا ؛ وأحسن التذيل والترشيع والتهكم عليه ، من غير التفات لما أهمله ولم يتعرض إليه ؛ وعادت المعانى تأوى من حسن تصرفه إلى ركن شديد ، وتحوى بشبا أقلامه كل مارامه من تأبید التأیید ؛ وتلقى مقالیدها منه إلى ملى بحسن التحیل والتحول فى نظمه ونثره ، وتحكم لمن حکم له بكمال وصفه ووصف كماله بأنه نسیج وحده وفريد عصره ؛ وأجرى فى حلبة البديع جیاد أقلامه فجاز قصب الرهان ، وأصفى لها موارد النفس فارتوت وأستخرجت من ظلماته جواهر البیان ؛ ونطقت بما هو

المالوف من غرائب حِكْمِهِ الحسان ؛ وتأملتُها فوجدتها قد أجاد فيها براعة المَطْلَع ،
وبالغ في تحسين المَتَرَعِ والمَقْطَع ؛ ودخل جنان الجناس فاجتنى من قُطوفها الدانية
ماراق ، وأطردت له أنهارها فاستطرد منها في أعلى الطَّبَاق ؛ وقابل وجوه حُورها
أحسن المقابلة ، آمنّا فيها من الاشتراك والمثالة ؛ وأوضح الفروق بين التَّوْرِيَةِ والإِبْهَامِ ،
والتوجيه والاستخدام ؛ وأبان في التميمي نقص أبي تمام ، وأوجب في إبهامه
عقد الخناصر على نظمه ، وفوض بزاهته التسليم له وطلب سائمه ؛ ولم يقنع بما فيه
الاكتفاء من التذليل والتذنيب ، بل أتى في الاستدراك على من تقدمه بالعجب
العجيب ؛ معتمداً في تكميل مقاصده الاقتصار والإيجاز ، ولو ادعى الإعجاز على
الحقيقة لا المجاز لجاز ؛ وتحققت أن ليس له في هذا الفن مُقَاوِ ولا مُقاوم ، ولا مساوٍ
ولا مساوم ؛ فكم جلب من بحر براعته دُرّة أشرقت في ليالي الفترة المسوَّدة ، وكم
حلب من ثدى براعته دُرّة لها ألف زُبْدَة ؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع
البحرين ، وسمع ورأى من فضله الجزل وفضله الجزيل ما هو عين المراد ومراد
العين ؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وأبتكاره صَبَاحَ الوجوه الصُّباح ، وخَفَقَ
في الخافقين لمقاصده وبصائر جناح النجاح . قد أصبحت كلماته نُحُصُور الفرائد
مَنَاطِق ، ولبُدُور الفوائد مَشَارِق ؛ ولطلائع أسرار المَبَانِي ، آلات ، ولَمَطَالع أُنْجَار
المعاني ، هالات ؛ وقد وقعت حين وقعت على بديعته هذه بين دأين كل منهما
الأخطر ، وبين أمرين أمرين كل منهما الأعسر ؛ إن لم أكتب عليها شيئاً فقد
أخللت بالفرض الواجب ، وإن كتبت فقد فضحت نفسي وعرضتها للعائب ؛
ولكني رُحْتُ على ظُلْمِي متحاملاً ، وغدوتُ على حسب طاقتي في هذا الباب قائلاً :

(١) الدرة بالفتح المرة وبالكسرية الدروكثرة . مصباح [وقد أعجم الذال في الأصل وهو من إهمال

عَاشَ الْبَدِيعُ وَكَانَ مَيِّتًا وَأَنْتَى * بَادَى الْحَاسِنِ زَاهِيًا مَحْرُوسًا
أَحْيَاهُ عَيْسَى نَجَلَ حَجَّاجٍ وَكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أَحْيَاهُ قَدْماً عَيْسَى

النوع السادس

(حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان احتياج الكاتب إلى ذلك في كتابته)

قال في "حسن التوسل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالى، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبر معانيه، حتى لا يزال مصوراً في فكره، دائراً على لسانه، ممثلاً في قلبه ليكون ذا كراه في كلامه وكل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى قيام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وكفى بذلك مُعِينًا له على قصده، ومُغْنِيًا له عن غيره. قال تعالى ﴿مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ . قال في "المثل السائر" كان بعضهم يقول : لو ضاع لي عقل لوجدته في القرآن الكريم . قال في "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلاً سأل بعض العلماء أين تجد في كتاب الله معنى قولهم "الجار قبل الدار"؟ قال في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبل الدار، ونظائر ذلك كثيرة .

وقد اختلف في جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم في المكاتبات ونحوها : فذهب أكثر العلماء إلى جواز ذلك ما لم يحل عن لفظه ولم يتغير معناه . فقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب في كتابه إلى هرقل ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ إلى قوله مسلمون ؛ وروى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عهده لعمر بن الخطاب ﴿ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ . وَسِعِلُّمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْلِبُونَ ﴾ على ما سيأتي في ذكر عهود الخلفاء عن الخلفاء إن شاء الله تعالى .

وكتب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في آخر كتاب إلى معاوية "وقد علمت مواقع سيوفنا في جدك وخالك وأخيك" ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ . وقال للغيرة ابن شعبة لما أشار عليه بتولية معاوية ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

وكتب إلى عامل من عماله بعد البسملة ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ . وقال الحسن بن علي لمعاوية حين نازعه في الخلافة ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ . ويروى عن ابن عباس مثله . وكتب الحسن إلى معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وكافة للناس أجمعين ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

وكتب محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي إلى المنصور في صدر كتاب ﴿ طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ؛ تَتْلُو عَلَيْهِ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَنُزِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . ولم يزل العلماء وفضلاء الكتاب يستشهدون بالقرءان الكريم في مكاتباتهم في القديم والحديث ، من غير تكبر ؛ وذلك كله دليل الجواز . ونقل عن الحسن البصري ما يدل على كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر على رجل آستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان : بلغني أن أمير المؤمنين عطس فشمته من حضر فرد عليهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . قال في "حسن التوسل" : وإذا صححت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره على الحجاج لكونه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه مثل قوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله تعالى .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال في "المثل السائر" وإذا ضُمَّتْ الآياتُ في أماكنها اللاتقة بها ، وموضعها المناسبة لها ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق . قال في "حسن التوسل" : ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجّة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال في "حسن التوسل" : وأين قول العرب — القتلُ أنفى للقتل — لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى من قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك فقرأ عليه ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فعيسى ابن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض ، وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة .

فمن أخصر ما وقع في ذلك وأبلغ أنه كان على الروم بهرقلة في أيام الرشيد امرأة منهم ، وكانت تلاتف الرشيد ولها ابن صغير ، فلما نشأ فوضت الأمر إليه فعاش

وأفسد وخاشن الرشيد؛ فخافت على ملك الروم فقتلت ولدها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يَقْفُور فقتلها وأستولى على الملك وكتب إلى الرشيد: أما بعد، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه، ووضعت نفسها موضع الرُخ، وينبغي أن تعلم أني أنا الشاه وأنت الرُخ فأتد إلى ما كانت المرأة تؤدى إليك! فلما قرأ الكتاب. قال للكتاب: أجيئوا عنه فأتوا بما لم يرتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى يَقْفُور كلب الروم. أما بعد، فقد فهمت كتابك، والجواب ما تراه لا ماتسمعه، والسلام على من أتبع الهدى.

ثم خرج في جمع له لم يُسمع بمثله فتوغل في بلاده وفنك وسي. فأوقد يَقْفُور في طريقة نارا شديدة فحاضها محمد بن يزيد الشيباني، وتبعه الناس حتى صاروا من ورائها؛ فلما رأى يَقْفُور أنه لا قبل له به، صالحه على الجزية يؤديها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته.

وكتب ملك الروم إلى المعتصم يتوعده ويتهده فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه فلم يُعجبه مما كتبوا شيء فقال لبعضهم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ماتسمع (وسيعلم الكافر لمن عُقبى الدار). هذا مع ما ينسب إليه المعتصم من ضعف البصر بالعربية كما تقدم في الكلام على اللغة. ولا يستكثر مثل ذلك على الطبع السليم، والرجوع إلى سلامة العنصر وطيب المحتد.

ومثل ذلك في الجواب وأخصر منه أن الأدفونش ملك الفرنج بالأندلس. كتب إلى يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيره يقال له

آبَن الفخار : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةِ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ
 آبَن مَرْيَمِ الْفَصِيحِ ، أَمَا بَعْدُ : فَلَا يَخْفَى عَلَى ذِي ذَهْنٍ ثَاقِبٍ ، وَعَقْلٍ لَازِبٍ ، أَنِّي أُمِيرُ
 الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّكَ أُمِيرُ الْمَلَّةِ الْحَنَفِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ رُؤَسَاءُ خَزِيرَةِ
 الْأَنْدَلُسِ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالتَّوَاكُلِ وَالْإِخْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ وَأَنَا أَسُوْمُهُمُ الْخُسْفِ وَأُخْلِي
 مِنْهُمْ الدِّيَارَ ، وَأَجُوسُ الْبِلَادَ ، وَأَسْبِي الذَّرَارِيَّ ، وَأَقْتُلُ الْكُهُولَ وَالشَّبَّانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 دِفَاعًا ، وَلَا يُطِيقُونَ آمْتِنَاعًا ، فَلَا عَذْرَ لَكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنْ نَصْرِهِمْ ، وَقَدْ أَمَكَّتَكَ يَدُ
 الْقُدْرَةِ ، وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُمْ قِتَالَ عَشْرَةِ مَنَا بَوَاحِدٍ مِنْكُمْ ،
 وَالْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَلْتَقَاتِلْ عَشْرَةَ مِنْكُمْ الْوَاحِدَ مَنَا ؛
 ثُمَّ بَلِّغْنِي أَنَّكَ أَخَذْتَ فِي الْإِحْتِفَالِ ، وَأَشْرَفْتَ عَلَى رِبْوَةِ الْإِقْبَالِ ، وَتَمَاطَلْ نَفْسُكَ عَامَا
 بَعْدَ عَامٍ : وَأَرَاكَ تُقَدِّمُ رَجُلًا وَتُوَخِّرُ أُخْرَى ؛ وَلَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ الْجُبْنُ أَبْطَاكَ
 أَوِ التَّكْذِيبُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ؛ ثُمَّ حُكِيَ لِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ إِلَى الْجَوَازِ سَبِيلًا لَعَلَّ
 لَا يَجُوزُ لَكَ التَّفَخُّمُ بِهِ مَعَهَا ؛ فَأَنَا أَقُولُ مَا فِيهِ الرَّاحَةُ لَكَ ، وَأَعْتَذِرُ لَكَ وَعَنْكَ ، عَلَى
 أَنْ تَقْبَلْ لِي بِالْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الرِّهْنِ ، وَتَرْسِلَ لِي بِجَمَلَةٍ مِنْ عِيْدِكَ
 بِالْمَرَكَبِ وَالشَّوَانِي ، وَأَجُوزَ بَجَهْتِي إِلَيْكَ ، وَأَبَارِزُكَ فِي أَعْرَ الْأَمَاكِنِ عَلَيْكَ ؛ فَإِنْ كَانَتْ
 لَكَ فَغَنِيْمَةٌ وَجَّهَتْ إِلَيْكَ ، وَهَدِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَإِنْ كَانَتْ لِي كَانَتْ
 يَدِي الْعُلْيَا عَلَيْكَ وَأَسْتَوْجِبُ سِيَادَةَ الْمَلَتَيْنِ ، وَالْحَكْمَ عَلَى الدِّينَيْنِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَسَهِّلُ
 مَا فِيهِ الْإِرَادَةُ ، وَيُوفِّقُ لِلْسَّعَادَةِ ؛ لِأَرْبَ غَيْرِهِ ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ .

فكتب رحمه الله جوابا على أعلى كتابه ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَهُمْ يُجَنُّوْا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

(١) كذا في الأصل بالقاء والحاء المعجمة ويظهر أنه تصحيف عن التثيم بالقاف والحاء المهملة
 والتثيم في الشيء الإقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب كتب إلى الديوان العزيز ببغداد كتابا يعدد فيه موافقه في إقامة دعوة بنى العباس بمصر . فكتب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصد الثاني

(في كيفية استعمال آيات القرآن الكريم)

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَضْمِينَ الْكَلَامِ بَعْضَ آيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَلَاغَةِ إِلَى قِسْمَيْنِ :

أحدهما — الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وهو أقلهما وقوعاً في الكلام ودوراناً في الاستعمال : وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن الكريم وينبه عليه مثل قول الحريري في مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وقول أبي إسحاق في عهد الملك عن خليفة بعد الأمر بالتقوى والحث عليها : فإذا أطلع الله منه على نقاء جيبه ، وطهارة ذيله ، وصحّة مروءته ، وأستقامة سيرته ، أعانه على حفظ ما استحفظه ، وأنهضه بثقل ما حمله ، وجعل له مخلصاً من الشبهة ، ومخرجاً من الحيرة . فقد قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وقال عز اسمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى آي كثيرة حضّنها بها على كرم الخلق ، وأسلم الطرق ، فالسعيد من نصبها رأى ناظره ، والشقي من نبذها وراء ظهره ، وأشقى منه من بحث عليها وهو صادف عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وأكثر مشى الصابى في كتابه على هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه على آى القرآن فى خلال كلامه ، دون الإشارة إليه ؛ والاختصار على اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قدمة كتب بها لمظفر الدين موسى بن أقوش وقد صرع لغلغة، وأدعى بها للملك المؤيد صاحب حماه : نحمده على توفيقه الذى ساد به من ساد وسماء، وأصاب بتفويقه بمعونة ربه طير السماء، فحسن أن يتلى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام على فضل الكتابة : فقد نطق القرآن الكريم بفضلها، وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخبر تعالى أنه علم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذاناً بأن منحتها من أوفر جوده وفائض ديمه ؛ وقال جلّت قدرته ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتى بذلك فى أكد قسم، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلّت عظمته ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ . فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما منعتها النبى صلى الله عليه وسلم معجزة قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقر البدري بن فضل الله :

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدم المظفر بعد صرع المدثر المسمى لغلغة .

قلت حَسْبُكَ قد دلتني عليه عُرْفُهُ ، وأرشدني إليه وَصْفُهُ ؛ وبأن لي مَحْتَدَهُ الْفَاخِرِ
وَحَسْبُهُ الصَّمِيمِ ، وعرفت أصله الزَّاكِيَ وقرعته الْكَرِيمِ ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقولِي فِي اخْتِتامِ هذه المقامة معبراً عن المقرِّ البدرِيّ المشار إليه : فلما تحققت
أنى قد أثبتُّ في ديوانه ، وكنت من جُمْلَةِ غُلَامَانِهِ ، رجعتُ القهقريُّ عن طلب
الكسب ، وتساوَيْتُ عندى المَحَلِّ والخِصْبِ ؛ فَاسْتَغْنَيْتُ بِنَظَرِي إليه عن الطعام
والشراب ، وتحققت أن نظرة منه تُرَقِّبُنِي إلى السحاب ، وتلوتُ بلسان الصدق على
الملاّ وهم يسمعون ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

وقولِي فِي بَيْعَةِ خليفة أنشأتها بعد ذكر تخليف أهل البيعة : وَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ بِذلِكَ
مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمة الأعلام ، والشهود والحُكَّام ، وجعلوا الله على
ما يقولون وكَيْلاً ، فَاسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْوَفَاءُ بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضَاعَفَ
لهم بحسن نيتهم الأجور ، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله
﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وقولِي فِي بَيْعَةِ أُخْرَى : والله يجعل أنتقالهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى
يمينى ، ويحقق لهم بمن أسْتَخْلَفَهُ عَلَيْهِمُ وَعَدَهُ الصَّادِقُ بقوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثانى - الاقتباس وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن، ولا ينبه عليه :
كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده على فواضل زادت محاسن العلوم . وعرفت
تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك :
وسماء الشبيبة بضحي المشيب قد تجلّت ، والنفس قد ﴿ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَنَخَلَتْ ﴾ .

وقول ابن نباتة السعدى فى بعض خطبه : فىأياها الغفلة المطرِقون . أما أتم
بهذا الحديث مُصَدِّقُونَ . ما لكم لا تسمعون . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلُ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين
لنار جهنم وقودا . يوم تكونوا ^(١) شهداء على الناس ويكون الرسول ليكم شهيدا .
﴿ يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا مَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أتظنون أنكم دون غيركم مخلّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إِلَّا كَلَامُ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب ﴾ . حتى أنشد فأغرب .
وقوله : ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليه .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى فصل من كتاب فى مدح الجود وذم البخل :
وقد علم أن المال الذى يُحْتَرَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل
الأيدى عن امتياح مشاربه . فكذلك يَأْجُنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امتِناع ^(٢)
مواهبه . وأى فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تُملِكَ به القلوب . وتُفَلَّ به الخطوب .
ويُرْكَبُ به ظهر العزم الذى ليس برُكُوب ؛ ومن بسط يده فيه ثم قبضها بخله ، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .

(٢) لعله امتناع بالخاء المهملة .

يقف دون الرجال مغموراً . ويقعد عن نيل المعالي محسوراً . وإذا أدركته منيته مضى وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً * وقوله في وصف كاتب : له بنت فكر ما تمخضت بمعنى إلا تخبته من غير ما تمهله . و (أتت به قومها تحمله) . ولم تعرض على ملا من البلغاء إلا ألقوا أفلامهم أيهم يستعيره لا أيهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي من عهد لسلطان : وجمع بك شمل الأمة بعد أن كاد يزيغ قلوب قريبي منهم ، وعضدك لإقامة إمامته بأوليائه دولتك الذين رضى الله عنهم ، وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم فارهون (وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاجين : وجعل عدوه وإن أعرض بجيوش الرعب محصوراً . وكفاه بالنصر على الأعداء التوغل في سفك الدماء فلم (يسيرف في القتل إنه كان منصوراً) . وقوله في خطبة صداق في وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضى دينهم . وجمع بين متفرقين (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) . وقوله من توقيع بإمامة صلاة : وليعلم أنه في المحراب مناج لربه . واقف بين يدي من (يحول بين المرء وقلبه) .

وقولى في خطبة هذا الكتاب في الإشارة إلى فتح الديار المصرية : فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق بغاسوا خلال الديار ، وعمرها وسهلها . وأقطعتها أيدي المسلمين من الكفار ، وكانوا أحق بها وأهلها . وقولى في المقامة المتقدمة الذكر : قال إذن قد تعلقت من الصنعة بأسبابها . وأنت السيوت من أبوابها . وقولى فيها : قلت قد بانت لى علومها . فما رؤسومها ؟ — قال إن أعباءها لباهظة حملا . وإنها لكيرة إلا . ولكن سأحدث لك ذكرا . وأنبئك بما لم تحط به خبرا .

وقولى فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على
سائر الدول . وكرعت فى دماء الكفر سيوفهم فعاتت بخلق النصر لا بجمرة النجل .
صلاة ينقضى دون آنقضائها تعاقب الأيام . وتكل السنة الأفلام عن وصفها
ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .

وربما اقتصر على التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضى الفاضل فيما كتب به
عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الديوان العزيز ببغداد فى الاستصراخ
وتحويل أمر الفرنج : رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى ، وهاهى فى سبيلك مبذوله ،
وأنى وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غبار الحرب : وعقد العجاج سقفا فانهقد .
وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد . غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجياد . وزينت
بُجوم الصّعاد . ففيها ما يُوعَد من المنايا لا ما يُوعَد من الأرزاق . ومنها تُقَدَف
شياطين الحرب لا شياطين الأستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : ”والطريق فى استنباط المعانى من
القرءان الكريم وأستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمد إلى سورة من القرءان ،
وتأخذ فى تلاوتها وكلما مر بك معنى أثبتته فى ورقة مفردة حتى تنتهى إلى آخرها ،
ثم تأخذ فى أستعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلما عاودت
التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى ما لم يظهر لك فى المرة التى قبلها“ .

ولنعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الأستعمال على عدة وجوه يورده النائر
فى معنى ثم ينقله لمعنى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالى حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ . فقال في دعاء كتاب : وصل كتاب من الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها . ثم أبرزه في معنى آخر فقال أكرم النعم ما كان فيه ذكرى للعابدين . وتقدمه إلى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير . وتجلو ظلمة الخطب بإيضاح المنير . فأنظر إلى أثر رحمة الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثم نقله إلى معنى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنين أدنى مجلسه من سمائه ، وآتسه على وحدة الأفراد بحفل نعائه . ورفعته حتى ودّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من ندمائه . وذلك مقام لا تستطيع الجُود أن ترقى إلى رتبته . ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته . فليردّد إعجابا بما نالته من مواطئ أقدامه ، ولينظر إلى سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه .

قال في ” حسن التوسل “ والناس في استخراج المعاني من القرآن الكريم ، وأستعمالها في الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم . ففطر في الحسن ومفترط وفوق كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقبض من معانيه كذلك يحتاج إلى معرفة العلوم المختصة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ، ومعرفة رجالها ، ومن أشهر منهم وعرف بمجودة القراءة ، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم ؛ ليمائل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم ؛ في خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقاً لذلك كما قال في "التعريف" في وصية مقرئ في القسم الثالث من الكتاب :
 وليدُمْ على ما هو عليه من تلاوة القرآن ، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُربه ، وصَباح
 القبول المؤذن له برضا ربه ؛ وليجعل سُوره له أسواراً ، وآياته تظهر بين عينيه
 أنواراً . وليلت القرآن بحروفه وإذا قرأ استعاذ ، وليجمع طُرقه وهي التي عليها الجمهور
 ويترك الشواذ . ولا يرتدّ دون غاية لإقصار ، ولا يقف فبعد أن أتمّ لم يبق بحمد الله
 إحصار ، وليتوسع في مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذل
 للطلبة الرّغاب ، وليشبع فإن ذوى النّهمة سغاب . وليُرّ الناس ما وهبه الله من
 الاقتدار فإنه آتضن السّبع ودخل الغاب ، وليتمّ مباني ما أتمّ ابن عامر وأبو عمرو
 له التعمير ، ولقّه الكسائي في كسائه ولم يقل جدّي ابن كثير ، وحُمّ به حمزة أن يعودَ
 ذاهب الزمان ، وعرف أنه لا عاصم من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان ، وتدقّق
 يتفجّر علماً وقد وقفت السيول الدوافع ، وضراً كثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم
 وهو نافع ، وليقبل على ذوى الإقبال على الطلب ، وليأخذهم بالترية فما منهم إلا
 من هو إليه قد آتسب . وهو يعلم ما من الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النّماء ،
 ووصل سببه منه بحبل الله الممتد من الأرض إلى السماء . فليقدّر حق هذه النعمة
 بحسن إقباله على التعليم ، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهى وفوق كلّ ذي علم عليم .

النوع السابع

(الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال "في حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية ،
 والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ وخصوصاً في السير ، والمغازي ،

والأحكام؛ وتأمل فصاحتها، والنظر في معرفة معانيها وغريبها؛ وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها لينفق منها على سعة، ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحتج بمكان الحجّة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبني كلامه على أصل لا يزول، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت فيه الحجّة، وسلم له الخصم، وأدعى له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طلبت غايتها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم وقال: "أنا أفصح من نطق بالضاد".

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به في مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجموح ويستسهل الصعب، وقد رجع الأنصار يوم السقيفة إلى حديث "الأئمة من قریش" حيث رواه لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأذعنوا له، وبايعوه بعد ما اجتمعوا إلى سعد بن عبادة وقالوا: "منا أمير ومنكم أمير". على ما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله. ورجع عمر رضى الله عنه لحديث النهى عن دخول بلد الطاعون فعاد إلى المدينة بعد أن قارب الشام حين بلغه أن به الطاعون. وقال على رضى الله عنه في حق الأنصار: "لو زلوا لزلت معهم" لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أزول معكم حيث ما زلتم".

ثم الذى أشار إليه ابن قتيبة في "أدب الكاتب" أن الأحاديث التى ينبغى للكاتب حفظها الأحاديث المتعلقة بالفقه وأحكامه: كقوله صلى الله عليه وسلم: "البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه". والخراج بالظمان. وبجرح العجاء جبار.

(١) ولا يَغْلُقُ الرهنُ . والمنحةُ مردودة . والعارية مؤداة . والزَّعيمُ غارِم . ولا وصيةٌ لوارث . ولا قَطْعٌ في ثمرٍ ولا كَثَر . ولا قودٌ إلا بمجديدة . والمرأة تُعاقِل الرجل إلى ثلثِ دينها . ولا تعقِلُ العاقلةُ عمدا ولا عبدا ولا صلحا ولا أعترافا . ولا طلاقٌ في إغلاق ، والبيعانِ بالخيار ما لم يتفرقا . والجارُ أحقُّ بصقبة . والطلاقُ بالرجال والعدة بالنساء . وكنهيه في البيوع عن المخاربة والمحاقلة ، والمزابنة ، والمعاومة ، والثنيا ، وعن ربحٍ ما لم يُضْمَن ، وعن بيعٍ ما لم يُقبض ، وعن بيعتين في بيعة ، وعن شرطين في بيع ، وعن بيعٍ وسلف ، وعن بيع الغرر وبيع الموصافة ، وعن الكالئ بالكالئ ، وعن تلقى الركان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطلاات الفقهاء .

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والافتباس من معانيه . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن يكون أول ما يحفظه من الأخبار ما تضمنه كتاب "الشهاب في المواعظ والآداب" للقضاعي ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكما وآدابا ، فإذا حفظته وتدربت باستعماله ، حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك نتصفح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، و"أهل مكة أخبر بشعائرها" . قال والذي تأخذه إن أمكنك

(١) الحديث في المصباح لا يغلُق الرهن بما فيه . أى لا يستحقه المرتهن بالدين الذي هو

درسه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة؛ وإن كان لك محفوظات كثيرة : كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه وما يأتي ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من استعمالها في كلامك، حتى ترتقم على خاطرك فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته، وسهل عليك أن تأتي به آرتجالاً؛ فأمل ذلك وأعمل به . ثم قال وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها في الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشرين سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ منه عنى شيء .

المقصد الثاني

(في بيان كيفية استعمال الأحاديث والآثار في الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير : وأعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب كلامٌ فأستوعره وأستنكره ، وقال : هذا لا يتيمأ إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا ؛ بل يتيمأ في الأكثر منها — فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” أَنَّهُ اخْتَصِمَ إِلَيْهِ فِي جَنِينٍ فَقَضَىٰ عَلَىٰ مَنْ أَسْقَطَهُ بَغْزَةً عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ “ فإين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو : ” قد كثُر الجَهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل وضرب المثل بياقل وكم في هذه الصورة المثلثة من باقل، ولو عرف كل إنسان قدره لما مشى بدنً إلا تحت رأسه، ولا آتصب رأسٌ إلا على بدنه، ولكان صاحبُ الغامة

أحقَّ بعامته وصاحب الرسن أحقَّ برسنه . وكنت سمعتُ بكتاب من الكتاب كَلِمَةً إلى غُثَّائِهِ ، وَقَلَمُهُ بُغَاثَةٌ لَا يَسْتَنْسِرُ وَأَيُّ بَطْشٍ لُبْغَاثَةٍ . وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين ، وجب عليه من سُبُلِ ثلاثه . هذا وهو يدعى أنه في الفصاحة أُمَّةٌ وحده ، وَمَنْ قُسْ إِيَادٍ أَوْ سَجْبَانُ وَائِلٍ عنده ؛ وإذا كُشِفَ خاطره وجد بليدا لا يخرجُ عن العمه والكَمه ، وإن رام أن يستتجبه في حينٍ من الأحيان قضى عليه بغزوة عبد أو أمه ؛ وكثيرا ما يتقدم ونقيصته هذه على الأفاضل من العلماء ، وقد صار الناس إلى زمان يعلو فيه حضيضُ الأرض على هام السماء . فلما أوردته عليه ، ظهرت أماره الحسد على صفحات وجهه مع إعجابه به واستغرابه فيه إياه .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو "لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا تِمْنَالٌ" فهذا أين يُستعمل من المكاتبات ؟ فترويت في قوله ترويا يسيرا ثم قلت : هذا يستعمل في كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأملت عليه الكتاب ، بخاء هذا الحديث في فصل منه ، وهو : "إذا أفاض الخادم في وصف ولآئه ، نَكَصَتْ هِمُّ الأولياء عن مقامه ، وعلموا أنه أخذ الأمر بزمَامِهِ ؛ فقد أصبح وليس بقلبه سوى الولاء والإيمان ، فهذا يظهر أثره في طاعة السرّ وهذا في طاعة الإعلان ؛ وما عداهما فإن دخوله إلى قلبه من الأشياء المحظورة ، والملائكة لا تدخل بيتا فيه تمثال ولا صوره ، فليقول الديوان العزيزُ منه على سيف من سيوف الله يَفْرِي ، بلا ضارب ؛ وَيَسْرِي ، بلا حامل ؛ وَلَا يُسَلُّ إِلَّا بِيَدِ حَقٍّ ، وَلَا يُغَمَّدُ إِلَّا فِي ظَهْرِ بَاطِلٍ . وَلْيَعْلَمْ أَنَّ كَرِشَهُ وَعَيْبَتَهُ فِي تَضَمُّنِ الْأَسْرَارِ ، وأنه أحد سبْعِيهِ إِذَا عُدَّتْ مَوَاقِفُ الْأَنْصَارِ" . فلما رأى هذا الفصل بُهِتَ له وَجِبَ منه . قال : ولم أقنع بإيراد الحديث الذي ذكر حتى أضفتُ إليه حديثا آخر ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : "الأنصار كَرِشِي وَعَيْبَتِي" .

ثم تضمين الكلام شيئاً من الأحاديث على ما تقدم في القرآن الكريم؛ فينقسم إلى الاستشهاد والاقتراس على ما تقدم .

فأما الاستشهاد فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث، وينبه عليه : كقول أبي إسحاق الصابى في وصية عهد من خليفة لسلطان : وأن يقوم بما يعقده الرجل من عرض المسلمين ، فإن ذمته ذمة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الْمُسْلِمُونَ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَذْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ” .

وكما كتب بعض الكُتَّاب في صدر كتاب لديوان الخلافة : والحمد لله على أن صار إلى أمير المؤمنين ميراث الطاهرين من آبائه، وخصه بما حازله من جَزِيل الفضل وحَبَّائِهِ ، وحَقَّق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعنه العباس رضوان الله عليه ” أَلَا أَبْشُرُكَ يَا عَمَّ ! بِإِخْتِمَاتِ التَّبَوُّةِ وَيُولَدُكَ تُخْتَمُ الْخِلَافَةُ ” . وكقوله من عهد آخر : وأمره أن يضع الرصد على مَنْ يَخْتَارُ في الحملة من أَبَاق العبيد، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلى أن قال وأن يعرفوا اللَّقْطَ وَيَتَّبِعُوا أَثَرَهَا ، وَيُسَبِّحُوا خَبَرَهَا ، فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها ، سَلِّمَتْ إِلَيْهِ ، ولم يُعْتَرَضَ فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ” ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقَ النَّارِ ” إلى غير ذلك من الاستشهادات .

وأما الاقتراسات فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث ولا ينبّه عليه .
فن ذلك، ما ذكره الحريري في مقاماته من قوله : وَكِتْمَانُ الْفَقْرَ زَهَادِهِ ، وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادِهِ . وقوله : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، وَقَبِحَ اللَّكْمُ وَمَنْ يَرْجُوهُ .
وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

فمن ذلك قوله في دعاء كتاب: "أعاذ الله أيامه من الغير، وبين بخطره مجده نقص كل خطر. وجعل ذكره زاداً لكل ركب، وأنساً لكل سمر. ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في وصف نعيم الجنة "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فنقله إلى الدعاء.

ومن ذلك ما ذكره في النصر على العدو في مواطن القتال، وهو: "أخذنا بسنة رسول الله في النصر الذي نرجوه، ونبذنا في وجه العدو كفاً من التراب وقلنا شأهت الوجوه؛ فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا، وأقدم حيروم فأغنى عن إقدامنا". أخذ المعنى الأول من حديث غزوة حنين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ قبضة من التراب وألقى بها في وجوه الكفار وقال: "شأهت الوجوه". وأخذ المعنى الثاني من حديث غزوة بدر: وذلك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من المشركين وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه، وسمع الرجل المسلم صوتاً من فوقه وهو يقول أقدم حيروم ففأجأ النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: "ذلك من مدد السماء الثالثة".

ومن ذلك ما ذكره في ضيق مجال الحرب، وهو: "وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور، وتصاحت الغرر بالغرر والصدور بالصدور. وأستظل حينئذ بالسيوف لأشبتك مجالها وتبوءت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها". أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت ظلال السيوف".

ومن ذلك ما ذكره في وصف بعض البلاد الوخمة، وهو: "ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة، مجموع لها بين حرمكة ولأواء المدينة". إلا أنها لم يؤمن

حَرْهَا مِنْ الْخَطْفَةِ، وَلَا تُقَلِّتْ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ . أَخَذَ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَا وَاءِ الْمَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ" . وَالْمَعْنَى الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ لِلْمَدِينَةِ : "اللَّهُمَّ حَبِّبْهَا إِلَيْنَا كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ وَأَنْتَ قُلُّ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ" . وَرَشَّحَ ذَلِكَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ حَيْثُ قَالَ إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ يُؤْمِنَ حَرْهَا مِنْ الْخَطْفَةِ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ فِي وَصْفِ كَرِيمٍ ، وَهُوَ : "فَأَعْنَى بِجُودِهِ إِغْنَاءَ الْمَطَرِ ، وَسَمَّا إِلَى الْمَعَالِي سُمُّو الشَّمْسِ وَسَارَ فِي مَنَازِلِهَا مَسِيرَ الْقَمَرِ . وَنَتَجَ مِنْ أُبْكَارِ فَضَائِلِهِ مَا إِذَا أَدْعَاهُ غَيْرُهُ قِيلَ لِلْعَاهِرِ الْجَحْرَ" . أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْجَحْرُ" . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَقْتَبَسَاتِهِ الْمُسْتَكْتَرَةِ ، وَاسْتِنْبَاطَاتِهِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ قَاصِرَةٍ وَلَا مُسْتَنَكَّرَةٍ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرْتُهُ أَنَا فِي الْمَفَاخِرَةِ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ ، وَهُوَ : "وَبَدَأَ الْقَلَمُ فَتَكَلَّمَ ، وَمَضَى فِي الْكَلَامِ بِصَدَقِ عَزْمٍ فَمَا تَوَقَّفَ وَلَا تَلَعَّمْ ، فَقَالَ بِأَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَسْتَفْتَحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَيْتُنُ وَأَسْتَجِجُ ، إِذَا مِنْ شَأْنِي الْكِتَابَةِ ، وَمِنْ فَنِّي الْخَطَابَةِ ، وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِأَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْذَمُ ، وَكُلُّ كَلَامٍ لَا يُفْتَتَحُ بِحَمْدِ اللَّهِ فَاسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ" . أَخَذْتُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِأَسْمِ اللَّهِ أَوْ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَجْذَمُ" عَلَى آخْتِلَافِ الرِّوَايَةِ فِي ذَلِكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى حِفْظِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ بِطَرِيقِ الذَّاتِ لِلْاِسْتِشْهَادِ بِهَا ، وَالْاِقْتِبَاسِ مِنْ مَعَانِيهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ : كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنْوَاعِ الْحَدِيثِ وَأَقْسَامِهَا : كَالصَّحِيحِ ، وَالْحَسَنِ ، وَالْمُرْسَلِ ، وَالْمَرْفُوعِ ، وَالْمُسْنَدِ ، وَالْمُتَّصِلِ ، وَالْمُنْقَطِعِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ الْمَعْرِفَةُ بِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَالْمَشَاهِيرِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ :

كالبخارى، ومسلم، وأبى داود، والنسائى وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك في غُضُون كلامه عند احتياجه إليه في كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدث ونحوه كما قال في " التعريف " في وصية لمحدث في قسم الوصايا من الكتاب " وقد أصبح بالسنة النبوية مضطرباً ، وعلى ما جمعه طُرُق أهل الحديث مُطَلَّعاً ، وصح الصحيح أن حديثه الحسن ، وأن المرسل منه في الطلب مقطوع عنه كل ذى لسن . وأن مُسنَّده هو المأخوذ عن العوالى ، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى . وأن مثله لا يوجد في نسبه المُعَرَّق ، ولا يُعرَف مثله للحافظين : ابن عبد البر بالمغرب وخطيب بغداد بالمشرق . وهو يعرف مقدار طلب الطالب فإنه طال ما شدَّ له النِّطاق ، وسعى له سعيه وتجشَّم المشاق . ورحل له يشتد به حرصه والمطايا مزمنة ، ويُنبِّهه له طلبه والجُفُونُ مُقْفَلَةٌ والعيون مَهْمُومَةٌ . ووقف على الأبواب لا يُضِجِرُهُ طولُ الوقوف حتى يؤذَنَ له في ولوجها ، وقعد القُرُفُصَاء في المجالس لا تَضِيقُ به فُرُوجُهَا .

فليعامل الطلبة إذا أتوه للفائدة معاملةً من جَرَب ، وليُسْطِ للأقرباء منهم ويؤنس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آوَنَهُ من قريب وآوَنَهُ تغرَّب . وليُسْفِرْ لهم صباح قصده عن النجاح ، وليَقْتُقْ لهم من عُقُودِهِ الصِّحاح ، وليُوضِحْ لهم الحديث ، وليُرِّخْ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السير الحديث ، وليؤتِهم مما وسَّعَ اللهُ عليه فيه المجال ، ويعائِهم ما يجب تعليمه من التُّونِ والرجال ، ويُبَصِّرْهم بمواقع الجُرح والتعديل ، والتوجيه والتعليل ، والصحيح والمعتل الذى تنشأ أعراضه سَقَمًا كالعليل .

وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عناية ، وما يُنْقَبُ فيه عن دراية أو يُقْنَعُ فيه بجزء روايه . ومثله ما يزداد حِلماً ، ولا يعرَفُ بمن رَخَّصَ في حديث موضوع أو كتم علماً . وسيأتى ذكر هذه الوصية في موضعها إن شاء الله تعالى .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرّسى الشام :
 ”ولأنه الحافظ الذى أحيا ذكر ابن نُقْطَة بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنى وحده
 دمشق عن أتى فى النسب بعساكر“ .

النوع الثامن

(الإكثار من حفظ خُطَب البلقاء، والتفنن فى أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى وجه أحتياج الكاتب إلى ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : ”وهى من آكد ما يحتج إليه الكاتب ، وذلك أن
 الخطب من مستودعات سرّ البلاغة ، ومجامع الحكم ؛ بها تفاعرت العرب
 فى مشاهدهم ، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ؛ بها يتميز الكلام ، وبها
 يُخاطَب الخاص والعام ، وعلى منوال الخطابة تُسجّت الكتّابه ، وعلى طريق الخطباء
 مشّت الكتّاب . وقد قال أبو هلال العسكري رحمه الله فى ”الصناعتين“ : والرسائل
 والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا
 من جهة الألفاظ والفواصل ، فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتّاب فى السهولة
 والعدوبة ؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل“ . قال : ”والفرق بينهما
 أن الخطبة يُشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة
 فى أيسر كلفة“ .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غاية الاعتناء حتى قال صاحب ”الريحان
 والريعان“ : إن ما تكلمت به العرب من أهل المدّر والوبر من جيّد المنشور ومزّد وج

الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يُحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . لأن الخطيب إنما كان يُخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا آنقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد . قال : ” ولولا أن خطبة قُتس بن ساعدة كان سندُها مما يتنافسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فأطارذ كرها ، ما تميزت عما سواها “ .

قلت : وليس ما أشار إليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به ؛ بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرتهم وباديهم ، وخاصتهم وعامتهم ؛ بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصّاقع : فلذلك عَزَّ حِفْظُهَا وَقَلَّ عَنْهُمْ تَقْلُهَا . وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ، ورؤسائهم ممن فاز بِقُدْحِ الفضل ، وسبق إلى ذُرَى المجد ، ويُحْصُونَ ذلك بالمواقف الكرام ، والمَشَاهِدِ العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويُثني عليه . ثم يذكر ما سنع له من مُطابق قصده وموافق طلبه : من وعظ يذكر أو نغز أو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خطبهم في الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جد النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل . وهي : اسْمَعُوا وَعُوا ، وَتَعَلَّمُوا تَعَلَّمُوا ، وَتَفَهَّمُوا تَفَهَّمُوا ، لَيْلٌ سَاج . ونهارٌ صَاحُجٌ ، ^(١) والأرض مِهَادٌ ، والجبال أوتاد ، والأقْلُون كالآخِرِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ إِلَى بَلَاءٍ ، فَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ ، وَأَصْلَحُوا أَمْوَالَكُمْ ، فَهَلْ رَأَيْتُمْ مَنْ

(١) لعله ضاح من قولهم ضج القوم يضحون إذا صاحوا وجلبوا . وفي الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ماتقولون، زينوا حرمكم وعظموه،
وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم . ثم قال :
نَهَارٌ وَلَيْلٌ وَاختِلَافُ حَوَادِثٍ * سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلُوهَا وَمَرِيرُهَا
يَتُوبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْوِبَا * وَبِالنَّعْمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سُبُورُهَا
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقْلِبُ أَهْلُهَا * لَهَا عُقْدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ * فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَيْرُهَا
ثم قال :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدٌ فُجَّوَاءَ دَعْوَتِهِ ! * حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْنِي الْحَقَّ خِذْلَانَا
ومن ذلك خطبة قُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي ، بِسُوقِ عُكَاظَ فِيمَا نَقَلَهُ أَصْحَابُ
السَّيْرِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ وَهِيَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ
عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، لَيْلٌ دَاجٍ، وَنَهَارٌ سَاجٍ، وَسَمَاءٌ
ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنُجُومٌ، تَزْهَرُ، وَبَحَارٌ تَزْهَرُ، وَجِبَالٌ مُرْسَاهُ، وَأَرْضٌ مُدَحَاهُ، وَأَنْهَارٌ مُجْرَاهُ .
إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَنَجَرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا ! مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ .
أَرْضُوا فَأَقَامُوا، أَمْ تُرْكُوا فَنَامُوا . يُقْسِمُ قُسٌّ بِاللَّهِ قَسْمًا لَا إِثْمَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ دِينًا هُوَ أَرْضِي
لَهُ وَأَفْضَلُ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ؛ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ مِنَ الْأَمْرِ مَنَكَرًا ! . وَيُرْوَى أَنَّ
قُسًّا أَنْشَأَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ * ن مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا * لِلْوَيْ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا * تَمْضِي : الْأَكْبَرُ وَالْأَصَاغَرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ الْبَاقِيْنَ غَايِرُ
أَيَقْنَبْتُ أَنِّي لَا مَحَا * لَهَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

قال صاحب الأوائل : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”يُعْرَضُ هذا الكلام يوم القيامة على قُسِّ بن ساعدة فإن كان قاله الله فهو من أهل الجنة“ .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خطب النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وهى : الحمد لله الذى جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا . ثم إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أختى من لا يُوزَن بأحد إلا ربحه ، ولا يُعدَّل بأحد إلا فضله ، وإن كان فى المال قُلْ فإن المال ظل زائل ، وله فى خديجة رغبة ولها فيه مثلها ، وما كان من صداق فى مالى ؛ وله نبأ عظيم وخبر شائع .

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم ”أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتِبَ ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا قد وَجَبَ ، وكأنَّ الذى تُسَيِّع من الأموات سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إلينا راجعون ، نبؤُهُم أجدائهم ، وناكُل من تُراثِم كَأَنَّا مَخْلُدُونَ بعدهم ، ونسِينا كُلَّ واعظة وأمنَّا كُلَّ جائحة ، طوبى لمن شغله عَيْبُهُ عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مَالاً أكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الدُّلِّ والمُسْكِنَةِ ، طوبى لمن زكَّتْ وحسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وطابَتْ سِرِيرَتُهُ ، وعَزَل عن الناس شرُّهُ ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسَّعته السُّنَّة ولم تَسْتَهْوِ البِدعة !“

ومن خطب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس فى ”صناعة الكتاب“ وهى : ألا إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة المملوك ، الملك إذا مَلَكَ زَهْدَهُ الله جَلَّ وعز فيما عنده ، ورَغِبَهُ فيما فى يَدَيْ غيره ، وأنتقصه شَطْر أهله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، وإذا وجبت نفسه ، ونَصَب عمره وصَحَا ظله ،

حاسبه الله جل شأؤه وأشدَّ حسابه، وأقلَّ عَفْوِه؛ وسَتَرُون بَعْدِي مُلْكًا عَضُوضًا،
وأُمَّةً سَخَّاحًا، وَدَمًا مُبَاحًا؛ وإن كانت للباطل تَزَوُّةٌ، ولأهل الحق جَوَلَةٌ، يَعْقُوبُهَا
الأثر وتموت السَّنَنُ، فَالْزَمُوا الْمَسَاجِدَ وَاسْتَشِيرُوا الْقُرَّانَ^(١)، وليكن الإبرامُ بعد التَّشَاوُرِ،
والصَّفْقَةُ بعد التَّنَاضُرِ .

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنَّه أتى على حينٍ وأنا أحسب
أَنْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهَ وَمَا عِنْدَهُ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ خُيِّلَ إِلَى أَنْ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ
الْقُرْآنَ يُرِيدُونَ مَا عِنْدَ النَّاسِ! أَلَا فَايْرِدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأُرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّمَا
كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ وَإِذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقَدْ رُفِعَ الْوَحْيُ
وَذَهَبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّمَا أَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَا فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا ظَنَّنَا
بِهِ خَيْرًا وَأَثِينًا بِهِ عَلَيْهِ!، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًّا ظَنَّنَا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضَنَا عَلَيْهِ!، أَقْدَعُوا
هَذِهِ النَّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا، فَإِنَّهَا لَمَلِيقَةٌ، وَإِنَّكُمْ إِلَّا تَقْدَعُوهَا تَتَزَعَّجُ بَكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ .
إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَيِيءٌ، وَتَرَكْتُ الْخَطِيئَةَ خَيْرًا مِنْ
مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ؛ وَرُبَّ نَظَرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةً سَاعَةً أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا! .

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تقديم بَنَى أُمِّيَّةً عَلَى غَيْرِهِمْ:
أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً، وَآفَةُ هَذَا الدِّينِ وَعَاهَةٌ هَذِهِ الْمِلَّةِ قَوْمٌ عَيَّابُونَ،
طَعَّانُونَ، يُظْهِرُونَ لَكُمْ مَا يُحِبُّونَ وَيُسِرُّونَ مَا تَكْرَهُونَ . أَمَّا وَاللَّهِ يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ! لَقَدْ عَيْبُتُمْ عَلَى أَشْيَاءَ وَنَقَمْتُمْ مِنِّي أُمُورًا قَدْ أَقْرَئْتُمْ لَابْنَ الْخَطَّابِ بِمِثْلِهَا
وَلَكِنَّهُ وَقَمَكُمْ وَقَمًا، وَدَمَغَكُمْ حَتَّى لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَمْلَأُ بَصْرَهُ مِنْهُ وَلَا يُشِيرُ بِطَرَفِهِ^(٢)

(١) كذا في الأصول بالشين المعجمة ولعله تصحيف عن التاء المثلثة ففي اللسان ونور القرآن بحث عن معانيه
وعن علمه . وأورد في ذلك حديث عبد الله أثيروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين . وحديثا آخر . من
أراد العلم فليثور القرآن . (٢) في غير هذا الكتاب وقمكم والقم والدمغ والقهر والإذلال .

إلا مُسَارَقَةً إِلَيْهِ ؛ أما والله لَأَنَا أَكْثَرُ مِنْ آبِنِ الْخَطَّابِ عَدَدًا ، وَأَقْرَبُ نَاصِرًا وَأَجْدَرُ
 إِنْ قَالَ هَلُمَّ أَنْ يُجَابَ . هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ حَقُوقِكُمْ وَأَعْطِيَاكُمْ شَيْئًا فَإِنِّي إِلَّا أَفْعَلُ^(١)
 فِي الْفَضْلِ مَا أُرِيدُ فَلِمَ كُنْتُ إِمَامًا إِذَنْ ؟ أما والله ما عَابَ عَلَيَّ مَنْ عَابَ مِنْكُمْ أَمْرًا
 أَجْهَلُهُ وَلَا أَتَيْتُ الَّذِي أَتَيْتُ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ .

وَمِنْ خُطْبٍ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ : حِينَ بُوِيعَ بِالْخِلَافَةِ : إِنْ اللَّهُ أَنْزَلَ كِتَابًا
 هَادِيًا بَيَّنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، نَحْذُوا بِالْخَيْرِ وَدَعُوا الشَّرَّ ؛ الْفَرَائِضَ أَدَّوْهَا إِلَى اللَّهِ
 تَوَدِّعُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ حَرَمًا غَيْرَ مَجْهُولَةٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ
 كُلِّهَا ، وَسَدَّدَ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ . فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ
 لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ؛ لَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ ، فَأَدُّوا أَمْرَ الْعَامَّةِ ، وَخَاصَّةً
 أَحَدِكُمُ الْمَوْتَ . فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّمَا خَلَقَكُمْ السَّاعَةَ تُذَكِّرُكُمْ . تَخَفَّفُوا تَلَحَّقُوا ، فَإِنَّمَا
 يَنْتَظِرُ بِالنَّاسِ أَنْتَرَاهُمْ . اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ
 الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ؛ أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ . وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ نَحْذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ
 الشَّرَّ فَدَعُوهُ ، وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ .

وَمِنْ خُطْبِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : اعْلَمُوا أَنَّ الْحِلْمَ زِينٌ ، وَالْوَقَارَ
 مَوَدَّةٌ ، وَالصَّلَاةَ نِعْمَةٌ ، وَالْإِكْثَارَ صُلْفٌ ، وَالْعَجَلَةَ سَفَهٌ ، وَالسَّفَهَ ضَعْفٌ ، وَالْقَلَقَ
 وَرُطْبَةٌ ، وَمَجَالِسَةُ أَهْلِ الدَّنَاءَةِ شَيْنٌ ، وَمُخَالَطَةُ أَهْلِ الْفَسْقِ رِييَةٌ .

وَمِنْ خُطْبِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِصَفِّينَ : أَيُّهَا النَّاسُ !
 إِنَّ الْحَرْبَ صَعْبَةٌ ، وَإِنَّ السَّلَامَ مَنْ وَمَبَرَّةٌ ! أَلَا وَقَدْ زَبَنْتَنَا الْحَرْبُ وَزَبَّنَا

(١) فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ وَأَقْنِ إِنْ قُلْتَ هَلُمَّ أَنْ تَجَابَ دَعْوِي مِنْ عَمْرِو . وَالرَّوَايَاتُ مُتَقَارِبَةٌ .

وَأَلْفَتْنَا وَأَلْفَنَاهَا، فَنَحْنُ بَنُوهَا وَهِيَ أُمَّنَا . أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْتَقِيمُوا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى ،
وَدَعُوا الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ ، وَالْبِدَعَ الْمُرْدِيَةَ ، وَلَسْتُ أَرَاكُمْ تَرْدَادُونَ بَعْدَ الْوَصَاةِ
إِلَّا اسْتَجْرَاءَ ، وَلَنْ أَزْدَادَ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْحِجَةِ عَلَيْكُمْ إِلَّا عِقُوبَةٌ ! ، وَقَدْ آَلَفْنَا نَحْنُ
وَأَتَمَّ عِنْدَ السَّيْفِ مَنْ شَاءَ فَلْيَتَحَرَّكْ أَوْ يَتَقَهَّرْ وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ ابْنُ قَيْسٍ
ابْنُ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيُّ .

مَنْ يَصِلَ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ * يَصِلُ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَّارٍ
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنِّي جُحَاهِرَةٌ * كُنْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيِي وَإِنْ ذَارِي

وَمِنْ خُطْبِ عَتَبَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ أَمِيرُ مِصْرٍ وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْ أَهْلِهَا
أُمُورٌ أَنْ صَعِدَ الْمَنْبَرُ وَقَالَ : ^(١) يَا حَامِلِي الْأُمِّ أَنْوِفِ رُكْبَتَ بَيْنِ أَعْيُنٍ ! إِنَّمَا قَلَّمْتُ
أُظْفَارِي عَنْكُمْ لَيْلِينَ مَسَى إِيَّاكُمْ ، وَسَأَلْتُكُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ إِذَا كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعًا عَلَيْكُمْ ؛
فَإِنَّمَا إِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الطَّعْنَ عَلَى الْأُمَرَاءِ وَالْعَتَبَ عَلَى السَّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَا أُقْطَعَنَّ
بُطُونُ السَّيَاطِ عَلَى ظُهُورِكُمْ ! فَإِنْ حَسَمْتُ مُسْتَشِيرِي دَائِكُمْ وَإِلَّا فَالسَّيْفُ مِنْ
وَرَائِكُمْ . فَكُمْ مِنْ عَظِيَّةٍ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجْرَةٍ مِنَّا قَدْ مَجَّتْهَا قُلُوبُكُمْ ؛
وَلَسْتُ أَبْجُلَ عَلَيْكُمْ بِالْعِقُوبَةِ إِذَا جَدْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مَوْسِلًا لَكُمْ مِنَ الْمَرَاجِعَةِ
إِلَى الْحَسَنِ إِنْ صَرْتُمْ إِلَى الَّتِي هِيَ أَبْرُ وَأَتَقَى .

وَمِنْ خُطْبِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ حِينَ قَدِمَ إِلَى الْبَصْرَةِ : أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْجَهْلَالَ
الْجَهْلَاءَ ، وَالضَّلَالََةَ الْعَمِيَاءَ ، وَالغَيَّ الْمُوَفَّى بِأَهْلِهِ عَلَى النَّارِ مَا فِيهِ سَفَهَاءُكُمْ ، وَيَشْتَمِلُ
عَلَيْهِ حُلُمَاؤُكُمْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبُتُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَلَا يَتَحَاشَى عَنْهَا الْكَبِيرُ ؛ كَأَنَّهُمْ
لَمْ تَقْرَأُوا كِتَابَ اللَّهِ وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْعَذَابِ

(١) لعل عامل أن محذوف والأصل فما كان منه إلا أن الخ .

الأيام لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . إنه ليس منكم إلا من
 طرقت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، وأختار الفانية على الباقية ؛ ولا
 تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه : من ترككم الضعيف
 يُقهر^(١) ، والضعيفة المسلوبة في النهار لا تنصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق .
 ألم يكن منكم نهاية يمنعون الغواة عن دبح الليل وغارة النهار ! قربتم القرابة ! وواعدتم
 الدين ؛ تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على النكر . كل أمرئ منكم يرد عن سفيهه
 صنع من لا يخاف عقابا ولا يرجو معادا . فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم
 حتى آتتهوا حرم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا في مكائس الرب ، حرام على
 الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالأرض هذما وإحراقا ! إني رأيت آخر هذا
 الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أذله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ،
 وإني لأقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالطاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقي
 الرجل أخاه فيقول ” آئج سعد فقد هلك سعيد “ أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة
 الأمير بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ؛ وقد كان بيني
 وبين قوم إحن فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحدا قد
 قتله السِّل لم بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يُبدى لي صفحته ،
 فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وراعوا على أنفسكم^(٢) ، فرب مبتئس
 بقدمونا سيئس ، ومسرور بقدمونا سيئس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم
 ساسة ، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بنى الله الذي
 خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا
 عدلنا وقيتنا بمناصحتكم لنا ،

(١) في العقد الفريد والصفقة المسلوبة في النهار الميصر . (٢) وقع في الأصل المناخير وهو تصحيف
 عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) في العقد الفريد وأعينوا .

فقام إليه عبد الله بن الأهم وقال : " أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب " قال : " كذبت " ذاك نبي الله داود !

ومن خطب عبد الملك بن مروان ، لما قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص : إرموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، وأجعلوا سلفكم لمن غبر منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتزّل بكم جائحة السطوات ، وتجوّس خلالكم بؤادر النقيات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة فتجعلكم همدا رفانا ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا . فإياي من قول قائل ، ورشقة جاهل ! فإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة ^(١) فأصم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحرق الموتور ، وإنما هي المصاحفة والمكافئة بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهذل خائب ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ، لمن عرف رُشدَه وأبصر حظه . فأنظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، ولتكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم ، وأستديموا النعمة التي آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زيتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وأجل الجزاء والثوبة عصمكم الله من الشيطان وقتله ونزغه ، وأمدكم بحسن معزته وحفظه . انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطيائكم غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرية عليكم .

نخرج القوم من عنده يدارا كلهم يخاف أن تكون السطوة به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفي عند قدومه الكوفة أميرا على العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا في الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنعوة والغية أول الخير قيل أن تستبينه .

(٢) المطرور برأين المحدود المشحوذ في الأصل بالبدال المهمة وهو تصحيف .

(٣) في الأصل بالهاء وإهمال الدال وإعجام حائب ولعله بالميم وإعجام الذال بمعنى ضجر وقلق وإهمال الحاء من حائب غرر .

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَّلَاعُ النَّسَايَا * مَتَى أَضَعُ الْعَامَةَ تَعْرِفُونِي

والله يا أهل العراق: إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها!
والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العائم واللى . يا أهل العراق ما يُغَمَزُ جانبي كَتَمَازِ
التَّيْنِ، ولا يُقَعِّعُ لى بالشَّانِ. ولقد فُِرْتُ عن ذَكَاءٍ، وقُشِّتْ عن تجربة، وأجريتُ
من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك تَرَكَاتَهُ بين يديه فعَجَمَ عيدانها عودا
عودا فوجدنى أمرها عودا . وأشدّها مَكْسِراً، فوجّهنى اليكم وربما كم بى يا أهل
الكوفة، أهل الشَّقَاقِ والنِّفَاقِ، ومَسَاوِى الأخلاق: لأنكم طالما أَوْضَعْتُمْ فى الفتنَةِ،
وَأَضْطَجَعْتُمْ فى مَنَامِ الضَّلَالِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ المِىِّ، وآيَمَ الله لِأَلْحُوذِكُمْ لَحْوَ العُودِ،
وَلَا فَرَعَنْكُمْ قَرَعَ المِروَةِ، وَلَأَعَصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلمَةِ، وَلَأَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرِيبَةِ
الإِبِلِ . إني والله لأحلف إِيَّا صِدْقَتِ، ولا أَعْدُ إِيَّا وَفِيتِ . إِيَّاي وهذه الزَّرَافَاتِ،
وقال وما يقولُ، وكان وما يكون . وما أنتم وذاك يا أهل العراق . إنما أنتم أهل
قَرِيبَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَيَمَّرْتُمْ بِإِنْعِمِ اللهِ، فَأَتَاهَا
وَعِيدُ القُرَى مِنْ رَبِّهَا . فَاسْتَوْثِقُوا وَاعْتَدِلُوا وَلَا تَمِيلُوا، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَشَايَعُوا
وَبَايَعُوا .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لَيْسَ مِنِى الإِكْثَارُ وَالْإِهْذَارُ وَلَا مَعَ ذَلِكَ التَّفَارُ وَلَا الْفِرَارُ؛ إِنَّمَا هُوَ
أَنْتَضَاءُ هَذَا السِّيفِ، ثُمَّ لَا يُغَمَدُ الشِّتَاءُ وَلَا الصِّيفُ، حَتَّى يَنْدِلَ اللهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عِزِّكُمْ، وَيُقِيمَ لَهُ أَوْدَكُمْ وَصَعْرَكُمْ . ثُمَّ إِنِى وَجَدْتُ الصِّدْقَ مِنَ الرِّبِّ، وَوَجَدْتُ الْبِرَّ
فِي الْجَنَّةِ، وَوَجَدْتُ الْكَذِبَ مِنَ الْفُجُورِ، وَوَجَدْتُ الْفُجُورَ فِي النَّارِ . وَإِنْ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِى أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَعْطَيْتُكُمْ، وَأَشْخَصَكُمْ لِمُجَاهَدَةِ عَدُوِّكُمْ وَعَدُوِّ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ؛ وَقَدْ أَمَرْتُ لَكُمْ بِذَلِكَ وَأَجَلَّتْكُمْ ثَلَاثًا، وَأُعْطِيتُ اللهَ عَهْدًا يُوَاطِّئُنِي بِهِ
وَيَسْتَوْفِيهِ مِنِّى: لَنْ تَخْلُفَ مِنْكُمْ بَعْدَ قَبْضِ عَطَائِهِ أَحَدٌ لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ وَأَنْهَبَنَّ مَالَهُ .

ثم أَلْتَفَتَ الى أهل الشام فقال أتم البطانة والعشيرة ! والله لريحكم أطيّب من ريح المسك الأذقر، وإنما أتم كما قال الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية .
وَأَلْتَفَتَ الى أهل العراق فقال والله لريحكم أتنّ من ريح الأبنجر، وإنما أتم كما قال الله ﴿وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لما قدم البصرة يتهّد أهل العراق ويتوعدّهم :
أيها الناس : من أعياه دأؤه فعندى دواؤه ! ، ومن آستطال أجله ، فعلى أن أُعْجَلَه ؛
ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن آستطال ماضى عمره قصّرت عليه
باقية . إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفاً ! ، فمن سَقِمْتُ سريره ، صحّت عقوبته ؛
ومن وضعه ذنبه ، رفعه ضلّبه ؛ ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة ؛ ومن سبقته
بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه ؛ إني أنذركم لا أنظر ، وأحذركم لا أعذر ؛ وأتوعد
كم لا أعفو . إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ؛ ومن آسترخى لبه ، ساء أدبه . إن الحزم
والعزم سكا في وسطي ، وأبدلاني به سيفي : فقامه في يدي ، ونجاده في عنقي ، وذبابه
قلادة لمن عصاني ! ؛ والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد
فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ؛ وأبى جعفر
المنصور ، وهارون الرشيد ، وآبنيه المأمون من خلفاء بني العباس وغيرهم ، من خلفاء
الدولتين وأمرائهم خطب فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هذا الكتاب
عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبى بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل
الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم ينالون
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسعِفُهُمْ آخرون على ذلك ؛

أيها الناس ! إني قائل قولاً فمن وعاه وأداه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا يعد من ذمامها ؛ إن قصرتم عن تفصيله ، فلن تعجزوا عن تحصيله . فأرعوه أبصاركم وأوعوه أسماعكم وأشعروه قلوبكم ؛ فالموعظة حياة ؛ والمؤمنون إخوة ؛ وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين . فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا النى ترشدوا . وأنيبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . والله جل جلاله . وتقديست أسمائه أمركم بالجماعة ورضيها لكم . ونهاكم عن الفرقة وخطها منكم . فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . جعلنا الله وإياكم من يتبع رضوانه ويحجب سخطه إنا نحن به وله . وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين ، وأخtarه على العالمين ، وأخtar له أصحاباً على الحق وزرء دون الخلق ؛ إختصهم به وأنتخبهم له ، فصدقوه ونصروه وعزروه ووقروه ؛ فلم يقدموا إلا بأمره ، ولم يجمعوا إلا عن رأيه ، وكانوا أعوانه بعهد ، وخلفاءه من بعده . فوصفهم فأحسن وصفهم وذكرهم فأثنى عليهم فقال وقوله الحق ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ إلى قوله ﴿ مغفرة وأجر عظيم ﴾ فمن غاظه كفر وخاب وبفر وخسر . وقال الله جل وعز ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ إلى قوله ﴿ ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لم وأمره إياه فيهم فلا حق له في النى ، ولا سهم له في الإسلام في أى كثيرة من القرآن ، ففرق مارقة من الدين . وفارقوا المسلمين وجعلوهم عِضِينَ . وحزبوا أحزاباً ، أشابات وأوشاباً . نخالفوا كتاب الله فيهم نخابوا وخسروا

الدنيا والآخرة . ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين . أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَذِبَ زَيْنَ لَهُ
سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . مَا لِي أَرَىٰ عُيُونًا يُخِزُّهَا ، وَرِقَابًا صُغُرَا ، وَبُطُونًا يُجْرِي ،
شَجَى لَا يُسِغُهُ الْمَاءُ ، وَدَاءٌ لَا يُشْرِبُ فِيهِ الدَّوَاءُ . أَفَنَضِرْبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ
كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ . كَلَّا وَاللَّهِ بَلْ هُوَ الْهِنَاءُ وَالطَّلَاءُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْعُذْرُ ، وَيُوحِ
السِّرَّ ، وَيَضْحَكُ الْعَيْبُ ، وَيَشُوشُ الْجَيْبُ . فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلِقُوا عِبْنَا وَلَمْ تَتْرَكُوا سُدَىٰ ،
وَيَحْكُمُ إِنِّي لَسْتُ أَتَاوِيًّا أُعْلَمُ^(٢) ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمُ . قَدْ حَبَبْتُكُمْ أَشْطَرًا ، وَقَلْبَتُكُمْ أَبْطَنًا
وَأَظْهَرًا . فَعَرَفْتُ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُ أَنْ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّتْهِمْ ،
وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِبَعْضٍ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْذَنُونَ لَهُمْ ، وَيَصْغَوْنَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا ! قَبْلَ وَقُوعِ
الْقَوَارِعِ وَطُولِ الرِّوَايَةِ . هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا ، فَلَسْتُ أَعْتَشُ آتِبًا وَلَا تَائِبًا ، عَفَا اللَّهُ
عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . فَأَسْرَوْا خَيْرًا وَأَظْهَرُوهُ ،
وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُوهُ . وَطَالَمَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَىٰ نَاكِسِينَ . وَلِيَعْلَمَ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصَرٍّ
أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيْ نِعْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوَكُمْ إِلَىٰ هَوًى يُتَّبَعُ ، وَلَا إِلَىٰ رَأْيٍ يَتَدَعُ .
إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيَّةِ ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ، فَمَنْ أَجَابَ فَلِيَ رُشْدُهُ ،
وَمَنْ عَمِيَ فَعَنَ قَصْدُهُ . فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ ، الْجَدَائِعِ ، وَلَا تَوَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَا تَسْتَبْدِلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ (يُنْسِ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) . إِيَّاكُمْ وَبُنْيَاتِ
الطَّرِيقِ ، فَعِنْدَهَا التَّرْنِيقُ وَالتَّرْهِيْقُ . وَعَلَيْكُمْ بِالْجَادَةِ فَهِيَ أَسَدُّ وَأَوْرَدُ ، وَدَعُوا الْأُمَانِيَّ

(١) لعله يُجْرَى جَمْعُ أَبْجَرٍ وَالْبَجَرُ عَظْمُ الْبَطْنِ .

(٢) الْأَتَاوِيُّ الْغَرِيبُ الَّذِي لَيْسَ فِي وَطَنِهِ .

(٣) أَيْ أَظْلَمُ رَاجِعًا وَلَا تَائِبًا مِمَّا حَصَلَ . وَوَقَعَ فِي الْأَصْلِ أَعِيشَ وَهُوَ تَصْحِيفٌ لَا مَعْنَى لَهُ هُنَا .

فقد أودت من كان قبلكم . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . والله الآخرة والأولى .
ولا تفتروا على الله الكذب فيسحقكم بعذاب وقد خاب من أقترى . ربنا لا ترغ قلوبنا
بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

ومن خطب خالد بن عبد الله أمير البصرة : أيها الناس ! نافسوا في المكارم
وسارعوا إلى المغنم . واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا ، ولا تعتدوا
بالمعروف ما لم تُعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فانه
أحسن لها جزاء ، وأجزل عليها عطاء . وأعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من
الله عليكم ؛ فلا تملأوا النعم فتحولوا تقيا . وأعلموا أن أفضل المال ما أُنسب أجرا ،
وأورث ذكرا . ولو رأيتم المعروف رجلا ، رأيتموه حسنا جميلا يسر الناظرين .
ولو رأيتم البخل رجلا ، رأيتموه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتغضى عنه الأبصار .
أيها الناس ! إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس عفوا من
عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ؛ ومن لم يطب حُرثه لم يزل
نبتة ، والأصول عن مغارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم .

ومن خطب قطري بن الفجاءة خطبته المشهورة في ذم الدنيا والتحذير
عنها ، وهي :

أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خصرة ، حقت بالشموات ، وراقت
بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور . لا تدوم نضرتها ،
ولا تؤمن بفتحها . غرارة ، ضرارة . وخاتلة ، زائلة . ونافدة ، بائدة . أكالة ،
غوالة . لا تعدوا إذا تاهت إلى أمانة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال
الله تعالى ﴿ كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه ﴾

الرَّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) مع أن أمراً لم يكن منها في حبرة، إلا أعقبته بعدها عبرة؛ ولم يلق من سرائها بطناً، إلا منحة من ضرائها ظهراً. ولم تصله غيثة رخاء، إلا هطلت عليه منة بلاء. وحرية إذا أصبحت له منتصرة أن تسمى له خاذلة متكررة. وأى جانب منها أعدوذب وأحلولى، أمر عليه منها جانب وأوبا. فإن آتت أمراً من غصونها ورقاً أرهقته من نوائها تعباً. ولم يمس منها أمراً في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف؛ غرارة غرور ما فيها؛ فانية، فإن من عليها؛ لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه. ومن استكثر منها، استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه، ويبكى عينه. كم واثق بها قد بفعته، وذى حُكم ثنته إليها قد صرعت، وذى أختيال فيها قد خدعته. وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيراً، وذى نخوة قد ردتته ذليلاً. ومن ذى تاج قد كبته للدين والفهم. سلطانها دُول. وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلواها صبر، وغذاؤها سَمام، وأسبابها رِمام. قَطاؤها سَلع. حياها بعرض موت، وصحيجها بعرض سُقم. منيعها بعرض اهتضام. ومُلكها مسلوب، وعزيزها مغلوب. وسليمها منكوب، وجارها محروب. مع أن وراء ذلك سَكَرات الموت، وهول المُطلع، والوقوف بين يدي الحَكَم العَدل (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى). أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَاراً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً. وَأَشَدَّ عُنُوداً. تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَى تَعْبُدُ، وَآثَرُوهَا أَى إِثَارَ، وَظَعَنُوا عَنْهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّخَارِ. فَهَلْ بَلَّغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَحَتْ لَمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهَا فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتُمْ بِنَحْطِهَا بِلْ أَرْهَقْتُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَضَعَضْتُمْ بِالنَوَائِبِ،

(١) في غير هذا الكتاب ولم تطله من الطل. و يظهر أن غيثة مصحفة عن غيبة. والغيبة الدفعة من المطر.

(٢) في نسخة وأولى.

وَعَقَرْتَهُمْ بِالْفَجَائِعِ . وقد رأيتم تتكروها لمن رادها وآثرها وأخلد إليها ، حين ظعنوا عنها
لفراقٍ إلى الأبد إلى آخر الأمد . هل زودتهم إلا السَّغب ؟ ، وأحلتهم إلا الضنك ،
أو نورت لهم إلا الظلمة ، أو أعقبتهم إلا التندامة ؟ أفهذه تُؤثرون ، أم على هذه تحريصون
أم إليها تطمئنون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ
إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴾ بنست الدار لمن أقام فيها ! فاعلموا إذ أنتم
تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هي كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال
تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلى غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ،
ويخرج الكتاب بذكره عن حده .

المقصد الثاني

(في كيفية تصرف الكاتب في الخطب)

قد تقدم في أول المقصد الأول من هذا النوع قول أبي هلال العسكري : إن الرسائل
والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية والمشاكل في الفواصل
وإن الخطب يشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة
في أيسر كلفة . وحينئذ إذا أراد الكاتب نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا
أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخطابة وموارد
الفصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مصانع الخطباء ومشاهيرهم ، اتسع له المجال
في الكلام وسهأت عليه مستوعرات النثر ، وذللَّت له صعابُ المعاني ، وفاض على
لسانه في وقت الحاجة ما كنَّ من ذلك بين ضلوعه فأودعه في ثبته ، وضمنه في رسالته ،

فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ الفصيحة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمع خاطره بنظيرها ولو دأب. إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة، ونوع من أنواعها، يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات، وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكرار التواقيع والمراسيم، والمناشير، على ماسياتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى؛ وما لعله ينشئه من خطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك. وكذلك يعرف مصابيح الخطباء، ومشاهير الفصحاء، والبلغاء، كقُتُس بن ساعدة الإيادي الذي تقدّمت خطبته آنفا في صدر الخطب. وسحبان الوائلي: وهو رجل من بني وائل، لسنّ بليغ يُضرب به المثل في البيان، وغيرهما ممن يُضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة؛ ومن يُنسب إلى العي والعبادة بكامل: وهو رجل من العرب اشترى ظيبا بأحد عشر درهما فقليل له بكم اشتريته ففتح كفيه وفرق أصابعه العشرة وأخرج لسانه؛ يشير بذلك إلى أحد عشر ولم يحسن التعبير عنها، فانفلت الظبي فُضرب به المثل في العي. فإذا عرف البليغ وغير البليغ، وعالي الرتبة وسافلها، عرّض حينئذ بذكر من أراد منهم مقاييسا للفاضل بمثله، وللغبي بنظيره: كما قال القاضي الفاضل في بعض رسائله، في جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه:

فأما شوقه لعبده فالمولى قد أبقاها الله قد أوتي فصاحة لسان. وسحب ذيل العي على سحبان.

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبي من رسالة كتب بها للشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، يصف رسالة وردت منه عليه: إن كلها يَمِيس في صُدورها وأعجازها، وتتنال عليها أعراض المعاني بين إسهابها وإيجازها؛ فهي فرائد آتلفت في أبكار الوائلي والإيادي.

النوع التاسع

(١) (مما يحتاج إليه الكاتب من حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر في رسائل المتقدمين : من بلغاء الكتاب ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأول ورسائلهم فلأنها مع (٢) مبتدع البلاغة وكثير الفصاحة غير ملائمة لطريقة الكتاب في أكثر الأمور ؛ فيستعان بحفظها على مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالأتكال على إيراد فصل منها برمته لمخالفته لأسلوب الكتاب في أكثر الأمور .

وأما النظر في رسائل البلغاء من فضلاء الكتاب، فلما في ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق، والنسج على منوال المجيد، والاقتداء بطريقة المحسن، وأستدراك ما فات، والاحتراز مما أظهره النقد، ورد ما بهرجه السبك . وأقتصر على النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر على ما يأتي به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبي زور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضرة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظ دون غيره .

(١) كذا بالأصل بزائدة من وفي الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصد الثاني

(في ذكر شيء من مكاتبات الصدر الأول يكون مدخلا إلى معرفة

ما يحتاج إلى حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملة على المحاورة والمراجعة ، فمنها ما كتب به معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه في زمن المشاجرة بينهما^(١) ، وهى :

أما بعد ، فإن الله أصطفى محمدا ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ؛ وأختار له من المسلمين أعوانا أيده بهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ؛ فكان أفضلهم في الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة ، وخليفة الخليفة ، والخليفة الثالث ؛ فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت . عرفنا ذلك في نظرك الشزر ، وتنفسك الصعداء ، وإبطائك على الخلفاء ، وأنت في كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير الخشوش حتى تُبايع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشد حسدا منك لأبن عمك عثمان ، وكان أحقهم أن لا تفعل ذلك به ، في قرابته وصهره ؛ فقطعت رحمه ، وقبحت محاسنه ، وألّبت عليه الناس حتى ضربت إليه أباط الإبل ، وشهر عليه السلاح في حرم الرسول ، فقتل معك في المحلة وأنت تسمع في داره الهائعة ؛ لا تؤدى عن نفسك في أمره بقول ولا فعل ؛ أفسم قسما صادقا ! لو قتت في أمره مقاما واحدا تنهين الناس عنه ، ما عدل بك ممن قبلنا من الناس أحد ، ولمحا ذلك عنك ما كانوا يعرفونك به : من المجانبة لعثمان والبغى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

(١) كتاب معاوية بيض له في الأصل فتقناؤه من العقد الفريد لأبن عبد ربه جز ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجهول فيه الخشاش . وهو عود يجعل في عظم أنف البعير . مضياح .

(٣) الهائعة الصوت المفزع .

ابن عفان ضنين ، إيوأوك قتلة عثمان ، فهم بطانتك ، وعضدك وأنصارك . فقد بلغني أنك تنفي من دمه فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته تقتلهم به . ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ! والذي نفس معاوية بيده لأطلبن قتلة عثمان في الجبال ، والرمال ، والبر ، والبحر ؛ حتى تقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ! .

فكتب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه في جواب ذلك :

أما بعد فقد أتاني كتابك ! تذكر فيه أصحابك الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييده إياه بمن أيده به من أصحابه ، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً ! أطفقت تخبرنا بألاء الله عندنا ، فكنت ككافل التمر إلى حجر أو داعي مدره إلى النضال ؛ وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان فذكرت أمراً إن تم أعتلك كله ، وإن نقص لم يلحقك قلبه ، وما أنت والفاضل والمفضل والسائل والمسئول ! . وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؛ هيئات لقد حق قدح ليس منها ، وطبق يحكم فيها من عليه الحكم لها ، ألا ترتب على ظلمك ، وتعريف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أنكرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب . ولا لك ظفر الظافر . وإنك لذهاب في التيه ، رواغ عن القصد . ألا ترى غير مخبرك ولكن بنعمة الله أحدث ، أن قوماً استشهدوا في سبيل الله ولكل فضل حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، ألا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ولكل فضل حتى إذا فعل بواحد منا ما فعل بواحد منهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين ، ولولا ما نهى عن تركية المرء نفسه لذكر ذا كرفضائل جمّة ،

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية
 فإننا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائع لنا ، لم ينعنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا على قومك
 أن خلطناهم بأنفسنا : فنكحنا وأنكحنا ، فَعَلَ الأَكفاءَ ولستم هناك ، وأنى يكون
 ذلك كذلك ! ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا
 سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة
 الخطب ، فإسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع ، كِتَابُ الله يجمع لنا ما شَدَّ عنا وهو قوله
 سبحانه وتعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى
 ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ لِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
 فتحن مرةً أُولَىٰ بالقرابة وتارةً أُولَىٰ بالطاعة . ولما أحتج المهاجرون على الأنصار
 يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُّوا عليهم ، فإن يكن الفَلَجُ به فالحقُّ
 لنا دونكم ، وإن يَكُنْ بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمت أنى لكل الخلفاء
 حَسَدَتْ ، وعلى كلهم بَغِيَتْ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجنايةُ عليك ، فتكون
 المَعْدِرَةُ إليك * وتلك شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عنك عارها *

وقلت إني كنتُ أقاد كما يُقاد الجملُ الخُشُوشُ حتى أباع . ولعمرك الله ! لقد
 أردت أن تدم فحمدت ، وأن تفضح فأقتضحت ؛ وما على المسلم من غَضَاضَةٍ
 في أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً في دينه ، ولا مُرتاباً في يقينه . وهذه حجتي إلى
 غيرك قصدها ، ولكنني أطلقتُ لك منها بقدر ما سنع لك من ذكرها .

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مَقَاتله :
 أَمَنْ بَدَلْ لَهُ نُصْرَتَهُ فَأَسْتَعِذُّهُ وَأَسْتَكْفِهِ أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونُ
 إِلَيْهِ ، حتى أتى قدره عليه . كلا والله ! لقد علم الله الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ
 هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا . وما كنت أعْتَذِرُ من أنى كنت أنقم عليه

أحدانا فإن يكن الذنب إليه إرشادى وهدايتى له "فُرُبَّ مَلُومٌ لاذنبَ له . وقد يَسْتَفِيدُ
الظُّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ" وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولا أصحابى إلا السيف فلقد أضحكت بعد أستعبار ! متى
ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ؟ أو بالسيوف مخوفين .
(ف) لَبَّثْ قَلِيلًا يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلٌ * سَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ،
وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمَاهِجِينَ ، وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ
زَحَامُهُمْ ، سَاطِعِ قَتَامِهِمْ ، مُسْرِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ . أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ .
قد صحبتهم ذُرِّيَّةَ بَدْرِيَّةٍ وَسُيُوفِ هَاشِمِيَّةٍ قَدْ عَلِمَتْ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ ،
وَجَدَكَ ، وَأَهْلَكَ (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة ،
إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، حين بُويعَ له بالخلافة
ونُحِرَ على المنصور يريد أنتراعها منه . من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن
عبد الله . أما بعد : فَ(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ
الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . ولك ذمة الله وعهده وميثاقه
وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تُبِتَ من قبل أن يُقدَّرَ عليك أن أوْثَقَ منكَ على
نفسك وولدك وإخوانك ومنْ بَايعَكَ وَجَمِيعِ شِيعَتِكَ ، وَأَنْ أُعْطِيَكَ أَلْفَ أَلْفِ
دِرْهَمٍ ، وَأُنْزِلَكَ مِنَ الْبِلَادِ حَيْثُ شِئْتَ ، وَأَقْضَى لَكَ مَا شِئْتَ مِنَ الْحَاجَاتِ ، وَأَنْ
أُطْلَقَ مَنْ فِي سِجْنِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ وَشِيعَتِكَ وَأَنْصَارِكَ ، ثُمَّ لَا أَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْكُمْ بِمَكْرِهِ

وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجهه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين تتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين وزيد أن تمن على الذين استضعفوا في الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين وتمكن لهم في الأرض وزري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني ، فقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما أعطيتموه بنا ، ونهضتم فيه بسعيننا وحطتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصي والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وإنا بنو أم أبي رسول الله : فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم ، وبنو آبنته فاطمة في الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بني هاشم نسباً ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدني العجم ، ولم تُعرق في أمهات الأولاد . وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم : محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً ، وأوسعهم علماً ، وأكثرهم جهاداً : علي بن أبي طالب ، ومن نسائه أفضلهن : خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن ، وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشماً ولد عليا مرتين ، وأت عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولَدَنِي مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلِ جَدِّي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، فَمَا زَالَ الْإِلَهُ يُخْتَارُنِي حَتَّى اخْتَارُنِي فِي النَّارِ فَوَلَدَنِي أَرْفَعُ النَّاسَ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ ، وَأَهْوُنُ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَأَنَا ابْنُ خَيْرِ الْأَخْيَارِ ، وَابْنُ خَيْرِ الْأَشْرَارِ ، وَابْنُ خَيْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَابْنُ خَيْرِ أَهْلِ النَّارِ . وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ إِنْ دَخَلْتَ فِي بَيْعَتِي أَنْ أَوْمَنَكَ عَلَى نَفْسِكَ وَوَلَدِكَ وَكُلِّ مَا أَصَبَتْهُ إِلَّا حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ حَقًّا لِمُسْلِمٍ أَوْ مَعَاهِدٍ . فَقَدْ عَلِمْتَ مَا يَلْزَمُكَ فِي ذَلِكَ فَأَنَا أَوْفَى بِالْعَهْدِ مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَحْرَى بِقَبُولِ الْأَمَانِ مِنِّي . فَأَمَّا أَمَانُكَ الَّذِي عَرَضْتَ عَلَيَّ فَأَيُّ الْأَمَانَاتِ هُوَ ؟ أَأَمَانُ ابْنِ هَبِيرَةَ ، أَمْ أَمَانُ عَمِّكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَمْ أَمَانُ مُسْلِمٍ وَالسَّلَامُ .

فَأَجَابَهُ الْمَنْصُورُ : مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَمَا بَعْدَ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ ، وَبَلَّغْنِي كَلَامُكَ ، فَإِذَا جُلُّ نَخْرِكَ بِالنِّسَاءِ ، لِنُضْلٍ بِهِ الْجُفَاةَ وَالْغَوَاةَ ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ النَّسَاءَ كَالْعُمُومَةِ ، وَلَا الْآبَاءَ كَالْعَصْبَةِ وَالْأَوْلِيَاءِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَمَّ أَبَا ، وَبَدَأَ بِهِ عَلَى الْوَالِدِ الْأَدْنَى . فَقَالَ جُلُّ ثَنَاؤِهِ عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ .

وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَمُومَتُهُ أَرْبَعَةٌ فَأَجَابَ اثْنَانِ أَحَدَهُمَا أَبِي ، وَكَفَرَ اثْنَانِ أَحَدَهُمَا أَبُوكَ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ النَّسَاءِ وَقَرَابَاتِهِنَّ ، فَلَوْ أُعْطِينِ عَلَى قَدْرِ الْأَنْسَابِ ، وَحَقِّ الْأَحْسَابِ ، لَكَانَ الْخَيْرُ كُلُّهُ لَأَمْنَةِ بِنْتِ وَهْبٍ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يُخْتَارُ لِدِينِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ أُمِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَفَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ وَأَنْ هَاشِمًا وَلَدَ عَلِيًّا مَرَّتَيْنِ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ وَلَدَ الْحُسَيْنِ مَرَّتَيْنِ ، فَخَيْرُ الْأَوَّلِينَ

والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلِدْه هاشم إلا مرة واحدة ، ولم يَلِدْه عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبى ذلك فقال ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ولكنكم قرابة آبنته ، وإنها قرابة ذريته ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤم فكيف تُورث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخَاصِمَ ، ومَرَضَهَا سَرًّا ، ودفعها ليلا ، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره . ثم أخذ الناس رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها ، وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه . ثم بايع معاوية بعده ، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وخرج إلى المدينة ، فدفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعموه .

وأما قولك إن الله اختار لك في الكفر فجعل أبوك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ، ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار . سترد فتعلم ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وأما قولك إنه لم تلدك العجم ، ولم تُعرق فيك أمهات الأولاد ، وإنك أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أمًّا وأبا ، فقد رأيتك نُحِرْتَ على بنى هاشم طُرًّا ، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرًا ، وأصلا وفصلا . نُحِرْتَ على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده ، فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غدا وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عليّ

أَبْنِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ لَأَمُّ وَلَدٌ ، وَلَقَدْ كَانَ خَيْرًا مِنْ جَدِّكَ حَسَنُ بْنُ حَسَنِ . ثُمَّ أَبْنَةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ خَيْرٌ مِنْ أَيْبِكَ وَجَدَّتُهُ أُمُّ وَلَدٍ . ثُمَّ أَبْنَةُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَلَدَتْهُ أُمُّ وَلَدٍ . وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ جَدَّكَ عَلِيًّا حَكِيمٌ وَأَعْطَاهُمَا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ عَلَى الرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ فَاجْتَمَعَا عَلَى خَلْعِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ عَمَّكَ الْحُسَيْنُ عَلَى ابْنِ مَرْجَانَةَ وَكَانَ النَّاسُ مَعَهُ عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلُوهُ ، ثُمَّ اتَّوَا بِكُمْ عَلَى الْأَقْتَابِ مِنْ غَيْرِ أَوْطِيَةِ كَالسَّبْيِ الْمَجْلُوبِ إِلَى الشَّامِ . ثُمَّ خَرَجَ مِنْكُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ فَقَتَلَكُمْ بَنُو أُمَيَّةَ وَحَرَّقَوْكُمْ بِالنَّارِ وَصَلَبُوكُمْ عَلَى جَذُوعِ النَّخْلِ حَتَّى خَرَجْنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْرَكْنَا بَثْرَكُمْ إِذْ لَمْ تُدْرِكُوهُ ، وَرَفَعْنَا أَقْدَارَكُمْ ، وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَلْعَنُونَ أَبَاكَ فِي أَدْبَارِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ كَمَا تُلْعَنُ الْكَفَرَةُ فَنَعْنَاهُمْ وَكَفَرْنَا بِهِمْ ، وَبَيْنَا فَضْلُهُ وَأَشَدُّنَا بِذِكْرِهِ ، فَاتَّخَذْتَ ذَلِكَ عَلَيْنَا حِجَّةً ، وَظَنَنْتِ أَنَا بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ فَضْلِ عَلِيٍّ قَدَمْنَاهُ عَلَى حِزَّةِ الْعَبَّاسِ وَجَعْفَرٍ ، كُلُّ أَوْلَئِكَ مَضَوْا سَالِمِينَ سَالِمًا مِنْهُمْ وَأَبْتَلِي أَبُوكَ بِالْكَرَمَاءِ . وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مَا ثَرْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَقَايَةَ الْحَاجِّ الْأَعْظَمِ ، وَوَلَايَةَ زَمْزَمَ ، وَكَانَتْ لِلْعَبَّاسِ دُونَ إِخْوَتِهِ فَزَاعَ فِيهَا أَبُوكَ إِلَى عَمْرِ فَقَضَى لَنَا عَمْرُهَا . وَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ مِنْ عَمُومَتِهِ أَحَدٌ حَيًّا إِلَّا الْعَبَّاسُ فَكَانَ وَارِثُهُ دُونَ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَطَلَبَ الْخِلَافَةَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَمْ يَنْتَلِهَا إِلَّا وَلَدُهُ . فَاجْتَمَعَ لِلْعَبَّاسِ أَنَّهُ أَبُو رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَبَنُوهُ الْقَادَةُ الْخُلَفَاءُ ، فَقَدْ ذَهَبَ بِفَضْلِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَلَوْلَا الْعَبَّاسُ أُخْرِجَ إِلَى بَدْرٍ كُرْهَا لَمَاتَ عَمَّاكَ طَالِبٌ وَعَقِيلٌ جُوعًا أَوْ يَتَجَشَّانَ جِفَانٌ عُتْبَةٌ وَشَيْبَةٌ ، فَازْهَبَ عَنْهُمَا الْعَارُ وَالشَّيَارُ . وَلَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَالْعَبَّاسُ يَمُونُ أَبَا طَالِبٍ لِلْأُزْمَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ . ثُمَّ فَدَى عَقِيلًا يَوْمَ بَدْرٍ فَقَدْ مَنَّاكُمْ فِي الْكُفْرِ ، وَفَدَيْنَاكُمْ مِنَ الْأَسْرِ ، وَوَرِثْنَا دُونَكُمْ خَاتِمَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَحَزْنَا شَرَفَ الْآبَاءِ ، وَأَدْرَكْنَا بَثْرَكُمْ إِذْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ وَوَضَعْنَاكُمْ حَيْثُ لَمْ تَضَعُوا أَنْفُسَكُمْ وَالسَّلَامَ .

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر :
 إنه إنما تملك الرعية بالإحسان إليها، وتظفر بالحببة منها؛ فإن طلبك ذلك بإحسانك،
 هو أدام بقاء منه باعتسافك بعنفك. وأعلم أنه إنما تملك الأبدان، فأجمع إليها القلوب
 بالحببة. وأعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فأجتهد أن لا تقول
 تسلم من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن من تختاره
 لولائتك رجلا كان في وضيعة فرغته، وذا شرف كان مهملا فأصطنعته . ولا تجعله
 امرأ أصبته بعقوبة فأتضع لها ، ولا أحدا ممن يقع بقلبك أن إزالة سلطانك أحب
 إليه من شوته ؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غمرا، كثيرا إعجابه بنفسه، قليلا تجربته
 في غيره، ولا كبيرا مدرا، قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه أيضا : إن كلمة منك تسفك دما، وأخرى
 تحقق دما، وإن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه، وإن رضاك بركة مفيدة
 على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فأحترس في غضبك من
 قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف؛ فإن الملوك تعاقب
 جرما، وتعفو حلما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العطاء،
 إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حفظة البيضة ، والكتّاب
 الذين هم زين المملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم ، فإننا نحمد
 إليكم الله سالمين، وقد وضعنا عن رعيننا بفضل رأيتنا بها إتاوتها للموظفة عليها، ونحن
 مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحقد فيدّهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملكم

الفحط، وتزوجوا القرائب فإنه أمس للرحم، وأثبت في النسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئا، ولا ترفضوها، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومخاطباتهم . فن ذلك رسالة الصديق رضى الله عنه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين تلقا عن مبايعته، على لسان أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، مع ما انضم إلى ذلك من كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علي عنها .

قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ بَشْرِ الْمُرُورُودِيِّ بِبَغْدَادَ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ ؛ وَكَانَ غَزِيرُ الرِّوَايَةِ ، لَطِيفُ الدَّرَايَةِ ، بَخْرِي حَدِيثُ السَّقِيفَةِ ، فَرَكَبَ كُلُّ مَرْكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَضَ بَشْيَءً ، وَنَزَعَ إِلَى فَق . فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ الْأَبِيِّ بَكْرِ الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيٍّ عَنْهَا ، وَمَبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ عَقِيبَ تِلْكَ الْمَنَازَرَةِ . فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : هِيَ وَاللَّهِ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمَحَبَّاتِ الصَّنَادِقِ ؛ وَمِنْذَ حِفْظِهَا مَارَوَيْتَهَا إِلَّا لِأَبِيِّ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي وَزَارَتِهِ ، فَمَكْتَبَتِهَا عِنَى بِيَدِهِ ، وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ رِسَالَةَ أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَيْبَنَ ؛ وَإِنَّمَا لَتَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ ، وَفَصَاحَةٍ وَنَبَاهَةٍ ، وَبُعْدِ غُورٍ ، وَشِدَّةِ غَوْصٍ — فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي فَلَوْ أَتَمَمْتَ الْمِنَّةَ عَلَيْنَا بِرَوَايَتِهَا ، أَسَمِعْتَنَا ، فَنَحْنُ أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمُهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجِبَ ذِمَامًا عَلَيْكَ ، فَأَنْدَفَعُ وَقَالَ :

” حَدَّثَنَا الْخَزَاعِيُّ بِمَكَّةَ ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ ، قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ عَيْسَى بْنِ دَوَّابٍ بْنِ الْمَتَّاحِ ، قَالَ : سَمِعْتُ مُوَلَايَ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ : لَمَّا أَسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِيِّ بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَادِ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُمَا ، فَدَفَعَ اللَّهُ شَرَّهَا وَيَسَّرَ خَيْرَهَا ، بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ عَنْ عَلِيٍّ تَلَكُّوْهُ وَشِمَاسُ ، وَتَهَمُّهُمُ وَنِفَاسُ ،

فكره أن يتمادى الحال فتبدؤ العورة، وتستعل الجمرة، وتنفترق ذات البين؛ فدعاني بحضرته في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحده فقال: يا أبا عبيدة ما أئمن ناصيتك، وأئمن الخيرين عينك؛ وطالما أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود "لُكِّلَ أُمَّةٌ أَمِينٌ وَأَمِينٌ هذه الأمة أبو عبيدة" ولم تزل للدين ملتجا، وللمؤمنين مُرتجيا؛ ولأهلك ركنا، ولإخوانك ردةً. قد أردت لك لأمرٍ خطرٌ مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل بجرحه يسارك ورفقك، ولم يُجب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل اليأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمرٌ منه وأعلق، وأسرُّ منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك. فتأت له أبا عبيدة وتلطّف فيه، وأنصح لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه العصابة غير آل جهدا، ولا قال حمدا، والله كالك وناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله. امض إلى عليّ وأخفّض له جناحك، وأغضّض عنده صوتك، وأعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه، وقل له البحر مغرقة، والبر مفرقة، والحق أكلف، والليل أغدق، والسماء جلاء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رؤوف، والباطل عنوف عسوف، والعجب قذاحة الشر، والضغن رائد البوار؛ والتعريض شجار الفتنة، والقيحة نقوب العداوة، وهذا الشيطان متكى على شِماله، متحيل يمينه، نافخ خُصّيه لأهله، ينتظر الشّتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادا لله عز وجل أولا، ولآدم ثانيا، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ودينه ثالثا، يوسوس بالفجور، ويؤذني بالغرور، ويمني أهل الشرور. يوحى إلى أوليائه زُخرف القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتي فلان لا مر تها له وأتاه من وجهه .

كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف
 الدهر لا منجى منه إلا بعض الناجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء
 هامة عدو الله بالأشد فالأشد ، والآكد فالآكد ، وإسلام النفس لله عز وجل في آبتغاء
 رضاه . ولا بُد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أرشدك
 من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحياء مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من أثر البقاء
 معك ؛ ما هذا الذي تُسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ،
 ويتخاوض دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويرادّ معه نفسك ، وتكثر عنده
 ضَعْدَاؤُك ، ولا يقيضُ به لسانك . أُنجمَةٌ بعد إفصاح ؟ أتلدّيس بعد إيضاح ؟
 أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدي غير هدى النبي صلى الله عليه
 وسلم ، أمثل " تمشي له الضراء وتدب له الخمر ؟ " ، أم مثلك ينقيض عليه الفضاء ،
 ويكشف في عينه القمر ، ماهذه الققعة بالشَّنان ؟ وما هذه الوعوة باللسان ؟
 إنك والله جدُّ عارفٍ باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا
 عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرةً إلى الله عز وجل ، ونصرةً لدينه
 في زمان أنت فيه في كنّ الصبا ، وخذر الغرارة ، وعُنفوان الشَّيبة ، غافل عما يُشيب
 ويُرِيب ، لا تبعي ما يُراد ويُشاد ، ولا تحصيل ما يُساق ويُقاد ، سوى ما أنت جارية عليه
 إلى غايك التي إليها عدل بك ، وعندها حط رحلك ، غير مجهول القدر ولا محدود
 الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك نُعاني أحوالاً تُزِيل الرِّواسي ، وتُقاسي أهوالاً تُشيب
 النواصي ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صابها ، ونُشرج عيابه ، ونُحكم
 أساسها ، ونُبزم أمراسها ، والعيون تُحدج بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والأصدور
 تستعير بالغيظ ، والأعناق تتطاوّل بالفخر ، والشَّفار تُشحد بالمكر ، والأرض تُمسد

بالخوف ؛ لا تنتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا تدفع في نحر
 أمرئ إلا بعد أن نحسو الموت دونه ، ولا نبلغ مرادا إلا بعد الإياس من الحياة
 عنده ؛ فادين في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والخال
 والعم ، والمال والنسب ، والسبد واللبد ، والهلة واليلة ، بطيب أنفس ، وقوة
 أعين ، ورخب أعطان ، وثبات عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلاقة
 ألسن ؛ هذا مع خفيات أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلا ، ولولا سنك
 لم تكن عن شيء منها ناكلا ، كيف وفؤادك مشهور ؟ ، وعودك معجوم . والآن
 قد بلغ الله بك وأنهض الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول
 ماتسمع ؛ فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التقعس والتجسس لمن لا يطلع
 لك إذا خطا ، ولا يترخح عنك إذا عطا ؛ فالأمر غض ، والنفوس فيها مص ،
 وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم بلحاجا ، وسيفها العضب ، فلا تنب أعوجاجا ، وماؤها
 العذب ، فلا تحل أجاجا . والله لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا
 الأمر ، فقال لي يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لامن يُحاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه
 لامن يتنفج إليه ؛ هو لمن يقال هو لك لامن يقول هو لي .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر ، فذكر فينا من قريش
 فقلت أين أنت من علي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني أكره لفاطمة مئة شبابه ،
 وحداثة سنه . فقلت له متى كنته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ،
 وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت
 منك في ذلك لاحوجاء ولا لوجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد راحة
 سواك ؛ وكنت إذ ذاك خيرا لك منك الآن لي ؛ ولئن كان عرض بك رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن معرضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

فما سكت عن سواك؛ وإن تلجلج في نفسك شئ، فهلم فالحكم مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع. ولقد ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذر: يسره ماسرها، ويسوءه ماساها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسخطه ما أسخطها. أما تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه، وأقاربه، وسُجرائه،^(١) إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة. أتنظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأئمة سدى بددا، عباهل، مباهل، طلاحى مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا زائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادى ولا حادى كلا!، والله ما أشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصوى، وأتمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهايج، وإلا بعد أن شذخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع أنف الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة، ودار جامعة، إن استقالوني لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك. وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفايح لمغالقتهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم. فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق. ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد فالناس ثمانية فأرفق بهم، وأحن عليهم ولن لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصة

(١) بالنسبة المهمة جمع سحير كأمير وهو الصديق

(٢) بالباء الموحدة في الوزنين ومعناها مهمة. أنظر اللسان

فيهم ، وأترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما تقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه كن لدى الباب هنية فلي معك دور من القول ، فوقفت وما أدري ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه يندى تهلا ، وقال لى قل لعل الرقاد محلمه ، والهوى مقحمه ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبا ظاهر أو مكتوم ، وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا ، وقارب البعيد تلطفا ، ووزن كل شىء بيزانه ، ولم يخاط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره ديناً كان أو دُنْيَا ، ضللا كان أو هدًى . ولا خير فى علم مستعمل فى جهل ، ولا خير فى معرفة مشوية بئكر . ولسنا بكلمة رُفِعَ البعير بين العِجَانِ والذنب ، وكل صالٍ فبناره ، وكل سيل فإلى قَراره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لى وشى ، ولا كلامها اليوم لفرق أورفق . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كدوب ، فماذا بعد الحق إلا الضلال . ما هذه الخنزروانة التى فى قرأش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القداة التى تغشت ناظرَكَ ؟ وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هذا الذى ليست بسببه جلد النمر ، وأشتلت عليه بالشحناء والذكرك ، ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جزرا لسؤفونا ، ودرية لريماحتنا ، ومرمى ليطعانا ، وتبعا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثرة حكمة ، وأثرة رحمه ، وعنوان نعمة ، وظل عصمه ، بل أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرقى والفتق ، لها من الله قلب أبى ، وساعد قوى ، ويد ناصره ، وعين باصره . أتظن ظنا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتا على الأمة خادعا لها ،

أو متسلطا عليها؟ أترأه حل عُقودها وأحال عقولها؟ أترأه جعل نهارها ليلا، ووزنها كيلا، وبقَظتها رُقادا، وصَلَحها فسادا؛ لا والله سلا عنها فولَّهت له، وتطامن لها فاصبقت به، ومال عنها فالت إليه، وأشمأز دونها فاشتملت عليه، حَبوة حباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إليها، ونعمة سَرَّبه بجمالها، ويَدُّ أوجب الله عليه شكرها، وأمةً نظر الله به إليها. والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُحدد حقك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحمك بمنكب أضخم من منكك، وقُرب أسس من قرباتك، وسنّ أعلى من سننك، وشيئية أروع من شيتتك، وسيادة لها أصل في الجاهلية، وفرع في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة، ولا تُذكر منها في مقدمة ولا ساقه، ولا تَضربُ فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها بيازل ولا تُبع. ولم يزل أبو بكر حَبَّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلاقة نفسه، وعيبة سره، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومَرْمَقَ طَرَفِهِ. وذلك كله بمحض الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شُهرته مغنية عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقرب منك قُربة، والقرابة لحم ودم، والقُربة نفس وروح. وهذا فرق عرفة المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون، ومهما شككت في ذلك، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فأدخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غداً، وألفظ من فيك ما يعلق بلهاتك، وأنفت سخيمة صدرك عن ثقاتك، فإن يك في الأمد طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريئاً أو غير مريء، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء، حين لا راد لقولك إلا من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك يَمُصُّ إهابك، ويعرك أديمك، ويُرَى على هديك. هنالك تقرع السن من ندم،

وتجرع الماء ممزوجا بدم ، وحينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ، ودارج قوتك ، فتود أن لو سُقيت بالكأس التي أبيتها ، ورُدِدَت إلى حالتك التي استغويتها ، والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسراها وضرائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة ، فتمشيت مترملا أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرقا من الفرقة ، وشفقا على الأئمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء ، فأبتثنته بجني كلّه ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله جمياها ، قال : ” حَلَّتْ مُعْلَوِّطُهُ ، وَوَلَّتْ مُحْرَوِّطُهُ “ ، وأنشأ يقول :

إحْدَى لِيَالِيكَ فَيَهِيْسِي هَيْسِي * لَا تَنْعِمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا في نفس القوم ، ويحسّون به ، ويضطربون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لأجواب لك عندي إنما أنا قاض حق الدين ، ورائق فتق المسلمين ، وسادّة ثلّة الأئمة . يعلم الله ذلك من جُلْجُلان قلبي ، وقرارة نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في كِنِ هذا البيت قصدا للخلاف ، ولا إنكارا للعرف ، ولا زراية على مُسلم ؛ بل لما قد وقّدتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحُزن لفَقْدِهِ . وذلك أني لم أشهد بعده مشهدا إلا جدد علي حُزنا ، ودَكرني تَجَنُّنا . وإن الشوق إلى اللّقاء به كافي عن الطمع في غيره . وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق ، رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلمّ لعلمه ومشيتته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن التظاهر على واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع ؛ وإذ قد أقفم الوادي بي ، وحشد النّادي من أجلي ، فلا مَرَحبا بما أساء أحدا من المسلمين وسرني . وفي النفس كلام لولا

سابق عقد ، وسالف عهد ، لسفيت غيظي بنخصري وبنصري ، وخضت لجته
بأنحصى ومفرق ، ولكنني ملجئ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحسب ما نزل بي .
وإني غاد إلى جماعتكم ، مبيع صاحبكم ، صابر على ما ساءني وسركم (ليقضى الله
أمرًا كان مفعولاً) .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر رضي الله عنه فقصصت عليه القول على
غيره ، ولم أحتل شيئاً من حُلوه ومره ، وبكرت غدوة إلى المسجد ، فلما كان صباح
يومئذ وإذا على مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيراً ،
ووصف جميلاً ، وجلس زميناً^(١) ، وأستاذن للقيام فضى وتبعه عمر مكرماً له ، مستأثراً
لما عنده .

فقال على رضي الله عنه : ما قعدت عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيته فرقا ، ولا أقول
ما أقول تعلقة . ولا إني لأعرف منتهى طرفي ومحط قدمي ومنزع قوسي ، وموقع
سهمي ، ولكن قد أزممت على فاسي ثقة بربي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كفكف غربك ، وأستوقف سربك ، ودع العصى
بلحائها ، والدلاء على رشائها . فإننا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وإن متحنا
أروينا ، وإن قرحنا أدمينا ، ولقد سمعت أمائلك التي لغزت بها عن صدر أكل
بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقاتلك ما إن سمعته ندمت على ما قلت . وزعمت أنك
قعدت في كن بيتك لما وقذك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقمده ، فهو
وقذك ولم يقذ غيرك ؟ بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مصابه أن
لا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها . هذه

(١) أى حلياً وقوراً .

العرب حولنا ، والله لو تداعت علينا في صُبح نهار لم نلتقي في مسائه . وزعمت أن الشوق إلى الخالق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه ، وموازرة أوليائه ، ومعاونتهم . وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله ، والرافة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك وأى حق لظ^(١) دُونك . قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سرًا وجهراً ، وتقلبت عليه بطنًا وظهراً ، فهل ذكرت أو أشارت بك أو وجدت رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه ؟ أو هم في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كُفَّاراً زُهداً فيك ، وباعوا الله تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُنيكر على من يعقد الخلافة ، فأنكرت عليهم ، ورددت القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحى ويتوَكَّف مناجاة الملك . فقلت ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر معقوداً بأنشوطه ، أو مشدوداً بأطراف ليطه ؟ كلا ! والله لا عجاء بحمد الله إلا أفصحت ، ولا شوكة إلا وقد تفتحت . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيت غيظي ؛ وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شائقتها وأقنع جرثومتها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبُرهان . وزعمت أنك مُلجِم ؛ ولعمري إن من آتق الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه .

(١) لظ . أى محمد . ووقع في بعض النسخ لك وفي بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضي الله عنه : مَهْلًا يَا أَبَا حَفْصِ وَالله مابَدَلْتُ مابَدَلْتُ وأنا أريد نَكَدَهُ ، ولا أَقَرَّرْتُ ما أَقَرَّرْتُ وأنا أَبْتَنِي حَوْلًا عَنْهُ . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله مَنْ آثَرَ النِّفَاقَ ، وَاحْتَضَنَ الشَّقَاقَ وفي الله سَلْوةٌ عن كلِّ حادِثٍ ، وعليه التَّوَكُّلُ في جميعِ الحَوَادِثِ . ارجع يَا أَبَا حَفْصِ إِلَى مَجَاسِكَ نَاقِعِ الْقَلْبِ ، مَبْرُودِ الْغَلِيلِ ، فَصِيحِ اللَّبَانِ ، فَصِيحِ اللَّسَانِ ؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلّا ما يَشُدُّ الْأَزْرَ ، وَيُحِطُّ الْوِزْرَ ، وَيُضِعُّ الْإِضْرَ ، وَيَجْعُ الْأُلْفَةَ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَحَسَنِ تَوْفِيْقِهِ .

قال أبو عبيدة رضي الله عنه : فَأَنْصَرَفَ عَلِيٌّ وَعَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا . وهذا أصعبُ ما مرَّ عَلِيٌّ بِعَدِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ومن ذلك كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها .

يروى أنه بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضي الله عنه ، فأرسلت إلى أزفلةٍ من الناس فلما حضروا ، أسدلت أستارها ، وعلت وسادها . ثم قالت أبي : وما أبيه ! أبي والله لا تعطوه الأيدي ، ذاك طَوْدٌ مَنِيْفٌ ؛ وَفَرْعٌ مَدِيدٌ ، هِيَّاتِ كَذَبَتِ الظُّنُونُ ، أَنْجَحَ إِذَا كَدَيْتُمْ ، وَسَبَقَ إِذَا وَتَيْتُمْ * سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأُمْدِ * فَيُقْرِشُ نَاشِئًا ، وَكَهْفَهَا كَهْلًا ، يُفَكُّ عَيْنَهَا وَيَرِيْشُ مُمْلِقَهَا ، وَيَرَأُبُ شَعْبَهَا ، وَيُلْمُ شَعْبَهَا حَتَّى حَلَيْتَهُ قُلُوبُهَا ، ثُمَّ اسْتَشْرَى فِي دِينِ اللهِ فَمَا بَرَحَتْ شَكِيمَتُهُ فِي ذَاتِ اللهِ عِزٌّ وَجَلٌّ حَتَّى آتَخَذَ بِنَفَائِهِ مَسْجِدًا يَحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمَبْطُلُونَ ؛ وَكَانَ رَحِمَهُ اللهُ غَيْرِ الدَّمْعَةِ ، وَقِيْدَ الْجَوَانِحِ ، شَبَّيَّ النَّشِيْجِ ، فَاَنْقَضَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْتَخْرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتٌ مِنْ قُرَيْشٍ خَفَتِ قِسِيَهَا وَفَوَقَتْ سِهَامَهَا وَأَنْتَلَوْهُ غَرَضًا ، فَمَا فَلَوْ لَهُ صَفَاةٌ ، وَلَا قَصْفُؤَالُهُ قَنَاءَةٌ ، وَمَرٌّ عَلَى سَيْسَانِهِ ، حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينُ بِجُرْآنِهِ ،

ورسّت أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لنبيه ما عنده ؛ فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رؤوفه ، ومد طنبه ، ونصب حباله ، وأجلب بحيله ورجله ، وأضطرب حبل الإسلام ، ومَرَجَ عهدُه ومَاجَ أهله ، وبُغِيَ الغوائل ، وظنّت رجال أن قد أكنّبت أطاعهم نُهزها ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصدّيق بين أظهرهم . فقام حاسرا مشمرا ، بجمع حاشيتيه ورفع قطريه ، فردّ رسن الإسلام على غربه ، ولم شعثه ببطه ، وأتّاش الدين فنعشه ، فلما أراح الحق على أهله ، وقرّر الرؤوس على كواهلها ، وحقن الدماء في أهيها ، أنته منيته ، فسدّ ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة والمعذلة . ذاك ابن الخطاب لله دَرّ أم حملت به ودرّت عليه ! لقد أوجدت به ، ففَنَخَّ الكفرة ودَيَّخها ، وشَرَّدَ الشرك شَدْرَ مَدَر ، وبعج الأرض وبنجها فقاءت أكلها ، ولفظت خباها ، ترأّمه ويضدّ عنها ، وتصدّى له ويأبأها . ثم وزّع فيها فيأها وودّعها كما صحبها . فأروني ماذا ترتنون وأى يومى أبى تتقمون : أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا ؟ قالوا اللهم لا .

ومن ذلك كلام أم الخير : بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلى رضى الله عنه .

يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) في بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولم شعثه بطه .

عليه كتابه ، ركب إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت أما أنا فغير زائفة عن طاعة ولا معتلة
بكذب ! ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى . فلما شيعها
وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير : إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه يجازيني بقولك
في بالخير خيرا وبالشر شرا ، فما عندك ؟ قالت يا هذا لا يُطِيعَنَّكَ بِرُكِّى أن أسرك
بباطل ، ولا تؤيسك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير حتى
قدمت على معاوية فأزلهما مع حريمه ، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده
جلساؤه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال لها وعليك
السلام يا أم الخير ، وبالرغم منك دعوتينى بهذا الاسم . قالت مه يا أمير المؤمنين !
فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ((ولكل أجل كتاب)) . قال صدقت .
فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ . قالت لم أزل في عافية وسلامة
حتى صرت إليك فانا في مجلس أنيق ، عند ملك رفيق — قال معاوية بحسن نيتي
ظفرت بكم — قالت يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تُردى عاقبته
قال ليس هذا أردنا . أخبريني كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر ؟ قالت لم أكن
والله زورته قبل ولا رويته بعد . وإنما كانت كلمات نقهن لسانى حين الصدمة
فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت — قال لا أشاء ذلك . ثم التفت
إلى أصحابه فقال أيكم يحفظ كلام أم الخير فقال رجل من القوم أنا أحفظه
يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد — قال هاته — قال : نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين
في ذلك اليوم عليها بُرد زيبدي كثيف الحاشية ، وهى على حمل أرمك وقد أُحيط
جولها ، ويدها سوط منتشر الظفر ، وهى كالفلح يهدير في شقشيقته تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مُبْهِمَةٍ ! ولا سوداء مدْهِمَةٍ فالإي أين تريدون رحمكم الله . أفرارا عن أمير المؤمنين ، أم فرارا من الزحف ، أم رغبةً عن الإسلام ، أم أردتادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول .

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبیدك يارب أزيمة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى، وآلف القلوب على الهدى، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصدیق الاكبر! إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحْديهِ، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ . صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة، فرث من قسورة . لا تدري أين يسلك بها من بجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى وعمّا قليل ليصبحن نادمين، حين تحلل بهم الندامة فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار . أيها الناس إن الأيكاس آستقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فالإي أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي أبنيه ؟ خلق

من طينته ، وتفترع عن نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان بغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضي على سنن استقامته ؛ لا يعرج لراحة اللذات ؛ وهو مُفَلِّق الهام ، ومكسر الأصنام إذ صلب الناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ؛ فإلها وقائع ! زرعت في قلوب قوم نفاقا ، ورودة وشقاقا ، وقد آجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يألم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجرى الله ذلك على يدى من يُسعدنى الله بشقائه — قال هيات يا كثيرة الفضول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان ؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون — فقال إيه يا ألم الخير هذا والله أصلك الذى تبين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سباقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟ — قالت وما عسى أن أقول فى طلحة أغتيل من مأمنه ، وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة — قال فما تقولين فى الزبير ؟ قالت يا هذا لا تدغنى كرجيع الضبع يعرك فى المركن — قال حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سباقا إلى كل مكومة فى الإسلام . وإنى أسألك بحقي الله يا معاوية فإن قرئشا تحدث أنك من أحلمها أن تسعني بفضل حلمك ،

وأن تُعفيني من هذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها — قال نعم وكرامة قد أعفيتك، وردّها مكرمة إلى بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية يوم صفين أيضا .
يروى أنها ذكرت عند معاوية يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه يا أمير المؤمنين — قال فأشيروا على في أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بأس الرأي أيحسُن بمثل أن يقتل امرأة؟ . ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوى محرمها وعدة من فُرسان قومها، وأن يمهّد لها وطء لينا، ويسرّها بستر خفيف، ويوسع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية، قال مرحبا بك وأهلا! قَدِمْتَ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة! — قال كيف كنتِ في مسيرك؟ قالت ربيبة بيت أو طفلا مُمهّدا — قال بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثت إليك — قالت وأنى لي بعلم ما لم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألسنت الراكبة الجمّل الأحمر، والواقفة بين الصقيّين بصقيّين تحضّين الناس على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبُتر الذنب، ولن يعود مذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لها معاوية أتخفظين كلامك يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أنسيته — قال لكني أحفظه لله أبوك حين تقولين :

أيها الناس ارعوا وأرجعوا ! إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم، وجارت بكم عن قصد الحجّة . فإلها فتنة عمياء، صماء، بكاء لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها . إن المصباح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تنير مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من آسترشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ! فصبرنا يا معاشر المهاجرين
والأنصار على الغصص ؛ فكان قد أندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة التقوى ،
ودمغ الحق باطله ! فلا يجهل أحد فيقول كيف العدل وأثنى : ليقضى الله أمراً
كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحنأ ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا
اليوم مابعده ، والصبر خير في عواقب الأمور . أيها الحرب قدما غير ناكسين ،
ولا متشاكسين .

ثم قال لها يازرفاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه — قالت أحسن الله بشارتك ،
وأدام سلامتك ؛ فثلك من بشر بخير وسر جليسه — قال ويسرك ذلك ؟ — قالت : نعم
سُررت بالخبر فأتى لي بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لو فؤاؤكم له بعد
موته أعجب عندي من حُبكم له في حياته ! اذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين
آليت على نفسي أن لا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا ، ومثلك من أعطى من غير مسألة ،
وجاد من غير طلبة — قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا .

وقريب من ذلك كلام عكرشة بنت الأطرش يوم صفين أيضا .

يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عُكَّاز لها فسلمت عليه بالخلافة ،
ثم جلست — فقال لها معاوية : الآن صرت عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم
إذ لا على حي ! — قال ألسيت المتقلدة حمائل السيف بصفتين ؟ وأنت واقفة بين
الصفين تقولين : أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن
الجنة لا يحزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فآتبعوها
بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم هُمومها . وكونوا قوما مستبصرين في دينهم
مستظهرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ،
ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، وأستدعاهم إلى الدنيا فلبّوه .

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فِي دِينِ اللَّهِ ! وَإِيَّاكُمْ وَالتَّوَّكُلَ فَإِنْ ذَلِكَ يَنْقُضُ عُرَى الْإِسْلَامِ ،
وَيُطْفِئُ نَوْرَ الْحَقِّ . هَذِهِ بَذَرُ الصَّغْرَى ، وَالْعَقِبَةُ الْآخَرَى ؛ يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
أَمْضُوا عَلَى بَصِيرَتِكُمْ ، وَاصْبِرُوا عَلَى عِزِّمَتِكُمْ . فَكَأَنِّي بَكُمْ غَدًا وَقَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ
كَالْحُمْرِ النَّاهِقَةِ تَقْصَعُ قَصْعُ الْبَعِيرِ :

ثم قال : فَكَأَنِّي أُرَاكَ عَلَى عَصَاكَ هَذِهِ قَدْ أَنْكَفَأَ عَلَيْكَ الْعَسْكَرَانِ يَقُولُونَ هَذِهِ
عَكْرَشَةُ بِنْتُ الْأَطْرَشِ فَإِنْ كَدَتْ لَتُفْلَيْنِ أَهْلَ الشَّامِ لَوْلَا قَدْرُ اللَّهِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مَقْدُورًا ؛ فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ — قَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الْآيَةَ ، وَإِنَّ اللَّيْلَ إِذَا كَرِهَ
أَمْرًا لَيَحِبِّ إِعَادَتَهُ — قَالَ صَدَقْتَ فَاذْكُرِي حَاجَتَكَ — قَالَتْ كَانَتْ صَدَقَاتُنَا تَتَوَخَّذُ
مِنْ أَغْنِيَانَا فَتَرَدُّ عَلَى فَقَرَانَا وَقَدْ فَقَدْنَا ذَلِكَ ، فَمَا يُجْبِرُنَا لَنَا كَسِيرٌ ، وَلَا يُنْعِشُنَا لَنَا فَقِيرٌ .
فَإِنْ كَانَ عَنْ رَأْيِكَ فَبِثْلِكَ مِنْ أَنْتَبِهِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَرَاجِعِ التَّوْبَةِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِ
رَأْيِكَ فَمَا مِثْلِكَ مِنْ أَسْتَعَانَ بِالْخَوْنَةِ وَلَا أَسْتَعْمَلَ الظُّلْمَةَ — قَالَ مَعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ ،
لَإِنَّهُ يَنْوُبُنَا مِنْ أُمُورِ رَعِيَّتِنَا نَغُورُ نَتَفَتَّقُ ، وَنُجُورُ نَتَدَفَّقُ . — قَالَتْ سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَاللَّهِ
مَا فَرَضَ اللَّهُ لَنَا حَقًّا بِفَعْلٍ فِيهِ ضَرَرٌ لِقَرِينَا وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ — قَالَ مَعَاوِيَةُ هِيَئَاتِ
يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ نَبْهَكُمُ عَلَى فُلْنٍ تُطَاقُوا . ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ صَدَقَاتِهِمْ فِيهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ .

وَالشَّاهِدُ فِي هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَلَامُ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةِ مَعَ مَا فِيهَا : مِنَ الْمَرَاجَعَاتِ ،
وَالْمَخَاطَبَاتِ ، وَالْمَقَاوِلَاتِ ، وَالْمَحَاوَرَاتِ ، الصَّالِحَةُ لِلْإِسْتِشْهَادِ لِلْفَصْلِ الْمُتَقَدِّمِ قَبْلَ
ذَلِكَ . وَهَذَا بَابٌ مُتَسِعٌ لَا يَسِعُ اسْتِيفَاؤُهُ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِيعَابُهُ وَفِيهِ ذِكْرُنَا مَقْنَعٌ .

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ! أَرْسَلَ إِلَى مَعَاوِيَةَ
بِالشَّامِ كِتَابًا صَحْبَةً صَعْبَعَةَ بْنِ صُوحَانَ ، فَسَارِبَهُ حَتَّى أَتَى دِمَشْقَ ؛ فَأَتَى بَابَ مَعَاوِيَةَ
فَقَالَ لِأَذْنِهِ : أَسْتَأْذِنُ لِرَسُولِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَبِالْبَابِ جَمَاعَةٌ

من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله : "أمير المؤمنين" . وكثرت عليه
 الجلبة ، فاتصل ذلك بمعوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يابن
 أبي سفيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أما إنه لو كانت الرسل تُقتل
 في جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف
 طبعاً أو تكلفاً — فقال له ممن الرجل — قال من نزار — قال وما كان نزار قال كان
 اذا غزا انكش ، واذا لقي افترش ، واذا أنصرف احترش . قال فمن أى أولاده أنت ؟ —
 قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل التجاد ، ويعول العباد ،
 ويضرب ببقاع الأرض العباد — قال : فمن أى أولاده أنت ؟ — قال من جديلة —
 قال وما كان جديلة ؟ — قال كان في الحرب سيفاً قاطعاً ، وفي المكرّمات غيثاً نافعا ،
 وفي اللقاء لهباً ساطعاً — قال فمن أى أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال
 وما كان عبد القيس ؟ — قال كان حسناً أبيض وهاباً ، يقدم لضيّفه ما وجد ،
 ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء —
 قال ويحك يابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحى من قُرَيْش مجداً ولا نفراً ، — قال بلى
 والله يابن أبي سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض
 والأصفر ، السرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، ففرح معاوية وظن أن كلامه
 يشتمل على قريش كلها ، قال صدقت يابن صُوحان إن ذلك لكذلك فعرف صَعَصعة
 ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد . بعدتم عن أنف
 المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء — قال ولم ذلك ويحك يابن صُوحان ! فقال الويل
 لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم — قال قم فأخرجوه — فقال : صَعَصعة الوعد بيني

(١) أى جد . الأصمعي انكش في أمره واشمروجد بمعنى واحد . وقوله افترش أى صرع . يقال لقي فلان
 فلاناً فاقتشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أى كسب أو صاد .

وبينك لا الوعيد مَنْ أراد المناجزة ^(١) يَتَبَلَّ المحاجزة - فقال معاوية لشيء مما سَوَّده قومه
وَوَدِدْتُ أَنِّي مِنْ صُلْبِهِ ؛ ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى بَنِي أُمَيَّة فَقَالَ : هَكَذَا فَلْتَكُنَّ الرِّجَالُ .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بن عثمان بن عفَّان رضى الله عنه دخل على معاوية
وابنه يزيد إلى جانبه فقال له : أَتَمَنَّكَ أبى ، وَأَصْطَفَعَكَ حَتَّى بَلَغَكَ بِاصْطِنَاعِهِ إِيَّاكَ
المدى الذى لا يحارى ، والغاية التى لا تُسَامَى ؛ فَمَا جَازَيْتَ أبى بِآلَائِهِ حَتَّى قَدِمْتَ
هَذَا عَلَى ، وَجَعَلْتَ لَهُ الْأَمْرَ دُونى . ” وَأَوْمَأَ إِلَى يَزِيدَ “ وَاللَّهِ لِأَبْنِ خَيْرٍ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّ
خَيْرٍ مِنْ أُمِّهِ وَلَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ! - فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ . أَمَّا مَا ذَكَرْتَ يَا بَنِ أَنْحَى مِنْ تَوَاتُرِ
الْأَثَمِ عَلَى ، وَتَطَاهُرِ نَعْمَائِكَ لَدَى ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَوَجِبَ عَلَى الْمَكْفَاةِ وَالْمُجَازَاةِ ،
وَكَانَ مِنْ شُكْرِى إِيَّاهُ أَنْ طَلَبْتُ بَدْمَهُ حَتَّى كَابَدْتَ أَهْوَالَ الْبَلَاءِ ، وَغَشِيَتْ عَسَاكِرُ
الْمَنَایَا إِلَى أَنْ شَفِيتَ حَرَازَاتِ الصُّدُورِ وَتَجَلَّتْ تِلْكَ الْأُمُورُ . وَلَسْتُ لِنَفْسِى بِالْإِثْمِ
فِي التَّشْمِيرِ ، وَلَا الزَّارِى عَلَيْهَا فِي التَّقْصِيرِ .

وَذَكَرْتُ أَنَّ أَبَاكَ خَيْرٌ مِنْ أبى هَذَا ” وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى يَزِيدَ “ فَصَدَقْتَ
لِعَمْرِ اللَّهِ لِعِثْمَانَ خَيْرٌ مِنْ مُعَاوِيَةَ ! أَكْرَمَ كَرِيماً ، وَأَفْضَلَ قَدِيماً ، وَأَقْرَبُ إِلَى مَجْدِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِمَا . وَذَكَرْتُ أَنَّ أَمَّاكَ خَيْرٌ مِنْ أُمِّهِ فَاعْمُرْى إِنِّ أَمْرَاءَهُ مِنْ
قُرَيْشٍ خَيْرٌ مِنْ أَمْرَاءَةٍ مِنْ بَنِي كَلْبٍ . وَذَكَرْتُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْ يَزِيدَ فَوَاللَّهِ يَا بَنِ أَنْحَى
مَا يَسِرَّنِى أَنْ تُغَوِّطَ عَلَيْهَا رِجَالٌ مِثْلُ يَزِيدَ . فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ ” مَهْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !
أَبْنُ أَخِيكَ آسْتَعْمَلُ الدَّالَّةَ عَلَيْكَ ، وَأَسْتَعْتَبُكَ لِنَفْسِهِ ، وَأَسْتَرَادَ مِنْكَ فِرْدَهُ وَأَجْمَلَ لَهُ
فِي رَدِّكَ ، وَأَحْمَلَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَوَلَّهُ خُرَاسَانَ بِشِفَاعَتِى وَأَعْنَهُ بِمَا لَ يَظْهَرُ بِهِ مَوْرُوثُهُ “
فَوَلَاهُ مُعَاوِيَةُ خُرَاسَانَ ، وَأَجَازَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ أَعْجَبَ مَا ظَهَرَ
مِنْ حِلْمِ يَزِيدَ .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة . ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المنشئ .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه ديناً لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى أخى زيد بن منبه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الحق بصهرك ”يعنى عتبة“ فقدّم عليه مصر فقال : ”إنى سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتألف : ألبس أردية الليل مرة وأخوض فى لجج السراب أخرى، مؤقراً من حُسن الظن بك، وهارباً من دهر قَطم، ودين أزم، بعد غنى جدّنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مهرباً وعليك معولاً — فقال عتبة : مرحباً بك وأهلاً! إن الدهر أعاركم غنى وخطبكم بنا ثم آسترد وأخذ ما أمكنه أخذه، وقد أبقي لكم منا ما لا ضيقة معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله“ فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزى بن زُرارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوبر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال يا أمير المؤمنين لم أزل أهرّ ذوائب الرجاء إليك ، ولم أجد معولاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأسىم الجاهل بالآثار ، يقودنى إليك أمل ، ويسوقنى إليك بلوى ، والمجتهد يُعذر ، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحطط عن راحلتك رحّلها .

ونخرج عبد العزى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارة عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزُرارة : أتانى اليوم نعى سيد شباب العرب — قال زُرارة يا أمير المؤمنين هو أبى أو أبنك؟ — قال بل أبنك فقال ”لوت ما تلد الوالدة“ . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وَلِلْمَوْتِ تَغْدُو الْوَالِدَتُ سِخَالَهَا * كَمَا لِحَرَابِ الدَّهْرِ تُبْنَى الْمَسَاكِنُ

ومن ذلك ما يروى، أن مروان بن الحكم، وهو وال على المدينة فى خلافة معاوية حبس غلاماً من بني ليث فى جناية جناها بالمدينة ، فأنته جدّة الغلام ”وهى أمُّ

(١) سِنَانِ بِنْتُ جَشْمِيَّةِ بْنِ خَرْشَةَ الْمَذْحِجِيَّةِ، فَكَلَّمَتْهُ فِي الْغَلَامِ، فَأَغْلَظَ لَهَا مِرْوَانَ، فَخَرَجَتْ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَأَنْتَسَبَتْ لَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَةِ جَشْمِيَّةِ مَا أَقْدَمَكَ أَرْضَنَا؟ وَقَدْ عَهْدْتُكَ تَسْتَمِينَا، وَتُحْضِينِ عَلَيْنَا عَدُوَّنَا، قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنْ لَبِنِي عَبْدُ مَنْأَفٍ أَخْلَاقًا طَاهِرَةً، وَأَعْلَامًا ظَاهِرَةً، لَا يَجْهَلُونَ بَعْدَ عِلْمٍ، وَلَا يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ، وَلَا يَشْتُمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ لَأَنْتَ، قَالَ: "صَدَقْتَ نَحْنُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ قَوْلُكَ:

عَزَبَ الرُّقَادُ مُقْلَقَتِي لَا تَرْقُدُ * وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهُمُومِ وَيُورِدُ
يَا آلَ مَذْحِجٍ لَا مُقَامَ فَشَمِّرُوا * إِنْ الْعَدُوَّ لَالَ مَذْحِجٌ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَيٌّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ * وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَأَبْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ * إِنْ يَهْدِكُمُ النُّورُ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُدَّ شَهِدِ الْحُرُوبِ مَظْفَرًا * وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يَفْقَدُ،

قَالَتْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا خَلْفًا بَعْدَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ كَيْفَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَهِيَ الْقَائِلَةُ:

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ * بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا
فَأَذْهَبَ عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ * فَوْقَ الْغُصُونِ حَمَامَةٌ قُورِيًا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلْفًا لَنَا * أَوْصَى إِلَيْكَ بِنَا وَكُنْتَ وَفِيًا
وَالْيَوْمَ لَا خَلْفَ يُؤْمَلُ بَعْدَهُ * هِيَاتَ نَأْمَلُ بَعْدَهُ إِنْ سِيَا

قَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: لِسَانُ نَطَقٍ، وَقَوْلٌ صَدَقَ، وَلِئِنْ تَحَقَّقَ فِيكَ مَا ظَنَنْاهُ، فَحُظُّكَ الْأَوْفَرُ، وَاللَّهُ مَا أَوْزَرَكَ الشَّيْئَانُ، فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا هَؤُلَاءِ، فَأَذْخُضْ

مقاتلتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قربا، ومن المسلمين حبا. قال وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك من مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا. كان على الله أجب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من غيرك. قال ممن؟ قالت من مروان وسعيد بن العاص — قال وبم استحققت ذلك عندك؟ — قالت بسعة حاكم، وكريم عقوق — قال وإنيهما يطمعان في ذلك — قالت هما والله من الرأي على ما كنت عليه لعثمان بن عفان — قال لقد قاربت فما حاجتك؟ — قالت: يا أمير المؤمنين! إن مروان تبك في المدينة تبك من لا يريد منها البراح، لا يحكم بعدل، ولا يقضي بسنة، يتبع عورات المؤمنين؛ حبس ابن أبي فأتيت فقل كيت وكيت، فأسمعه أخشن من الحجر، وألقمته أمر من الصبر. ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت لم لأصير في ذلك إلى من هو أولى بالعمو منه؛ فأتيتك يا أمير المؤمنين، لتكون في أمري ناظرا، وعليه موعدا — قال صدقت لأسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه — قالت يا أمير المؤمنين وأنى بالرجعة وقد نفذ زادي، وكلت راحتي، فأمر لها براحة موطاة وخمسة آلاف درهم.

ومن ذلك ما روى أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الجحون يقال لها الدارمية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها بخي بها، فقال ما حالك يا أبنه حليم؟ — قالت لست لحليم أدعى، إن عبتني أنا امرأة من بنى كنانة — قال: صدقت أتدري لم أرسلت إليك؟ قالت لا أعلم الغيب إلا الله — قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتيني، وواليتي وعاديتيني؟ — قالت أو تعفيني

يا أمير المؤمنين — قال لا أُعْفِيكَ — قالت أما إذا أبيت ، فإنى أحببت عليا على عدله
 في الرعية ، وقسمه بالسوية ؛ وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك ، وطلبك
 ما ليس لك بحق ؛ وواليت عليا على ما عَقِدَ له من الولاية ، وعلى حبه المساكين ،
 وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك
 بالهوى — قال ولذلك آتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك — قالت يا هذا بهند
 كانت تضرب الأمثال ، لابي — قال يا هذه أربعى فإنما لم نقل إلا خيرا إنه إذا آتفخ
 بطن المرأة تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثديها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزن
 مجلسها فرجعت وسكنت — قال لها فهل رأيت عليا ؟ قالت لقد كنت رأيته —
 قال كيف كنت رأيته ، قالت رأيته لم يفتنه الملوك الذي فتتك ، ولم تشغله النعمة
 التي شغلتك — قال لها : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم ، والله كان يحلو القلوب من
 العمى ، كما يحلو الزيت الطست من الصدا — قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟
 قالت : وتفعل إذا سألتك ؟ — قال نعم — قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها خلها وراعيها —
 قال تصنعين بها ماذا ؟ — قالت أغذى بالبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأصلح
 بها بين العشائر — قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي ؟ — قالت ماء
 ولا كصدا ، ومرعى ولا كالسعدان ، وقى ولا كالكل ، ياسبحان الله أو دونه ، فأنشأ
 معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم مني إليكم * فمن ذا الذي بعدى يؤمل للحلم ؟
 خذها هنيئا وأذكري فعل ماجد * جزاك على حرب العداوة بالسلم .

ثم قال : أما والله ! لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا — قالت والله ولا وبرة واحدة

من مال المسلمين .

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنت صفوان آستأذنت على معاوية فأذن لها
فدخلت عليه ، وعليها ثلاثة دروع برود تسحبها ذراعا ، قد لاثت على رأسها كورا
كالمنسف فسأمت وجلست ؛ فقال لها معاوية كيف أنت يا ابنة صفوان ؟ - قالت
بخير يا أمير المؤمنين - قال كيف حالك ؟ - قالت كسيت بعد نشاط - قال شتان
بينك اليوم وحين تقولين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنَقٍ * عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْخَوَّارِ
أَسْرِجْ جَوَادَكَ مُسْرِعًا وَمُسْمِرًا * لِلْغَرْبِ غَيْرَ مُعَوَّدٍ لِفِرَارِ
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبْ تَحْتَ لَوَائِهِ * وَالْقَى الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً * فَأَذُبَ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت قد كان ذلك ، ومثلك من عفا عما سلف ((وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ)). قال
هيئات ، أما والله لو عاد لعديت ، ولكنه اخترم منك - قالت أجل ! والله إنى لعلى
بينه من ربي وهدى من أمرى - قال كيف كان قولك حين قتل ؟ - قالت أنسيته ؛
قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

يَا لِّلرِّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مُصِيبَةٍ * فَدَحَتْ فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ
السَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِفَقْدِ إِمَامِنَا * خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
حَاشَى النَّبِيِّ لَقَدْ هَدَدَتْ قُوءَانَا ^(١) * فَالْحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا لِلْبَاطِلِ

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل ، أذكركى حاجتك - قالت
أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ، فقالت تعس شانى على ! فقال زعمت أن لا ؛
قالت هو كما علمت ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال إذا ضيعت الحلم
فمن يحفظه ؟

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدى بن أرطاة : أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فولّ القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، وكانا غير راغبين في القضاء . فقال إياس : أيها الرجل سلّ عني وعن القاسم فقيهي المصير الحسن وأبن سيرين ، وكان القاسم يأتي الحسن وأبن سيرين ، وإياس لا يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به ، فقال له : لا تسأل عني ولا عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذبا فما أشير عليك أن توليني وأنا كاذب ، وإن كنت صادقا فينبغي لك أن تقبل قولي — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفت به على شفير جهنم فنبجني نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدى : أما إذ فهمتها فأنت لها فاستقضاء .

ومن ذلك : ما حكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطب أبو جعفر المنصور ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس اتقوا الله ، فقام إليه رجل من عَرْض الناس ، فقال أذكرك الذي ذكّرنا به . فأجابه أبو جعفر بلا فكروا رواية : سمعنا سمعا لمن ذكر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم ؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فقال ، فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعدة علينا نزلت ، وفيها أثبتت . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : ما يحكي عن الربيع قال : كنا وقفا على رأس المنصور ، وقد طُرحت للهدى بن المنصور وسادة إذ أقبل صالح بن المنصور ، وكان قد رشحه أن يولّه بعض أمره ، فقام بين السّماطين والناس على قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فبدا

المنصور يده إليه ، ثم قال يا بُنَيَّ ! وأعتنقه ، ونظر في وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكر مقامه ويصف فضله ، فكلهم كره ذلك وهاب المهدي ، فقام شبة بن عقال التيمي ، فقال : "لله در خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ! ما أفصح لسانه ! وأحسن بياناً ! وأمضى جناة ! وأبل ريقه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لا يكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه ، والمهدي أخوه ، وهو كما قال زهير بن أبي سلمى :

يَطْلُبُ شَاوَأْمَرَيْنِ قَدَمًا حَسَنًا * بَدَأَ الْمُلُوكَ وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوْقَا

هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشَاوَهُمَا * عَلَى تَكَالُفِهِ فَمَثَلُهُ لِحَقَا

أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَل * فَمَثَلُ مَا قَدَمَا مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا

قال الربيع : فأقبل على بعض من حضر ، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلصاً ^(١) أرضى أمير المؤمنين ، ومدح الغلام ، وسلم من المهدي . فالتفت إلى المنصور ، وقال : ياربيع لا ينصرف التيمي إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً دخل على المهدي ولي عهد المنصور ، فقال يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصور شتمني وقذف أمي ، فإما أمرتني أن أحلله ، وإما عوّضتني فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شتمت عدوه بحضرته ، فغضب — فقال ومن عدوه الذي غضب لستمه — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمس به رحماً ، وأوجب عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رحمة ذب ، وعن عرضه دفع ، وما أساء من أنتصر لابن عمه — قال فإنه كان عدوه — قال فلم ينتصر للعداوة ، إنما أنتصر للرحم ، فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليوتى قال : لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوى ؟ — قال نعم ، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ما حكى: أن المنصور قال لبعض قواده: صدق الذى قال "أَجْعَلْكَ يَتَّبِعُكَ" فقال له أبو العباس الطوسى: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يلوح له غيرك رغيفا فيتبعه ويدعك.

ومن ذلك ما يحكى: أنه وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان، وفيهم محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوى، وكان أعظمهم قدرا، وأكبرهم سنا، فقال - أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك، وأقلت وأكثرت وأطنبت، وما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى مُطِئهم فضلك؛ وإن أذنت فى القول قلت - قال قُلْ وأوجز - قال تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى! إن لى حوائج أفاد كرها، قال هاتها - قال كبرت سنى ودق عظمى، ونال الدهر منى؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، وينفى فقرى - قال: وما الذى ينفى فقرك ويجبر كسرك؟ - قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار. فاطرق هشام طويلا، ثم قال: هيهات يابن أبى الجهم، بيت المال لا يحتمل ما سألت - فقال: أما إن الأمر لواحد، ولكن الله أترك لمجلسك فإن تعطنا خفنا أدت، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوت؛ إن الله جعل العطاء محبة، والمنع مبغضة، ولأن أجبك أحب^(١) إلى من أن أبغضك - قال: فألف دينار لماذا؟ - قال أقضى بها دينا قد حُم قضاؤه، وحناني حمله، وأضربى أهله - قال: فلا بأس تُنفَس كربة، وتودى أمانة؛ وألف دينار لماذا؟ - قال أزوج بها من بلغ من ولدى - قال: نعم المسلك سلكت، أغضضت بصرا، وأعققت ذكرا، وروجت نسلا؛ وألف دينار لماذا؟ - قال

(١) فى الأصل . ولئن وهو خطأ فى الرسم .

أشترى بها أرضاً يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون
 ذُنْراً لمن بعدى ؛ قال : فإننا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ الله على ذلك ،
 ونخرج — فقال هشام : ما رأيت رجلاً أوجز في مقال ، ولا أبلغ في بيان منه ، وإنا لنعرف
 الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقتيراً ، وما
 نحن إلا خُرَّان الله في بلاده ، وأمناؤه على عبادِهِ ، فإن أذن أعطينا ، وإذا منع أبينا ،
 ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحق ، ما جَهِنَّا قائلًا ، ولا ردَدْنَا سائلًا ؛
 فنسأل الذى بيده ما أَسَحَفْظُنَا أَنْ يُجَرِّيَهُ عَلَى أَيْدِينَا فَإِنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بَعْبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلمت فأبلغت ،
 وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمقتدى .

والحكايات والأخبار في ذلك كثيرة ، والإطناب يُخرج عن المقصود ، ويؤدى
 إلى الملل ، وفيما ذكرنا من ذلك مَقْنَعٌ والله أعلم .

المقصود الثالث

(فى كيفية تصرّف الكاتب فى مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف على من تعاطى صناعة النثر والنظم أنه لا يستقل أحد باستخراج جميع
 المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام من تقدمه : لاقتباس ما فيه من المعانى
 الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وأصطلاحهم ، فينسج
 على منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتوارد الكتاب والشعر على المعانى غير
 مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنى على أصل واحد من وزن وقافية ،
 فإنه إذا وقف على المعنى وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ؛ مثل أن

يكتب في تهئة بمولود: قد جعلك الله من نَبْعَة طابَتْ مَغَارِسُهَا ، ورَسَخَتْ عُرْوَتُهَا ، فالزِيَادَةُ فيها زِيَادَةٌ في جَوْهَرِ الكَرَمِ ، وذَخِيرَةٌ نَفِيسَةٌ لِدَوَى الإِقْبَالِ ، فتَوَلَّى الله نِعَمَهُ عِنْدَكَ بِالْحِرَاسَةِ الْوَافِيَةِ ، وَالْوِلَايَةِ الْكَافِيَةِ . وقد بَلَغْنِي الْخَبَرُ بِحُدُوثِ الْوَلَدِ الْمُبَارَكِ ، وَالْفَرَعِ الطَّيِّبِ ، الَّذِي عَمَّرَ أَفْنِيَةَ السِّيَادَةِ ، وَأَضْحَكَ مَطْلَعَ السَّعَادَةِ ، فَنَبَّاشَرْتُ بِذَلِكَ وَأَتَّبَعْتُ بِهِ ، بِفَعْلِهِ اللَّهُ بَرًّا تَقِيًّا ، سَعِيدًا حَمِيدًا ، يَتَقَبَّلُ سَلَفَهُ ، وَيَقْنِي أَثَرَهُمْ ؛ وَأَيَّمَنَ بِهِ عِدْدَكَ ، وَكَثَّرَ بِهِ ذُرِّيَّتَكَ ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، وَأَجَارَكَ فِيهِ مِنَ الثَّكَلِ بِرَحْمَتِهِ .

فِي اخذ آخر المعنى ، ويورده بالفاظ أخرى ، فيقول : قد جعلك الله من شجرة زَكَتْ غُصُونُهَا ، وَفَرَعَ شُرُفُ مَنَابِتِهِ ، فَانْمَوْ فِيهَا نِعْمَةٌ كَامِلَةٌ السَّعَادَةِ ، وَغِبْطَةٌ شَامِلَةٌ السَّرُورِ ، فَتَوَلَّى اللَّهُ فَضْلَهُ عَلَيْكَ بِالْحِفَاطِ الرَّاعِي ، وَالِدِّافِعِ الْكَالِي ؛ وَقَدْ أَتَصَلَ بِي خَبَرُ السَّلِيلِ الرِّضَى ، وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ الَّذِي جَدَّدَ فَوَائِدَ السِّيَادَةِ ، وَثَبَّتَ أَسَاسَ الرَّفْعَةِ ، فَاغْتَبِطْتُ بِهِ وَأَسْتَبَشَرْتُ ، جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدًا مَيِّمُونًا ، وَنَجْلًا سَعِيدًا ، يَسْلُكُ مَنَاجِيحَ سَلَفِهِ ، وَيُحْدِثُ فِي الْحَاسِنِ حَذْوَهُمْ ، وَزَادَ بِهِ فِي ثَرَوَتِكَ ، وَأَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمْلِكَ ، وَسِرَّكَ بِوُجُودِهِ ، وَأَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْهِ .

فَالْمَعْنَى وَالْفَصْلُ وَاحِدٌ ، وَالْأَلْفَاظُ مُخْتَلِفَةٌ . وَكَذَلِكَ مَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى وَمَا فِي مَعْنَاهُ .

قلت : وَلَا يَنْهَضُ بِمِثْلِ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ رَسَخَتْ فِي صِنْعَةِ الْكِتَابَةِ قَدَمُهُ ، وَامْتَرَجَ بِأَجْزَاءِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لِحْمَهُ وَدَمُهُ ؛ وَهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ فِي الْقِرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ تُتَكَرَّرُ فِيهِ مَرَارًا فِي سُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، تَرَدُّ فِي كُلِّ سُورَةٍ بِلَفْظٍ وَتَرْكِيبٍ غَيْرِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ فِي الْأُخْرَى ، مَعَ اسْتِيفَاءِ حَدِّ الْبَلَاغَةِ وَنَهَايَةِ أَمَدِ الْفَصَاحَةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَلَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَنْهَجَ ، أَوْ رَتَّبَ هَذِهِ الذَّرْوَةَ ، وَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ بْنُ

حمزة بن طلحة في كتابه "الأقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعجب العجائب، فإنه قد .
استحسن كلام الخطيب ابن نباتة الفارقي، والأمير قابوس الخراساني، والوزير
أبي القاسم المقرئ، والصاحب ابن عباد، وأبي إسحاق الصابى، الذين هم رؤساء
الكتابة، وأئمة الخطابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخطب الموجهة الرائقة،
بفرد معانيها من ألفاظها، وأخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تنميق، ومراعاة
ترصيف، على أتم نظام، وأحسن آلتنام .

وهاتان نسختا كتابين، الأولى منهما كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة
ابن بويه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عضد الدولة يخبره بمولود ولد له .
والثانية عارض بها على بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابى في ذلك بألفاظ أخرى
مع اتحاد المعنى .

فأما التى كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة إلى عضد الدولة فهى :

"وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أطل الله بقاءه بالخبر السار للأولياء ،
الكاتب للأعداء، فى الولد الحبيب الأثير، والسيد المقيّل الخطير، الذى زاد الله به
فى عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالنا والآمال لنا، فأخذ ذلك منى مأخذ
الاغتراب ونزل عندى أعلى منازل الأتّاج، وسألت الله تعالى أن يختصه بالبقاء الطويل،
والعمر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير ناميةً بنوّه، ناشيةً بنشوّه : ليكون
كلّ يوم من أيامه مُمدّا له من فضله عاده، وواعداً له من غده زياده، ومُحدّثا لديه
منحةً تتضاعف إلى ما سبق من أمثاله، ومُحدّثا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها،
وأن يريه إياه غزّة فى وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمزله، قائما لللك قيامه،
وسادا منه مكانه، ويهّب له بعد الأكابر التجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجارة المشفوع، في فائدة تقدم بمقدمه، وعائدة ترد بمورده؛ ويحرص هذه السعادة من خلل يعترض اتصالها، أو فترة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنقصها، أو رزية تثلمها، أو تنقصها. إلا أنها الأمد الأبعد^(١) والعمر الأطول؛ ثم تفضي به غصارة هذه الدار الدنيا، إلى قرارة الدار الأخرى، مبقو أو في مراتبها، مبلغا أقصى مبالغها، حالاً أرفع درجاتها، مختصا بأنعمها، مبتهجا بها، مستثمرا ما قدمه لصالح سعيه، ومستوفياً ما أفاء عليه متجره الراجح، وآتاره البادية لإنفاقه في أيام نظرى^(٢) التي استشعرت نورا من سنائه، وآنست جمالا من بهائه، وثابت مصالحها ببركتيه، وتوافت خيراتها بيمينه؛ واعتقدت أن السعادات طالعة على بمطامه، وأسبابها ناجمة إلى بمنجحه؛ فلو استطعت أن أكون مكان كتابي هذا مشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضد الدولة أطل الله بقاءه ومقبلا لبساطه، لكنت أولى عبده بالمسارعة إلى بابه، وأحقهم بالمبادرة إلى فيائه : لأننى معوق عن تلك الخدمة بخدمة أنافيا من قبله . ومقيم بهذه الحضرة، إقامة المتصرفين تحت أمره، وقد وقيت نعمة الله تعالى، الواهب منه أيده الله تعالى ما يقتر عين الولي، ويقضي عين العدو ويطرفها، حقه من الشكر الممتري للبقاء والمزيد، بدوام العز والتأييد؛ وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مقبولا عنه، ونافعا له، وعائدا عليه وعلينا بطول العمر وبباهى النشوء والنماء، وأن يعترف سيدى الأمير عضد الدولة أيده الله بركة مولده، ويؤمن مورده، ويقيه حتى يراه والأمراء السابقين أيدهم الله تعالى آباء أمنائهم، وأشياخ ذريتهم، مبلغا في كل منهم أفضل ما رشحته له أمانيه، وأعلى ما أنبسطت آماله فيه، بقدرته . وأنا أتوقع الكتاب بما يقتر عليه اسم الأمير السيد وكنيته، أعلاها الله تعالى لأستأنف إقامة الرسم في مكاتبته، وتأدية الفرض في خدمته؛ وسيدى عضد الدولة،

(١) لعله الى إنها كما يفيد السياق . (٢) كذا في الأصول وليحذر .

أطال الله بقاءه ، أعلیٰ عینا فیما یراه بمطالعتی بذلك وبكل ما یؤلیه الله من مستأنف
نعمه ، ویجتدده له فی حادث مواهبه له ، لآخذ بحظی منهما ، فأضرب بسهمی فیهما ،
وتصریفی بین أمره ونهیه ، وتشریفی بعوارض خدمته ، إن شاء الله تعالى .

وأما التی عارضها بها علی بن حمزة بن طلحة فهی :

وصلنی کتابُ سیدی الأمير عضد الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشری المبتسمة
عن ناجذ السعد الآنف ، والتَّعَمُّی المتبسمة عن صبا المجد المتضاعف ؛ التی أشرقت
مطالع الإقبال عن مُحیَّأها ، وتضوّعت نفحاتُ ذك الآمال عن رِیَّأها ، وصدقت
من الأولیاء ظُنُونهم المرتقبه ، وآتتجت من الأعداء عُیُونهم المرتعبه ؛ بالولد النجیب
الخطیر ، الأمير الحبيب الظَّهیر ، المحید المعمر ، المقلِّ المؤمِّر ، الذی كثّر الله به عدَدنا
معشر أهلیه ، وعدَدنا بما نرتقبه منه وُزاعیه ، وهو تَكْرِمة مُحَقِّق ظنوننا بما له نرتجیه ،
وما نؤملّه من السعادة المقبلة فیه ؛ فاستفزتني غبطة استحوذت علی جوامع لُبّی ،
وتملکتني بهجة ثوت فی مرابع قلبي ؛ وطففت مبتهلا ، وتضرّعت متوسلا ، إلى ذی
العَرشِ المحید ، الفَعَّالِ لِمَا یُرید ، أن یجمع له بین العُمر المدید ، والحدّ السعید ، كِفَاءَ
ماقرن له بین المجد العتید ، والملک الوطید ؛ وأن یجعل تحیاتِ أیادیه لدى سیدی
الأمیر متضاعفة الأعداد ، مترادفة الأمداد ، مبشرة بُحْبَاءِ الأولاد ، یربی آنفها علی
السالف بسعده ، ویلّهی عن تالدها الطارف بعلو مجده ؛ وأن یریه إیَّاه علی مَفَرِّق
دولته ، وغُرّة تُشرق فی جبهة ذریته ، وناهضا بأعباء مملکته ، وقائما بنصرة دَعْوته ،
حتى یرى أولاد أولاده جُودا ، مظفرا سعیدا ؛ وأن یُتبعه أثرابا من الإخوة النجباء ؛
الأماجد السعداء ؛ متجارین فی حَلَبات علو الهمم ، متبارین فی مَزِیَّات إیلاء النعم ؛
لیتراید أزدحام وفود السعادة فی عَتَبات بابہ ، ویترافد أقتحام جنود الإقبال رحیب
جَنَابہ ، ویحرّس لديه ماخوله من مواهبه وأیادیه ، ویحفظ علیه مابه فضلّه من مناقبه

ومعاليه ؛ و يقيه من كيد عائد إذا عند ، ويحميه من شر حاسد إذا حسد ؛ وأن يؤتیه عائدتي العاجلة والعقبى ، ويحظيه بسعادتي الآخرة والأولى ؛ وأن يجعل سعيه في مصالح عباده مشكورا ، ونظره في مناجح بلاده مبرورا ؛ وأن يغادر متاجر بره وتقواه رابحه ، كما جعل خواطر سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعذله نواضر ، ونواظر الأنام إلى فضله نواظر ؛ ومصالحهم بئمه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وسعادته موافيه ؛ وإنى لأعتقد أن مقبلي في أفاء السعادة ، ونبلي كل مأمول وإرادته ، وتوفيق فيما أوفق فيه ، بما أعتمد به وآتيه ، جَدُول من تيار فضله وسعادته ، منوط العرى بسمو همته ؛ وأود أن أكون عوضا عن كتابي هذا إليه ، وخطابي الوارد آنفا عليه ؛ لأسعد بالألاء غُرَّتَه ، وأحظى بالأشرف من خدمته ؛ أدام الله أيام دولته : لأنى أجدر عبیده بالمهاجرة إلى بابه ، وأولى خدمه بالمبادرة إلى جنابه ؛ ولولا تحلى أعباء خدمته التي طوقنيها ، وكوني نائبه لدى هذه الحضرة فيها ، ثاويا بأوامره ونواهيها في مغانيها ، لما شق غباري من أم ذراه ، ولا أتبع آثارى مُسرِع رام لُقياه . ولقد قمت بالواجب على للنعمة أيده الله المُنزلة إلى ، والموهبة بمقدمه كلاًه الله المُحكمة لدى ، التي أضحت بها نواجد المخلص ضاحكة مستبشرة ، وأمسّت بسببها وجوه الكاشحين عابسة مستبشرة : من وافر شكرٍ يمتري المزيّد ، وعتي الإمام والعبيد ، والصدقة الدازة على التأبید ؛ وأنا أرغب إلى الله تعالى رغبة متوسل إليه ، أمل بما لديه ، أن يجعل بركة كل خير درت به أخلافه ، وكرت لأجله أحلافه ، عائدة عليه ، وميامنه ثابتة إليه ، مؤذنة بتعميره ملكا حلالا ، لا يلقى مؤملوه ليم فضله ساحلا ؛ وأن يمد لسيدى عضد الدولة في البقاء ، ويمتعه به وبسابقه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصوى ماتسمو إليه هممه وأمانيه . وإنى لمتوكف لما يصلني من كتاب ينبئ عن اسمه الكريم وكنيته ، لأعتمد ما أستوجهه في خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضد الدولة أدام الله علاه، ولّى ما يستصوبه ويراه : من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم، وأوانف المواهب الغالية القيم، لآخذ وافر سهمى من السرور، وجزيل قسّمى من الجَدَل والحبور، وتصريفى بين أمره الممثل المطاع، ونهيه المقابل بالاتباع، إن شاء الله تعالى .

النوع العاشر

الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعار العرب وما توفرت دواعى العلماء بها على اختياره : كالحماسة، والمفضّليات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك ؛ وفهم معانيها وآستكشاف غوامضها، والتوفر على مطالعة شروحها ؛ ويلتحق بذلك شعرُ المولدين من العرب، وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام : بكجير والفرزدق، والأخطل وغيرهم ؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلقين من المحدثين : كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وأبن الرومى، والمتنبى ونحوهم ؛ وفيه مقصدان :

المقصد الأول

(فى بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة المواد، وصحة الاستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وأنتراع الأمثال، والاحتذاء فى اختراع المعانى على أصح مثال ؛ والاطلاع على أصول اللغة وشواهداها، والاضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأوّل يعتنون بذلك غاية الاعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه : " كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر". وذكر صاحب "الريحان والريحان" عن سعيد بن المسيب أنه قال :
كان أبو بكر وعمر وعليّ يمجّدون الشعر وعليّ أشعر الثلاثة . قال : وكان عمر بن
الخطّاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدّمها بين يدي حاجته
يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللّثيم . وقد ذكر عن الشافعيّ رضي الله عنه
أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعيّ
رضي الله عنه .

وَلَوْلَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرَى * لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ

فإنه يريد من صرف همته إلى الشعر، بحيث صار شأنه ودينته، وهو المعنى بقوله
صلى الله عليه وسلم "لَأنَّ يَمَلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَهُ قَيْحًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمَلَأَهُ شَعْرًا" أى أراد
صرف همته إليه حتّى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إنَّ مِنَ الشَّعْرِ
لِحِكْمَةٌ" . وكان عمر رضي الله عنه يسمع البيت يُعجبه فيكره مراراً كما ذكره
الحافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنباريّ في كتاب "طبقات الأدباء"
في ترجمة أبي جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنباريّ : أنه كان فقيهاً ،
علماً ، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدّة من الخلفاء . ثم حكى عن ولده أبي طالب
أنه قال كنت مع والدي في جنازة بعض أهل بغداد من وجوه الناس وإلى جانبه
أبو جعفر الطبريّ ، فأخذ أبي يعظ صاحب المصيبة ويسلّيّه ، ويُشدّ أشعاراً ،
ويروى له أخباراً ، فداخله الطبريّ في ذلك ، ثم اتسع الأمر بينهما في المذاكرة ،
وخرجا إلى فنون كثيرة من الأدب والعلم استحسنها الحاضرون وأعجبوا بها ، وتعالى
النهار وأفترقنا ، فقال لي أبي يا بُنَيَّ مَنْ هذا الشيخ الذى داخلنا في المذاكرة؟ فقلت :
يا سيدي كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبريّ ، فقال إنا لله !
ما أحسنّت عِشْرَتِي معه ، فقلت كيف ياسيدي ؟ قال : ألا نَبّهْتَنِي في الحال ،

فكنت إذا كرهه بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والاتساع في صنوف العلوم ، ماذا كرته بحسبها ، ومضت على ذلك مدة فحضرنا في حق آخر وجلسنا ، وإذا بالطبري قد دخل إلى الحق . فقلت له : أيها القاضي هذا أبو جعفر الطبري قد جاء مقبلا ، فأومأ إليه بالجلوس عنده ، فعدل إليه وجلس إلى جانبه ، وأخذ يجاريه ، فكما جاء إلى قصيدة ذكر الطبري منها أبياتا ، قال أبي : هاتها يا أبا جعفر إلى آخرها فيتلعثم الطبري فينشدها أبي إلى آخرها ، وكلما ذكر شيئا من السير ، قال أبي هذا كان في قصة فلان ، ويوم بني فلان ، مر يا أبا جعفر فيه فرمما مر فيه ، وربما تلعم ، فيمر أبي في جميعه . ثم قنا ، فقال لي أبي : الآن شفيت صدري .

وأما أشعار المحدثين ، فللطيف مأخذهم ، ودوران الصناعة في كلامهم ، ودقة توليد المعاني في أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة ، والكتابة ، وخصوصا المتنبي ، الذي كأنه ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم ، وكثير الاستشهاد بشعره حتى قل من يحمله ، فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ الأشعار وتدبر معانيها ، ساقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما في حفظه منها ، فاستعملها في محلها ، ووضعها في أماكنها ، على حسب ما يقتضيه الحال في إيرادها واقتباس معانيها .

المقصود الثاني

(في كيفية استعمال الشعر في صناعة الكتابة)

علم أن للكاتب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات :

الحالة الأولى

(الاستشهاد)

وهو أن يُورد البيت من الشعر، أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المشور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر؛ ولا يشترط فيه أن ينه عليه بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه. وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات: مثل ما كتب به القاضي الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه، ويتشوق إليه:

فِيَارَبِّ إِنْ الْبَيِّنَ أَصَحَّتْ صُرُوفُهُ * عَلَى، وَمَالِي مِنْ مُعَيَّنٍ فَكُنْ مَعِيَ
عَلَى قُرْبِ عُدَالِي وَبُعْدِ أَحِبَّتِي * وَأُمُوَاهِ أَجْفَائِي وَنِيرَانِ أَضْلَعِي!

هذه تحية القلب المعدب، وسريرة الصبر المدبذب، وظلامة عزم السلوك المسكذب، أصدرتها إلى المجلس وقد وقَدَّ في الحشا نَارُهَا، الزفير أوارها، والدُمُوعُ شَرَارُهَا، والشوق آثارها، وفي الفؤاد ثَارُهَا:

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خَيَالٌ هَاجِرٌ * لَهَدَّتْهُ فِي ظُلُمَاتِهِ أَنْوَارُهَا

أسفا على أيام الاجتماع التي كانت مواسم السرور والأسرار، ومباسم الثغور والأوطار؛ وتذكرا لأوقات عذب مذاقها، وأمتد بالأنس رواقها، وزوجت بكرها، ودوَّعِبَ ذِكْرُهَا:

وَاللَّهِ مَا تَبَسَّيْتَ نَفْسِي حَلَاوَتَهَا! * فَكَيْفَ أَذْكُرُ أَيَّ الْيَوْمِ أَذْكُرُهَا؟

ومذ فارقت الحجاب، لا زال جَنَّا جَنَانِهِ نَضِيرًا، وَسَنَا شَمَانَهُ مَسْتَطِيرًا، ومُلْكُهُ في الخافقين خافق الأعلام، وعزُّه على الحديدين جديد الأيام، لم أقف منه على

كتاب تحلّف سطورهُ ما غسل الدمعُ من سَوادِ ناظرى ، ويُقدِّم بياض منظومه
ومنتوره ما وزَّعه البين من سُويداءِ خاطرى

ولم يَتَّقِ فى الأحشاءِ إلَّا صُبابَةً * من الصَّبَرِ تجرى فى الدُمُوعِ البَوادرِ

وأسأله المَنَاب ، بشريفِ الجَناب ؛ وأداءَ فرض ، تقبيلِ الأرض ؛ حيث تلتقى
وفود الدنيا والآخرة ، وتعمُرُ البيوتَ العامرة ، المُننُ الغامرة ، وفضلُ الظل غير
منسوخ بهجيره ، ويُبشِّرُ المجدَ بشخص لا تسمَحُ الدنيا بنظيره :

تَظَاهِرُ فى الدُّنيا بأشرفِ ظاهِرِ * فلم نَرَ أنْفُى مِنْهُ غيرَ صَمِيرِهِ !
كَفَانِى نَحْراً أَنْ أُسَمِّى بَعْبِدِهِ * وَحَسْبِى هَدِيّاً أَنْ أُسِيرَ بِنُورِهِ !
فأى أميرٍ ليس يَشْرَفُ قَدْرُهُ * إذا ما دَعَاهُ صَادِقاً بِأَمِيرِهِ ؟

وإنى فى السؤال بكتبة أن يوصلها ليُوصل بها لى تهانى تملأ يدي ويودع بها
عندى مسرةً تقدح فى الشكر زندي .

عَهِدْتُكَ ذَا عَهِدٍ هُوَ الْوَرْدُ نَضْرَةً * وما هُوَ مِثْلُ الْوَرْدِ فى قِصْرِ الْعَهْدِ
وأنا أترقب كتابه أرتقاب الهلال : لَتُفْطِرَ عَيْنِ عَنِ الْكَرَى صَائِمُهُ ، وَتَرْدَ نَفْسِ
عن موارد المساء خائمه اه .

بل ربما كان كلُّ المكاتبة أو جلها شعرا ، وقد يكون صدر المكاتبة شعرا وذيلها
نثرا ، وبالعكس . وقد يكون طرفاها نثرا وأوسطها شعرا ، وعكس ذلك بحسب
ما يقتضيه الترتيب ، ويسوق إليه التركيب ؛ وربما آكتفى بالبيت الواحد من الشعر
فى الدلالة على المقصود وبلوغ الغرض فى المكاتبة : كما كتب بعض ملوك الغرب
إلى من كرر كُتِبَ ورسله إليه بقول المتنبي :

وَلَا تُكْتَبِ إِلَّا الْمَشْرِفَةُ عِنْدَهُ * وَلَا تُرْسَلُ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَزِيزُ

إلى غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقل أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمشور ، وقد تجيء التليقات بأبيات الشعر في غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن ، وتقيح الفكر كالرسائل الموضوعة في صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك ؛ وقد أودعت المقامة التي أنشأتها في كتابة الإنشاء جملة من الأبيات الشعرية ، وأردتها مورد الاستشهاد على ما يقتضيه المقام ، ويسوق إليه سياق الكلام ، على ما سلف ذكره عند الكلام على فضل الكتابة فيما تقدم . وعند مطالعة كلامهم ، والوقوف على رسائلهم ، ترى من أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره ، ويُطربك سمعه .

الحالة الثانية

(التضمين)

وهو أن يضم البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة . أما تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به القاضي الفاضل :

وصل من الحضرة

كُتِبَ بِهِ مَاءُ الْحَيَاةِ وَنَقَعَهُ السَّحَابُ فَكَأَنِّي إِذْ ظَفِرْتُ بِهِ الْخَضِرُ

فوقفت عنده منه على

عقود، هي الدر الذي أنت بحره * وذلك ما لا يدعى مثله البحر

ورعت منه في

رياض يد تجني وعين وخاطر * تسابق فيها النور والزهر والثمر

وكرعت منه في حياض

تسر مجاريها إذا ما جنى الظل * وتروى مجاريها إذا بجل القطر

وما زلت منه أنشده

كأني سار في سيرة ليلة * فلما بدا كبرت إذ طلع الفجر
ووافي على ما كنت أعهد

خلفت بأن العين من سحر كفه * فمن ذا ومن ذا فيه ينثر الدر
وأسترجع فائت الدماء من موره

وما كان عندي بعد ذنب فراقه * بأني أرى يوماً به بعد الدهر
ونفس عن النفس بأبيض أثماده وعين العين بأسود إثمده
به لهما سبح طويل فهذه * على خاطر برد ، وفي خطر بدر
وجدد إليه أشواقاً جديدها

يمتر به ثوب الحديدن دائماً * فيلبي ولا يلبى وإن بلي الدهر
وذكر أياماً لا يزال يستعيدنها :

وهيات أن يأتي من الأمر فائت * فدع عنك هذا الأمر قد قضى الأمر
وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاي بعدما ... * أجاب المنادي للصلاة فأعتما
فلما استقر لدى ... * تجلى الذي من جانب البدر أظلمما
فقرأته ... * بعين إذا استمطرها أمطرت دما
وساءلته ... * فسألت مصروفا عن النطق أعجما

(١) في نسخة سمح . وفي أخرى صح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير إلى الآية الكريمة (إن لك في النهار

سبحا طويلا) .

ولم يرد جواباً، ... * ... وما ذا عليه لو أجاب المتيم؟
 ورددته قراءة، ... * ... فعوجلت دون الحليم أن انحلب
 وحفظته، ... * ... كما يحفظ الحر الحديث المكمماً
 وكثرته، ... * ... فمن حيث ما واجهته قد تبسماً
 وقبته، ... * ... فقبلت ذراً في العنود منظماً
 ومثله، ... * ... فكنت بمفروض المحبة قياً
 وأخلصت لكتابه، ... * ... وليس على حكم الحوادث محكاً
 ولم أصدقه ! ... * ... ولكنّه قد خالط اللهم والدماً
 وأزحت وصوله، ... * ... فكان لا يدى الوسائم موسماً^(١)
 وشفيت به غليل ... * ... فؤاد أمنيّه وقد بلغ الظما
 وداويت عليل ... * ... حشاً ضرماً فيه من النار ضرماً
 فأما تلك الأيام التي ... * ... حماها على اللوم المقام على الحما
 والليالي العذاب التي ... * ... ملأت بحور الليل بيضاً وأنجماً
 وأرسلت الزفرة ... * ... فلو صاحفت رضوى لرّض وهماً
 وأسبلت العبرة ... * ... كما أنشأ الأفق السحاب المديماً
 وخطبت السلوة ... * ... فأسأل معديوماً وأمل معديماً
 فأما الشكر فإنما ... * ... أنقض به مسكاً عليه محتماً
 وأقوم منه بفرض ... * ... أراني به دون البرية أقوماً
 وأوقى واجب فرض ... * ... وكيف توفى الأرض فرضاً من السما

(١) كذا في الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينة الكاملة على البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى
الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عدت } وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي
الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه

وبعد أن أنتظرت القيظ والشتاء } فما للنوى ترمى بليلى المرامي؟
لفصل ربيعہ

وأستروحت إلى نسيم سحره ... * إذا الصيف ألقى في الديار المراسيا

ومددت يدي لأقطاف ثمره ... * فله ما أحلى وأخى المجنبا !

ووقفت على شكاوه من زمانه ... * فبت لشكاؤه من الدهر شاكيًا

وعجبت لعمى اللخط عن مكانه ... * وقد جمع الرحمن فيه المعاني

وتوقعت له دولة يعلوها الفضل ... * إذا هن من تلك الرياح عواليا

ورتبة يرتقي صهوة بحكم العدل ... * فرب مراق يعتدّن مهاويا

وإلى الله أرغب في إطلاع سعوده ... * زواهر في أفق العلاء زواهيًا

وفي إنهاض عثرات جدوده ... * فقد عثرت بعد النهوض العواليا

وربما رُكِب نصف البيت على نصف القرينة ، كما ذكرت في المفارقة بين
السيف والقلم في الكلام على لسان السيف في مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن
ذكرت في التنزيل ، وتمسكت من الامتنان بك في قوله ((عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)) بشبهة التفضيل ،
فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرّمك من مس أنامله الشريفة ما يؤسى
على فوته ويسرّ بمحصوله ، لكنني قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، وشهدت
معه من الوقائع ما لم تُشاهد ، وحلّاني من كفه شرفًا لا يزول حلّه أبدًا ، ووقت بنصره

في كل مُعْتَرَك . ، * فَسَلْ حُتَيْتًا وَسَلْ بَذْرًا وَسَلْ أَحَدًا * ؛ فَرَكِبْتَ نَصْفَ بَيْتِ
البردة على نصف قرينة . وما ذكرته في الرسالة التي كتبها للمقرّ الفتحيّ صاحب
ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد ليس شرفا
لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطّلع الزمان إلى نزعها ، وآنهى إليه المجد فوقف ،
وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف ، وحلّت الرئاسة بفنائها فاستغنت به عن
السّوى ، وأناخت السيادة بأفئائه * فألقت عصاها وأستقرّ بها النوى *

وقد يضمّن الكاتب بعض القرينة نصف بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتاً كاملة
الأجزاء على نمط أنصاف الأبيات التي يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن
عمر بن يوسف القرطبيّ في رسالته للشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد تغمدهما الله
برحمته في قوله :

وينهى ورود عذرائه التي ... * لَهَا الشَّمْسُ خِذْنُهَا وَالنُّجُومُ وَلَا تُدْ
وحسنائه التي ... * لَهَا الدَّرُّ لَفْظُهَا وَالدَّرَارِيُّ قَلَانْدُ
ومشرفته التي ... * لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْيَمَانِ شَوَاهِدُ
وكريمته التي ... * لَهَا الْفَضْلُ وَرَدُهَا وَالْمَعَالِي مَوَارِدُ
وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها * عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَضْلَ جَا حِدُ
وَأَنَّكَ سَيِّفٌ سَلَّهُ اللَّهُ لِلْهَدَى * وَلَيْسَ لِسَيْفٍ سَلَّهُ اللَّهُ غَامِدُ

وقد يخالف بين قوافي أنصاف الأبيات التي يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين
فواصل القرائن : كما في قول البديع الحمذاني

أنا لقرب دار مولاي ... * كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمَرُ
ومن الأرتياح إلى لقائه ... * كَمَا أَتَفَضَّصَ الْعُصْفُورُ بِلَلَهُ الْقَطَرُ

ومن الأمتراج بولائه ... * كما أَلْتَقَتِ الصَّهْبَاءُ والبارِدُ العَذْبُ
ومن الأبتهاج بمزاره ... * كما اهْتَرَّتْ تَحْتَ البارحِ النُّصْنُ الرُّطْبُ

إلى غير ذلك من فنون الأمتراج التي يزاوج فيها بين المنشور والمنظوم، وينتهى فيها الكاتب إلى ما يبلغ به القدر المحتوم .

أما تضمين بعض أبيات العرب في بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضى الأترجاني في قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهدِ إلى الوزير المدح يَجْمُلُ * لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصِّفَايَا
وَرَأْفَتِ رُفْقَةٍ رَحَلُوا إِلَيْهِ * فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَالسَّبَايَا
وَقُلْ لِلرَّاحِلِينَ إِلَى ذُرَاهِ * أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا
وَلَا تَسْلُكُ سِوَى طُرُقِي فَإِنِّي * أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الشَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد أشار في كتابه "حسن التوسل" إلى التمثيل بذلك لما نحن بصددده .

الحالة الثالثة

(الحل)

وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عُقْل الشعر، ويسببها في كلامه المنشور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصا أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم، ومستودع حكيمهم، وأنقُس علومهم في الجاهلية؛ به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غزرت لديه المواد، وترادفت عليه المعاني، وتواردت على فكره، فيسهل عليه حينئذ حلها، ووضعها

في مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والريعان" :
وهو شأنٌ حُذِّقَ الكتاب في زماننا ، وفيه من الجمال فنون .

منها أنه يدل على حَفَالة أدب المجيد ، واتِّساع الحفظ ، والتيسير والتأني لسبك
اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشهر منها إلا النادر للغاية في الحُسن ، فهي إذا حُلَّت يحاورها
المنشئ بما يناسب حسنها في البراعة ، وهذا كثير في هذه الصناعة . قال في "المثل
السائر" وإنما جعل المنظوم مادةً للثبور بخلاف العكس لأن الأشعار أكثر ،
والمعاني فيها أغزر ، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهل الفصاحة كان
جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنشور في كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثُر فإنه لم
يُنقل عنهم بل المنقول عنهم الشعر فأودعوا أشعارهم كل المعاني كما قال الله تعالى
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ . ثم جاء الطراز الأول من المُخَضَّرمين فلم يكن لهم إلا
الشعر . ثم استمر الحال على ذلك فكان الشعر هو الأكثر ، والكلام المنشور بالنسبة
إليه قطرةً من بحر ، فلذلك صارت المعاني كلها مودعة في الأشعار . قال في "حسن
التوسل" ، والحل باب متسع على المجيد بحاله ، وتتصرف في كلام العارف به رويته
وآرتجاله .

قال صاحب "الريحان والريعان" وأول من فك رقاب الشعر، وسرَّح مقيدَه إلى
النثر، عبد الحميد الأكبر، كاتب بني أمية إلى أنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه
غير المطبوع المتصرف فقده وأفسد كما قال القائل : (بعضهم يحل فيعقد . قال :
وكيفية الحل أن يتوحي هذا البيت المنظوم وحلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيب
تلك الفرائد وما شابهها ترتيب ممكن لم يحظره الوزن ولا أضطرت القافية ، ويرزها

في أحسن سلك، وأجمل قالب وأصح سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة، ويتخير لها القرائن. وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة يفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، ما يناسبه. وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء؛ فإن كان نسيبا وتأثي له أن يجعله مديحا فليفعل؛ وكذلك غيره من الأنواع. وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها، فتي قصرت ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدَّ معيبا. وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدوير الفصاحة، واجتناب ما ينقص المعنى أو يخطئ رتبته.

قال: وهذا الباب لا تنحصر المقاصد فيه، ولا حصر على المتصرف فيه.

ثم حل الأبيات الشعرية واستعملها في النثر على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

(أن يأخذ النثر البيت من الشعر فينثره بلفظه، وهو أدنى مراتب الحل)

قال في "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد في نثره على أنه أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير. قال ومثله كن أخذ عقدا قد أُنقِنَ نظمته، وأحسن تأليفه، فأوهاه وبدده؛ وكان يقوم عذره في ذلك لو نقله عن كونه عقدا إلى ضرورة أخرى مثله أو أحسن منه. وأيضا فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورا السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء. وبالجملة فحل الشعر بلفظه لا يخرج عن حالين:

الجال الأول — أن يكون الشعر مما يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وله في حله طريقتان:

الطريق الأول — أن يحلّه بالتقديم والتأخير من غير زيادة في لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتاب أنه حلّ قول البحترى :

أُطِلَّ جَفْوَةَ الدُّنْيَا وَتَهْوِينَ شَأْنِهَا * فَمَا الْغَافِلُ الْمَغْرُورُ فِيهَا بِعَاقِلٍ
يَرْجَى الْخُلُودَ مَعَشَرَ ضَلَّ سَعِيهِمْ * وَدُونَ الَّذِي يَرْجُونَ غَوْلَ الْغَوَائِلِ
إِذَا مَا حَرِيْزُ الْقَوْمِ بَاتَ وَمَا لَهُ * مِنْ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ

فقال في نثرها : أُطِلَّ تهوينَ شأنِ الدنيا وجَفْوَتَهَا، فَمَا الْمَغْرُورُ الْغَافِلُ فِيهَا بِعَاقِلٍ .
وَيَرْجُو مَعَشَرَ ضَلَّ سَعِيهِمْ الْخُلُودَ ، وَغَوْلَ الْغَوَائِلِ دُونَ مَا يَرْجُونَ . وَإِذَا بَاتَ حَرِيْزُ
الْقَوْمِ وَمَا لَهُ مِنْ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ . فلم يزد في ألفاظها شيئا .

الطريق الثاني — أن يحلّه بزيادة على لفظه كما حكى الجاحظ عن قليب المعتزلى
أنه سمع منشدا يُنشد للعتبيّ .

أَفَلْتَ بِطَالْتُهُ وَرَاجَعُهُ * حِلْمٌ وَأَعَقَبَهُ الْهَوَى نَدَمَا
أَلْقَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ كَلْكَلَهُ * وَأَعَارَهُ الْإِقْتَارُ وَالْعَدَمَا
فَإِذَا أَلَمَ بِهِ أَخُو نِقَةِ * غَضَّ الْجَفُونُ وَبَجَجَ الْكَلِمَا

فنثرها فقال يستعطف بعض الملوك على رجل من أهله : جعلني الله فداك
ليس هو اليوم كما كان ، إنه وحياتك أَفَلْتَ بِطَالْتُهُ ، إِي وَاللَّهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ ، وَأَعَقَبَهُ
وَحَقَّقَ الْهَوَى نَدَمَا . أَخْنَى الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَاللَّهُ بِكَلْكَلِهِ ، فَهُوَ الْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ
غَضَّ بَصْرَهُ وَبَجَجَ كَلَامَهُ . فزاد في نثره ألفاظا على ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض
شُعراء الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِي حَنْقٍ عَلَى كَأْتَمًا * تَغْلِي عَدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ

أَرْجِيئُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ * وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَظِرِ مِنْ عَلٍ

فقال في ثره : فكم لقي ألد ذا حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عل وتغل
عداوة صدره في مِرْجَل فكواه فوق ناظريه ، وأكبّه لِقَمِهِ ويديه .

الحال الثاني — أن يكون الشعر مما لا يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، فيحتاج في ثره إلى الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتى يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ * فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

فإن المصراع الثاني من البيت لا يمكن حله بالتقديم والتأخير لأنك تقول في المصراع الأول : فُؤَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ ولا يمكن ذلك في المصراع الثاني حتى تريد فيه أو تنقص منه فتقول مثلاً فُؤَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ عَلَى ما تقدم . ثم تقول وصورته من اللحم والدم فضلة لا غناء بها دونهما ، ولا معول عليها إلا معهما .

قال في "الصناعتين" : وزيادة الألفاظ التي تحصل فيه ليست بضائرة لأن بسط الألفاظ في أنواع المتشور شائع ؛ ألا ترى أنها تحتاج إلى الأزدواج ؛ ومن الأزدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنى واحد وليس ذلك بقبیح ؛ إلا إذا اتفق لفظاهما ؛ إلا أن أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز ، ومعنى قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل في قوله * لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ * والمصراع الثاني تذييل للمصراع الأول . قال : فإذا أردت أن تحلّه حلاً مقتصرًا بغير لفظه ، قلت الإنسان شطران : لسان وجنان ، وقريب من ذلك قول أبي نؤاس .

أَلَا يَأْنِ الَّذِينَ قَتَلُوا وَبَادُوا * أَمَا وَاللَّهِ مَازَهَبُوا لَتَبْقَى

فإن المصراع الأول يمكن حله بأن تقول ألا يأن الذين بادوا وقُتِلوا فيكون مستقيماً . أما المصراع الثاني فإنه إن قُدِّم فيه أو أخر بأن قيل مازهبوا لتبقى أما والله فإنه لا يستقيم فتححتاج في نثره إلى تغيير وزيادة فتقول : ألا يأن الذين ماتوا ومَضَوْا وطمَعُوا ونَآوُوا أما والله ما طعنوا لتقيم ، ولا راموا لتريم ، ولا مَوَّتُوا لتحيَا ، ولا قُتِلُوا لتبقى . قال في ”الصناعتين“ وفي هذه الألفاظ طول وليس بضائر على ما تقدم . قال : وإن أردت اختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصيبك في أيك إلا لِيُصِيبَكَ فِيكَ .

الضرب الثاني

(وهو أعلى من الضرب الأول أن ينثر المنظوم ببعض ألفاظه ويعرِّم عن البعض ألفاظاً آخر . ويحسن ذلك في حالين)

الحال الأول — أن يكون في الشعر ألفاظ لا يقوم غيرها من الألفاظ مقامها بأن تكون مثلاً سائراً أو جارية مجرى المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي * بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ دُهْلٍ بَنِ شَيْبَانَا

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مقامه لكونه علماً على قوم مخصوصين فيحتاج النائر أن يبقى بلفظه ، كما فعل ”ضياء الدين بن الأثير“ في قوله في نثر البيت المذكور : لست ممن تسبح إبلة بنو اللقيطة ، ولا الذي إذا هم بأمر كانت الآمال إليه وسيطه ، ولكني أحيى الجهل ، وأفوت الأمل ، وأقول سبق السيف العدل . وكذلك كل ما جرى هذا المجرى ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها ، وأحاط من البلاغة بجوانبها ؛ فيبقى على حاله ، ويقرّنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمساكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المترجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد نقحه وصحّحه ، فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ؛ ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب مثلا من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه يسلك مضيقا ، لما فيه من التعرّض للمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن نثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثل يضطر إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَدَّاءَ تَمْلَأُ كُلُّ أُذُنٍ حِكْمَةً * وَبَلَاغَةً وَتُدْرِكُ كُلَّ وَرِيدٍ

ثم قال : فقلوه تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن ، وهو أحسن ما فى البيت وأشهر ، فلو قال قائل لمن هذا ؟ قيل وهل يخفى القمر ، وإذا عُرِفَ الكلام صارت المعرفة له علامه ، ولم يُخَشَّ عليه سرقة إذ لو سُرِقَ لدلت عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كل أذن حكمة ، ويعمل فصاحة كل لسان عُجْمَه . فبقى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة . ونحو ذلك ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي : أنه يؤاخى القرينة المحولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقليد فقال : * فَكَمْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِمَّا يُغْيِرُهُ * ثم قال : وظلام النَّعْجِ مِمَّا يُثِيرُهُ . وقال أيضا : وَقُلْ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا يُلَاطِمُهُ * ثم قال : والأجل مما يساقفه إلى قبض النفوس وإزاجه . والقرينتان الأوليان نصفان بيتين للتنبي فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثالث .

(وهو أعلى من الضربين الأولين أن يأخذ المعنى فيكسوه ألفاظا من عنده

ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه)

قال في "المثل السائر" : "وَمَّ يَتَيْنُ حَذَقُ الصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ ؛ فَإِنْ أَسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ ، وَإِلَّا أَحْسَنَ النَّصْرُفَ وَأَتَقَنَ التَّأْلِيفَ ؛ لِيَكُونَ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ .

وتعلم أن الأبيات الشعرية في حلها بالمعنى لها حالان .

الحال الأول — أن يكون البيت الشعر مما يتسع المجال لناثره في نثره فيورده بضروب من العبارات . قال ابن الأثير "وذلك عندي شبهه بالمسائل السائلة في الحساب التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة" . فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :
لَا تَعْدِلِ الْمُشْتَقَّ فِي أَشْوَاقِهِ * حَتَّى تَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ

فهذا البيت يُصَرَّفُ في نثره في وجوه من المعاني . وقد نثر ابن الأثير هذا البيت فقال : "لَا تَعْدِلِ الْحُبَّ فِيمَا يَهْوَاهُ ، حَتَّى تَطْوِيَ الْقَلْبَ عَلَى مَا طَوَاهُ" . ونثره على وجه آخر فقال : "إِذَا اخْتَلَفَتِ الْعَيْنَانِ فِي النَّظَرِ ، فَالْعَدْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَذَرِّ" . وكذلك قول المتنبي أيضا :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدُمُوعِهِ * مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

نثره ابن الأثير فقال : "الْقَتِيلُ بِسَيْفِ الْعُيُونِ ، كَالْقَتِيلِ بِسَيْفِ الْمُتُونِ ؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجَرَّدُ مِنْ غِمْدِهِ ، وَلَا يُقَادُ صَاحِبَهُ بَعْمَدِهِ" . فزاد على المعنى الذي تضمنه البيت عدم القود بالعمد . ونثره على وجه آخر فقال : "دُمُ الْحُبِّ وَدَمُ الْقَتِيلِ ، مُتَّفَقَانِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ ؛ وَلَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا ، سِوَى أَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ لَوْنًا" . قال وهذا أحسن من الأول .

وعلى هذا النهج يجري قول ابن الرومي في وصف الحديث :

وَحَدِيثُهَا السَّحَرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ * لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

ثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في وصف السيوف فقال : وكفى السيوف
نفرا أنها للجنة ظلال ، وإلى النصر مآل ؛ وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان
حديثها عن كلمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلى وصف الأسنّة فقال : حَسْبُ
الْأَسِنَّةِ الْأَسِنَّةُ شَرَفًا أَنْ كَشَفَ خَبَايَا الْقُلُوبِ يَدُّهُ إِلَّا مِنْهَا ، وَأَنْ بَثَّ أَسْرَارَ الضَّمَائِرِ
تُكْرَهُ رَوَايَتُهُ إِلَّا عَنْهَا ؛ فَمَكَرَ حَدِيثُهَا فِي ذَلِكَ لَا يُفِضُ إِلَى مَلَالٍ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ
حُسْنُ حَدِيثِهَا الَّذِي يَسْحَرُ الْأَلْبَابَ مِمَّا يَحِلُّ ، فَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ سِحْرٌ حَلَالٌ .
ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال : البلاغة تَسْحَرُ الْأَلْبَابَ حَتَّى تُخِيلَ الْعَرَضَ جَوْهَرًا
وَتُخِيلَ الْهَوَاءَ الْمُدْرَكَ بِالسَّمْعِ لَأَنْسَجَامِهِ وَعُدُوبَتِهِ فِي الذَّوْقِ نَهْرًا ؛ لَكِنَّهُ سِحْرٌ لَمْ يَجْنِ
قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ ، فَيَتَأَوَّلُ فِي حِلِّهِ ، وَإِذَا كَانَ فِي الْحَدِيثِ مَا هُوَ عُقْلَةٌ لِلْمُسْتَوْفِزِ ،
فَهَذَا أَشْوَطُ تَشَاطُ الْبَلِغِ وَحَلُّ عِقَالِ عَقْلِهِ . ونقله إلى وصف الكتابة . فقال :
خَطُّهُ شَرَكُ الْعُقُولِ ، وَفَنَتُهُ تَشْغَلُ الْمُطْمَئِنِّ بِمَلَاحَةِ الْمُرْتِ الْمَكْتُوبِ ، عَنْ فَصَاحَةِ
الْمَسْمُوعِ الْمُقُولِ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْبَيَانُ سِحْرًا ، لَمَا تَجَسَّدَتْ مِنْهُ فِي طَرَسِهِ هَذِهِ الدَّرَرُ ،
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْضُ السَّحَرِ حَلَالًا ، لَمَا أَنْجَلَى ظَلَامُ النَّفْسِ عَمَّا يُهْتَدَى بِهِ مِنْ هَذِهِ
الْأَوْضَاحِ وَالْقُرَرِ .

الحال الثاني — أن يكون البيت الشعر مما يضيق المجال فيه فيعسر على الناثر
تبديل ألفاظه ، وذلك قليل بالنسبة إلى ما يتسع في حله المجال . قال في "المثل السائر"
وسببه أن المعنى ينحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي إلا فذًا . فمن ذلك
قول أبي تمام الطائي من قصيدة .

تَرْدِي ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى * بِهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضِرِ
فإن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب بين الأحمر والأخضر، وجاء
ذلك واقعا على المعنى الذى أراده : من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ؛ فإن ثياب
القتلى حمر وثياب الجنة خضر .

قال ابن الأثير : فإذا فكَّ نظم هذا البيت وأريد صوغه بغير لفظه لم يمكن ؛
فيجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فكَّ نظامه ؛ لأنه يتصدى لشعره بالفاظه ؛ فإن
كان عنده قوَّةُ تصرف ، وبَسْطَة عبارة ، فإنه يأتي به حسنا رائقا . وقد نثر هذا
البيت فقال : لم تكسُّه المنايا نَسْجَ شِفَارِهَا ، حتَّى كَسَتْهُ الْجَنَّةُ نَسْجَ شِعَارِهَا : فبدل
أحمر ثوبه بأخضره ، وكأْس حِمَامِهِ بِكَأْسِ كَوْثَرِهِ . قال : وهذا من الحُسن على
غاية يكون كمد حُسودها ، من جملة شُهودها . ومن ذلك قول أبي الطيّب :
وَكَانَ يَهَامِثُ الْجُنُونَ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثَّتِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

فإن أبا الطيّب بنى بيته على واقعة مخصوصة . وذلك أن حصنا من حصون
سيف الدولة قصده الروم ، وأنترعوه ، ونحربوه ؛ فهدَّ سيف الدولة إليه وأسترجه ،
وجدد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب جملة من جثث القتلى على السور ؛ فنظم أبو الطيّب
في هذا قصيدا أوله .

* على قدر أهل العزم تأتي العزائم *

ولما انتهى إلى ذكر الحصن ، جاء بهذا البيت في جملة أبيات ، فشرح صورة
الحال ، في آرتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه ؛ وأبرز ذلك في معنى التمثيل
بالجنون والتمايم . وهذا لا يمكن تبديل لفظه ؛ فيجب على الناثر حسن الصنعة
في حله ونثره . وقد نثره ابن الأثير أيضا فقال : سرى إلى حصن كذا مستعيذا منه
سبية نزعها العدو اختلاسا ، وأخذها محادعة لا أقراسا ؛ فما نزلها حتَّى آستقادها ؛

ولا نازلها حتى آستعدها ؛ فكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمام ؛ ثم قال : وفي هذا من الحسن مالا خفاء فيه . فمن شاء أن ينثر شعرا فليثر هكذا وإلا فليترك . ثم نقله إلى معنى آخر ، وأبرزه في صورة أخرى فأضاف إليه البيت الذى قبله من القصيدة فصار على هذه الصورة .

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقَرُّعُ الْقَنَا * وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مَتَلَاظِمٌ
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثَثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ

ثم نثرهما فقال : بناها والأسنة في بناها متخاصمه ، وأمواج المنايا فوق أيدي البائين متلاظمه ؛ وما أجلت الحرب عنها حتى زُلزِلت أقطارها بركنض الجياد ، وأُصِيبَتْ بمثل الجنون فعلقت عليها تمام من الرءوس والأجساد . ولا شك أن الحرب تُعْرَدُ عن عرن جانبها ، وتقول ألا هكذا فليكبس المجد كاسبه . قال وهذا أحسن من الأول وأتم معنى . ثم تصرف فيه بزيادة على هذا المعنى فقال : بناها ، ودُونَ ذاك البناء شَوْكُ الْأَسَلِ ، وطوفانُ المنايا الذى لا يقال سَاوَى منه إلى جبل ؛ ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هُدِمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أُصِيبَتْ بجنون فُعلِّقت القتلى عليها مكان التمايم أو شيدت بعتل فُعلِّقت مكان الأطواق . قال وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله .

قلت : وكما ينبغى الإكثار من حفظ الأشعار على ما تقدم ليوردها في خلال كلامه استشهادا وتضمينا أو يحلّها ويقتبس معانيها في نثره على ما تقدم بيانه كذلك ينبغى له معرفة المشاهير من الشعراء الطائرى السمعة : من شعراء الجاهلية كأمرئ القيس ابن حجر ، والنابعة الذبياني ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وزهير ابن أبى سلمى ، والأفوه الأودى ، والمتامس ، والأعشى ، وعلقمة بن عبدة ، وعمرو

(١) أى تفرّ وتجنّ يقال عَرَدَ الرجل عن قرنه إذا فرونكل . انظر اللسان .

أَبْنُ كُثْلُومَ ، وَالْمَرْقَشُ ، وَالنَّمْرُ بْنُ تَوَلْبَ ، وَمُهَاطِلُ ، وَطُفَيْلُ الْغَنَوَى ، وَعُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ ،
وَقَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ ، وَالشَّامُخُ بْنُ ضِرَارَ ، وَعَنْتَرَةُ ، وَالسَّمُوعِلُ بْنُ عَادِيَا ، وَمَنْ
جَرَى بِمَجْرَاهِمُ .

وَمَنْ الْمَخْضَرِّينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ جَمِيعًا : حَكَّاسَانُ بْنُ ثَابِتَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَيْيَدُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَكَعْبُ بْنُ زُهَيْرَ ، وَزَيْدُ الْخَيْلِ الطَّائِي ، وَالنَّابِغَةُ
الْجَعْدِيُّ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلَاتِ ، وَالْحُطَيْئَةُ ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدَى كَرْبَ ، وَالزُّبَيْرُ قَانُ
أَبْنُ بَدْرِ التَّمِيمِيِّ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسِ السَّامِيِّ ، وَالْخُنَسَاءُ بِنْتُ عَمْرُو بْنِ الشَّرِيدِ ،
وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

وَمَنْ الْمَوْلَدِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا مِنَ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ : كَالْفَرَزْدَقِ ، وَجَرِيرِ
وَالْأَخْطَلِ ، وَالْقَطَامِيِّ ، وَالْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ ، وَالْمَسَاوِرُ بْنُ هَنْدَ ، وَعَدِيُّ بْنُ
الرَّقَاعِ ، وَكَثِيرُ عَزَّةَ ، وَعُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالرَّاعِي ، وَأَبْنُ مُقْبِلَ ، وَأَبْنُ مُفَرِّغَ ، وَلَيْلَى
الْأَخِيلِيَّةَ ، وَمَنْ أَنْخَرَطَ فِي سَلَكِهِمْ .

وَمَنْ الْمُحَدَّثِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَتَوْا بَعْدَ الْمَوْلَدِينَ كِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هِرْمَةَ ، وَأَبْنِ أُذَيْنَةَ ،
وَأَبِي نُوَّاسَ ، وَأَبِي الْعَتَاهِيَّةَ ، وَطُفَيْلَ الْكَثَّانِيِّ ، وَسَلْمَ الْخَاسِرِ ، وَأَبْنِ مِيَّادَةَ ، وَصَالِحَ
أَبْنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، وَأَبِي عَيْنَةَ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ ، وَالْعَتَّابِيُّ ، وَأَشْجَعُ السَّلْمِيِّ ،
وَالْعَكَّوكُ ، وَأَبْنُ أَبِي زُرْعَةَ الدَّمَشْقِيِّ ، وَأَبِي الشَّيْصِ ، وَالْحَمْدُونِيُّ ، وَالْعُتْبِيُّ ، وَدِعْبِلُ
الْخَزَاعِيِّ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيِّ ، وَأَبِي عَلِيٍّ
الْبَصِيرِ ، وَأَبِي تَمَّامِ الطَّائِي ، وَأَبِي عَبَّادَةَ الْبُحَيْرِيِّ ، وَأَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِي ، وَأَبْنُ
بَسَّامَ ، وَالسَّرِيُّ الْمَوْصِلِيُّ ، وَأَبِي الْفَتْحِ كُشَّاجِمَ ، وَأَبِي الْفَتْحِ الْعَبْسِيِّ ، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْغَا ، وَأَبْنُ السَّاعَاتِي ، وَأَبْنُ قَلَاقِسَ ، وَالْوَاوَا الدَّمَشْقِيُّ ، وَالْعَفِيفُ التَّلَمْسَانِيُّ ، وَأَبْنُهُ ،
وَأَبْنُ سَنَّا الْمَلِكِ ، وَأَبْنُ شَمْسِ الْخَلَّافَةِ ، وَأَبْنُ النَّبِيهِ ، وَالصَّفْنِيُّ الْحَلِّيُّ وَنَحْوُهُمْ .

ومعرفة الفرسان منهم : كأمريء القيس ، وخُفّاف بن نُدبة ، والزُّبرقان بن بدر وعَترة ، وعمرو بن معدى كرب ، ودُرَيْد بن الصَّمة .

ومن كان منهم راجلا يسعى على رجله كسليك بن السُّلكة ، وآبن بَرّاقة ، وتابط شراً ، والشَّنْفَرى وغيرهم .

ومن تقدّم منهم في نوع من الشعر ، كمعرفة طفيل الغنوى بوصف الخيل ، وأمية بن أبى الصلت في أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة في وصف النساء ، وعُتَيْبة بن مُرداس بمراكب الإبل ، وكثير في الأمثال ، والفرزدق في الأخبار ، وجري في المعاني .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظاً : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة ، ومعرفة أى القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كَهذيل ؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعراً مُقلِّقاً كلهم يَعدُّون على رجله ، ليس فيهم فارس ؛ وأى قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كَشَيْبَانَ ، وكلب ؛ فقد قيل إنه ليس في الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب في الجاهلية شاعر قديم على أنها مثل شيبان أربع مرات .

وقد ذكر ابن رشيّق في "عمدته" عن عبيد الله بن سلام الجُمَحِيّ وغيره : أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة فكان منهم مُهلِهل بن ربيعة ، وهو خال أمريء القيس بن حُجْر ، ويقال إنه أوّل من قصّد القصائد والمُرَقَّشَان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قَمَيْثة ، والحارث بن حِزّاة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيّب بن عَلس وغيرهم ؛ ثم تحوّل الشعر إلى قيس فكان منهم النابغة الذبياني والجمعدى ، وزُهَيْر بن أبى سُلَيم ، وأبْنُه كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشَّامِخ . ثم استقرّ الشعر في تميم فكان منهم أوس بن حَجْر ، ولم يتقدّمه أحد حتّى كان النابغة وزهير فأَحْمَلاه .

قلت : والمراد أن الشعر غلب في هذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المحيدون ؛ وإلا فالشعر موجود في قبائل العرب قبل ذلك : كحُمير وكَهْلان من اليمن ؛ بل في عاد وثمود على ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، أستعان به في المساواة بمن شاء منهم في التقریظات والتفضيل عليه كما كتبت في تقریظ شاعر : فامرؤ القيس يفرق في مقياس معانيه ، والنابعة الدباني يقصر عن أن يبلغ مدى شأوه أو يدانيه ، وزهير يقتطف زهرات البلاغة من أفانينه ، وأوس بن حجر ينسج على منواله ويأتم بقوانينه ، وطُفيل الغنوي يتطقل على موائد شعره ، وطرفة بن العبد يقصر عنه في شيوع ذكره ، والأعشى يعشو إلى ضوء ناره ، وعمرو بن كلثوم يسعى إلى بابه ويقف بفناء داره ، وكثير في أمثاله لا يعد من أمثاله ، وجرير في مقآخره يتمسك من الفخار بأذياله ، والفرزدق في أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلورآه عبد الملك بن مروان لاختاره على الأخطل ، أو اجتمع مع أبي نواس لدى الأمين لقال هذا هو المقدم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمام ، لأعترف له بالتام ؛ أو بصره أبو عبادة لقال أنا له عبد و غلام ؛ أو عاصره المتنبي لأعترف بفضله ، أو ابن الساعاتي لقال لا يأتي الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

وكذلك ينبغي أن يعرف مصطلح أهل العروض الذي هو ميزان الشعر مثل الوتد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ؛ وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالخبز ، والخبل ، والقبض وغيرها : ليدخلها تضاعيف كلامه عند احتياجه إلى ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآناري في أول ألفيته في العروض .

الحمد لله المليك الغافر * ذى الطول والفضل المديد الوافر
 سبحانه ماذا يقول البارع * فى كامل ليس له مضارع
 ورزقه فى عدله بسيط * وعلمه بخلقه محيط
 وما يخط فى هذا السلك من الكلام المنشور أيضا .

النوع الحادى عشر (الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر فى كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميدانى ؛ والمفضل بن سلمة الضبيّ ، وحمزة الأصبهانيّ ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلى غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم : كأبي العتاهية ، وأبي تمام ، والمتنبي ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أما فى شعر المولدين فلجريهم على أسلوب العرب ، وركوب جادتهم ؛ وأما المحدثين فللطافة مأخذهم ، وأستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرى النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنى عليه ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

الألفاظ الواردة في المثل دالة عليها، معبرة عن المراد بها، بأخصر لفظ وأوجز، ولولا تلك المقدمات المعلومة، والأسباب المعروفة، لما فهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطولات؛ وأما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمات مختصرة، تورد للدلالة على أمور كناية مبسطة، كما تقدمت الإشارة إليه، وليس في كلامهم أوجز منها. ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا. وحيث كانت بهذه المكنانة لا ينبغي الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هي ونشئ الكلام، وجوهر اللفظ، وحل المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء كسيرها، ولا عم عموما، حتى قالوا: أسير من مثل، قال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر * يعرفه الجاهل والخاير

وقد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، وقال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآية، وقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا يُوَجَّهَةٌ لَّيَآتٍ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضِيبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ إلى غير ذلك من آي القرآن.

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمثال فقال "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داع يقول ادخلوا الصراط ولا تعرجوا: فالصراط الإسلام، والستور

حدودُ الله ، والأبوابُ محارِمُ الله ، والداعى القراءُ ، إلى غير ذلك من الأمثال التي ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام على أمثال القرآن وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما تقدّم من الكلام على القرآن الكريم والأخبار .

ثم هي على ضربين : قريب الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين الناس ؛ وبعيد الفهم لخفائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران على الألسنة مثل قولهم ، ”عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى“ ، وهو مثل يُضْرَبُ للترغيب في السير في الليل ، والحث عليه ؛ وأوّل من أرسله مثلاً خالد بن الوليد رضى الله عنه ، قاله في صبح ليلة قطع فيها مفازة كانت في طريقه من العراق إلى الشام ؛ وقولهم ”أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً“ . وأوّل من قال ذلك سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وكان تزوّج صَفِيَّةَ بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ فولدت له أَبْنَاهُ أَنَسًا ، فرآه الأخنسُ بْنُ شَرِيْقٍ الثَّقَفِيُّ معه فقال من هذا ؟ فقال سُهَيْلُ بْنُ أَبِي — فقال الأخنسُ حَيَّاكَ اللهُ يَا بَنِيَّ ! أَيْنَ أُمُّكَ ؟ فقال : لا والله ما أُمِّي ثُمَّ ، أَنْطَلَقْتُ إِلَى بَيْتِ أُمِّ حَنْظَلَةَ تَطْحَنُ دَقِيقًا — فقال أبوه أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَةً — فلما رجعا قال أبوه فَضَحَنِي أَبْنِيكَ الْيَوْمَ قَالَ كَذَا وَكَذَا — فقالت إِنَّمَا أَبْنِي صَبِيٌّ وَأَنْتَ لَا تَجْبَهُ — فقال ”أَشْبَهَ أَمْرُؤُوعُضُ بَرَّةً“ ، فأرسلها مثلاً . والبعيد من الفهم ، مثل قولهم ”إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ“ . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا . والأصل في ذلك كما ذكره المفضلُ بْنُ سَلَمَةَ الضَّبِّيُّ أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهُنُوا عَلَى الشَّمْسِ ، فقالت طائفة : تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُرَى ، وقالت طائفة : يَغِيبُ الْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حَكَمًا ، فقال واحد منهم : إِنْ قَوْمِي يَبِغُونَ عَلَى ، فقال الْحَكَمُ إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ ، بَجَرَتْ مَثَلًا . ومن المعلوم أَنَّ قول القائل إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ ، إِذَا أَخَذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ

من غير نظر إلى القرائن المنوطة به ، والأسباب التي قيل من أجلها ، لا يعطى من المعنى ما قد أعطاه المثل ؛ بل ما كان يُفهم من هذا القول معنى يفيد لأن البنى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا ، فكان يصير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر — وهو كلام مختل المعنى ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس في تصنيف كتب الأمثال ، فمن ذلك الأمثال لأبى عبيد ، وهو مرتب على ترتيب الوقائع التي تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميداني ، وهي مرتبة على حروف المعجم وفي آخرها جملة من أيام حروب العرب ، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة في هذا الباب : كأمثال الضبي ، والقمي ، وغيرها .

وأما الأمثال الواردة نظما ، فهي كلمات استحسن في الشعر . وطابقت وقائع عامة جارية بين الناس ، فتداولها الناس ، وأجروها مجرى الأمثال النثرية . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يتمثل بقول طرفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سَبْدِي لَكَ الْيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخْرِجُهُ عَنِ الْوِزْنِ ، وَيُجِيلُهُ عَنْ طَرِيقِ الشَّعْرِ فكان يقول : ” وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ بِالْأَخْبَارِ ” فرارا من قول الشعر المنزه عنه مقامه العلى ، وشرفه الرفيع ، لكن ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : ” أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدَ :

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ * ”

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو نظم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسمى ”بالغيوث الموامع“ ، في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع ، في الفقه فراجعه هناك ، ويروى أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلْمُؤُهُ * عَلَى شَعَثِ أَى الرَّجَالِ الْمُهْدَبِ

ثم قال : لمن هذا؟ ف قيل له للنابغة ، فقال : ذاك أشعر شعرائكم ؛ والمثل السائر فيه فى قوله : أَى الرَّجَالِ الْمُهْدَبِ ؛ وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثير ، ولذلك وقع فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم ما يستظرف ويستحلى كقول القاضى الأثرجاني :

تَأَمَّلْ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدُغِ خَالَا * لِتَعْلَمَ كَمْ خَبَايَا فِي الزَّوَايَا

يشير بذلك إلى المثل الجارى على ألسنة الناس فى قولهم ”فى الزوايا خبايا“ وهو من الأمثلة المستفيضة على ألسنة العامة الشائعة بينهم ، وقول ابن عبد ربه .
 قَالُوا شَبَابُكَ قَدْ وَلَّى فَقُلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَرِّ الْجَدِيدَيْنِ ؟
 صِلْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبْدَى مُعَاتَبَةً * فَأَطِيبُ الْعَيْشَ وَصَلِّ بَيْنَ الْفَيْنِ !
 وَأَقْطَعْ حَبَائِلَ خَذَنِ لَا تَلَأْمُهُ * فَرُبَّمَا ضَاقتِ الدُّنْيَا بِإِثْنَيْنِ .
 وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أَهْوَاهُ بَعْدَ الْقَلَى * شَقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
 وَأَصْبَحَ الدَّاخِلُ مَا بَيْنَنَا * كَسَاقِطٍ بَيْنَ فِرَاشَيْنِ
 قَدْ أُلْبِسَ الْبَغْضَاءَ مِنْ ذَا وَذَا * لَا يَصْلُحُ الْغَمْدُ لِسَيْفَيْنِ
 مَا بَالُ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أَنْفَايَيْنِ عَيْنَيْنِ ؟

قال الأصمعي : ولم أجد في شعر شاعر بيتاً أوله مثل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيت الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَدْعُمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
وبيتا امرئ القيس :

وَأَفْلَتَهُنَّ عِلَاءُ جَرِيضًا * وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ صَفَرَ الْوِطَابُ
وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بَنَى أَبِيهِمْ * وَبِالْأَشْقَيْنِ مَا كَانَ الْعِقَابُ

قال صاحب العقد : "ومثل هذا كثير في القديم والحديث، ولا أدرى كيف أغفل القديم منه الأصمعي، ومنه

* سَتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدم؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها باباً .

وأما الأمثال الموضوعة على السنة الحيوانات، فكما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم، تمثل بقولهم "إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضُ"، يعني إنما خذلت يوم خذل عثمان؛ وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : أصطحب أسد، وثور أحمر، وثور أبيض، وثور أسود في أجمه؛ فقال الأسد للآخر والأسود : هذا الأبيض يفضحنا بلونه، ويطلع فينا من يقصدنا ! فلو تركتاني آكله، أمناً فضيحة لونه؛ فأذن له في ذلك فأكله؛ ثم قال للآخر : هذا الأسود يخالف لوني ولونك ولو بقيت أنا وأنت، ظنك من يراك أسداً مثلي فدعني آكله، فسكت عنه فأكله؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنت فاعلا ولا بد، فدعني أصعد تلك الهضبة، وأصيح ثلاثة أصوات، فقال : آفعل ماتريد، فصعد وصاح ثلاثة أصوات : "إلا إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضُ" فغرت مثلاً .

ويحكى أن عبد الملك بن مروان حج وقدم المدينة ، فقال على المنبر : يا أهل المدينة إنكم قُتلَ عثمانُ بين أظهركم فنحن لآنحِبكم ! وأرسلنا مسلمة بن عقبة فقتلكم في وقعة الحرة ، فأنتم لاتُحِبُّوننا ، فثقلنا ومثلكم كما قال النابغة :

كَمَا لَقِيتُ ذَاتَ الصَّفَامِ خَلِيفَهَا * وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِيَا وَظَاهِرَا
فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ قَدْ تَمَرَّ مَالُهُ * وَأَثَلُ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَقَاوِرَهُ
أَكْبَّ عَلَى فَاسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا * مُدَّكِّرَةً مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَاسِهِ * وَلِلَّهِ عَيْنٌ لَا تُغْمَضُ نَاطِرَهُ
فَقَالَ تَعَالَى تَجَعَّلِ اللَّهُ بَيْنَنَا * عَلَى مَالِنَا أَوْ تُخْجِزِي لِي آخِرَهُ
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهِ أَفْعَلُ إِنِّي * رَأَيْتُكَ سُخْرِيًا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبُهُ فَاسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

وهذه الحكاية مشهورة في الموضوعات على ألسن الحيوان ، وهى أن أخوين هبطا بغنمهما واديا يريعيان فيه ، فخرجت حية من تحت الصفا وفى فيها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما ؛ فقال أحدهما لابتد من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ! فنهاه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس فى يده ، فشجها وشدت عليه فقتلته ، فدفنه أخوه مُقابِلَها ؛ فلما خرجت قال لها هل لك أن نتعاهد على المودة وعدم الأذية ، وتعطينى ذلك الدينار كل يوم ؟ فقالت : لا ! — قال ولم ؟ — قالت لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك لاتصفولى ، وكلما ذكرت الشجرة التى فى رأسى لاصفؤوك .

المقصود الثانى

(فى كيفية استعمال الأمثال فى الكتابة)

فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، آنقادت إليه معانيها ، وسيقت إليه ألفاظها ، فى وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها في مكانها ، وأستشهد بها في موضعها . والطريق في استعمالها في النثر ، كما في حل الأشعار واستعمالها ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفَتْ واشتهرت .

فما أستعمله أهل الصناعة من الأمثال المثورة وأوردوه في كلامهم قول المقتر الشهابي "آبن فضل الله في "التعريف" في وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقُّ بنى الزَّهراء بما أبَقَتْه له آباءه ، وألقَتْه إليه من حديث قُصِيَ جَدُّه الأَفْصَى أبنائه ؛ وهو أجدر مَنْ طَهَّرَ هذا المسجد من أشياء تَنَزَّهَ أن يلحق به فُحْش عابها ، وشَعَاء هو يَعْرِفُ كيف يَتَّبِعُهَا "وأهل مكة أَخْبَرُ بِشَعَابِهَا" ، فاستعمل المثل السائر في قوله : وأهل مكة أَخْبَرُ بِشَعَابِهَا ؛ وقد وقع هذا المثل في كلامه أحسن موقع ، وجاء على أبجل نظام : لأنه قد أتى به في مكانه اللائق به ، ومحلّه المخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله فاستعمله في غير هذا المعنى ، بقاء منحنطاً عن هذه الدرجة ، وقاصراً عن رتبها ، فقال في وصية خطيب ، : ووصايا هذه الرتبة متشعبة ، وهو كأهل مكة أَخْبَرُ بِشَعَابِهَا ، وأحوالها مترتبة ، وهو على كل حال أدرب وأدرى بها ؛ إلا أنه قد ظَرَفَ بذكر الجناس الاشتقاق في قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في خطبة تقليد بفتوة عن ملك : "ونشهد أن محمدا عبده ورسوله" ، الذي نُورُ شريعته جَلَى ، وجاهُ شفاعته مَلَى ، وبسيفه وبه جاء النصر والشرف من آتَمَاتِنَا إِلَيْهِ ، فلا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَلَا قَتَى إِلَّا عَلَى . وهذا على ما هو شائع على الألسنة ، وأن ذلك قيل في يوم ضَرَبَ عَلَى رَضَى عنه كافرا أَسْمُهُ مَرْحَب ، فَشَقَّ الْبَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ نَصْفَيْنِ ، وتمادى السيف فيه وفي جواده فَشَقَّهُمَا كَذَلِكَ وَخَلَصَ السَيْفُ بَيْنَهُمَا فِغَاصٌ فِي الْأَرْضِ شَبْرَيْنِ ؛ إِلَّا أَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ وَأَحْجَابَ السَّيْرِ أَنَّ ذَا الْفَقَارِ أَسْمُ سَيْفٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم، أصطفاه من خير لنفسه حين أصطفى صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها، ولعله صلى الله عليه وسلم، أعطاه علياً رضي الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته في المفارقة بين السيف والقلم في الكلام على لسان القلم : وهو "أنا جُذِلْتُهَا مُحَكَّكٌ، وَعُدِّيْقَهَا الْمُرَجَّبُ ؛ وَكَرِّمَهَا الْمَبْجَلُ ، وَعَلَمَهَا الْمَهْذَبُ" . فالقرينة الأولى فيها مثلان ، وأول من قالها الحُباب بن المنذر الأنصاري يوم السَّقِيفَةِ ، حين أجمع الأنصار إلى سعد بن عبادَةَ ، يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم في سقيفة بني ساعدة ؛ وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة ابنُ الجراح ^(١) ؛ وقال الحُباب بنُ المنذر : مِنَّا أمير ومنكم أمير ، إلى أن كان من كلامه هذان المثالان . والجُذِيلُ تصغير جَذَلٍ ، واحد الأَجْدال ؛ وهي أصول الشجر العظام ؛ وكانت العرب إذا جَرَبَت الإبل نصبت لها جَذَلاً في باطن الوادي تحتك فيه ، فلذلك قال جُذِلْتُهَا مُحَكَّكٌ ، أراد أنه يُسْتَشْفَى برأيه ، كما تستشفى الإبل بالحك في ذلك الجَذَل ؛ والعَدْتُ بفتح العين النخلة يحملها ؛ وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناءً يمنعها من السقوط ، فذلك هو الترجيب ؛ أراد أنه كريم في قومه عزيز عليهم . وما ذكرته في المفارقة بين السيف والقلم أيضاً على لسان السيف وهو : "فالشَّمْسُ من شُعاعِي في نَجَلٍ ، واللَّيْلُ من ضَوْئِي في وَجَلٍ ؛ وما أَسْرَعْتُ في طَلَبِ ثَارٍ إِلا قِلَ فَاتٍ ما دُئِجَ ، وسَبَقَ السَّيْفُ العَدْلُ" . ففي القرينة الأخيرة مثلان أحدهما "فات ما دُئِجَ" وهو مثل يضرب لمن طلب الشيءَ بعد قَوَاتِهِ ، وأصله أن بعض الملوك رأى مع أعرابي بازياً ، فأعجبه فأرسل في طلبه قاصداً ، فاتى الأعرابي ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فدُئِجَ البازي وطبخه وقدمه إليه ، غير عالم بقصده ؛ فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابي

(١) في الأصل هذين المثليين ولعله سبق قلم من النسخ .

أمر البازي وما كان من طلب الملك له ، فقال ”فات ماذبح“ إنك أتيتني ولم يكن عندى ما أضيفك به ، فذبحت البازي وطبخته ؛ وهو الذى قدمته إليك .
والمثل الثانى ”سَبَقَ السَيْفُ الْعَدْلَ“ وهو مثل لمن يلوم على فعل شئ بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حلَّ من الأمثال الواردة نظماً ، وأسعمل فى النثر ، قول القاضى شهاب الدين ابن فضل الله فى ”التعريف“ فى وصية أمير مكة المعظمة أيضاً فى الوصية على وفود الحجيج : ”وكل هؤلاء إنما يأتون فى ذِمَامِ الله بيته الذى من دخله كان آمناً ، وإلى محل ابن بنت نبيّه الذى يلزمه من طريق رِّ الضيف ما أخذ لهم ، وإن لم يكن ضامناً ؛ فليأخذ بمن أطاع من عصى ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد ، فإن العبد لا يردعه إلا العصا ، فقوله فإن العبد لا يردعه إلا العصا يشير به إلى قول ابن دريد فى مقصورته .

وَاللَّوْمُ لِلْحُرِّ مُقِيمٌ رَادِعٌ * وَالْعَبْدُ لَا يَرُدُّهُ إِلَّا الْعَصَا

وقد أشهر النصف الثانى من هذا البيت حتى جرى مجرى المثل ولعله كان مثلاً سائراً قبل أن ينظمه ابن دريد .

ومنه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من توقيع بنظر مدرسة بعد أن قدم أن أهلها رفعوا قصصهم فى طلب ذلك الناظر : ”وكيف لا وهو نعم الناظر والإنسان ، وفى مصالح القول والعمل ذو اليمين واللسان ، وذو العزائم الذى تقيدت فى حبه الرتب ومن وجد الإحسان“ يريد البيت المشهور :

* وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قِيدًا تَقِيدًا *

وقد أتى فيه بالأكتفاء ، فزاد فى كلامه حسناً وطلاوة .

وأعلى منه وأوقع فى النفوس قوله بعد ذلك فى التوقيع المذكور ”فاقتضى علو الرأى أن يجاب فى طلبه إليهم سؤال القوم ، وأن يتصل أمس الإقبال باليوم ؛ وأن

يَعْرُب ، بن يَسْجُب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام
 ابن تَارح ، وهو آزر ، بن أَرْغُو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أَرْفَخْشَد ، بن سام ، بن نوح عليه
 السلام ، ابن يرد ، بن مهليل ، بن قين ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .
 قال النووي : ”والإتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده
 إلى آدم طريق صحيح“ وفيما بعد عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ،
 قال القضاة في ”عيون المعارف في أحكام الخلائف“ وقد روى أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال ”لَا تُجَاوِزُوا مَعَدَّ بنَ عَدْنَانَ ، كَذَبَ النَّسَابُونَ ، ثُمَّ قرأوا وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ
 كَثِيرًا ولو شاء أن يُعَلِّمَهُ لَعَلَّمَهُ“ قال : والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضي
 الله عنه .

المقصد الثاني

(في أنساب العرب ؛ وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(في أمور تجب معرفتها قبل الخوض في النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك من يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهري ”العرب
 جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سُكَّانُ البادية ، والنسبة إلى العرب
 عَرَبِيٌّ ، وإلى الأعراب أعرابيٌّ“ والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن
 الأعراب نوع من العرب ، ثم اتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عَرَبِيَّةٌ وَمُسْتَعَرَبَةٌ .
 فالعَرَبِيَّةُ هم العرب الأول الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها . قال

(١) في القاموس قينان بن أنوش بن شيث .

الجوهري "وقد يقال فيهم العرب العرباء". والمستعربة هم الداخلون في العربية بعد العجمية. قال الجوهري "وربما قيل لهم المتعربة". وقد اختلف في العاربة والمستعربة فذهب ابن إسحاق والطبري إلى أن العاربة هي عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعييل والمالقة وعبد ضخم وجرهم الأولى، ومن في معناهم. والمستعربة بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابرو إسماعيل كانت سريانية أو عبرانية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم كعاد ونحوهم، وتعلم إسماعيل العربية من جرهم من بني قحطان النازلين على إسماعيل وأمه بمكة. وذهب آخرون منهم المؤيد صاحب حماء إلى أن بنى قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، والذي رجحه صاحب العبر الأول.

ثم قد قسم المؤرخون العرب أيضا إلى بائدة وغيرها، فالبائدة هم الذين بادؤوا ودرست آثارهم كعاد، وثمود، وطسم، وجديس، وغير البائدة هم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك من القحطانية: كطي، ولخم، وجذام ونحوهم، ومن العدنانية كقزارة وسليم وقريش، ومن في معناهم. ثم قد عدّ الماوردي وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات:

الطبقة الأولى — الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد الذي تُنسب إليه القبائل كعدنان، ويجمع على شعوب، وسمى شعبا لأن القبائل تتشعب منه.

الطبقة الثانية — القبيلة، وهي ما أنقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، وتجمع على قبائل، وسميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها، وربما سميت القبائل بجماع.

الطبقة الثالثة حد العمارة بكسر العين، وهي ما أنقسم فيه أنساب القبيلة كقريش ومكة وتجمع على عمائر وعمارات.

الطبقة الرابعة — البطن وهي ما أنقسم فيه أنساب العمارة كبنى عبد مناف ،
وبنى مخزوم وتجمع على بطون وأبطن .

الطبقة الخامسة — الفخذ ، وهي ما أنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم ،
وبنى أمية ، وتجمع على أخخاذ .

الطبقة السادسة — الفصيلة — بالصاد المهملة — وهي ما أنقسم فيه أنساب
الفخذ كبنى العباس وبني أبي طالب ، وتجمع على فصائل ؛ فالفخذ يجمع الفصائل ،
والبطن تجمع الأخخاذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيلة تجمع العمار ، والشعب يجمع
القبائل . قال النووي وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة ، قال الجوهري "وعشيرة
الرجل رهطه الأدنون" وحكى أبو عبيدة عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب
على القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم الفخذ ، فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها
بعد القبيلة ، والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور على
الألسنة من الطبقات الست المذكورة القبيلة ، ثم البطن ، وقيل أن تذكر العمارة
والفخذ والفصيلة ، وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحى ، إما بالعموم مثل
أن يقال حى من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان .

ومما يجب على الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأول — قال الماوردى إذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمار
قبائل ؛ يعنى وتصير البطون عمار ، والأخخاذ بطونا ، والفصائل أخخاذا ، والحادث من
النسب بعد ذلك فصائل .

الثانى — قد ذكر الجوهري أن القبيلة هم بنو أب واحد ، وقال ابن حزم جميع
قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل : وهى تنوخ ، والعنق ، وغسان

فإن كل قبيلة منهم مجتمعة من عدة بطون ، وذلك أن تتوخا أسم لعشر قبائل
اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فُسُمُوا بَتَنُوخ أخذوا من التَّنُوخ وهو المَقَام ، والعُق جمع
اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم فظفر بهم فأعتقهم فُسُمُوا بذلك . و غَسَّان
عدة بطون من الأزْد نزلوا على ماء يسمى غَسَّان فُسُمُوا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من
قومه بأن يُشهر اسمه بهم لرياسة ، أو شجاعة ، أو كثرة ولد ، أو غيره فُنُسِبَ بِنُوه
وسائر أعقابه إليه ؛ وربما أنضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته
ونحوهم ، فيقال فلان الطائي ، فإذا أتى من عقبه من أشهر منهم أيضا بسبب من
الأسباب المتقدمة نُسِبَت إليه بِنُوه ، وجعلت قبيلة ثانية ؛ فإذا اشتمل النسب على
طبقتين فأكثر كهاشم ، وقريش ، ومُضَر ، وعدنان ، جاز لمن في الدرجة الأخيرة من
النسب أن يُنسب إلى الجميع : فيجوز لبني هاشم أن يُنسبوا إلى هاشم ، وإلى
قريش ، وإلى مضر ، وإلى عدنان : فيقال في أحدهم الهاشمي ، والقُرشي ، والمُضري ،
والعدناني ؛ بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تغني عن النسبة إلى الأسفل
فإذا قلت في النسبة إلى كلب بن وَبَرَة الكَلبيّ استغنيت أن تُنسبه إلى شيء من
أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع في النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى .
ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى : مثل أن يقال القرشيّ العدويّ وبعضهم
يرى تقديم السفلى على العليا ، فيقال العدويّ القرشيّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والمؤالة فينسب إليهم : فيقال
فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

الخامس — إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى ، جاز أن ينسب

إلى قبيلته الأولى، وأن ينسب إلى القبيلة الثانية التي دخل فيها، وأن ينسب إليهما جميعا مثل أن يقال التيميّ ثم الوائليّ، أو الوائليّ ثم التيميّ وما أشبه ذلك .

السادس — القبائل في الغالب تسمى باسم أبي القبيلة : كربيعة ومُضَرَ، والأَوْس والخَزْرج، وما أشبه ذلك . وقد تسمى القبيلةُ باسم الأم : تَحْدَف، وبِجِيلَة ونحوهما ؛ وقد تسمى باسم خاصّةٍ خَصَّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب على القبيلة لحدوث سبب كغَسَّانَ ، حيث نزلوا على ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع — أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب :

أولها — أن يطلق على القبيلة لفظ الأب كعاد، وثمود، ومَدْيَن، ومَنْ شاكلهم ؛ وبذلك ورد القرآن الكريم (وإلى عادٍ . وإلى ثمودَ . وإلى مَدْيَنَ) يريد بني عاد، وبني ثمود، وبني مَدْيَنَ ، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام بخلاف البطون والانفخاذ .

وثانيها — أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك في البطون والانفخاذ .

وثالثها — أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوهما ؛ وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها — أن يعبر عنها بآل فلان : كآل ربيعة، وآل فضل، وآل مُرّة، وآل على ، وما أشبه ذلك ؛ وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة، لاسيما في عرب الشام في زماننا . والمراد بالآل الأهل .

وخامسها — أن يعبر عنها بأولاد فلان؛ ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين من
أنحاذ العرب على قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قُريش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يتخاطونه
ويُجاورونه ؛ إما من الحيوان المفترس كأسد، ونمر؛ وإما من النبات كنبت ،
وحنظلة؛ وإما من الحشرات كحبة، وحش؛ وإما من أجزاء الأرض كنفهر، وصخر
ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككلب، وحنظلة،
ومرّة، وضرار، وحرب، وما أشبه ذلك ؛ وتسمية عبيدهم بحبوب الأسماء : كفلاح
ونجاح، ونحوهما. والمعنى في ذلك ما حكى أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي^(١) : لِمَ تُسَمُّونَ
أبناءكم بِشَرِّ الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟
فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء مُعدّة للأعداء
فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد مُعدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان في القبيلة آسمان متوافقان : كالحارث والحارث ، وأحدهما
من ولد الآخر أو بعده في الوجود عبّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر، وعن
الولد أو المتأخر منهما بالأصغر؛ وربما وقع ذلك في الأخوين إذا كان أحدهما أكبر
من الآخر .

المهيع الثاني

(في معرفة تفاصيل أنساب العرب)

وأعلم أن العرب على قسمين :

(١) أهمله في الأصل وصوابه الإجماع .

القسم الأول

(العرب البائدة)

وهم الذين بادؤوا ، ودرست آثارهم ، وأتقطعت تفاصيل أخبارهم إلا القليل ؛
والمشهور منهم قبائل :

القبيلة الأولى — عاد ؛ وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه
السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان : من البحرين إلى حضرموت
والشحر ؛ وهم الذين بعث الله تعالى إليهم هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم
بالريح كما ورد به القرآن الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود ، وهم بنو ثمود بن جاث ، (ويقال كاث بالكاف بدل الجيم)
ابن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت منازلهم بالجحر ووادى القرى ، بين
الحجاز والشام ؛ وكانوا يَنْحِتُونَ بُيُوتَهُمْ من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله
تعالى إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا ، فأهلكهم الله بصيحة من السماء كما ورد به
القرآن الكريم .

القبيلة الثالثة — العَمَلقة ، وهم بنو عَمَلِيق ، (ويقال عَمَلِاق) بن لاوذ بن إرم بن
سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يُضْرَبُ بِهِم المثل في الطول والجثمان . قال الطبري
وتفرقت منهم أمم في البلاد ، فكان منهم أهل عُمان ، والبحرين ، والحجاز ، وملوك
العراق ، والجزيرة ، وجبارة الشام ، وفراعنة مصر .

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طَسم . قال ابن الكلبي وهم بنو طسم
ابن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . وذكر الجوهرى أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلهم الأحقاف باليمن . وذكر في "العبر" أن ديارهم كانت باليمامة ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جديس الآتي ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جديس وهم بنو جديس بن إرم بن سام بن نوح .
وقال الطبري جديس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت مساكنهم بجوار طسم المقدم ذكرهم ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عبد ضخم ، وهم بنو عبد ضخم بن إرم بن سام بن نوح .
قال في "العبر" : كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أول من كتب بالخط العربي .

القبيلة السابعة — جرهم الأولى . قال ابن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا على عهد عاد فبادوا .

القبيلة الثامنة — مدين ، وهم بنو مدين بن إبراهيم عليه السلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائل وشُعوب ؛ وكانت ديارهم ديار عاد وأرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبا من عشيرة قوم لوط^(١) بعث الله إليهم شعيبا فلم يؤمنوا .

القسم الثاني

(من العرب الباقية أعقابهم على تعاقب الزمان)

وأكثر من تدعو حاجة الكاتب إلى معرفته من بقي أعقابه منهم متفرقة في أقطار الأرض إلى الآن ، وهم على ثلاثة أضرب :

(١) في سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنه .

الضرب الأول

(العرب العاربة)

قال الجوهري : ويقال فيهم العرب العرباء، وهم بنو قحطان، بن عابر، بن شالخ
ابن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن . والمشهور منهم شَعْبَان .

الشَّعْبُ الأول — جُرْهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهاء) وهم بنو جُرْهم بن
قحطان، وهم غير جُرْهم الأولى المقدم ذكرها في جملة العرب البائدة .

وكانت منازلهم أولاً اليمن، ثم آتتقلوا إلى الحجاز فزلوه، فأقاموا به حتى كان من
نزول لإسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فزلوا عليه بمكة، وآستوطنوها على
ما سيأتي ذكره في الكلام على العرب المستعربة إن شاء الله تعالى .

الشَّعْبُ الثاني — يَعْرُب، وهم بنو يعرُب بن قحطان المقدم ذكره . ويقال إن
العرب إنما سُميت عَرَبًا به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسلوا
فَوُلِدَ لَهُ يَشْجُب، وَوُلِدَ يَشْجُب سَبَأً، ومنه تفرعت جميع قبائلهم .

ومرجع المشهور فيه إلى قبيلتين :

القبيلة الأولى — حَمِير وهم حَمِير بن سبيل (بكسر الحاء وأسمه العَرَنَجَج) . وقد ذكر
ابن الكلبي : أنه كان لحَمِير عشرة أولاد من عَقِبِه وكان غالبٌ وجُلُّ قبائل حَمِير من
أَبْنَيْهِ : الهميسع، ومالك ملوك اليمن؛ وكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما
حولها . ولحمير بقايا موجودة إلى الآن، ومنه غالب قبائل قُضَاعَة، ومنه غالب
قبائل حمير، وهو قُضَاعَة، بن مالك، بن عمرو، بن مُرَّة، بن زيد، بن مالك، بن حَمِير؛
وقيل قُضَاعَة بن مالك بن حمير . وذهب بعض النسابة إلى أن قُضَاعَة من العدنانية
الآتي ذكرهم . قال السهيلي : والصحيح أن أم قُضَاعَة (وهي جكرة) مات عنها مالك

أَبْنُ حَمِيرٍ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَتَرَوُجَهَا مَعْدُنَ بْنَ عَدْنَانَ ، فَوُلِدَتْ قُضَاعَةً عَلَى فَرَاشِهِ فَتَبْنَاهُ
فَنُسِبَ إِلَيْهِ . قَالَ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاهُ : ”وَكَانَ قُضَاعَةُ مَالِكًا لِبِلَادِ الشَّحْرِ وَقَبْرُهُ يَجِبَلُ
الشَّحْرِ مَوْجُودٌ“ . وَلِقُضَاعَةُ بَقَايَا إِلَى الْآنَ يَنْسَبُ إِلَيْهِمْ ، وَإِلَيْهِمْ يُنْسَبُ الْقُضَاعِيُّ
الْمِصْرِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ ”الشَّهَابِ فِي الْمَوَاعِظِ وَالْآدَابِ“ فِي الْحَدِيثِ ، وَخَطَطَ مِصْرَ
وغيرهما .

والمشهور من قضاة سبعة أحياء :

الحَيَّ الْأَوَّلُ — بَلَى (بفتح الباء) وهم بنو بَلَى ، بن عمرو ، بن الحَافِي ، بن قُضَاعَةَ ،
ولهم بَقَايَا بِالْأُيُودِ الْمِصْرِيَّةِ بِصَعِيدِهَا الْأَعْلَى ، مِنْهُمْ بَنُو نَابٍ وَغَيْرُهُمْ ، وَبَقَايَا بِالْمَجَازِ
وغيرهما ، وَالنَّسَبَةُ إِلَيْهِمْ بَلَوِيٌّ بِزِيَادَةِ وَآوْ مَكْسُورَةٍ قَبْلَ يَاءِ النَّسَبِ .

الحَيَّ الثَّانِي — جُهَيْنَةُ (بضم الجيم وفتح الهاء والنون) ، وهم بنو جُهَيْنَةَ ، بن زَيْدٍ ،
أَبْنُ لَيْثٍ ، بن سُودٍ ، بن أَسْلَمٍ ، بن الحَافِي ، بن قُضَاعَةَ ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَهُمْ بَقَايَا
بِبِلَادِ الصَّعِيدِ مِنَ الْأُيُودِ الْمِصْرِيَّةِ وَبِالْمَجَازِ وَغَيْرِهِمَا . وَالنَّسَبَةُ إِلَيْهِمْ جُهَيْنِيٌّ بِمَحْذَفِ
الْيَاءِ بَعْدَ الْهَاءِ .

الحَيَّ الثَّلَاثَ — كَلْبٌ ، وهم بَنُو كَلْبٍ ، بن وَبَرَةَ ، بن ثَعْلَبَةَ ، بن حُلْوَانَ ، بن عِمْرَانَ ،
أَبْنُ الْحَافِي ، بن قُضَاعَةَ ، وَمِنْهُمْ حَارِثَةُ الْكَلْبِيِّ أَبُو زَيْدٍ بنِ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ صَاحِبُ حِمَاهُ : وَكَانَ بَنُو كَلْبٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَزَلُّونَ دُومَةَ الْجَنْدَلِ ، وَتَبُولُكَ ،
وَأَطْرَافَ الشَّامِ . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : وَمِنْهُمْ الْآنَ خَلَقَ عَظِيمٌ عَلَى خَلِيجِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ
مُسْلِمُونَ . قَالَ فِي «مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ» : وَبَشِيرَ ، وَحَلَبَ وَبِلَادَهَا ، وَتَدْمُرَ ، وَالْمَنَاظِرَ
أَقْوَامَ مِنْهُمْ ، وَالنَّسَبَةُ إِلَيْهِمْ كَلْبِيٌّ .

الحَيَّ الرَّابِعَ — عُدْرَةُ (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عُدْرَةَ

(١) ابن سعيد، بن هُذيم، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافي، بن قضاة، وإلى عُذرة هؤلاء ينسب العشق والتيم؛ ومنهم عُروة بن حزام صاحب عَفراء أحد المتيِّمين وجميل صاحب بُثينة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم : ما بال العشق يقتلكم يا بنى عُذرة ؟ قال لأن فينا جمالا وعِفَّة : وقيل لآخر منهم : ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضَعْف فيكم يا بنى عُذرة — فقال : أما والله ! لو رأيتم النواظر الدُّعج ، تحتها المَبَاسِمُ الفُجج ، فوقها الحَوَاجِبُ الرُّجج ، لاتخذتموها اللَّات والعُزَّى ؛ ولهم بقايا بالدَّقْهَلِيَّة والمُرْثَاحِيَّة من الديار المصرية ، وبقايا بالشام أيضا .

الحى الخامس — بهراء (بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة) ، وهم بنو بهراء ، بن عمرو، بن الحافي : بن قُضاة ؛ ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، منهم المقداد بن الأسود، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالد بن برمك من آل بهراء . قال في العبر : وكانت منازلهم شمالي منازل بلّ من الينبع إلى عقبة أيلة ، ثم جاور بحر القُزُم منهم خلق كثير ، وأنشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر، وكثروا هناك ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحى السادس — بنو نهد، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافي، بن قُضاة ؛ وكانت منازلهم باليمن ، وإليهم كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه المشهور ؛ وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مشاهير نهد الصَّقْعَب ؛ قال صاحب حماه : وكان رئيسا في الإسلام .

(١) في القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشي تحضن سعدا فتنسب إليه وإلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدا له كما قد يتوهم من العبارة فتنبه .

الحى السابع — جَرَمٌ، وهم بنو جَرَمٍ وأسمه عِلَافٌ، بن زَبَّانَ، بن حُلُوانَ، بن عِمْرانَ،
 ابن الحافى، بن قُضَاعَةَ . قال الحمدانى : ومنهم بنو جُشَمَ، وبنو قُدَامَةَ، وبنو عَوْفٍ .
 قال فى العبر : ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . قلت وهم القاضى ولى
 الدين بن خلدون فجعلهم هم الذين ببلاد غَزَّةَ ، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طيئ
 لا جرم قُضَاعَةَ . وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تَنُوحَ (بفتح التاء المثناة فوق
 وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهري : ولا تشدد نونه ، والتحقيق
 ما قاله أبو عبيد : أنهم ثلاثة أبطن من القحطانية زَرَارَ، والأحلاف^(١) . قال : وسُمُوا بذلك
 لأنهم حلفوا على المقام بمكان بالشام والتَنُوحَ المقام . قال ابن سعيد : ومن الناس
 من يطلق تَنُوحَ على الضَّجَاعَةِ، ودَوَسَ الذين تَنُوحُوا بالبحرين . قال صاحب
 حماه : وكان بينهم وبين التَّحَمِيمِينَ ملوك الحيرة حروب ؛ ولتَنُوحَ بقايا بالمعرة من بلاد
 الشام فيما ذكره الحمدانى .

القبيلة الثانية — من القحطانية كَهْلَانُ (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو
 كَهْلَانَ بن سبأ . قال أبو عبيد : وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كَهْلَانَ ،
 وكانوا متداولين الملك باليمن مع بنى حمير، انفرد بنو حمير بالملك، وبقيت بطون كهلان
 على كثرتها تحت ملكهم . قال فى العبر : ثم تقاصر ملك حمير وبقيت الرياسة على
 العرب بالبادية لبني كَهْلَانَ، وهم أحياء كثيرة .
 والمشهور منهم أحد عشر حياً :

الحى الأول — الأزْدُ (بفتح الهمزة وسكون الزاى وبالذال المهملة) ، قال
 أبو عبيد : ويقال بالسين بدل الزاى . قال الجوهري : بالزاى أفصح ، وهم بنو
 الأزْدِ، بن الغوث، بن نَبْتٍ، بن مالك، بن أدَدَ، بن زيد، بن كهلان، وهم من أعظم
 الأحياء وأكثرهم بطونا . وقد قسّم الجوهري الأزْدَ إلى ثلاثة أقسام :

(١) أى أسد وغطفان فهما آثنان وزار الثالث .

أحدهما - أزدُ شُوءة، وهم بنو نصر بن الأزد، وشُوءة لقب لنصر غلب على بنيهِ .
الثنائي - أزد السُّرَّة، بإضافة أزد إلى السُّرَّة (بالسين المهملة)، وهو موضع
بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعُرفوا به .

الثالث - أزدُ عَمَّان بإضافة أزد إلى عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)^(١)،
وهي مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعُرفوا بها . وللأزد بقايا ببلاد الشام بزُرْع
وَبُصْرَى فيما قاله في "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة
ونون في الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بَنُو جَفْنَةَ، والحارث وهو مُحَرَّق، وثعلبة وهو
العنقاء^(٢)، وحارثة، ومالك، وكعب، وخارجة، وعوف بن عمرو، بن عامر ماء السماء،
ابن حارثة الغطريف، بن أمريء القيس البَطْرِيق ويقال البهلُول، ابن ثعلبة، بن
مازن، بن الأزد، وإنما سُموا غسان لماء نزلوا عليه اسمه غَسَّان فشربوا منه فسُموا
به . قال في العبر : وهو على القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفي ذلك يقول
بعض الأنصار :

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعَشَرٌ نَجَبٌ * الْأَزْدُ نَسَبُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان ملُك العرب بالشام بعد سَليح المقدم ذكرهم إلى أن كان
آخِرهم جَبَلَةُ بن الأيهم الذي أسلم في زمن عمر ثم أرتد، ولحق ببلاد الكُفَر . وقد
ذكر في «مسالك الأبصار» أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبلقاء واليرموك وحمص . ومنها
الأوس والخزرج أبنا حارثة، بن ثعلبة، بن عمرو مزيقياً، بن عامر ماء السماء، بن حارثة
الغطريف، بن أمريء القيس البَطْرِيق، بن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد، وكانت منازلهم

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهري بالقلم والقاموس أيضاً وضبطه شارحه بالعبرة . فقال :
كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضاً أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فخر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع في الأصل بالثناة وهو تصحيف .

يَثْرِبَ ، ومنهم كانت أنصارُ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم بقايا كثيرة متفرقة بالمشرق والمغرب . وقد ذكر الحمداني : أن منهم جماعةً بَمَنْقَلُوطٍ من صعيد مصر من عَقِبِ حَسَّانَ بن ثابت ، وسعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنهما .

الحى الثاني — من كهلان طيٍّ (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذنا من الطاعة على وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المرعى ، وهم بنو طيٍّ ، بن أدَدَ ابن زيد ، بن يَشْجَب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلان ، والنسبة إليهم طائى ، وإليهم ينسب حاتم الطائى المشهور بالكرم ، وأبو تمام الطائى الشاعر المشهور ، وهم كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم باليمن نخرجوا منها على إثر خروج الأزد عند تفرقهم بسيل العَرم ، فزلوا بَنَجْدَ والمجاز على القُرب من بنى أسد ، ثم غلبوا بنى أسد على جبلى أَجَا وسَلْمَى من بلاد بَنَجْدَ ، فزلوها فعرِفاً بيجلى طيٍّ إلى الآن ، ثم أفرقوا فى أول الإسلام زمنَ الفُتُوحات فى الأقطار ، ولهم بطون كثيرة . منهم ثعل (بضم) الثاء المثناة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثعل ، بن عمرو ، بن القُوث ، ابن طيٍّ . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد النخيل .

ومنها جَدِيلَةُ (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر) ، ذكرهم الجوهري ولم يرفع نسبهم ، ثم قال : وَجَدِيلَةُ أُمُّهُمْ عَرَفُوا بِهَا : وهى جَدِيلَةُ بنت سُبَيْع بن عمرو من حمير .

ومنها نَبْهان (بفتح النون وسكون الباء الموحدة ونون بعد الألف) ، وهم بنو نَبْهان ، واسمه سُودَانُ ، بن عمرو ، بن القُوث ، بن طيٍّ .

ومنها بُولَانُ (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بُولَانُ ، واسمه غُصَيْنُ ، بن عمرو ، بن القُوث ، بن طيٍّ . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

لأنهم وضعوا الخط العربي على ما سيأتى ذكره في الكلام على الخط فيما بعد
إن شاء الله .

ومنها هِئَاء، وهم بنو هِئَاء، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنهم إياس بن قبيصة الذى ملك بعد النعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والdal المهملتين وسين مهملة في الآخر)، وهم بنو
سُدُوس بن أصمَع من بنى سعد، بن نَبْهَان، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنهم جعفر بن عَطِيَّة الذى يقول :

مَدَحْتُ نَسِيبِي جَعْفَرًا إِنْ جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاهَ النَّدى وَأَنَا مِلهُ

ومنها سَلَامَانُ (بفتح السين المهملة ونون في الآخر)، وهم بنو سَلَامَان، بن ثَعْل،
أبن الغوث، بن طيء .

ومنها بُحْتَرُ (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء
مهملة في الآخر)، وهم بنو بُحْتَر، بن عَتُود، بن عُثَيْر، بن سَلَامَان، بن ثَعْل،
أبن عمرو، بن الغوث، بن طيء؛ منهم أبو عُبَادَةَ البحرى الشاعر الإسلامى المشهور.

ومنها زُبَيْدُ (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وdal مهملة
في الآخر)، وهم بنو زُبَيْد، بن مَعْن، بن عمرو، بن عُثَيْر، بن سَلَامَان، بن عمرو، بن
الغوث، بن طيء . قال ابن سعيد : وزُبَيْد هؤلاء هم الذين يبرية سنجار من الجزيرة
الفراتية، وهم الذين ذكرهم المقر الشهابى بن فضل الله، وسماهم زُبَيْد الأَحلاف .

ومنها سُنُبُسُ (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة
في الآخر) وهم بنو سُنُبُس بن معاوية، بن جَرُول، بن ثَعْل، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدي في سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر في القاموس أنه بالكسر وكذلك هو
في الصباح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طيئ. وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بشغردمياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميين، وعدت منهم ثلاثة بطون: وهم الخزاعلة، وعبيد، وجموح. والإمرة في زماننا هذا فيهم، في الخزاعلة، في بني يوسف بمدينة سحنا من الأعمال الغربية. قال الحمداني: ومنهم طائفة بالبطائح من بلاد العراق.

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم في الآخر)، وهم بنو ثعلبة بن عمرو، بن الغوث، بن طيئ. وقال الحمداني جرم آسم أمه غلب عليه: وهي جرم بنت الغوث ابن طيئ؛ وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غزّة من البلاد الشامية. قال الحمداني: وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد، دخلت طائفة منهم مصر، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غزّة. وقد ذكر الحمداني منهم ثلاثة بطون: وهم شمجان، وقران، وجيان. ثم قال: والمشهور من جرم الآن جديمة؛ ويقال إن لهم نسبا في قریش؛ وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم، وقيل بل من جديمة بن مالك، بن حنبل، بن عامر، بن لؤي، بن غالب، بن فيهر. ثم قال وجديمة هؤلاء هم آل عوسجة، وآل أحمد، وآل محمود. ثم قال: ومنهم أسلم، وشبل، ورضيعة، ونيور، والقذرة، والأحامدة، والرفثة، وكور، وموقع. ومنهم من بنى غوث العاجلة، والعبادلة، وبنو تمام، وبنو جميل، وبنو مقدم، وآل نادر. ومنهم من بنى غوث بنو بها، وبنو خولة، وبنو هرماس، وبنو عيسى، وبنو سهيل؛ وأرضهم الداروم؛ وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببني فهد. ثم اختلطوا بهم.

ومنها ثعلبة، وضبطه معروف؛ وهم بنو ثعلبة بن سلامان، بن ثعل؛ بن عمرو؛ بن الغوث، بن طيئ، وهم رعيان درما وزريق، أبني عوف بن ثعلبة، وقيل أبنا ثعلبة وآسم درما عمرو، ودرما آسم أمه غلب عليه. قال الحمداني: وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد آتتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بطون درما سلامة، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابل، والمرانة، والحياثيون؛ ومن بطون زريق بها بنو وهم الطليحيون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصاحفة؛ ومن بني زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُموت، والروايات، والنمورة، والشمخيون، والسَّعالي، والرمالي، والمعامرة، والسَّنديون، والبجاجة، والعقيليون، والمساهرة، والمعافرة؛ ومنهم أيضا العليميون . قال الحمداني: وكان مقدّمهم قديما عمرو بن عسيلة أمّمر بالبوق والعلم . ومن العليمين القمعة، والرياحين، والغوفة . قال الحمداني: وكان فيهم رجال ذوو ذكرونباهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا . ومنهم من أمّمر بالبوق والعلم . ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرية .

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاي وتشديد الياء المثناة تحت وهاء في الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أفلت، بن ثعل، بن عمرو، بن سلامان، بن ثعل، بن عمرو، بن القُوث، بن طيء . قال الحمداني: وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز . قال في العبر: وفيهم الإمارة في العراق إلى الآن ولهم صولة عظيمة . وهم بطون كثيرة: فمن بطونهم البطين، وأنخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود . ومن بطونهم الأجود وأنخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبي الحزم، وآل علي، وآل عقيل، وآل مسافر . هذا ما ذكره الحمداني . وزاد في مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقي، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبني جميل، وآل أبي مالك . قال في "المسالك": "وديار

آل أجود منهم الرخيمية، والرقي، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكن، واليحموم، والأم، والمعينة. ويلهم مساعدة. وديارهم من الحضر إلى بركة زرود، إلى سقارة، إلى البقعاء، إلى التيب، إلى الساسة، إلى حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طريف، بن عمرو، بن بجيلة، بن مالك، بن جدعاء، بن دهل، بن رومان، بن جندب، بن خارجة، بن سعد، بن قطرة، بن طيء. قال ابن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمداي: ديارهم جبل أجا وسلمى. ثم قال وظفير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دغفل، بن جراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حرب، بن السكّن، بن ربيع، ابن علق، بن حوط، بن عمرو، بن خالد، بن معبد، بن عدى، بن أفلات، بن سلسلة، بن غم، بن ثوب، بن معن، بن عتود، بن عنيز، بن سلامان، بن ثعل، بن عمرو، بن القوث، ابن طيء. قال في "مسالك الأبصار": وتقول بنو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بن خالد، بن برمك من العباسة بنت المهدي، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يحضر مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه في تزويجها ليحلّ له نظرها لأجتماعهما مجلسه فعقد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها على حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون في نسبه إنه ربيعة بن سالم، ابن شبيب، بن حازم، بن علي، بن جعفر، بن يحيى، بن خالد، بن برمك، ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

(١) في العبر ابن معبد بن عمرو.

لأنهم من سلسلة بن عُنَيْز، بن سلامان، بن طي، وهم كرام العرب وأهل البأس
والنجدة، والبرامكة وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجم وشتان بين العرب والعجم؛
وقد شرف الله تعالى العرب أن بعث منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه،
وجعل فيهم الخلافة والملك، وأبترَّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأستهم تاج كسرى
وقيصر، وكفى بذلك شرفاً لا يُطَاوَل، ونغراً لا يُتَنَاوَل. وذكر في "التعريف" نحوه
قال في العبر: وكانت رياسة طي في أيام الفاطميين لبني الجراح، ثم صارت لآل
ربيعة. قال الحمداني: وكان ربيعة هذا قد نشأ في أيام الأتابك زنكي وأبنته نورالدين
الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولد له أربعة أولاد: وهم فضل، ومرا،
وثابت، ودغفل، ومنهم تفرَّعت بطون آل ربيعة. ثم المشهور من آل ربيعة الآن
ثلاثة بطون: وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علي: قال فضل هم بنو فضل بن ربيعة
وآل مرا بنو مرا بن ربيعة. وأما آل علي فمن آل فضل، وهم بنو علي بن حديثه، بن
عُقبة بن فضل المتقدم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضاً بعد ذلك بيوتاً أرفعها قدراً
بيت عيسى بن مُهَنَّأ، بن مائع، بن حديثه، بن عقبة، بن فضل. قال في "مسالك
الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل. قال: ثم صار آل عيسى بيوتاً، بيت
مهنا بن عيسى، وبيت فضل بن عيسى، وبيت حارث بن عيسى، وبيت محمد
أبن عيسى، وبيت هبة بن عيسى. وسيأتي الكلام على تقسيم الإمرة فيهم في الكلام
على عرب الشام في المسالك والممالك إن شاء الله.

الحى الثالث — من كهلان مَذْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء
المهمله وجيم فى الآخر)، وهم بنو مَذْحِج وأسمه مالك، بن أدَد، بن زيد، بن يَشْجُب،
أبن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرى: مَذْحِج

أَبْنُ يُحَارِ، بن مالك، بن زيد، بن كهلان. وقد ذكر الحمداني: أنهم إنما سَمُوا مَذْحِجَ لشجرة تحالفوا عندها أسمها مَذْحِج، فُسَمُوا بِأَسْمِهَا. ثم لمذحج بطون كثيرة:

منها خَوْلَان، (بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف)، وهم بنو خَوْلَانَ بن مالك، وهو مَذْحِج وإليهم ينسب أبو إدريس الخَوْلاني. قال في العبر: وبلاد خَوْلَانَ في بلاد اليمن من شرقيها، قال: وقد آفَترَقوا في الفتوحات، وليس منهم اليوم ذرية إلا باليمن؛ ثم قال وهم غالبون على أهلها.

ومنها جَنْب (بفتح الجيم وسكون النون وباء موحدة في الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه، والحارث، والغلي، وسبحان، وشمران، وهفان بن يزيد، بن حرب، بن عَلَّة، ابن جَلَد، بن مَذْحِج. قال أبو عبيد: وُسَمُوا بِجَنْب لأنهم جانبوا عَمَّهم صُدَاءَ، وحالفوا سعد العشيرة، وحالفت صُدَاءُ بنى الحارث بن كعب. ومن جَنْب معاوية الخير الجنبى صاحب لواء مَذْحِج في حرب بني وائل.

ومنها سعد العشيرة، وهم بنو سعد العشيرة بن مَذْحِج، وُسِّمَ بذلك لأنه لم يمت حتى ركب معه من ولده وولده ثلثائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتى دفعا للعين عنهم، فقبل له سعد العشيرة. ثم من بطون سعد العشيرة أَوْذ (بفتح الهمزة وسكون الواو وذال معجمة في الآخر)، وهم بنو أَوْذ بن صَعْب بن سعد العشيرة، وإليهم ينسب الأفوه الأوذى الشاعر المشهور. ومن بطون سعد العشيرة أيضا جُعْفَى (بضم الجيم وسكون العين المهملة وكسر الفاء وياء مثناة تحت في الآخر) وهم بنو جُعْفَى بن سعد العشيرة والنسبة إليهم جُعْفَى على مثل لفظه، وإليهم ينسب الإمام البخارى بالمؤالاة، فيقال الجُعْفَى مولاهم. ومن بطون سعد

(١) صوابه ودال مهملة أنظر القاموس وشرحه في مادة أود على أنه لم توجد مادة أود بالمعجمة فبا بأدينا من المعاجم فتنه.

العشيرة زُبَيْدُ (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة في الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعرف زُبَيْدُ هؤلاء زُبَيْدُ الأكبر، وهم زُبَيْدُ الحجاز. قال في مسالك الأبصار: وعليهم دَرَكُ الحاج المصري من الصَّفرَاءِ إلى الجحفة ورايح. ومن زُبَيْدُ هؤلاء بطنٌ تعرف زُبَيْدُ الأصغر، وهم بنو مُنَبِّه الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْدُ هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

ومنها النَّخَعُ (بفتح النون وسكون الخاء المعجمة وعين مهلة في الآخر) ^(١)، وهم بنو النَّخَع وأسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْج. قال أبو عبيد: وسمى النَّخَع لأنه آتَنَعَ عن قومه أى بَعْد، ومنهم الأَشتر النَّخَعِيُّ أحد تابعي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه مِصر، وكتب له بها عهداً على ماسأى ذكره فى الكلام على العهود عند ذكر الولايات فيما بعد إن شاء الله تعالى. وإليهم ينسب إبراهيم النَّخَعِيُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنَسُ (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة في الآخر)، وهم بنو عَنَس بن مَذْج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابى المشهور؛ وإليهم ينسب الأسود العنسى الكذاب، الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بخروجه فأدعى النبوة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بَلْحَارِث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كَعْب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْج. قال فى "العبر": وديارهم بنواحى نَجْرَانَ من اليمن مجاورون لبني ذُهل بن مُزَيْقِيَاء، منهم بَشِير الحارثى الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له: ما أسمك قال: أكير، قال: بل أنت بَشِير.

(١) الذى فى القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفى المصباح والنخع بفتح نين قبيلة من مَذْج فليُنظر.

الحى الرابع — من بني كهلان همدان (بفتح الهاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون) ، وهم بنو همدان ، بن مالك ، بن زيد ، بن أوسلة ، بن ربيعة ، بن الحيار ، ابن زيد ، بن كهلان ، . قال فى "العبر" : وكانت ديارهم بايمن من شرقه ، ولما جاء الإسلام تفرق من تفرق منهم ، وبقى من بقى باليمن . قال : وكانت همدان شيعه لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه عند وقوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لَهْمَدَانَ ادْخُلِي بِسَلَامٍ

قال فى "مسالك الأبصار" : وبالجبل المعروف بالطييين من الشام فرقة من همدان .
الحى الخامس — من بنى كهلان كندة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) ، وهم بنو كندة ، وأسمه ثور ، بن عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن مرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال صاحب حماة : وسمى كندة لأنه كند أباه أى كفر نعمته . قال : وبلادهم باليمن قبل حَضْرَمَوْت ، وكان لهم ملك بالحجاز واليمن ؛ ومنهم الأشعث بن قيس الصحابى المشهور ؛ ومنهم أيضا القاضى شريح قاضى على رضى الله عنه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللوى من بلاد الشام قوما ينسبون إلى كندة ، ولهم بطون منها السكون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو) ، وهم بنو السكون ابن أشرس بن كندة ؛ ومنهم معاوية بن حديج قاتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ؛ وعد منهم صاحب حماة السكاسك أيضا (بفتح السين الأولى وكسر الثانية) ، والذي ذكره أبو عبيد أنه من حمير ، وقال : هم بنو السكاسك بن واثلة بن حمير . قال الجوهري : والنسبة إلى السكاسك سكسكى ردا له إلى أصله كما ينسب إلى مساجد مسجدي .

الحى السابع - من بنى كهلان أنمار (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء
مهملة بعد الألف)، وهم بنو أنمار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نبت، بن
مالك، بن زيد، بن كهلان . ولهم بطنان - الأولى بجيلة (بفتح الباء الموحدة وكسر
الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر)، وهم بنو عبقر، والغوث،
وضهبة، وحزيمة^(١) بن أنمار، بن أراش . قال أبو عبيد : وبجيلة أهمهم، عُرِفوا بها -
وهى بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة، قال فى العبر : وكانت بلادهم فى سروات
الين والحجاز إلى تبالة . ثم أفترقوا أيام الفتح الإسلامى فى الآفاق، فلم يبق منهم
فى مواطنهم إلا القليل ، قال الجوهري : ويقال لَمنهم من العدنانية ، لأن نزار بن
معد بن عدنان وُلِدَ له مُضَرُّ وربيعة وإياد وأنمار ، وولد لأنمار بجيلة وخثعم
فصاروا إلى الين ، وإلى بجيلة هؤلاء ينسب جرير بن عبد الله البجلي ، صاحب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جميلا فائق الجمال ، حتى إنه كان يقال له
يُوسُفُ الأمة ، وفيه يقول بعض الشعراء بمدحه :

الثانية - خَتَمَ. بفتح الخاء المعجمة وسكون التاء المثناة وفتح العين المهملة
وميم في الآخر، وهم بنو خَتَم بن أنمار بن أراش المقدم ذكره ابن هُند بنت مالك

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاي كما ضبطه كذلك في سبائك الذهب .

أَبْنُ الْغَافِقِ بْنِ الشَّاهِدِ بْنِ عَدٍ ، وَفِيهِمْ مِثْلُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ الْجَوْهَرِيِّ فِي الْكَلَامِ عَلَى بَيْحِلَةَ أَنَّهُمْ مِنَ الْعَدْنَانِيَّةِ : لِأَنَّ خَنْعَمَ وَبَيْحِلَةَ يَرْجِعُونَ إِلَى أُنْمَارٍ . وَكَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ مَعَ إِخْوَتِهِمْ بَيْحِلَةَ بَسْرَوَاتِ الْيَمَنِ فَافْتَرَقُوا فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ . وَمِنْ خَنْعَمِ هَؤُلَاءِ أَكْلُبُ (يَفْتَحُ الْهَمْزَةَ وَسُكُونُ الْكَافِ وَضَمُّ اللَّامِ وَبَاءُ مُوَحَّدَةٍ فِي الْآخِرِ) ، وَهُمْ بَنُو أَكْلُبَ ، بْنِ عُفَيْرٍ ، بْنِ خَلْفٍ ^(١) ، بْنِ خَنْعَمٍ . قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَيُقَالُ إِنَّ أَكْلُبَ مِنْ رَبِيعَةَ بْنِ نَزَارٍ . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَهُمْ بَطُونَ كَثِيرَةٌ ، وَمَنَازِلُهُمْ بِبِشَّةٍ ، شَرْقِيَّ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ . وَمِنْ خَنْعَمِ أَيْضًا بَنُو مُنَبِّهٍ وَالْفُرْعِ ، وَبَنُو نَضْلَةٍ وَمَعَاوِيَةِ ، وَآلُ مَهْدِيٍّ ، وَبَنُو نَصْرٍ ، وَبَنُو حَامٍ ، وَالْوَرْدِ ، وَنَادِرٍ ، وَآلُ الصَّعَافِيرِ ، وَالشَّامِ ، وَبَلُوسٍ ، قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَمَنَازِلُهُمْ عَلَى الْقَرَبِ مِنْ بِشَّةٍ شَرْقِيَّ مَكَّةَ أَيْضًا .

الحَيُّ الثَّامِنُ — مِنْ بَنِي كَهْلَانَ جُدَامَ (بَضْمُ الْجِيمِ وَفَتْحُ الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ وَأَلْفُ ثَمِيمٍ) ، وَهُمْ بَنُو جُدَامَ ، بْنِ عَدِيٍّ ، بْنِ الْحَارِثِ ، بْنِ مُرَّةٍ ، بْنِ أَدَدٍ ، بْنِ زَيْدٍ ، أَبْنُ يُشْجُبَ ، بْنِ عَرِيبٍ ، بْنِ زَيْدٍ ، بْنِ كَهْلَانَ ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ : وَجَعَلَهُمْ صَاحِبُ حِمَاةٍ فِي تَارِيخِهِ مِنْ وَلَدِ عَمْرُو بْنِ سَبِيحٍ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ ، وَتَزَعُمُ نِسَابَةُ مُضَرٍّ أَنَّهُمْ مِنْ مُضَرِّيَعَيْنِ مِنَ الْعَدْنَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُمْ أُنْتَقَلُوا إِلَى الْيَمَنِ فَتَزَلُّوْهَا ، فَحُسِبُوا مِنَ الْيَمَنِ ، وَأَسْتَشْهَدُ لَهُ بِقَوْلِ الْكُتَيْبِ يَذْكُرُ أُنْتَقَالَهُمْ إِلَى الْيَمَنِ بِانْتِسَابِهِمْ فِيهِمْ :

نَعَاءُ جُدَامًا غَيْرَ مَوْتٍ وَلَا قَتْلٍ * وَلَكِنْ فِرَاقًا لِلدَّعَائِمِ وَالْأَصْلِ !

وَأَسْتَشْهَدُ لَهُ الْحَمْدَانِيُّ أَيْضًا بِقَوْلِ جُنَادَةَ بْنِ خَشْرَمٍ الْجُدَامِيِّ :

وَمَا قَطَطَانٌ لِي بِأَبٍ وَأُمٍّ * وَلَا تَصْطَادُنِي شُبُهَةُ الضَّلَالِ

وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ نَسَبِي وَلَكِنْ * مَعْدِيًّا وَجَدْتُ أَبِي وَخَالِي

(١) أَعْجَمَهُ فِي الْأَصْلِ . وَقَالَ فِي سَبَاطِكَ الذَّهَبِ « حَلَفَ بِفَتْحِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ بَنُوهُ بَطْنُ مَنْ خَنْعَمِ » .

قال الحمداى : ويقال لئنهم من ولد أعصر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ،
 وأستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وفد جُدَام ، فقال ” مَرَحَبًا بِقَوْمٍ شُعَيْبٍ وَأَصْهَارِ مُوسَى “ . قال صاحب حماة :
 وكان فيهم العَدُدُ والشَّرَفُ . قال الحمداى : وهو أول من سكن مصر من العرب حين
 جاءوا فى الفتح مع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وأقْطَعُوا فيها بلادا بعضها بأيدي
 بنينهم إلى الآن . وكان لجُدَام ولدان : هما حِشْم (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين
 المعجمة وميم فى الآخر) ، وحرَام (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم) ؛ ومن
 ولد حِشْم عَتِيت (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت
 (٢) وتاء مثناة فوق فى الآخر) وهم بنو عَتِيت بن أسلم ، بن مالك ، بن شَنْوَةَ ، بن تَدِيل ،
 ابن حِشْم بن جُدَام . قال أبو عبيد : وهم اليوم يتنسبون فى بنى شَيَّان ، ويقولون
 عَتِيت بن عَوْف بن شَيَّان . قال وإليهم تنسب حُفْرَةُ عَتِيت بالبصرة ، قال
 الجوهري : أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال ، فكانوا يقولون إذا كبر صبياننا
 لم يتركونا ، حَتَّى يَفْتَكُونَا ، فلم يزلوا عنده حَتَّى هَلَكُوا فَضَرَبَ لهم العرب مثلا
 فقالوا : أودى عَتِيت ، وفى ذلك يقول الشاعر :
 تَرْجِيهَا وقد وَقَعَتْ بَقْرٌ * كما تَرْجُو أصَاغِرَهَا عَتِيت (٢)

ثم لجُدَام الآن بطون كثيرة متفرقة فى الأقطار؛ منهم بالشرقية من الديار
 المصرية من بنى زيد بن حَرَام بن جُدَام ، وبنى مُحَرَّمَة بن زيد بن حَرَام بن جُدَام ؛
 فأما بنو زيد فمنهم بنو سُؤيد ، وبعجة ، وبردعة ، ورفاعة ونائل ، من بنى زيد بن
 حَرَام بن جُدَام ، فمن ولد سُؤيد هَلْبَا سويد ، وهم بنو هَلْبَا بن سُؤيد بن زيد بن حَرَام

(١) فى سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم فى السبائك أيضا وهو بالباء الموحدة فى الصحاح والقاموس
 وأنشد الأول البيت بالياء الموحدة ومثله فى باقوت فتنه .

أَبْنُ جُدَامَ . قال الحمداني . ومنهم العَطَوِيُّونَ ، والجَابَرِيُّونَ ، والقَتَاوَرَةُ ، وَحَمْدَانُ ،
وَرُومَانُ ، وَصَمْرَانُ ، وَأَسْوَدُ . والحَمِيدِيُّونَ ، ومن الحمِيدِيِّينَ ، أولادِ رَاشِدَ ، ومنهم البرَاجِسَةُ ،
وأولادِ يَبرِينِ والجَرَّاشَنَةِ ، والكَعُوكَ ، وأولادِ غَانِمَ ، وآلِ حَمُودَ ، والأَخِيوَهَ ، والزَّرْقَانُ ،
والأَسَاوَرَةَ ، والحَمَارِيُونَ . ومن بَنِي رَاشِدَ أَيْضَا الحَرَّاقِيصُ ، وَالْخَنَافِيصُ ، وأولادِ
غَالِي ، وأولادِ جَوَّالَ ، وآلِ زَيْدَ ، ومن النَجَابِيَةِ أولادِ نَجِيبَ وَبَنُو فَضِيلَ .

ومن هَلْبَا سُؤَيْدَ أَيْضَا بَنُو الْوَلِيدِ ، وهم بَنُو الْوَلِيدِ بْنِ سُؤَيْدِ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ . ومنهم
الْحَيَادِرَةُ ، وهم بَنُو حَيَادِرَةَ ، بنِ يَعْزَبَ ، بنِ حَبِيبَ ، بنِ الْوَلِيدِ ، بنِ سُؤَيْدَ .
قال الحمداني : وهم طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ ، ومنهم بَنُو عِمَارَةَ ، وهو عِمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ . ومنهم
عَدَدُ ، وَالْحَيَّيُونَ : وهم بَنُو حَبَّةَ بْنِ رَاشِدَ بْنِ الْوَلِيدِ . ومن وَلَدِ الْوَلِيدِ بْنِ سُؤَيْدَ
الْمَذْكُورِ طَرِيفُ بْنُ بَكْتُوتَ الْمُلَقَّبَ زَيْنَ الدَّوْلَةِ ، كَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ
فِي مُضَيَّفَتِهِ أَيَّامَ الْغَلَاءِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا تَأْكُلُ عِنْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَكَانَ يَهْتَمُّ التَّرِيدَ
فِي الْمَرَاقِبِ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِ مِنْ أَمْرِ بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ وَعَدَّ مِنْ أَحْلَافِهِمْ أَوْلَادُ الْهُوْبَرِيَّةِ ،
وَالرَّدَالِيِّينَ ، وَالْخَلِيفِيِّينَ ، وَالْخَضِينِيِّينَ ، وَالرَّبِيعِيِّينَ ، وَهُمْ أَوْلَادُ شَرِيفِ النُّجَابِيِّينَ ،
وَذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّ لَهُمْ نَسَبًا فِي قُرَيْشَ إِلَى عَبْدِ مَنَافَ ، بنِ قُصَيٍّ . ومن هَلْبَا سُؤَيْدَ
هَؤُلَاءِ هَلْبَا مَالِكَ ، وَهُمْ بَنُو مَالِكِ بْنِ سُؤَيْدَ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكِ بَنُو عُبَيْدَ وَهُمْ بَنُو
عُبَيْدِ بْنِ مَالِكَ ، وَمِنْ بَنِي عُبَيْدِ الْمَذْكُورِ الْحَسَنِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو الْحَسَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَ بْنِ
مَوْهُوبَ بْنِ عُبَيْدَ ، وَالْفَوَارَنَةَ ، وَهُمْ بَنُو الْغَوْرِ بْنِ أَبِي بَكْرَ بْنِ مَوْهُوبَ بْنِ عُبَيْدَ ، وَبَنُو
أُسَيْرَ ، وَهُمْ بَنُو أُسَيْرَ بْنِ عُبَيْدَ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكِ أَيْضَا اللَّيْدِيُّونَ ، وَالْبَكْرِيُّونَ ،
وَالْعَقِيلِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو عُقَيْلَ بْنِ قُرَّةَ بْنِ مَوْهُوبَ بْنِ عُبَيْدَ . ومنهم بَنُو رَدِئِي ، وَهُمْ بَنُو
رَدِئِي بْنِ زِيَادَ ، بنِ حُسَيْنَ ، بنِ مَسْعُودَ ، بنِ مَالِكَ ، بنِ سُؤَيْدَ . وَمِنْ وَلَدِ بَعْجَةَ هَلْبَا بَعْجَةَ ،
وَهُمْ بَنُو هَلْبَا ، وَمَنْظُورَ ، وَرَدَا ، وَنَائِلَ بَنِي بَعْجَةَ بْنِ زَيْدَ بْنِ سُؤَيْدَ بْنِ بَعْجَةَ ، فَمِنْ وَلَدِ

هلبا بعجة مُفَرِّج بن سالم ، أمره المعز أليك بالبوq والعلم ، ثم خلفه على إمرته ولده حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عَصْمة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة . ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعْجة ، وهو صاحب السَّراة المضروب به المشل في الكرم والشجاعة .

ومن ولد نائل مُهَنَّأ بن علوان بن على بن زبير بن حبيب بن نائل ، كان جوادا كريما طرقتة ضيُوف في شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال بزَّكانت عنده . ومن بنى حَرَام بن جُدَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمداني : وفي جُدَام خمسُ سعود أختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام . وسَعْد ابن مالك بن أَفْصى بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام ، وإليه ينسب أكثر السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُدَام ، وسعد بن سامة بن عَنبَس بن غَطَفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ، والسَّلاحمة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وعدْلان ، وفَزَّارة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد وخفراء ، ولهم مزارع وما كل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنية غمر إلى ريفها . ومنهم شاور وزير العاضد الفاطمي ، وإليه تنسب أولاد شاور كبار مُنية غمر وخفراؤها ؛ على أن ابن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أَرْضِعَ فيهم النبي صلى الله عليه وسلم . وأما بنو محرمة فمنهم الشَّوَاكر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد العجار أدلاء الحاج من زمن السلطان صلاح الدين وهلم جَرَّا .

ومن جذام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جذام عليهم دَرَكَ الحاج إلى العقبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمداني : وَقَلَّ في عرب مصر مَنْ يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزهير ، عد منهم الحمداني الحَضِيين ، وردالة ،

(١) في الأصل الخط تكرار في الأسماء. ونقص من العدد ويؤخذ من السباتك أن الساقط هو سعد ابن ربيع بن إياس بن حرام بن جذام فتنبه .

والأحامدة ، والجمارنة ، وهم بنو حمران . قال الحمداني : وفي زهير هؤلاء من
بنى عيرين ، وبنى شبيب ، وبنى عبد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عبيد ،
وبنى عبد القوى ، وبنى شاكر ، وبنى حسن ، وبنى سمان . وهم يتواردون في أسماء
بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدي بالبلقاء ، وبنو عتبة ،
وبنو زهير بالشوبك . ومنهم بنو سعيد بصرخد ، وحوران ، ومنهم جماعة ببلاد
الغور ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السودان .

الحى التاسع — من بنى كهلان نلّم (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم
في الآخر) ، وهم بنو نلّم بن عدي بن الحارث بن مرة بن أد بن زيد بن يشجب بن
عريب ، بن زيد ، بن كهلان ، ونلّم أخو جذام المقدم ذكره ، وكل منهما عم لكندة
المقدم ذكره أيضا . وعدّ صاحب حماة نلّمًا من بنى عمرو بن سبأ كما عدّ جذامًا إذ
كانا أخوين كما تقدّم . وقد كان للفاويزة من النخمين ملك بالحيرة من بلاد العراق ،
ثم كان لبني عبّاد من بقاياهم بالأندلس ملك بإشبيلية . وذكر القضاعى أنهم حضروا
فتح مصر ، وأختلطوا بها ، هم ومن خالطهم من جذام . قال الحمداني : وبصعيد الديار
المصرية منهم قوم يسكنون بالبر الشرق ، ذكر منهم الحمداني سبع أبطن . الأولى
سمّاك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مرّ ، وبنو مليح ، وبنو نهبان ، وبنو عبّس ،
وبنو كريم ، وبنو بكير ، وديارهم من طارف بيا بالهينسا إلى منحدر دير الجميزة
في البر الشرق . الثانية بنو حدان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو
مُدج ، وبنو عيش ، وديارهم من دير الجميزة ، إلى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ،
وهم بنو معمر ، وبنو واصل ، وبنو مرّا ، وبنو حبان ، وبنو معاد ، وبنو البيض ،
وبنو حجرة ، وبنو شنوءة . وديارهم من مسجد موسى إلى أسكر ، ونصف بلاد

إطفيح . ولبنى البيض الحى الصغير ، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى معصرة
بوش . الرابعة بنو جعد ، وهم بنو مسعود ، وبنو حدير ، وهم المعروفون بالحديرين ،
وبنو زبير ، وبنو ثمال ، وبنو نصار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو
عدى ، وهم بنو موسى ، وبنو محرب ، ومسكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو
بحر ، وهم بنو سهل ، وبنو معطار ، وبنو قهم ، وهم المعروفون بالفهميين ، وبنو
عسير ، وبنو مسند ، وبنو سباع ، ومسكنهم الحى الكبير . السابعة قيس ، وهم
بنو غنيم ، وبنو عمرو ، وبنو حجرة ، ولبنى غنيم منهم العدوية ، ودير الطين إلى
جسر مصر ، ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حلوان ، ولبنى حجرة النصف الثانى ،
ونصف طرا .

ومن بطون نخلم بنو الدار رهط تميم الدارى صاحب النبی صلى الله عليه وسلم ،
وهم بنو الدار بن هانىء ، بن حبيب ، بن نمارة ، بن نخلم . قال الحمدانى وبلد الخليل
عليه السلام معمور من بنى تميم الدارى رضى الله عنه ، وببني تميم هؤلاء الرقعة
التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لقيم وإخوته بإقطاعهم بيت حبرون التي هي بلد
الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة في قطعة من آدم من خف
أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ونخبطه .

الحى العاشر — من بنى كهلان الأشعريون . وهم بنو الأشعر بن أدد ، بن
زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال وسُمي الأشعر لأن أمه ولدته
وهو أشعر . وجعله صاحب حماة من بنى أشعر بن سبيل ، وهم رهط أبى موسى
الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحى الحادى عشر — من بنى كهلان عاملة . وهم بنو عاملة ، وأسمه الحارث ، بن
عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن وبرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يشجب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان، وذو كرا أبو عبيد أن بنى عاملة هم بنو الحارث بن مالك،
يعنى ابن الحارث بن مرة بن أد، وأنه كان تحتة عاملة بنت مالك بن وديع بن عفر،
ابن عدى، بن الحارث، بن مرة بن أد فعرفوا بها . وذو كرا صاحب حماة لهم من
ولد عاملة بن سبيل . وقد ذكر الحمداني أن يجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجمل الغفير .

الضرب الثاني

(من العرب الباقيين على ممر الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهري : ويقال لهم المتعربة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما
السلام، سُموا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العبرانية أو السريانية، فلما
نزل جرهم من القحطانية عليه وعلى أمه بمكة المشرفة، تزوج منهم، وتعلم هو وبنوه
العربية من جرهم المذكورين فسموا لذلك المستعربة . وأعلم أن الموجودين من
العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عدنان بن أدد المقدم ذكره في عمود
النسب على خلاف في نسبه إلى إسماعيل يطول ذكره . قال في العبر: ومضى عدا عدنان
من ولد إسماعيل قد انقرضوا، ولم يبق لهم عقب، ولذلك عرفت هذه العرب بالعَدْنَانِيَّة .
ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأول : من سُموا بالمتفرعة من عمود النسب ستة أصول :

الأصل الأول : بن معد بن عدنان ؛ والمتفرع منه على حاشية عمود

النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — إياد (بكسر الهمزة ودال مهملة في الآخر) وهم بنو إياد بن زيار

المقدم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إياد الحجاز وسار بأهله إلى أطراف

العراق فأقام به .

ومن إياد قُس بن ساعدة الإيادي، وكعب بن مامة الذي يضرب به المثل في الكرم؛ يقال إنه كان معه ماء لا يفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقه ومات عطشا.

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة في الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدم ذكره؛ وقد اختلف في تعقبه، فذهب ذاهبون إلى أنه ذهب إلى اليمن ونزل بالسراوات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعدّوا في اليمانية؛ وذهب آخرون إلى أنه لا عقب له إلا من بنت له زوجها لأراش من اليمانية، فولدت له أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمانية؛ فبنو أنمار المعدودون في اليمانية هم بنو أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمانية من بنت أنمار بن نزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلي.

القبيلة الثالثة — ربيعة، وهم بنو ربيعة بن نزار ويعرف بربيعة القُرس؛ لأن أباه نزاراً أوصى له من ماله بالخليل. قال في "مسالك الأبصار" وبالرحبة قوم منهم. ولرببعة بطنان. وهما أسد، وضبيعة أبنا ربيعة، ولكل منهما عدة أنفاذ، وديارهم إلى الآن بالجزيرة القُراتية تُعرف بديار ربيعة. أما أسد فأكثرهما أنفاذاً.

فمن أسد بنو عترة (بفتح العين المهملة والنون والزاي وهاء في الآخر) وهم بنو عترة ابن أسد المقدم ذكره؛ وكانت منازلهم خير من ضواحي المدينة. وجديلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر) وهم بنو جديلة بن أسد المقدم ذكره، والنسبة إليهم جدلى بحذف الياء بعد الدال.

ومن جديلة عبد القيس؛ وهم بنو عبد القيس، بن أفضى، بن دُعْمَى، بن جديلة. قال في العبر: وكانت ديارهم بتهامة حتى خرجوا إلى البحرين وزاحموا من بها من بكر بن وائل وتميم، وقاسموهم المواطن، والنسبة إليهم عبدي، ومنهم من ينسب إليهم عبدي قيسي، وبعضهم يقول عبقي.

ومن عبد القيس هؤلاء الأئبج الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ
فيكَ نَحْصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ" .

ومن جديلة أيضا بنو النمر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسط بن هنب
ابن دُعْمَى بن جديلة . قال في العبر وديارهم رأس العين من أعمال الجزيرة الفراتية .
ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحت) وهم بنو وائل بن قاسط بن هنب
ابن أفضى ، بن دُعْمَى ، بن جديلة المقدم ذكره .

ومن وائل بكر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتغلب (بالتاء المثناة في أوله
والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب أبني وائل
المقدم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملك بني وائل الذي قتله جَسَّاس ، وهاجت بسببه
الحرب المعروفة بالبُسُوس أربعين سنة .

ومن تغلب أقوام بُزْرَع ، وبُصْرَى ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بَحِينِينَ وبلادها ، وبالرحبة قوم منهم .

ومن بني تغلب كانت بنو حَمْدَانَ ملوك حَلَب قديما .

ومن بكر بن وائل شَيْبَانُ ، وهم بنو شَيْبَانَ بن ثعلبة ، بن عُكَّابَة ، بن صَعْب ، بن
علي ، بن بكر .

ومن بني شَيْبَانَ هؤلاء مُرَّة وأبْنُه جَسَّاس قاتل كُليب المذكور . ومنهم طَرْفَة
ابن العبد الشاعر .

...ومن بني شَيْبَانَ أيضا سَدُوس (بفتح السين المهملة في أوله وسين ثانية في آخره)
وهم بنو سَدُوس بن دُهل بن شَيْبَانَ .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حَنِيفَةَ رَهْطُ مَسِيلَمَةَ الكَذَابِ الذِي تَنَبَّأَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقُتِلَ فِي خِلَافَةِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ بْنِ لَحِيمٍ ، بْنِ صَعْبٍ ، بْنِ عَلِيٍّ ، بْنِ بَكْرِ ، بْنِ وَائِلٍ .

ومن بكر أيضا بنو عَجَلٍ ، بْنِ لَحِيمٍ ، بْنِ صَعْبٍ ، بْنِ عَلِيٍّ ، بْنِ بَكْرِ ، بْنِ وَائِلٍ . قَالَ فِي الْعَبَرِ : وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ؛ قَالَ ثُمَّ خَلَفَهُمُ الْآنَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ بَنُو عَامِرِ الْمُتَفِيقِ ، بْنِ عَقِيلٍ ، بْنِ عَامِرٍ ، بْنِ صَعْصَعَةَ . وَذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّ بِلَادَهُمْ فِي زَمَانِهِ الْجَزِيرَةُ مِنْ بِلَادِ حَلَبَ وَأَنَّهُ كَانَ لَهُمْ دَوْلَةٌ بِالْعِرَاقِ .

وَأَمَّا ضُبَيْعَةُ بْنُ رَبِيعَةَ (فَبُضِمَ الضَّادُ الْمَعْجَمَةُ وَفُتِحَ الْبَاءُ الْمُوَحَّدَةُ تَصْغِيرَ ضُبْعَةٍ) وَهِيَ قَبِيلَةٌ لَمْ تَكْثُرْ بَطُونُهَا . وَمِنْهُمْ الْمُتَمَلِّسُ الشَّاعِرُ الْبَاهِلِيُّ الْمَشْهُورُ .

الأصل الثاني — مَضَرٌ (بُضِمَ الْمِيمُ وَفُتِحَ الضَّادُ الْمَعْجَمَةُ) وَهُوَ مُضَرٌّ بْنُ نِزَارٍ الْمُقَدَّمُ ذَكَرَهُ ، وَيُعْرَفُ بِمُضَرِّ الْحِمْزَاءِ : لِأَنَّ أَبَاهُ أَوْصَى لَهُ مِنْ مَالِهِ بِالذَّهَبِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ ؛ وَهِيَ قَبِيلَةٌ عَظِيمَةٌ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَهَا أَنْدَرَجَ فِيمَا بَعْدَهَا لِكُونِهَا عَلَى عُمُودِ النِّسْبِ ، وَقَدْ ذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" أَنَّ بَنَابِلُسَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ بَقِيَّةٌ مِنْ مُضَرٍّ ، وَبِالرَّحْبَةِ رِجَالٌ مِنْهُمْ ، وَلَهُ عَلَى حَاشِيَةِ عُمُودِ النِّسْبِ فَرْعٌ وَاحِدٌ قَدْ جَمَعَ عِدَّةَ قَبَائِلَ ، وَهُوَ قَيْسٌ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي نِسْبِهِ فَقِيلَ قَيْسُ بْنُ عِيلَانَ (بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ) وَأَسَمَهُ النَّاسُ (بِالنُّونِ) ابْنَ مُضَرٍّ ؛ وَقِيلَ هُوَ قَيْسُ بْنُ مُضَرٍّ لِصُلْبِهِ ، وَعِيلَانُ الْمَضَافُ إِلَيْهِ قِيلُ فَرَسِهِ وَقِيلَ كَلْبُهُ . قَالَ صَاحِبُ حِمَاةَ : وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَيْسٍ مِنَ الْكَثْرَةِ أَمْرًا عَظِيمًا ، وَلِكَثْرَةِ بَطُونِهِ غَلَبَ عَلَى سَائِرِ الْعَدَنَانِيَةِ حَتَّى جَعَلَ فِي الْمَثَلِ فِي مُقَابَلِ عَرَبِ الْيَمَنِ قَاطِبَةً فَيُقَالُ قَيْسٌ وَيَمِنُ .

فمن قبائل قيس هَوَازُنْ ، وهم بنو هَوَازَنَ بن منصور بن عكرمة بن خَصَافَةَ بن قيس عِيلَانَ ، وهم الذين أغار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسبأهم .

ومن هوازن بنو سَعْدَ الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضيعاً فيهم ، وهم بنو سَعْدَ بن بكر بن هوازَنَ . قال في العبر : وقد أفرق بنو سَعْدَ هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم حى فيطرق إلا أن منهم فرقة بإفريقية من بلاد المغرب بنواحى باجة يعسكرون مع جُند السلطان .

وقد ذكر ابن خلكان أن شاور السعدى وزير العاضد الفاطمى خليفة مصر منهم وإن كان الحمدانى قد ذكر أنه من سَعْدَ جُذَامَ من القحطانية بالشرقية من الديار المصرية على ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعَصَعَةَ . وهم بنو عامر بن صَعَصَعَةَ بن معاوية ابن بكر بن هوازن ، وإليهم يُنسَبُ مجنون بنى عامر الشاعر الذى كان يُسَبَّبُ بليلى . ومن بنى عامر بن صَعَصَعَةَ بنو كلاب ، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعَصَعَةَ . قال في العبر : وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حى ضيرية وهو حى كليب ، وحى الرَبْدَةِ في جهات المدينة النبوية ، وقدك والعوالى ، ثم آتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صيتٌ وملكوا حلب ونواحيها ، وكثيرا من مدن الشام ، ثم ضَعُفُوا . قال ، وهم الآن تحت خِفَاةِ الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنهم يُنسَبون إلى عبد الوهاب المذكور في سيرة البطال وذكر أن اسمه عبد الوهاب بن نُوبَحْت .

ثم قال ، وهم بأطراف حلب ، وهم عرب غُزَّ يتكلمون بالتركية ، ويركبون الأكَاديش ، ولهم غارات عظيمة ، وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يباغون من سبائهم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بني كلاب .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو هلال ، وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة . قال الحمداني وكان لهم بلادٌ صعيد مصر كلها ، وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة ، وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقية . قال في العبر : وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيدي لماضي بن مقرب ، ولما بايعوا لأبي ركة بالمغرب وقتله الحاكم ، سلط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم ، وانتقل من بقي منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بني جشم هناك . وذكر الحمداني أن بحلب طائفة منهم ، ثم صار لهم بلاد أسوان وما تحتها . ثم قال : وبنو نعيم منهم بنو ركة ، إلى عذاب ، وبساقية قلعة منهم بنو عمرو وبطنهم ، وهم بنو رفاعه ، وبنو حجير ، وبنو عزيز . وباصفون وإسنا منهم بنو عتبة ، وبنو جميلة .

ومن بني هلال حرب فيما ذكره ابن سعيد . قال الحمداني ، وهم ثلاث بطون بنو مسروح ، وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . قال : ومساكنهم الحجاز ومن حرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمداني ، وذكر أن منهم بنو عمرو . ثم قال : ومن بني عامر ثمير بن عامر ابن صعصعة . قال في العبر : وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعدوتَي الفرات . قال وهم إحدى بحرات العرب ، وكان لهم كثرة وعدة في الجاهلية والإسلام ، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حران وغيرها ، ثم غلبهم عليها خلفاء بني العباس أيام المعتز بالله فهاكوا بعد ذلك وبادوا .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو عقيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر : وكانت

مساكنهم بالبحرين في كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بنو عُقَيْل هؤلاء ، وبنو تغْلِبَ وبنو سُليم ، وكان أظهرهم في الكثرة والغلب بنو تغْلِبَ ؛ ثم اجتمع بنو عُقَيْل وبنو تغْلِبَ على بنى سُليم فأخرجوهم من البحرين ؛ ثم اختلف بنو عُقَيْل وبنو تغْلِبَ بعد مدة فغلب بنو تغلب على بنى عُقَيْل فطردوهم عن البحرين ، فساروا إلى العراق ، وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية وتغلبوا على الجزيرة والموصل ، وملكوا تلك البلاد ؛ وكان منهم المقلد وقرواش وقريش وابنه مسلم ملوك الموصل ، وبقيت بأيديهم حتى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق ، فتحولوا عنها إلى البحرين حيث كانوا أولا فوجدوا بنى تغلب قد ضعف أمرهم فغلبوهم على البحرين ، وصار الأمر بالبحرين لبنى عُقَيْل .

ومن بنى عُقَيْل هؤلاء آل عامر ، وهم بنو عامر بن عُقَيْل المذكور ، وهم الذين بيدهم بلاد البحرين . قال ابن سعيد : سألت أهل البحرين في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : الملكة بها لبنى عامر بن عُقَيْل ، وبنو تغْلِبَ من جملة رعاياهم ؛ على أن الحمداني قد وهبهم فقال : وهم غير عامر المُتَّفِق ، وعامر بن صعصعة ، وتبعه على ذلك في "مسالك الأبصار" . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بنى عُقَيْل

ومن بنى عُقَيْل أيضا بنو عبادة (بضم العين المهملة وبالباء الموحدة والdal المهملة) وهم بنو عبادة بن عُقَيْل . قال ابن سعيد : ومنازلهم بالجزيرة الفراتية مما يلي العراق لهم عدد وكثرة . قال : ومنهم الآن بقية بين الخازر والزَّاب ، يقال لهم عرب شرف الدولة في تجلُّ وعُدَد ، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المائة فارس .

ومن بنى عُقَيْلٌ أيضا خَفَاجَةَ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجيم مفتوحة بعد الألف وهاء في الآخر) وهم بنو خَفَاجَةَ بن عمرو بن عُقَيْلٍ ، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَم (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم في الآخر) وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوازَن . قال في العبر : وكانت مساكنهم بالسَّروَات ، وهى تلال تفصل بين تِهامة ونجد ، متصلة من البحرين إلى الشام كسَّروَات الجبل . قال : وسَّروَات جُشَم متصلة بسَّروَات هُدَيْل . ثم قال : وقد انتقل بعضهم إلى المَغْرِب ، وهم الآن به ، ولم يبق بالسَّروَات منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَم هؤلاء دُرَيْد بن الصَّمة .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح الثاء المثناة وكسر القاف وسكون الياء وفاء في الآخر) وهم رَهْط الحجاج بن يوسُف : وهم بنو ثَقِيف وأسمه قَيْسُ بن مُنبه بن بكر بن هَوازَن ؛ ويقال إنهم من إِيَاد بن زَرَار المقدم ذكره . وعن بعض النسابة أن ثَقِيفاً من بقايا ثَمُودَ ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ فَاذْكُرُوا ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال في العبر : وثَقِيف بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهى مدينة من أرض نجد على مرحلتين من مكة فى شرقها وشمالها كانت فى القديم للعائلة ، ثم نزلها ثَمُودُ قبل وادى القُرَى : ويقال إن الذى سكنها بعد العالقة عَدَوَانُ . ثم غلبهم عليها ثَقِيفُ فهى الآن دارهم .

ومن قبائل قَيْس أيضا بَاهِلَةُ ، وهم بنو سَعْدِ مَنَاة بن مالك بن أعْصَر ، وأسمه مُنبه ابن سعد بن قَيْس عِيلَان ؛ وجعلهم فى العبر بنى مالك بن أعْصَر . وباهلة أُم سَعْدِ مَنَاة عَمْرُ فَوَاهَا : وهى بَاهِلَةُ بنت صَعْب بن سعد العشيرة من مَذْحِج ، منهم أبو أُمَامَةَ الباهلي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازين ، وهم بنو مازين بن منصور بن خَصَفَة بن قيس عِيلَان . قال في العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غَطَفَان بن قيس عيلان . قال في العبر : وهم بطن متسع كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلي وادى القُرَى وجبلى طيى أجا وسلمى ، ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية ، وأستولى على مواطنهم هناك قبائل طيى .

ومن بطون غَطَفَان بنو عَبَس (بفتح العين وسكون الباء الموحدة وسين مهملة في الآخر) وهم بنو عَبَس بن بَغِيض بن رَيْث بن غَطَفَان . منهم زهير بن قيس صاحب حرب داحس والغبراء . وهما فرسان كانت إحداهما وهى داحس لعَبَس^(١) والأخرى وهى الغبراء لفزارة فأجريت فوق الحرب بسببهما .

ومن عبس هؤلاء عترة بن شداد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غَطَفَان أشجع (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة في الآخر) وهم بنو أشجع بن رَيْث بن غَطَفَان . قال في العبر : وكانوا هم عرب المدينة النبوية ، وكان سيدهم معقل بن سنان الصباحي . قال : ولم يبق أحد منهم بنجد إلا بقايا حول المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصى منهم حتى عظيم يطعنون مع عرب معقل بيجات سيحلماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غَطَفَان أيضا ذُبْيَان ، قال الجوهرى (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم بنو ذُبْيَان بن رَيْث بن غَطَفَان ومنهم النابغة الذبياني الشاعر المشهور .

ومن ذُبْيَان فزارة (بفتح الفاء والزاي والراء المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو فزارة ابن ذُبْيَان . قال في العبر : وكانت فزارة بنجد وادى القُرَى ، فلم يبق منهم بنجد أحد .

(١) أنت الفرس المسمى بداحس ومقتضى القاموس تذكره وقد حُرِفَ فيه فليحذر .

ونزل جيرانهم من طيئ مكانهم . وذكر أن بأرض بركة إلى طرابلس الغرب منهم قبائل : رَوَاحَة ، وَهَيْت ، وَفَزَان . قال : وبإفريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهلهم ، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصى إلى الاستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سليم ، يستظهرون بهم في مواقف الحرب ، وقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفي بركة ببلاد هيت جماعة منهم نازلون بها ، ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمداني : ومنهم بالديار المصرية جماعة بالصعيد ، وجماعة بضواحي القاهرة في قلوب وما حولها ، وبهم عُرفت القرية المسماة بخراب فزارة هناك . ومن فزارة بنو مازين ، وبنو بدر ، فأما بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ، وأما بنو بدر فهم بنو بدر بن عدى بن فزارة : قال في العبر ، وفيهم كانت رئاسة بني فزارة في الجاهلية ، يرأسون جميع غطفان وتدين لهم قيس وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدى ، ومنهم كان حذيفة بن بدر صاحب القرس المعروفة بالقبراء المقدم ذكرها ، ومن بني بدر هؤلاء وبني عمهم بني مازن جماعة بالقبليونية من الديار المصرية .

قلت : وبنو بدر هم قبيلتنا التي إليها نعتري ، وفيها نتسب ، وأهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بني بدر ونصفهم من بني مازن .

ومن قبائل قيس أيضا بنو سليم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . قال الحمداني : وهم أكبر قبائل قيس . وكان سليم من الولد بهتة (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خير .

(١) ذكره في القاموس في باب الناء المثلثة فقال وبهتة رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حَرَّةٌ سُلَيْمٌ ، وَحَرَّةُ النَّارِينِ وَادِي الْقُرَى وَتَيْمًا . قال : وليس لهم الآن نَجْدٌ عَدَدٌ وَلَا بَقِيَّةٌ . ثم قال : وبِإِفْرِيقِيَّةٍ مِنْهُمْ حَتَّى عَظِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ بِالْبَحْرَيْنِ فَغَلَبَهُمْ عَلَيْهَا بَنُو عُقَيْلِ بْنِ كَعْبٍ وَبَنُو تَغْلِبَ . وقال الحمداني : وَمَسَاكِنُهُمْ بَرْقَةٌ مِمَّا إِلَى الْمَغْرِبِ وَمِمَّا إِلَى مِصْرَ . قال : وفيهم الأبطال الأَنْجَادُ ، وَالْخَلِيلُ الْحِيَادُ . قال في العبر : وَقَدْ أَسْتَوْلَوْا عَلَى بَرْقَةٍ ، وَهِيَ إِقْلِيمٌ طَوِيلٌ وَاسِعٌ الْأَطْرَافِ ، وَخَرَبُوا مَدَنَهُ وَلَمْ يَتْرَكُوا بِهَا وَلايَةً وَلَا إِمْرَةً إِلَّا لِمَشَايِخِهِمْ . قال في "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهم في بني عَزَازَ ، وَهِيَ الْآنَ فِي زَمَانِنَا لِبَنِي عَرِيفَ .

ومن سُلَيْمٍ هَؤُلَاءِ لَبِيدٌ بِبَرْقَةٍ ، وَهُمْ بَطُونٌ كَثِيرَةٌ الْعَدَدُ .

ومن قبائل قَيْسِ عَدَوَانَ (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون في الآخر) وَهُمْ بَنُو عَدَوَانَ وَأَسْمُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ قَيْسِ عِيلَانَ . قال أبو عبيد : وَاسْمِي عَدَوَانَ لِأَنَّهُ عَدَا عَلَى أَخِيهِ فَهَمَّ فَقَتَلَهُ . قال في العبر : وَهُمْ بَطْنٌ مُتَسِعٌ ، وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ بِالطَّائِفِ مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ نَزَلُوهَا بَعْدَ إِيَادٍ وَالْعَالِقَةِ ، ثُمَّ غَلَبَهُمْ عَلَيْهَا ثَقِيفٌ ، فَخَرَجُوا إِلَى تِهَامَةٍ . وبِإِفْرِيقِيَّةِ الْآنَ مِنْهُمْ أَحْيَاءُ بَادِيَةٍ . وَقَدْ عَدَّ الْحَمْدَانِيُّ عَدَوَانَ مِنْ عَرَبِ بَرِيَّةِ الْحِجَازِ مِنْ أَحْلَافِ آلِ فَضْلِ مِنْ عَرَبِ الشَّامِ ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ هَؤُلَاءِ وَأَنَّهُمْ غَيْرُهُمْ .

الأصل الثالث — إِيْلَاسَ (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المشناة تحت وسين بعد الألف) وَهُوَ إِيْلَاسُ بْنُ مُضَرَ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ خِنْذِفُ (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء في الآخر) وَهِيَ خِنْذِفُ بِنْتُ حُلْوَانَ ابْنِ عَمْرَانَ بْنِ الْحَافِي بْنِ قُضَاعَةَ ، فَعُرِفَ بَنُوهُ بِهَا فَقِيلَ لَهُمْ خِنْذِفُ : لِأَن زَوْجَهَا

إلياس رآها يوما تمشي ، فقال لها : مالك تُخَنِّدِينَ ؟ والخَنْدَفَةُ أن يقلب ظهر قدمه إلى الأرض عند مشيه . وله فرعان علي حاشية عمود النسب .

الفرع الأول — طابخة (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء في الآخر) وهم بنو طابخة ، وأسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر ، وسمى طابخة لأنه كان هو وأخوه مدركة الآتي ذكره علي عمود النسب ، وكان اسمه عامرا ، في إبل لهما فصادا صيدا ، وقعدا يطبخانه فعَدَّتْ عادية علي إبلهما فاستاقتها ، فقال عامر لعمرو أَتَدْرِك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أَطْبُخ الصيد ، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاء أباهما أخبراه الخبر ، فقال لعامر : أنت مُدْرِكَةٌ . وقال لعمرو : أنت طابخة فسميا بذلك .

ويتفرع عن طابخة قبائل كثيرة .

فمن قبائل طابخة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر) وهم بنو تميم بن مُرَّ بن مُرَّاد بن طابخة . قال في العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة ، وامتدت إلى العديب من أرض الكوفة ، ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر ، ولم يبق منهم بادية ، وورث مساكنتهم غزية من طي وخفاجة من بني عَقِيل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر ، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، وإليهم يُنسَب جَدِيلَةُ ابن عبد الله العنبري الصحابي .

ومن بطون تميم بنو حَنْظَلَة وضبطه معروف ، وهم بنو حَنْظَلَة بن مالك ابن زيد مائة بن تميم ، ويقال لهم حَنْظَلَةُ الأكرمون . قال الجوهري : وهم أكبر قبيلة في تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تحت وسكون الراء المهملة وضم الباء الموحدة وسكون الواو وعين مهملة في الآخر) ؛ وهم بنو يربوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سباج التي تنبأت في زمن مسيلمة الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضبة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال في العبر : وكانت ديارهم بالناحية الشمالية من نجد بجوار بنى تميم ثم أنتقلوا في الإسلام إلى العراق ، وهم الذين قتلوا المتنبي الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزينة (بضم الميم وفتح الزاي وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون وهاء في الآخر) وهم بنو عثمان وأوس ، أبى عمرو ، بن أذ بن طابخة ، ومُزينة أمهما عُرفوا بها ؛ وهى مزينة بنت كلب بن وبرة . ومنهم كعب بن زهير ناظم الفصيحة المعروفة ببنت سعاد ، وإليهم يُنسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزني صاحب الإمام الشافعي رضى الله عنه .

الفرع الثاني — قَمْعَة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو قَمْعَة بن إلياس بن مضر . قال الجوهري إن أباه سماه قَمْعَة لما أنقمع في بيته أى أنقهر وذلل ولم يشتهر عقبه .

الأصل الرابع — مُدْرَكَة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة وفتح الكاف وهاء في الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مضر ؛ وقد تقدم سبب تسميته مدركة . وله فرع واحد على حاشية عمود النسب وهو هُدَيل (بضم الهاء وفتح الدال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام في الآخر) وهم بنو هُدَيل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لها بطون كثيرة والنسبة إليها هُدَلَى بحذف الياء بعد الذال ، وإليهم يُنسَب عبد الله بن مسعود الصحابى رضى الله عنه .

الأصل الخامس — نُحْزَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو نُحْزَيْمَة بن مُدْرِكَة . وله فرعان على حاشية عمود النسب ، وهما الهون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهون بن نُحْزَيْمَة ، وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهون عَضَد (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر) ، وهم بنو عَضَد بن الهون .

ومن بطون الهون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الديش بن مُلَيْح بن الهون ، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والدَّيش القارة . قال أبو عبيد : وُسِّمُوا بذلك لأنَّ الشَّدَاخ اللَّيْثَى أراد أن يفرقهم فى بطون كنانة فقال بعضهم : دَعُونَا قَارَةً لَا تَتَفَرَّقُ فُسِّمُوا الْقَارَةَ .

وأما أَسَدٌ وضبطه معروف ، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم مما يلى الكرخ من أرض نجد فى مجاورة طي . قال : ويقال إن بلاد طي كانت لبني أسد ، فلما خرج بنو طي من اليمن تغلبوا على أجا وسلمى ، وتفرق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حى . قال ابن سعيد : وبلادهم الآن لطي . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

ومن بطون أسد الكاهلية ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دُودانُ بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كَنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كَنانةُ بن خزيمَة ؛ وهى قبيلة عظيمة اشتهرت على عمود النسب . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بالإخميمية من صعيد الديار المصرية يُعرفون بكَنانة طلحة ، وذكر في "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِموا الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياط وما حولها . وله على حاشية عمود النسب خمسة فروع :

الفرع الأول — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون فى الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كَنانة .

الفرع الثانى — عَبْد مَناة بإضافة عبد إلى مَناة (بميم مفتوحة بعدها نون) ، وهم بنو عبد مَناة بن كَنانة ، ولهم عدة بطون .

منهم غِفَار (بكسر الغين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف) ، وهو بنو غِفَار ابن عبد مَناة بن كَنانة ، وهم رهط أبى ذَر الغِفَارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غِفَارُ غَفَر الله لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مَناة بن كَنانة ؛ ومن بكر هؤلاء الدُّئل . وهم بنو الدُّئل بن بكر ابن عبد مَناة ؛ وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث ؛ وهم بنو لَيْث بن بكر بن عبد مَناة منهم الصَّعب بن جَثَّامة اللبَّيِّ الصَّحَابى رضى الله عنه . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية قُلْتَة بالإخميمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بلحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .
ومنهم بنو مُدَلج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجيم في الآخر) ،
وهم بنو مُدَلج بن مُرة بن عبد مناة . وفي بنى مُدَلج هؤلاء عِلْمُ القِيافة ، وهو إلحاق
الآبِن بالأب ونحو ذلك بالشَّبه . ومنهم طائفة الآن بَصْرَخَد وَحَوْران من بلاد الشام ،
وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو صَمْرَة (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء
في الآخر) وهم بنو صَمْرَة ، بن بكر، بن عبد مناة ، وإليهم ينسب عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية
قُلْتَة وما يليها من بلاد إنجيم من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كَنانة ؛ وإليه ينسب العَمْرِيُّون من بنى كَنانة .

الفرع الرابع — عامر بن كَنانة ؛ ومنه العامريُّون من كَنانة .

الفرع الخامس — مالك بن كَنانة . ومن عَقِبِهِ بنو فِرَاس ، بن غنم ، بن ثعلبة ، بن
الحارث ، بن مالك . وفي بنى فِرَاس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
رضي الله عنه لبعض من كان معه : "لَوِدِدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِأَلْفٍ مِنْكُمْ سَبْعَةٌ مِنْ بَنِي
فِرَاسِ بْنِ غَنَمٍ" . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بساقية قُلْتَة وما يليها من الإنحيمية
بمصر . وذكر الحمداني أيضا أن من كَنانة بنُ خَزِيمَة طائفة بصعيد مصر بالأشْمُونِيَّينَ
وما حولها تُعْرَفُ بِكَانَةَ طَلْحَة .

الصنف الثاني من العرب العدنانية — قُرَيْش (بضم القاف وفتح الراء المهملة) ،
وهم بنو النَّضَر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) آبن كَنانة وقيل في تسميته بذلك إنه
كان في سفينة يبحر فإِرَسَ إذ خرجت عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيْشُ خفافها أهل

السفينة على أنفسهم فأخرج سبهما من مكانته ورمأها فأثبتها، ثم قُرِبَت السفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلى مكة فسُمِّيَ باسمها . وقيل سُمِّيَ بنوه بذلك لغلبتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دواب البحر وقيل أخذوا من التقرش، وهو الاجتماع لأن قُصِيًّا جمعهم عليه عند ولايته أمر قُرَيْش . وقيل لتجارتهم أخذوا من التقرش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول على عمود النسب :

الأصل الأول — فِهْر بن مالك، ويتفرع عن فِهْر على حاشية عمود النسب قبيلتان :
القبيلة الأولى — بنو الحارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بني الحارث هؤلاء بنو الجراح رهط أبي عبيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوع لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فِهْر، المقدم ذكره . ومنهم الضحّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فِهْر . ويتفرع عنه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤي بن غالب^(١)، والأدرم هو الناقص الذّقر .

الأصل الثالث — لؤي بن غالب . ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — سعد، وهم بنو سعد بن لؤي بن غالب، كان له من الولد عمار، وعماري، ونخزوم، من أمهات بُنَانَةٍ (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفون فيقال لهم بنو بُنَانَةٍ، ومنهم أبو الطفيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم ابن غالب كما في القاموس في مادة ت ي م فلعن لفظ ابن لؤي بما طغى به فلم ينتفع .

القبيلة الثانية — خُرَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي) وهم بنو خزيمة بن لؤى ؛ وكان تحته عائذة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الخنيس بن خُافَة فعُرِف ولده بها فقبل لهم بنو عائذة .

القبيلة الثالثة — بنو عامر ، وهم بنو عامر بن لؤى ، وكان له من الولد حِسل وبَغِيض . ومن ولد حِسل سُهَيْل بن عمرو الذى عقد الصُّلح مع النبي صلى الله عليه وسلم ، يوم الحُدَيْبِيَّة لقريش ؛ ومنهم عمرو بن عبد ود العامرى فارس العرب الذى قتله على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لؤى بن غالب ، ويتفرع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — هُصَيْن (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة فى الآخر) . ومن هُصَيْن بنو سَهْم ، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَة بنى سَهْم بُقُسطاط مصر حول الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى عمرو بن العاص أشتاتاً بالصعيد ، ولهم حصّة فى وقف عمرو على أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْن المقدم ذكره ؛ ومنهم أُمَيَّة بن خَلَف عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عَدَى ، وهم بنو عدى بن كعب ؛ ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالحنّة ؛ وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدى جماعة إلى الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزَيْك وزير الفائز الفاطمى .

ومنهم رجال من بنى عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ومقدمهم خَلَفَ بن نصر العُمري وأنهم لقوا من الصالح طلائع بن رُزَيْك وافر الإكرام ، ونزلوا بالبرلس^(١) من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العمرين ببلاد الشام فرقة بوادى بنى زيد وفرقة بعجلون .

الأصل الخامس — مرة بن كعب ، ويتفرع عنه قبيلتان على حاشية عمود النسب :

القبيلة الأولى — تيم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وطلحة أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الصديق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبي بكر رضى الله عنه جماعة بالأشموين والبهنسية من صعيد مصر . قال الحمداني ، وهم ثلاث فرق هم وأقرباؤهم وأطلق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولى منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسموا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشتات كثيرة في البلاد لاحد لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسفط سكرة ، وطحا المدينة من بلاد الأشموين فيما ذكره الحمداني ، وأكثرهم الآن بدھروط من البهنسية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبي الإمامين : مالك والشافعي رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يقظة ، وهم بنو يقظة بن مرة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاي وسكون الواو وميم في الآخر) وهم بنو مخزوم بن

(١) قال ياقوت برلس بفتحين وضم اللام وتشديدها وفي القاموس برلس بالضات وشدة اللام .

يَقْظَةُ بن مُرَّة بن كعب ، وبه اشتهرت القبيلة دون أبيه يَقْظَةُ لكثرة عقبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهل ابن هشام عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخوه العاص بن هشام ، قُتِلَا يوم بدر كافرين ، وأخوهما سلمة بن هشام ، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سَعِيد بن المسيب التابعي المشهور ، وقد ذكر الحمداني أن من بنى مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يدعى بنو خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال : وقد أجمع أهل العلم بالنسب على أنقراض عقبه . قال ولعلهم من سواه من بنى مخزوم فهم أكثر قریش بقیة وأشرفهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرع منه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة ، وهى زُهْرَة (يضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرَة بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهري أن زُهْرَة اسم امرأة كلاب نُسب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم آمنَةُ بنتُ وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَي بن كلاب بن مرة ، وكان قُصَي عظيمًا فى قریش ، وهو الذى جمعهم بعد التفرق ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ حِينَ يُدْعَى جُمُعًا * بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرٍ

وآرتجع مفاتيح الكعبة من خُرَاعَة بعد أن كانوا آنترعوها من بنى إسماعيل على ما تقدّم ذكره . ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ ، وبسد بنيه كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَيٍّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبى عَبْشَانَ الخُزَاعِيَّ ، أرسلها مع آبنه عبد الدار هذا إلى البيت وقال : يا بنى إسماعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بن طلحة الحُجَبيّ الذى آنترع النبيّ صلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طلبها منه لتدخُل عائشةُ رضى الله عنها البيت ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفَتَّح ليلا قط فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأعادها إليه وقال ” هِيَ فِيكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ “ . وقد ذكر فى المسالك أن بجاعة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بنو شيبَة بن عثمان المقدم ذكره ، آبن طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبَة الكعبة ، ومفاتيحها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى شيبَة هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفط وما يليها من بلاد البهنسائية يعرفون بجاعة نهار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العزى ، وهو عبد العزى بن قُصَيٍّ ، منهم هَبَّار بن الأسود كان يهجو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم لحسن إسلامه ومدحه . ومن بنى عبد العزى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدم ذكره . ومن بنى أسد هؤلاء الزبير بن العوام ، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أم المؤمنين ، زوجُ النبي صلى الله عليه وسلم ، وورقة بن نوفل الذى أئته خديجةُ فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فى ابتداء النبوة حين جاءه الملكُ بحِراءَ . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى الزبير طائفةً بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بنو بدر ، وبنو مصلح ، وبنو رمضان .

ومن بنى مُصعب بن الزبير جماعةٌ يعرفون بجماعة محمد بن وراق . ومن ولد عروة ابن الزبير بنو غنى .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصي ، ولبنى عبد مناف فى قريش النسب الصميم ؛ والحسب الكريم ، وإلى هذا أشار أبو طالب بقوله :
إِذَا أَفْخَرْتَ يَوْمًا قُرَيْشٌ بِمَفْخَرٍ * فَعَبْدُ مَنْفٍ أَصْلُهَا وَصِمُّهَا
ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — بنو عبد شمس بن عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أمية ؛ وهم بنو أمية الأكبر وأمية الأصغر أبى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أمية الأكبر ، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمون الأعياص ؛ وهم العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، وستة يسمون العنابس ؛ وهم حرب ، وأبو حرب ، وسُفيان ، وأبو سُفيان ، وعمرو ، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن أبى سفيان بن حرب ، والحكم بن العاص . ومن ولده كانت المراءنة خلفاء بنى أمية .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العبال ، ومن عقب أمية الأصغر الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية ، التى كان يشبب بها عمر بن أبى ربيعة ، وكان تزوجها سُهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنِكِحُ الثَّرِيَا سُهَيْلًا * عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ * وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

وقد اختلف في النسبة إلى أمية على مذهبين، أحدهما أنه أموى بضم الهمزة جريا على اللفظ في أمية، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبي حيّان في شرح التسهيل، الثانى أنه ينسب إليها أموى بفتحها لأن أمية تصغير أمة فإذا نسبت رددته إلى أصله وعليه أقصر الجوهري.

(١)
القبيلة الثانية — نؤفل، وهم بنو نؤفل بن عبد مناف، ومنهم نافع بن طريب ابن عمرو بن نؤفل الذى كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان نؤفل وعبد شمس متآلفين بجرى بنوهما على ذلك.

القبيلة الثالثة — بنو المطلب، وهم بنو المطلب بن عبد مناف، وكان المطلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدم ذكره بجرى بنوهما على ذلك، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم "لَمْ يَفْتَرِقْ هَاشِمٌ وَالْمُطَلِبُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامَ"، ومن بنى المطلب الإمام الشافعى رضى الله عنه.

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وأسمه عمرو، وسمى هاشما لهشمه الثريد أيام المجاعة؛ وفي ذلك يقول الشاعر:

عَمَرُوا الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ * وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْتُنُونَ عِجَافُ

وأتته إلى سيادة قريش. وكان له على حاشية عمود النسب أربعة أولاد. وهم نضلة، وأسد، وصيفى، وأبو صيفى، ولم يشتهروا كل الأشتار.

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم، وكان له اثنا عشر ولدا: عبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والعباس،

(١) كذا في سبائك الذهب أيضا والذي في العقد الفريد شافى بن طريب.

وَضَرَّازَ، وَحَمْزَةَ، وَجَمَلٌ، وَأَبُو لَهَبٍ، وَقُتَمٌ، وَالغَيْدَاقُ الْمَلْقَبُ بِالْمُقَوِّمِ، وَالْحَارِثُ أَعْمَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خِلافٍ فِي الْعَدَدِ فِيهِمْ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَالْعَقَبُ مِنْهُمْ لِسِتَّةٍ: حَمْزَةُ وَالْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَبُو لَهَبٍ، وَأَبُو طَالِبٍ، وَالْحَارِثُ، وَعَبْدُ اللَّهِ.

فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَمِنْ وَلَدِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَلَاصَةُ الْوُجُودِ، وَزُيْنَةُ الْعَالَمِ. وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَمِنْ وَلَدِهِ الْخُلَفَاءُ مِنْ زَمَنِ أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ أَوَّلِ خُلَفَائِهِمْ وَهَلُمَّ جَاءُوا إِلَى الْمُسْتَعِينِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ خَلِيفَةِ الْعَصْرِ. وَأَمَّا حَمْزَةُ فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ عَقِبَهُ أَنْقَرَضَ. وَأَمَّا أَبُو طَالِبٍ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ، وَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَجَعْفَرٌ، وَعَقِيلٌ، فَمِنْ وَلَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقِبَهُمَا قَدْ مَلَأَ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّ مِنْهُمْ بِصَعِيدِ مِصْرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْجَعْفَرِيَّةِ بَنِي جَعْفَرِ الصَّادِقِ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَقَالَ مَسْكَنُهُمْ مِنْ بَحْرَى مَنَقْلُوطٍ إِلَى سَمْلُوطٍ غَرْبًا وَشَرْقًا، وَعَدَّ مِنْ بَطُونِهِمُ الْحَيَادِرَةَ، وَهُمْ أَوْلَادُ حَيْدَرَةَ، وَالسَّلَاطِنَةَ، وَهُمْ أَوْلَادُ أَبِي بُحَيْشٍ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ الشَّرِيفُ حِصْنُ الدِّينِ بْنُ تَغْلِبٍ صَاحِبُ دَرَوْزَ سَرَبَامٍ مِنَ الْأَشْمُونِينَ، وَبِهِ عَرَفَتْ بَدْرُوةُ الشَّرِيفِ، وَكَانَ قَدْ سَمَتْ نَفْسَهُ إِلَى الْمُلْكِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ وَبَقِيَ حَتَّى مَلَكَ الظَّاهِرُ بَيْبَاسَ، فَأَعْمَلَ لَهُ غَوَائِلَ الْغَدْرِ حَتَّى قَبِضَ عَلَيْهِ وَشَنَقَهُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ. قَالَ وَمِنْ بَنِي الْحُسَيْنِ قَوْمٌ بِحَرَجَةِ مَنَقْلُوطٍ، وَبَنِي الْحُسَيْنِ هَؤُلَاءِ تَعْرِفُ الْقَرْيَةَ الْمَسْمَاةَ بِبَنِي الْحُسَيْنِ. وَفِي أَسْيُوطَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَوْلَادِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ يُعْرِفُونَ بِأَوْلَادِ الشَّرِيفِ قَاسِمٍ. وَذَكَرَ فِي "مَسَالِكِ الْإِبْصَارِ" أَنَّ بَسَامِيَّةً وَحَلَبَ وَبِلَادَهُمَا جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي الْحُسَيْنِ.

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام ببلاد الشام بوادي بنى زيد، وبصرخدا
وبلادها جماعة من عامر بن هلال، يدعون أنهم من بنى جعفر بن أبي طالب أيضا .
وفي بعض قُرَى أذربيجات قوم يدعون أنهم منهم . وأما الحارث وأبو لُهب فقد ذكر
في العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمجمله .

الضرب الثالث

(من العرب الموجودين المتردد في عروبتهم)

وهم البربرُ (ببائين موحدتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة
في الآخر) . قال الجوهرى : ويقال فيهم البرابرة والهاء للعجمة والنسب ولا يمتنع
حذفها . وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النساين إلى أنهم
من العرب . ثم اختلف في ذلك ف قيل أوزاع من اليمن ، وقيل من غسان وغيرهم
تفرقوا عند سبيل العرم قاله المسعودى ؛ وقيل خلفهم أبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن
حين غزا المغرب ؛ وقيل من ولد لقمان بن حمير بن سبأ ، بعث سرية من بنيهِ إلى
المغرب ليعمره ، فتلوا وتناسلوا فيه ؛ وقيل من نخم وجدام ، كانوا نازلين بفلسطين
من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلبثوا إلى مصر فمنعهم ملوكها
من نزولها فذهبوا إلى المغرب فنزلوه ؛ وذهب قوم إلى أنهم من ولد لقشان بن
إبراهيم الخليل عليه السلام . وذكر الحمداني أنهم من ولد بربر بن قيذار بن إسماعيل
عليه السلام ، وأنه ارتكب ذنبا فقال له أبوه البربر أذهب يا برفا أنت يبر ، وقيل
هم من ولد بربر بن ثميلا بن مازيع بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل
من ولد بربر بن كسلاجيم بن حام بن نوح ؛ وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو
ابن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ؛ وقيل من ولد قبط بن حام بن نوح ؛

وقيل أخلاط من كنعان والعليق ؛ وقيل من جبر ومصر والقبط ؛ وقيل من ولد جالوت ملك بنى إسرائيل ، وإنه لما قتله داود تفرقوا في البلاد فلما غزا إفريقيش البلاد نقلهم من سواحل الشام إلى المغرب ، وهو الذى رجه صاحب العبر . وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلى أنهم من العرب وإن لم يتحقق من أى عرب هم ، وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة ، قال فى العبر : وهى على كثرتها راجعة إلى أصلين لا تخرج عنهما : أحدهما البرانس ، وهم بنو برنس بن بربر . والثانى البتر ، وهم بنو مادغش الأبتربن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلى سبعة أصول ، وهى اردواحة ، ومصمودة ، وأوربة ، وعجبة ، وكامة ، وصنهاجة ، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة ، وهسكورة ، وكرولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجم الغفير ؛ والذى تدعو الحاجة إلى ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلى ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبه إليهم ، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — مضمودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو مضمودة بن برنس بن بربر . قال فى العبر : وهم أكبر قبائل البربر ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم شعوبا ، ومنهم الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلى الآن .

ومن مضمودة هتانة (بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدي بن تومرت المقدم ذكره ، وهو الذى ينسب إليه الحفصيون ملوك إفريقية القائمون بتونس إلى الآن على ما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممالك .

القبيلة الثانية — زِنَانَة (بكسر الزاي وفتح النون وبعد الألف تاء مشناة فوق مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بطن من البُتْرِ بن البربر . قال في العبر : وأسم زِنَانَة جانا بالحم ويقال شانا بالشين ، آبن يحيى ، بن صولات ، بن ورساك ، بن ضرى ، بن رحيك ، بن مادغش ، بن بربر . ونقل آبن حزم عن بعضهم أن ضرى ، بن شقعو ، بن تبدواد ، بن ثملا ، بن مادغش ، بن هوك ، بن برسق ، بن كداد ، بن مازيع ، بن هراك ، آبن هريك ، بن بدا ، بن بديان ، بن كنعان ، بن حام ، بن نوح عليه السلام . وقيل : جانا آبن يحيى ، بن ضريس ، بن جالوت ، بن هريك ، بن جديلات ، بن جالود ، بن رديلات ، آبن عصى ، بن بادين ، بن رحيك ، بن مادغش الأبر ، بن قيس عيلان ، وحينئذ تكون من العرب العدنانية . وقيل : جالوت ، بن جالود ، بن ديال ، بن قحطان ، بن فارس فتكون من الفرس . قال في العبر : وترغم نَسَابَة زِنَانَة الآن أنهم من حمير من التابعة فيكونون من القحطانية ؛ وبعضهم يقول إنهم من العالقة . وقد تقدّم عددهم في العرب .

ومن زِنَانَة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المشناة تحت ونون في الآخر) وهم بنو مَرِين ، بن ورتاجن ، بن ماخوخ ، بن وجريج ، بن فائق ، آبن بدر ، بن يحفت ، بن عبد الله ، بن زرتييص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رحيك ، بن واشين ، بن نصبين ، بن سراء ، بن احيا ، بن ورسيك ، بن اديت ، بن جانا ، وهو زِنَانَة . ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلى الآن على ما يأتى ذكره في الكلام على المسالك والممالك إن شاء الله .

ومن زِنَانَة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القائمون بها إلى الآن .

القبيلة الثالثة — صَنْهَاجَة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بنو صَنْهَاجَة ، بن برنس ، بن بربر .

وقيل صنهاج، بن أوريف، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من خير من عرب اليمن
قاله ابن الكلبي والطبري والبيهقي والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني .

وحكى ابن حزم : أن صنهاج إنما هو ابن امرأة أسماها بصلى وليس له أب معروف
وأنها تزوجت بأوريف، وهو معها، فولدت له هؤارة، فكان صنهاج أخا هؤارة لأمة .
ومن صنهاجة لمتونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المشناة فوق وفتح النون
وهاء فى الآخر) ؛ ومن لمتونة ملوك المزابيين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف
ابن تاشفين باني مدينة مراکش من الغرب الأقصى ، وهم الذين أنقرض ملكهم
بدولة الموحدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال فى العبر : وهم قبيلتان :
القبيلة الأولى — هؤارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملّة بعد الألف
وهاء فى الآخر) ، وهم بنو هؤارة بن أوريف ، بن برنس ، بن بربر . وذكر الحمداني أنهم
من ولد بر ، بن قيذار ، بن إسماعيل عليه السلام . قال فى العبر : ونسأبتهم يقولون
إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عاملة إحدى بطون قضاة ، وتارة
يقولون إنهم من ولد المسور ، بن السكاسك ، بن وائل ، بن حمير ، وتارة يقولون من ولد
السكاسك ، بن أشرس ، بن كندة ، فيقولون هؤار ، بن أوريف ، بن حيور ، بن المثنى ،
ابن المسور . وقد عدّ الحمداني من بطونهم بالديار المصرية بنى مجريش ، وبنى
اسرات ، وبنى قطران ، وبنى كريب ، ولكنهم الآن قد آتست بطونهم ، وكثرت
شعوبهم ، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد ، وأولاد مامن ، وبندار ، والعرايا ، والشللة ، وأشخوم ، وأولاد
مؤمنين ، والرابع ، والروكة ، والبروكية ، والبهايل ، والأصابعة ، والدناجلة ، والمواسية

(١) فى العبر يدون هاء التأنيث وقد اختلف الأصل الذى بيدنا فتارة يثبتها وتارة يحذفها .

والبلازد ، والصوامع ، والسدادرة ، والزبانية ، والخيافشة ، والطرده ، والأهله ،
وازلتين ، واسلين ، وبنو قير ، واثيه ، والتبابعة ، والغنائم ، وفزارة ، والعبادة ،
وساورة ، وغلبان ، وحديد ، والسبعة . وذكروا في "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار
المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلى العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر على
ما ذكره إلى آخر المائة الثامنة في الدولة الظاهرية الشيعية برقوق فغلهم على البحيرة
زنارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلى صعيد مصر ، ونزلوا به
بالأعمال الإنحيمية في جرجا وما حولها . ثم قَوِيَ أمرهم ، واشتد بأسهم ، وكثر
جمعهم ، حتى آتَشَرُوا في معظم الوجه القبلي فيما بين أعمال قوص ، وإلى غربي الأعمال
البهنسية ، وأُقْطِعُوا بها الإقطاعات ، وصارت الإمرة في بلاد إنحيم لأولاد عمر ،
وفي أعمال البهنسا وما حولها لأولاد غريب ، والأمر على ذلك إلى الآن .

(١١)
القبيلة الثانية — لَوَّاثَة (بفتح اللام والواو والتاء المثناة وهاء في الآخر) قال
الحمداني : ويقال لَوَّاثَا بالألف ، وهم بنو لَوَّاثَا الأصغر ، بن لَوَّاثَا الأكبر ، بن رحيك ،
ابن مادغش الأثر ، بن بربر . قال الحمداني : وهم يقولون إنهم من قيس من
غطفان ، بن سعد ، بن قيس عيلان . وذكروا عن بعض النسائيين أنهم من ولد بر ، بن
قَيْذَار ، بن إسماعيل عليه السلام ، وأنه تزوج امرأة من العاليق فولدت له أولادا
منهم لَوَّاثَة .

وحكى ابن حزم عن بعض النسابة : أن لَوَّاثَة من القبط . ثم قال : وليس بصحيح .
قال الحمداني : ولهم بمصر بطون كثيرة ، منهم بنو بلار ، وجد وخاص ، وبنو مجدول
وبنو جديدي ، وقطوفة ، وبركين ، ومالو ، ومزورة . قال : وبنو جديدي تجمع أولاد

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط في باب التاء المثناة من فوق فليتب .

قريش، وأولاد زَعَاذِع، وهم أشهر مَنْ في الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاة وواهلة .
وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن .
ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسية، وهم بنو محمد، وبنى على، وبنو زرار،
ونصف بنى شهلان .

وأما الفرقة التي بالجزية، فبنو مجدول، وسقارة، وبنى أبى ككثير، وبنى
الجلاليس . قال : ^(١) ويقال لهذه الفرقة جد وخاص، ويقال للأولى البلارية، ومنهم
مَغَاة، ولهم سَمْلُوط إلى الساقية، ولبنى بركين قُلُوسًا وما معها إلى بحرى طنبدى،
ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسَقَط أبو حرجا إلى طنبدى، وإهريت . ومنهم
بنو محمد، وبنى على المقدم ذكرهما، وأما زرارهم بنو زعاذع .

وأما مزورة، فبنو وركان، وبنى غرواسن، وبنى جماز، وبنى الحكم،
وبنو الوليد، وبنى المجاج، وبنى الحرمة .

وأما بنو زرار . فن بنى زرية، ومنهم نصف بنى عامر، والحماسنة، والضباعنة،
وهم في إمارة بنى زعاذع . ومنهم أيضا بنو زيد وأما زرارهم أولاد قريش، ومساكنهم
النوية، وبالجزية منهم صلامس : عرب البدرشين، وبنو منصور : عرب منية
رهينة، وبنو بكم : عرب سقارة، وبنو مجدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبهم
تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيى، والسوة، وعبيد،
ومصلة، وبنو مختار . ومن لوائه هؤلاء زُتارة (بضم الزاى وتشديد النون وألف
ثم راء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم بنو زُتارة من ولد بر، بن قينار، بن إسماعيل
عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوارة، وأكثر زُتارة ببلاد المغرب، ومنهم جماعة

(١) في السبائك بنو الجلاليس بالجيم وحرر .

(٢) في معجم ياقوت طنبذة بالذال المعجمة وهاء التأنيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمداني من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش ، وهم مزداشة ، وبنى صالح ، وبنى سام وزمران ، وأوريقة ، وعزهان ، ولقان . وزاد بعضهم بنى حيون ، وواكدة ، وفرطيطة ، وغرجومة ، وطازولة ، ونفاث ، وناطورة ، وبنى السعوية ، ومزداشة ، وبنى أبى سعيد ، وهم عرب بدر بن سلام . ومن لوائه أيضاً مزانة (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) ، وهم بنو مزانة ، بن لوائه الأصغر ، ومنازلهم من البحيرة غرباً إلى العقبة الكبيرة ببرقة .

المقصد الثالث

(فى معرفة أنساب العجم)

وهم من عدا العرب من الفُرس ، والتُرك ، والرُّوم ، وغيرهم . ويحتاج إلى ذلك فى المكاتبات إلى ملوكهم ، وعقد الهدن معهم ، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولى — التُرك (بضم التاء المثناة فوق وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر) ، وهم الأُمة المشهورة الذين منهم مُلوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى تُرك ، بن كומר بن يافث ، بن نوح عليه السلام ؛ وقيل من بنى طيراش ، بن يافث ، ونسبهم ابن سعيد إلى ترك ، بن عابر ، بن شمويل ، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق ، وهم الخفشاج ، والطغرغر ؛ وهم التتر . ويقال فيهم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التاء طاء ، والخطا ، والخزلية والخزرب ؛ وهم الغز الذين كان منهم ملوك السلاجقة ، والهياطلة ، وهم الصغندر والغور والعلان ، ويقال : اللان ، والشركس ، والأركش ، والروس فكلُّهم من جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجرامقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء في الآخر)، وهم أهل الموصل في الزمن القديم . قال ابن سعيد: وهم من ولد جرموق، بن آشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجليل (بكسر الجيم وسكون المشاة تحت ولام في الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال ابن سعيد : وهم من بني باسل، بن آشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخزر (بفتح الخاء والزاي المعجمتين وراء مهملة في الآخر) ، وهم التركمان . في الإسرائيليات أنهم من ولد توغرىجا، بن كورم، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من بني طيرايش بن يافث؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المشاة تحت وفتح اللام وميم في الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بني بويه الخارجين على خلفاء بني العباس ببغداد . قال في العبر : هم من بني ماداي، بن يافث، بن نوح؛ وقال ابن سعيد : من بني باسل، بن آشور، بن سام، بن نوح، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الروم وضبطهم معروف ، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القسطنطينية الآن؛ قيل هم من بني كيثم بن يونان، وهو يابان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد رومي، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رعويد ابن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهري : من ولد روم، بن عيصو بن إسحاق .

السابعة — السريان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المشاة تحت

وألف ثم نون)، قال آبن الكلبي : من بنى سُوريان، بن نيط، بن ماش، بن آدم،
آبن سام، بن نوح .

الثامنة — السُّند (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر)،
في الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح ؛ وحكى
الطبرى عن آبن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وضبطهم معروف . قال آبن سعيد : جميع أحيائهم من ولد
حام بن نوح ؛ ونقل الطبرى عن آبن إسحاق : أن الحبشة من ولد كوش بن حام
والثوبة، والزَّنج، والزَّغَاوة من ولد كنعان بن حام . وذكر آبن سعيد : أن الحبشة
من بنى حبش والثوبة من ولد ثوبة أو بنى نوبى ، والزَّنج من بنى زنج ، ولم يرفع
في نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام ، وأنهم من بنى غيه .

العاشر — الصَّقالبة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة
وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث
آبن نوح، وقيل هم من بنى اشكاز، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة — الصَّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صيني، بن ماغوغ
آبن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرخ
الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبرانيون (بكسر العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح
الراء المهملة وألف بعدها نون مكسورة وياء مثناة تحتٌ مشددة مضمومة وواو
ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبرى : وهم من
ولد عابر، بن شالخ، بن أرغشذ، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة في الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأكاسرة . قال ابن إسحاق : هم من ولد فارس ، بن لاوذ ، ابن سام ، بن نوح . وقال ابن الكلبي : هم من ولد فارس ، بن طيراش ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح ؛ وقيل من ولد طيراش ، بن همدان ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل من بنى أميم ، بن لاوذ ، بن سام . ووقع للطبري : أنهم من ولد رعويل ، بن عيصو ، بن إسحاق ، ابن إبراهيم عليه السلام . قال في العبر : ولا آلتفات إلى هذا القول لأن ملوك الفُرس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجم في الآخر) قيل من ولد طوبال ، بن يافث ؛ وقيل من ولد غطرما ، بن كומר ، بن يافث .
الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم أهل مصر في القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم ، بن قفط ، بن مضر ، بن بيسر ، بن حام ، بن نوح ؛ وعند الإسرائيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة في الآخر) ، وهم أهل الأندلس في القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل هم من ولد قُوط ، بن حام ، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم بنو أيوب ملك مصر بعد الفاطميين . قال في العبر : هم من بنى إيران بن أشور ، بن سام ، بن نوح . قال المقرئ الشهابي : ابن فضل الله في كتابه "التعريف" : ويقال في المسلمين الكُرد ، وفي الكفار الكرج ، وحينئذ فيكون الكُرد والكُرج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكنعانيون (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة وضم الياء المثناة تحت المشددة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — الآلان (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا قصدوا سواحل الشام في الدولة الأيوبيّة ومواطنهم في شماليّ البحر الروميّ غرباً بشمال . قال في العبر : وهم من ولد طوبال ، بن يافث ، بن نوح .

العشرون — النبط (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر)، وهم أهل بابل من العراق في الزمن القديم، وإليهم تنسب الفلاحة النبطيّة لابن وحشيّة . قال ابن الكلبيّ : هم من بنى نيط ، بن ماس ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . وقال ابن سعيد : هم من بنى نيط ، بن آشور ، بن سام ، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهند وضبطه معروف . في الإسرائيليات أنهم من ولد دادان ، بن رعماء ، بن كوش ، بن حام ، ونقل الطبري عن ابن إسحاق أنهم من بنى كوش ، بن حام ، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأرمن (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون في الآخر) وهم أهل إرمينية الذين بقاياهم ببلاد سيس ؛ قيل هم من ولد قهويل ، بن ناحور ، بن تارخ ، وهو آزر ، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأشبان (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشع ، بن يافث ، بن نوح . وعند الإسرائيليين من ولد ياون وهو يونان بن يافث ، وعند آخرين أنهم من شعوب بنى عيصو بن

إسحاق؛ وقال الطبرى: أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحكماء شرقاً الخليج القُسْطَنْطِينِيّ، وهم من ولد يونان، وهو ياون، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقي: هم من ولد يونان، بن خلجان، بن يافث . وشذ الكندى فقال: يونان، بن عابر، بن شالخ، ابن أرغشذ، بن سام بن نوح؛ بفعل يونان أخا لقحطان أبى عرب اليمن . وقال : لأنه خرج من بلاد العرب مغاضباً لأخيه قحطان فزل شرقاً الخليج القُسْطَنْطِينِيّ؛ ورد عليه أبو العباس الناشئ بقوله :

تُحَلِّطُ يُونَانًا بَقَحْطَانَ ضَلَّةً * لَعَمْرِي لَقَدْ بَاعَدْتَ بَيْنَهُمَا جِدًّا

ثم اليونانية على ثلاثة أصناف اللّطِينِيّون، وهم بنو لَطين بن يُونان، والإغريقيّون وهم بنو إغريق بن يونان، واللّكيم، وهم بنو اللّكيم بن يونان وهى أصل الروم فيما يقال على ما تقدّم .

الخامسة والعشرون زُوَيْلَة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المشناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل بَرْقَة فى القديم ، ومنهم الطائفة الذين وصلوا صُحْبَة جوهر المُعزّى باني القاهرة المنسوب إليهم باب زُوَيْلَة بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حوبلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون ياجوج وماجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثالث عشر

(المعرفة بمفآخرات الأئم ومناقرآتهم ، وما جرى بينهم في ذلك من المحآورات والمراجعات والمناقضات ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه آحتياج الكاتب إلى ذلك)

(١) لاخفاء أنه يتعين على الكاتب معرفة المفآخرات الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه الآفتخار التي يمدح بمثلها : مما يُستعان بمثله على المدح والإطراء الواقع في الولايات وما يُفَضَّل به كل واحد من البلقاء على خَصمه ، وما يردُّ عليه من الأجوبة المبطلّة له لينسج على منوال ذلك فيما يرد عليه من المخاطبات ، والمكآبات عند دعاية ضرورته إليه ، وآحتياجه إلى إيراده .

المقصد الثاني

(في ذكر أنموذج من المفآخرات ، والمنافرات يُنسج على منواله)

فأما المفآخرات، فمنها ما روى أنه لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفد بني تميم سنة الوفود بعد فتح مكة ، فيهم عطارذ بن حاجب، بن زُرارة، بن عُدَس التميمي، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث، ونعيم بن زيد، وعُتْبة بن حصن ابن حذيفة بن بدر، والأقرع بن حابس ، في لَفَّهم ولَفَّيفهم ، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، من وراء حُجراته أن أخرج إلينا يا محمد، فتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من صياحهم فخرج إليهم — فقالوا : يا محمد جئناك

(١) كله والتمكن من معرفة الخ كما يفيد السياق .

لِنَفْأَحِرْكَ . فَأَذِنَ لِشَاعِرِنَا وَخَطَبِنَا - قَالَ "قَدْ أَذِنْتُ لَخَطِيبِكُمْ فليَقُلْ" ، فقام عطارِدُ بن حاجِبٍ فقال :

"الحمد لله الذى لَهُ عَلَيْنَا الْفَضْلُ ، وهو أَهْلُهُ ، الذى جَعَلَنَا مُلُوكًا ، ووهبَ لَنَا أَمْوَالًا عَظَامًا نفْعَلُ منها المعروف ، وجَعَلَنَا أَعَزَّ أَهْلَ الْمَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عِدَدًا ، وَأَشَدَّهُ عُدَّةً ، قَمْنُ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ ؟ أَلَسْنَا بِرُءُوسِ النَّاسِ وَأَوَّلِيْ فَنَظْلِهِمْ ؟ فَمَنْ فَأَحْرَنَا فليَعُدِّدْ مِثْلَ مَا عَدَدْنَاهُ ، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَا كَثَرْنَا الْكَلَامَ وَلَكِنَّا تَحِيَّيْنَا عَنِ الْإِكْثَارِ ، وَأَقُولُ هَذَا لِأَنَّا تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا ، وَأَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرِنَا" ، ثُمَّ جَلَسَ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لثابت بن قيس الخَزْرَجِيُّ : "قُمْ فَأَجِيبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ" ، فقام ثابت بن قيس فقال :

"الحمد لله الذى السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ خَلَقَهُ ، قَضَى فِيهِنَّ أَمْرَهُ ، وَوَسَّعَ كَرِسِيِّهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ فِعْلِهِ ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكًا وَأَصْطَفَى مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولًا ، أَكْرَمَهُ نَسَبًا ، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثًا وَأَفْضَلَهُ حَسَبًا ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَائْتَمَنَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، وَكَانَ خَيْرَةً مِنَ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، فَأَمَّنَ بِرَسُولِ اللَّهِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رِمِهِ ، أَكْرَمُ النَّاسِ أَحْسَابًا ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجُوهًا ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالًا ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ الْخَلْقِ إِجَابَةً ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ ، فَتَحَنَّنَ أَنْصَارُ اللَّهِ ، وَوُزَرَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ، تُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُتَّعَ بِمَالِهِ وَدَمِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَدًا ، وَكَانَ قِتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا ، أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ" .

فقام الزبرقان بن بدر التيمي فقال :

نَحْنُ الْكَرَامُ فَلَا حَى يُفَاخِرُنَا * مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْيَسَعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ * عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ
وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمَنَا * مِنْ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُنَاسِ الْقَزَعُ
وهي أبيات .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت ”ثم فاجب الرجل فيما

قال“ فقال حسان رضى الله عنه :

إِنَّ الذَّوَابَّ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ * قَدْ بَدَّوْا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَابِعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ * تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ يُصْطَنَعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ * أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
مَجِيئَةُ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنْ الْخَلَائِقُ فَاعْلَمْ شَرَّهَا الْيَدْعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ * فَكُلُّ سَبْقٍ لَأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبِعُ
لَا يَرِيقُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ * عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
أَكْرَمَ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شَيْعَتَهُمْ * إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
وهي أبيات .

ويروى أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضْلَنَا * إِذَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ
فَإِنَّا فُرُوعُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارِمِ
وَمَا بُدُورُ الْعَالَمِينَ إِذَا اتَّخَوْا * وَنَضْرِبُ رَأْسِ الْأَصِيدِ الْمُتَفَاقِمِ
وَمَا لَنَا الْمِرْبَاعُ فِي كُلِّ غَارَةٍ * نَغِيرُ بَنَجْدٍ أَوْ بَارِضِ الْأَعَاجِمِ

فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودَدُ الْعَوْدُ وَاللَّندَى * وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعِظَائِمِ
نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا * عَلَى أَنْفٍ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ
نَصَرَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا * بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمِ
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا * وَطَبْنَا لَهُ نَفْسًا بِفِيءِ الْمَغَانِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا * عَلَى دِينِهِ بِالْمُرْهَقَاتِ الصَّوَارِمِ
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا * وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فُخِرْكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبْلُكُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ * لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظُئْرٍ وَخَادِمِ؟
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّقِ دِمَائِكُمْ * وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاً وَأَسْلِمُوا * وَلَا تَلْبَسُوا زِيَا كَرِيٍّ الْأَعَاجِمِ

فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي ! إن هذا الرجل مُراد ،
لخَطِيئِهِ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيئِنَا ، وَلشَاعِرِهِ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا ، وَأَصْوَاتُهُ أَعْلَى مِنْ
أَصْوَاتِنَا ، فَاسْلَمُوا وَأَحْسِنُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، جَوَائِزَهُمْ .

ففى هذا الوفد نزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت : وهذه مكابرة ظاهرة ، وتجاهل فاحش من بنى تميم ، حيث طلبوا المفاخرة
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ العرب على اختلاف شعوبهم ، وتتابع قبائلهم
معتزفون لبني هاشم بالسبق في الشرف ، والتقدم في الفضل ، مع ما فضل الله تعالى به

رسوله صلى الله عليه وسلم ، وَخَصَّه به من رفيع الشَّرَف الذى لم يبلغه نبى مرسل ،
ولا ملك مقرب .

وقد تعرّض أبو نؤاس في بعض أشعاره لمدح بنى تميم ، وبالغ في نفعهم فأغش ، فقال :

تُحَرِّمُهُ خَيْرُ بَنِي خَازِم * وَخَازِمٌ خَيْرُ بَنِي دَارِم
وِدَارِمٌ خَيْرُ تَمِيمٍ وَمَا * مِثْلُ تَمِيمٍ فِي بَنِي آدَمِ

ونقضه عليه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى ، فقال رحمه الله فأجاد
القول ، وفاز بالقدح المعلن فقال :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ * فَمَنْ تَمِيمٌ وَبَنُو دَارِمٍ ؟
وَهَاشِمٌ خَيْرُ قُرَيْشٍ وَمَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فِي بَنِي آدَمِ !

وهو مأخوذ من قول الأول :

قُرَيْشٌ خَيْرُ بَنِي آدَمِ * وَخَيْرُ قُرَيْشٍ بَنُو هَاشِمٍ
وَخَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ أَحْمَدُ * رَسُولُ الْإِلَهِ إِلَى الْعَالَمِ

وإليه ينظر قول ابن عرسية :

لِللَّهِ مِمَّا قَدْ بَرَأَ صَفْوَةٌ * وَصَفْوَةُ الْخَلْقِ بَنُو هَاشِمٍ
وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ * مُحَمَّدٌ النَّوَرُ أَبُو الْقَاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلى حيث قال :

إِذَا مُضِرُّ الْجُرَاءِ كَانَتْ أُرُومَتِي * وَقَامَ بِنَصِيرِي خَازِمٌ وَأَبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَاخٍ وَتَنَاوَلْتُ * يَدَايَ الثَّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

فإنه جعل مُضِرَّ التى هى أرومة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصلَ نخره وقَعْدَدَ
سُودَدَه . فأصاب الفخر في قوله ، وفاز بالشرف في شعره .

قال المولى صلاح الدين الصفدى رحمه الله فى شرح لامية العجم " وإنما ذكر خازما لأنه مولى خزيمة بن خازم التميمى ، وإنما نزل أبوه الموصل فنُسب إليها " .

ومن لطيف ما يحكى أن معاوية بن أبى سفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف ، فقال معاوية " مَنْ أكرمُ الناس أباً وأماً ، وجداً وجدةً ، وعمّاً وعمّةً ، وخالا وخالة ؟ " — فقام الثعنان بن العجلان الزرقى بعد ما أخذ بيد الحسن فقال " هذا أبوه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة ، وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجده خديجة ، وعمّه جعفر ، وعمّته أم هانئ ابنة أبى طالب ، وخاله القاسم ، وخالته زينب ، فهذا هو الشرف الذى لا يدانى والفضل الذى لا يُبارى " .

وقريب من ذلك ما يحكى أنه جرى بين عبد الله بن الزبير وبين معاوية كلامٌ طويل فى آخره — " فقال ابن الزبير ، ما مثلى يهارش ، ولكن عندك من قریش والأنصار ، ومن ساكنى الجحون والآطام مَنْ إن سألتك حملك على محبة أئین من ظهر الجفیر — قال : ومن ذلك — قال هذا ؟ يعنى أبا الجهم بن حذيفة — فقال معاوية تكلم يا أبا الجهم — فقال أعفنى — فقال عزمتُ عليك لتقولن — قال : نعم : أمك هند ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وأسماء خير من هند ، وأبوك أبو سفيان وأبوه الزبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثلاً للزبير ، وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما حكاه ابن الكلبي . قال : قال كسرى للثعنان بن المنذر بوما هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم — قال فبأى شىء ؟ قال : مَنْ كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكامل الرابع فاليث مَنْ قبيلته فيه ويُنسب إليه — قال فأطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر ، وآل حاجب ابن زُرارة ، وآل ذى الجدين ، وآل الأشعث بن قيس بن كندة — قال فجمع هؤلاء

الرَهْطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عَشَائِرِهِمْ وَأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ ، وَقَالَ لِيَتَكَلَّمُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَآثِرِ قَوْمِهِ وَلِيَصْدُقَ ، فَكَانَ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، وَكَانَ أَلْسَنَ الْقَوْمِ ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّ فِينَا الشَّرَفَ الْأَقْدَمَ وَالْأَعَزَّ الْأَعْظَمَ ، وَمَآثِرَهُ لِلصَّنِيعِ الْأَكْرَمِ — فَقَالَ مَنْ حَوْلَهُ وَلِمَ ذَاكَ يَا أَخَا فَزَارَةَ ؟ فَقَالَ أَلَسْنَا الدَّعَائِمَ الَّتِي لَا تُرَامُ ، وَالْعَزَّ الَّذِي لَا يُضَامُ ؟ قِيلَ صَدَقْتَ . ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ فَقَالَ :

فَزَارَةُ بَيَّتَ الْعِزَّ وَالْعِزَّ فِيهِمْ ! * فَزَارَةُ قَيْسٍ حَسْبُ قَيْسٍ نِضَاهُهَا
لَهَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ وَالْحَسْبُ الَّذِي * بَنَاهُ لَقَيْسٍ فِي الْقَدِيمِ رِجَالُهَا
فَهَيْهَاتَ قَدْ أَعْيَا الْقُرُونُ الَّتِي مَضَتْ * مَآثِرُ قَيْسٍ مَجْدُهَا وَفِعَالُهَا
وَهَلْ أَحَدٌ إِنْ هَزَّ يَوْمًا بِكَفِّهِ * إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يَنَالُهَا
فَإِنْ يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لَذَاكَ جَمِيعُهَا * وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ مِنَ النَّاسِ حَالُهَا

* ثُمَّ قَامَ الْأَشْعَثُ الْكَنْدِيُّ ، وَإِنَّمَا أُذِنَ لَهُ أَنْ يَقُومَ قَبْلَ رِبِيعَةَ وَتَمِيمَ لِقَرَابَتِهِ مِنَ النِّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ ، فَقَالَ ، قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَا تُقَاتِلُ عَدِيدَهَا الْأَكْثَرَ ، وَزَحْفَهَا الْأَكْبَرَ ، وَإِنَّا لَغِيَاثُ الْكُرْبَاتِ وَمَعْدِنُ الْمَكْرُمَاتِ — قَالُوا وَلِمَ يَا أَخَا كِنْدَةَ ؟ قَالَ لِأَنَا وَرِثْنَا مَلِكَ كِنْدَةَ فَاسْتَظَلَّلْنَا بِأَفْيَائِهِ ، وَتَقَلَّدْنَا مِنْكَبَهُ الْأَعْظَمَ ، وَتَوَسَّطْنَا بِمُجْبُوحِهِ الْأَكْرَمِ ، ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ ، فَقَالَ :

إِذَا قِسْتَ أَبْيَاتَ الرِّجَالِ بِبَيْتِنَا * وَجَدْتَ لَنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ يُفَانِحُ
فَمَنْ قَالَ كَلًّا أَوْ أَنَا بِمُحْطَةٍ * يَنَافِرُنَا فِيهَا فَتَحْنُ نُحَاطِرُ
تَعَالَوْا فَيَقُورَا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَيْبَا * لَهُ الْفَضْلُ فِيمَا أَوْرَثْتَهُ الْأَكْبَارُ

ثُمَّ قَامَ نِسْطَامُ الشَّيْبَانِيُّ فَقَالَ ” قَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَا بُنَاةُ بَيْتِنَا الَّذِي لَا يَزُولُ ، وَمَغْرَسُ عِزِّهَا الَّذِي لَا يَحُولُ ، قَالُوا وَلِمَ يَا أَخَا شَيْبَانَ — قَالَ لِأَنَا أَدْرِكُهُمُ لِلثَّارِ ، وَأُضْرِبُهُمُ لِلْمَكِّ الْجَبَّارِ ، وَأَقُومُهُمُ لِلْحُكْمِ ، وَأُلْدِّهِمُ لِلنَّصَمِ . ثُمَّ قَامَ شَاعِرُهُمْ فَقَالَ :

لَعَمْرِي بِسْطَامُ أَحَقُّ بِفَضْلِهَا * وَأَوَّلُ بَيْتِ الْعِزِّ عِزُّ الْقَبَائِلِ
 فَسَائِلُ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنْ عِزِّ قَوْمِهَا * إِذَا جَدَّ يَوْمَ الْفَخْرِ كُلُّ مُنَاقِلِ
 أَلَسْنَا أَعَزَّ النَّاسِ قَوْمًا وَنُصْرَةً * وَأَضْرَبَهُمُ لِلْكَبْشِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ
 وَقَائِعُ عِزِّ كُلِّهَا رَبِيعَةٌ * تَذِلُّ لَهَا عِزًّا رِقَابُ الْحَافِلِ
 إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ يُنْكِرِ النَّاسُ فَضْلَهَا * وَعَادَ بِهَا مِنْ شَرِّهَا كُلُّ وَائِلِ
 وَإِنَّا مُلُوكُ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الزَّلَازِلِ

ثم قام حاجبُ بنُ زُرارة التيمي. فقال : قد علمتَ معدَّ أنا فرعُ دعائمنا ، وقادةُ زحفها — قالوا : ولم ذاك يا أخا بني تميم ؟ قال لأننا أكثرُ الناسِ عديداً ، وأنجبهم طراً وليداً ، وأنا أعطاهم للجزيل ، وأحملهم للثقل ؛ ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ أَبْنَاءُ خِنْدَفِ أَنَّنَا * لَنَا الْعِزُّ قَدْماً فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
 وَأَنَا كِرَامُ أَهْلِ مَجْدٍ وَثَرْوَةٍ * وَعِزٌّ قَدِيمٌ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
 فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ وَأَبْنٍ سَيِّدٍ * أَغَرَّ نَجِيبِ ذِي فَعَالٍ وَنَائِلِ
 فَسَائِلُ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنَّا فَإِنَّا * دَعَائِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ

ثم قام قيسُ بنُ عاصم السعديّ فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعُهم في المكرمات دعائم ، وأثبتهم في النابئات مقادِم ؛ قالوا : ولم ذاك يا أخا بني سعد ؟ قال لأننا أدركهم للثَّار ، وأمنعهم للبار ؛ وأنا لا نَنكُلُ إِذَا حَمَلْنَا ، ولا نُزَامُ إِذَا حَلَلْنَا . ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ قَيْسُ وَخِنْدِفُ أَنَّنَا * وَجُلُّ تَمِيمٍ وَالْجَمِيعِ الَّذِي تَرَى
 بَأَنَّا عِمَادُ فِي الْأُمُورِ وَأَنَّنَا * لَنَا الشَّرَفُ الصَّخْمُ الْمُرْكَبُ فِي النَّدَى
 وَأَنَا لِيُوثُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَازِقٍ * إِذَا جَزَّ بِالْبَيْضِ الْجَمَاحُ وَالطَّلَى^(١)

فَنَ ذَا لِيَوْمِ الْفَخْرِ يَعْدِلُ عَاصِمًا * وَقَيْسًا إِذَا مَرَّتْ أُلُوفٌ إِلَى الْعُلَا
فَهِيَهَاتَ قَدْ أَعْيَا الْجَمِيعَ فِعَالُهُمْ * وقاموا بيوم الفخر مسعاة من سعى

فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى جباةهم ،
وأعظم صلاتهم ، وكرم مأبهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعدّ البيوتات المشهورة بعظم القدر والشرف :
تعدّ بيت هاشم بن عبد مناف ، وتعدّ أربعة ، أولها بيت آل حذيفة بن بدر ، وبيت
آل زُرارة الدارميين : بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الجدين : عبد الله بن عمرو بن
الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بن كعب
بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يُعدّون في البيوتات إنما كانوا ملوكا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَفَاخِرَةَ قَدْ تَكُونُ بِحَقِيقَةِ الْحَسَبِ . وقد تكون فيها الفصاحة واللسن
مَقَامَ الْحَسَبِ : كَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ الطَّائِي يَفْتَخِرُ :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرْضِعَ الْمَجْدُ فِيهِمْ * وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهْلٌ وَيَا فِعْ
مَضَوْا وَكَأَنَّ الْمَكْرُمَاتِ لَدِيهِمْ * لَكُنْزٌ مَا وَصَّوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ
فَأَيُّ يَدٍ فِي الْمَجْدِ مُدَّتْ فَلَمْ يَكُنْ * لَهَا رَاحَةٌ مِنْ مَجْدِهِمْ وَأَصَابِعُ
هُمْ اسْتَوْدَعُوا الْمَعْرُوفَ مَحْفُوظَةً الْإِنَا * فِضَاعَ وَمَا ضَاعَتْ لَدِينَا الْوَدَائِعُ

وقوله أيضا :

جَرَى حَاتِمٌ فِي حَلْبَةٍ مِنْهُ لَوْ جَرَى * بِهَا الْقَطْرُ شَاوًا قِيلَ أَيُّهَا الْقَطْرُ؟
فَقِيَّ ذَخِرَ الدُّنْيَا أَنَاسٌ وَلَمْ يَزَلْ * لَهَا بَازِلًا فَانْظُرْ لِمَنْ بَقِيَ الذُّخْرُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَفْخَرْ بِمَا شَاءَ مِنْ نَدَى * فَلَيْسَ لِحَيٍّ غَيْرِنَا ذَلِكَ الْفَخْرُ
جَعْنَا الْعُلَا بِالْجُودِ بَعْدَ اقْتِرَاقِهَا * إِلَيْنَا كَمَا الْإِيَّامُ يَجْمَعُهَا الشَّمَرُ

قال في شرح اللامية : وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قُرَى حَوْران من الشام، فغير أسم أبيه وأندس في بنى طيء؛ وذكر صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير: من أشعر الناس؟ قال : قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية، وقد أخذ عتزا له فاعتقلها وجعل يَمْصُ صَرْعَهَا، فصاح به أَخْرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دميم، رث الهيئة . وقد سال ابن العزلى لحيته، فقال ترى هذا؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبى، أو تدري لم كان يشرب من صرع العترة؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوت الحباب فيطلب منه؛ ثم قال أشعر الناس من فخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدى : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير في مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بأعترافه لذلك الرجل، وإظهار بخل أبيه . وربما كان الافتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامع حقيقة الافتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبى الحسن الجزار :

أَلَا قُلْ لِلَّذِي يَسْأَلُ * لُ عَنْ قَوْمِي وَعَنْ أَهْلِي
لَقَدْ تَسْأَلُ عَنْ قَوْمٍ * كِرَامِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ
يُرِيقُونَ دَمَ الْأَنْعَامِ * فِي حَزْنٍ وَفِي سَهْلٍ
وَمَا زَالُوا لَهَا يُبْذَوْنَ * نَ مِنْ بَاسٍ وَمِنْ بَذْلِ
يَرْجِيهِمْ بَنُو كَلْبٍ * وَيَحْشَاهُمْ بَنُو عَجَلٍ

وقوله أيضا :

إِنِّي لَمِنْ مَعْشَرِ سَفَكِ الدَّمَاءِ لَهُمْ * دَابٌّ، وَسَلَّ عَنْهُمْ مِنْ رَبِّ تَحْقِيقٍ

تُضَىٰ بِالْدَّمِ إِشْرَاقًا قَوَاضِيَهُمْ * فَكُلُّ أَيَّامِهِمْ أَيَّامٌ تُشْرِيقُ

وعلى هذا المنهج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت على قبر مكتوبا أنا ابن من كانت الرياح طوع أمره ، يحبسها إذا شاء ، ويُطْلِقُهَا إذا شاء ، قال فعظم في عيني ، ثم ألفت إلى قبر آخر قبائله فإذا عليه مكتوب : لا يعتر أحد بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدادين ، يحبس الرياح في كيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، قال : فعجبت منهما يتسابقان ميتين ، فإذا طرق السمع شيء من ذلك ظن السامع أنه في غاية الفخر والشرف حتى يعلم حقيقته ، وأشبه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضع استيعاب القول في المفارقة الحقيقية ولا غيرها .

وأما أيام المنافرة وهي المحاكمة في الحسب ، فن ذلك ما يحكى أن الأعشى أتى علقمة ، بن علاثة ، بن عوف ، بن الأخوص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامة ذوفأش الحميري^(١) من التبابعة ، فسأل الأعشى علقمة أن يتليَه أى يحيره ، فقال له علقمة : أتليك على بنى الأخوص — قال لا يقنعنى — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعنى — قال : فليس عندى أكثر من هذا ، فأتى عامر بن الطفيل بن مالك ابن جعفر بن كلاب ، قال قد أتليك على الجح والإنس ، ثم أتى سلامة فأنصرف من عنده بجباثه .

وكان عامر وعلقمة المذكوران لما أسن أبو برآء وهو عامر بن مالك ، بن جعفر ، ابن ملاعب الأسنة تنازعا في الرياسة .

فقال علقمة كانت لجدى الأخوص وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعد عمك عنها وأنا أسترجمتها فانا أولى بها منك ، فشري الشر بينهما وسارا إلى المنافرة ،

(١) وقع في الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناسخ .

وقدم الأعشى^(١) على تفيئة ذلك فصار هو وليد مع عامر ، وصار مع علقمة الحطيئة ،
والسندري ، وتافرا .

فقال عامر لعلقمة : والله إني لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول
منك قصبا .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك .

فقال علقمة : أنافرك إني لبر ، وإنك لفاجر ، وإني لولود ، وإنك لعافر ، وإني
لعف ، وإنك لعاهر ، وإني لوايف ، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم وقد وقيت لبني عمرو بن تميم .
وقد زعموا أني غدرت بهم وهم كاذبون ؛ ولكني أنافرك : أنا أنحر منك للقاح ،
وخير منك في الصباح^(٢) ، وأطعم منك في السنة الشياح .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس ترغم أني جبان ، ولأن تلقى العدو وأنا
أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلتك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أني
بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطي العشيرة إذا ألمت ؛ ولكني أنافرك : أنا خير
منك أثرا ، وأحد منك بصرا ، وأشرف منك ذكرا .

فقال عامر : أنت رجل فان ، وليس لبني الأحوص فضل على بني مالك
في العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ؛ ولكني أنافرك أني أسمى منك سمة ،
وأطول منك قمه ، وأحسن منك لمه ، وأجعد منك جمه ، وأسرع منك رحمه ،
وأبعد منك هممه .

(١) أى على أنه أنظر القاموس في مادة ف ي أ . (٢) الشياح بالكسر القحط .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيع ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛
ولكنني أنافرك بآبائي وأعمامي .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك فيهم ؛ ولكنني أنافرك : أنا خيرٌ
منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدًّا .

فقال علقمة : قد علمتُ أن لك عَقبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكنني أنافرك أنى
خير منك وأولى بالخير منك .

فقال عامر : إني والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتلُ منك للدِّجَاه ، وخير منك
لِلوَالَاه .

فقال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأخوص على بنى مالك بن
جعفر : إنك ابن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنافرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .
فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : ^(١) غير وتيس وتيس وعتر فأرسلها مثلا نعم على مائة من الإبل إلى مائة
يعطاها الحكم أينما ينفر عليه صاحبه أخرجهما ففعلوا ، ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على
يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو بن الوحيد فسمى الضمين ، وصارت علما عليه
إلى الآن ، ونرج علقمة ومن معه من بنى خالد وعامر فيمن معه من بنى مالك وقد
أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك بن جعفر وهو أبو برء ، فقال : يا عماء
أعنى — فقال : يا ابن أختى سُبْنى ، فقال : لا أُسُبُّك وأنت عمى — قال : فسُبَّ الأخوص —
^(٢)
فقال : عامر ولا أُسُبُّ والله الأخوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد
رَبَعْتُ فيها أربعين مِرْبَاعا فاستعِن بها على منافرتك ، وجعلنا منافرتهما إلى أبى سفيان

(١) هكذا فى الأغاني .

(٢) لعله إبل .

أَبْنُ حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةٍ فَلَمْ يَقُلْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، وَكَرِهَ ذَلِكَ لِحَالِهِمَا وَحَالِ عَشِيرَتِهِمَا، وَقَالَ لَهَا
أَتَمَّا كُرِّبَتِي الْبَعِيرِ الْأَدْرَمَ، وَأَبَى أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا، فَأَنْطَلَقَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ،
فَأَبَى أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا؛ فَوَثَبَ مِرْوَانَ بْنُ سُرَاقَةَ، بَنَ قَتَادَةَ، بَنَ عِمْرُو، بَنَ الْأَحْوَصِ
وَكَانَ مَعَ عُلُقَمَةَ فَقَالَ :

يَا لِقُرَيْشٍ بَيْنُوا الْكَلَامَا * إِنَّا رَضِينَا مِنْكُمْ الْأَحْكَامَا
فَيِينُوا إِذْ كُنْتُمُ الْحُكَمَا * كَانِ أَبُوْنَا لَهُمْ إِمَامَا
وَعَبْدُ عَمْرُو مَعَ الْفِتَا * فِي يَوْمٍ نَحْنُ مُعَلِّمُ الْإِعْلَامَا
يُحْسِنُ فِيهِ السَّرَّ وَالْإِفْدَامَا * وَدِعْلِجُ أَقْدَمُهُ الْإِقْدَامَا
لَوْلَا الَّذِي أَجْشَمْتُمُ إِجْشَامَا * لَا تَحْدَثْتُمْ مَذْجَ أَنْعَامَا

فَأَبَوْا أَنْ يَقُولُوا بَيْنَهُمَا شَيْئًا، فَاتَّيَا غِيلَانَ بْنَ سَلَمَةَ بْنَ مَعْتَبِ بْنِ النَّقْفِيِّ فَرَدَّهُمَا إِلَى
حَرْمَلَةَ بْنِ الْأَشْعَرِ الْمُرِّيِّ، فَرَدَّهُمَا إِلَى هَرِمَ بْنَ قُطَيْبَةَ بْنِ سَنَانَ الْفَرَّارِيِّ، وَإِنَّهُمَا سَاقَا
الْإِبِلَ مَعَهُمَا حَتَّى أَشْتَّتْ وَأَرْبَعَتْ لَا يَأْتِيَانِ أَحَدًا إِلَّا هَابَ أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمَا،
فَوَعَدَهُمَا هَرِمٌ إِلَى الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاتَّيَا لِلْوَعْدِ، وَقَالَ لِبَيْدٍ وَكَانَ مَعَ عَامِرٍ يَوْمَئِذٍ يَرْتَجِزُ :

يَا هَرِمُ، وَأَنْتَ أَهْلُ عَدَلٍ * هَلْ يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِي^(١)
إِنْ يَفْخَرِ الْأَخْوَصُ يَوْمًا قَبْلِي * لِيَذْهَبَنَّ أَهْلُهُ بِأَهْلِي
لَا تَجْعَنَّ شَكْلَهُمْ وَشَكْلِي * وَتَسْلَ آبَاءَهُمْ وَتَسْلِي
* قَدْ عَلِمُوا أَنَّا كَرَامُ الْأَصْلِ *

وقال أيضا :

إِنِّي أَمْرٌ مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ * عَلَقَمَ قَدْ نَافَرْتَ غَيْرَ مُنْفَرٍ
* نَافَرْتَ سَقْبًا مِنْ سَقَابِ الْعَرَعَرِ *

فقال خُفَافَةُ بْنُ عَوْفِ بْنِ الْأَحْوَصِ بن جعفر :

نَهْنِهْ إِلَيْكَ الشَّعْرَ يَا لَيْيِدُ * وَأَصْدُدْ فَقَدْ يَنْفَعُكَ الصَّدُودُ
سَادَ أَبُونَا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا * سُودِدْكُمْ صَغِيرُهُ زَهِيدُ

ثم قال :

إِنِّي إِذَا مَا نُسِي الْحَيَاءُ * وَضَاعَ يَوْمَ الْمَشْهَدِ اللَّوَاءُ
أُنْمِي وَقَدْ حُقَّ لِي النَّاءُ * إِلَى كُھُولِ ذِكْرَهَا سَنَاءُ
إِذَا لَا تَرَالِ حُلُوهُ كَوْمَاءُ * مَبْقُورَةٌ لَسْفِيهَا رُغَاءُ
لَمْ يَنْهَنَا عَنْ نَحْوِهَا الصَّفَاءُ * لَنَا عَلَيْكُمْ سَوْرَةٌ وَلَاءُ
* الْمَجْدُ، وَالسُّودْدُ، وَالْعَطَاءُ *

ثم قال :

أَنْتُمْ عَزَلْتُمْ عَامِرَ بْنَ مَالِكٍ * فِي سَنَوَاتٍ مُضَرَّ الْهَوَالِكِ
* يَا شَرَّ أَحْيَاءٍ وَشَرَّ هَالِكِ *

وكان السندريّ مع علقمة فارتفع صوته، فقبل من ذا ؟ فقال :

أَنَا لِمَنْ أَنْكَرَ صَوْتِي السَّنْدَرِيّ * أَنَا الْفَقِي الْجَعْدُ الطُّوَالُ الْجَعْفَرِيّ
* مِنْ وَلَدِ الْأَحْوَصِ أَخُوَالِي غَنِيّ *

فقال عامر لليد : أجبه ! فرغب عن إجابته، وكان السندريّ يقول لحدته
عيساء ، وكانت أمةً لفاخسة ابنة جعفر بن كلاب ، امرأة شريح بن الأحوص ،
فوقع عليها شريح فولدت له زبّان ، ويزيد ، وشهابا ، فقال ليد :

لَمَّا دَعَانِي عَامِرٌ لِأُسْبَهُمْ * أَبَيْتُ وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَيْسَاءَ ظَالِمًا
أَلَا أَيْنَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكِ * فَلَا زَالَ يَلْقَى فِي الْحَيَاةِ الْمَلَاوِمَا

لِيَكُنَّ السَّنَدِيُّ نَدِيدَنَا * وَأَشْتُمُ أَعْمَامًا عُمُومًا عَمَامًا
وَأَنْشُرُ مِنْ تَحْتِ الْقُبُورِ أَبْوَةً * كِرَامًا هُمْ شَدُّوا عَلَى النَّائِمِ
لَعِبْتُ عَلَى أَكْثَافِهِمْ وَجُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وَسَمُونِي وَلِيدًا وَعَاصِمًا
بَلَى أَيْنَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا مَلُومًا وَلَا يَمًا

ووثب الحطيئة فقال :

مَا يُحْسِنُ الْحُكَّامُ بِالْفَضْلِ بَعْدَمَا * بَدَأَ سَابِقُ ذُو غُرَّةٍ وَجُجُولٍ ؟

حتى أتى على قصيدة كاملة ، ثم قال :

يَا عَامٍ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاجٍ وَمَكْرَمَةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعَاةَ مَنْ جَارِيَتِهِ أُمُّ

وأقام القوم على ذلك أيامًا ، فأرسل هيرم إلى عامر فأنابه سرًا لا يعلم به أحد ، فقال : يا عامر كنت أحسب أن لك رأيًا ، وأن فيك خيرا ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتتفر رجلا لا تفخر أنت ولا قومك إلا بأبائه ، فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال عامر : أنشدك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبدا ! هذه ناصيتي لك فأجرزها وأحكم فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسو بيني وبينه — فقال أنصرف فسوف أرى رأيي : فخرج عامر وهو لا يشك أنه سيفضله عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سرا ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فرد عليه علقمة بما رد به عامر وأنصرف وهو لا يشك أنه ينفر عامرا عليه ، ثم إن هيرم أرسل إلى أخيه وبنى أخيه : إني قاتل غدا بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة ، وليطرد بعضهم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان ندينى وأجعل — أى ندى . وعما عا أى متفرقة .

هَرِمَ بجلَسِ مجلِسَه وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقال لبيد :

يَا هَرِمُ ابْنَ الْأَكْرَمِينَ مَنَصِبَا * إِنَّكَ قَدْ وَلَيْتَ أَمْرًا مُعْجَبَا
فَأَحْكُمْ وَصَوِّبْ رَأْيَ مَنْ تُصَوِّبَا * إِنَّ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ تُرْتَبَا
لَحَمِيرُنَا خَالًا وَأُمًّا وَأَبَا * وَعَامِرٌ خَيْرُهُمَا مُرَكَّبَا
* وَعَامِرٌ أَدْنَى لِقَيْسٍ نَسَبَا *

فقال هَرِمُ : إنكما يابني جعفر قد تحاكمتما عندي وأنتما كركبتي البعير الفحل تقعان الأرض معا ، فليس منكما واحد إلا وفيه مالميس في صاحبه ، وكلاكما سيد كريم ، فعمد بنو هَرِمَ وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هَرِمُ ، وفرقوا بين الناس ، ولم يفضل هَرِمَ واحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يجلب بذلك شرا على الفئتين ، وهما أبنا عم ، فلما رأى ذلك الأعشى ، خرج وهو يقول :

شَاقَكَ مِنْ قَتْلَةِ أَطْلَالُهَا * بِالشَّطِّ فَالْوِثْرِ إِلَى حَاجِرِ
وَقَدَّرَاهَا وَسَطَ أَثْرَاهَا * فِي الْحَيِّ ذِي الْبَهْجَةِ وَالشَّامِرِ
إِذْ هِيَ مِثْلُ الْغُضَنِ هَيَالَةً * تَرُوقُ عَيْنِي ذِي الْحِجَا الزَّائِرِ
كَكْدُمِيَّةٍ صُورَ مِخْرَابِهَا * بِمُذَهَبٍ فِي مَرَمِيٍّ مَائِرِ
تَشْفِي غَلِيلَ النَّفْسِ لِأَهْلِهَا * حَوْرَاءُ تَسْبِي نَظَرَ النَّاطِرِ
عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ سُرِبَتْ * هَيْفَاءُ مِثْلُ الْمُهْرَةِ الضَّامِرِ
مَمْشُوقَةُ الْقَدِّ غُلَامِيَّةً * مَوْصُوفَةٌ بِالْخُلُقِ الطَّاهِرِ
قَدْ نَهَدَ الشَّدَى عَلَى نَحْرِهَا * فِي مُشْرِقِ ذِي صُبْحِ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدْتُ مَيِّتًا إِلَى نَحْرِهَا * عَاشَ وَلَمْ يُقْلَ إِلَى قَائِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا * يَا عَجَبَا لِمَيِّتِ النَّاشِرِ
عَلَّمَمَ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِرٍ * النَّاْقِضِ الْأَوْتَارِ وَالْوَاتِرِ

والفارس الخيل يجيل إذا * نار غبار الكعبة الشائر
 سدت بني الأحوص لم تعدهم * وعامر ساد بني عامر
 إن الذي فيه تماريتما * بين السامع والناظر
 حكمتموه فقصي بينكم * أبلج مثل القمر الزاهر
 لا يأخذ الرشوة في حكمه * ولا يبالي غبن الخاسر
 فأعجب الدهر متى سويا ؟ * لم ضاحك من ذا ومن ساجر ؟
 فأقن حياء أنت ضيعته * مالك بعد الشيب من عاذر
 ولست بالأكثر منهم حصي * وإنما العزة للكاثر
 أقول لما جاءني فخره * سبحان من علقمة الفاخر !
 علقم لا تسفه ولا تجعل * عرضك للوارد والصادر
 قد قلت قولاً فقصي بينكم * وأعترف المنفور للنافر

وعاش هريم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هريم أى الرجلين
 كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : أو قلت ذلك اليوم يا أمير المؤمنين ، عادت جدعة ،
 وبلغت شقيقات هجر — فقال عمر رضى الله عنه : ” نعم مستودع السر أنت يا هريم !
 مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم ، وإلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم “ .

قال أبو عبيدة : ومات علقمة بجوران وهو والى عمر بن الخطاب . وأما عامر
 ابن الطفيل فأصابته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته الغدة ومات
 في بيت سلوية ، فقال : أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية ؟

وفى هذه القصة مقنع فى المناورة عن غيرها ، وفى كتاب ” الريحان والريعان “
 لبعض الأندلسيين جملة من هذه المقارحات والمناورات :

النوع الثالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قد ذكر في "حسن التوسل" : أن الكاتب يحتاج إلى معرفة أيام العرب ، وتسمية الأيام التي كانت بينهم ، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم من الأشعار ، والمناقضات ؛ وذكر فارس مشهور ، أو ملك مذكور ، أو واقعة معينة لشخص خاص ؛ وما ادّعاء كل منهم لنفسه أو ليومه : لما في ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة قديمة ، أو يرد عليه في مكتبة من ذكر يوم مشهور ، أو فارس معين ، ونحو ذلك مما مضى عليه أمر الجاهلية ، أو حدث في الإسلام ؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع ، علما بما جرى منها ، لم يدرك كيف يجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصد الثاني

(في ذكر أيام من ذلك تُرشد إلى معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا ، وأعظمها حربا . يوم خُراز (خُراز اسم جبل بين البصرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرفت به) ؛ وكانت الحرب فيه بين بني ربيعة الفرس ، وهو ربيعة نزار ، وبين قبائل اليمن ؛ وكانت الغلبة فيه لبني ربيعة ، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا ، وكان قائد ربيعة كليب بن ربيعة ملك بني وائل (واسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفرس ؛ وكان قد مُلِّك على بني معد وقبائل

جموع العرب وهزمهم وعظم شأنه ، وبقى زمانا من الدهر ؛ ثم داخله زهو شديد ، وبغى على قومه فصار يحيى عليهم مواقع السحاب ، ولا يرعى حياه ، ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى ، فلا يصاد ؛ ولا ترد إبل مع إبله ؛ ولا توقد نار مع ناره ؛ وبقى كذلك حتى قتله جساس بن مرة الوائلى أيضا ؛ ولما قُتل كليب توالى الحروب بسبب قتله بين بنى تغلب ، وبين بكر أبى وائل ؛ وكان قائد بنى تغلب مهلهل أخو كليب ، وقائد بنى بكر مرة أبو جساس المقدم ذكره ؛ فكان بينهم يوم عُنيزة ، وتكافأ فيه الفريقان ، ثم كان بينهم يوم واردات ، وانتصر فيه بنو تغلب على بكر ؛ ثم كان بينهم يوم الحنو ، وانتصرت فيه بكر على تغلب ، ثم كان بينهم يوم العصيات ، وانتصرت فيه تغلب على بكر ، وأصيب بنو بكر حتى ظنوا أنهم قد بادوا ؛ ثم كان بينهم يوم قصّة ، وهو يوم التحالُق كثر فيه القتل بين الفريقين ، فى أيام آخر لم يشتد فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أَبَاغ ، وعَيْنُ أَبَاغ موضع يقال له ذات الخيار ؛ وكان الحرب فيه بين غَسَّان ونَحْم ، وكان قائد غَسَّان الحارث الذى طلب أدرعَ امرئ القيس ، وقيل غيره ، وكان قائد نَحْم المنذر بن ماء السماء بغير خلاف ؛ وفى هذا اليوم قُتِل المنذر ، وأنهزمت نَحْم ، وتبعتهم غَسَّان إلى الحيرة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مَرَج حليمة ، وكان بين غَسَّان ونَحْم أيضا ؛ وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظم الثُبار حتى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكديد ، وكان بين كِثانة وسُلَيم ، وانتصرت فيه سُلَيم على كِثانة ، وقتل فيه ربيعة بن مَكْدَم فارس كِثانة ؛ وبه يضرب المثل فى الشجاعة ؛ وكان يُعقر على قبره فى الجاهلية ، ولم يُعقر على قبر غيره . ويوم الكلاب الأول ؛ والكلاب موضع بين البصرة والكوفة ؛ وكان بين

الأخوين : شَراحيل وسَلَمَة أبني الحارث بن عمرو الكندي ؛ وشَراحيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرهم ، وسَلَمَة الأصغر ، وكان معه تغلب وائل وغيرهم ، واشتد القتال بينهم ، وانتصر سَلَمَة وتغلبُ على شَراحيل وبكر ، وأنهزم شَراحيلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه . ويوم الكلاب الثاني ، وكان بين بكر وائل . ويوم أُوارة ، (وأوارة اسم جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن أمية القيس ملك الحيرة ، وبين مُنذر وائل بسبب الحيرة ، وظفر فيه المنذر ، وأقسم أنه لا يزال يذبُّهم حتى يسيل دُمهم من رأس أُوارة إلى حَضِيضه ، وبقي يذبُّهم والدم يجُدد فسكب عليه ماء حتى سال الدم من رأس الجبل إلى حَضِيضه ، وبرَّت يمينه . ويوم رَحْرَحان ، (ورَحْرَحان اسم واد بالمجاز) وكانت الحرب فيه بين الأخوص بن جعفر بن كلاب ، وبني دارم ، وبني ماوية ، وبني مَعْبَد بن زُرارة ، وبني تميم ، وأنهزمت فيه بنو تميم ومن معهم ، وأسر مَعْبَد بن زُرارة ، وقصد أخوه لقيط بن زُرارة أن يَسْتَفِكَ فلم يقدر ، وعدَّبوا مَعْبدا حتى مات . ويوم شَعْب جبلة ، وشَعْبُ جبلة هَضْبَة حمراء بين الشَّريف والشَّرف . وكان من شأنه أنه لما انقضت وقعة رَحْرَحان المتقدمة ، ومضى لها سنة ، وذلك في العام الذي وُلِد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استنجد لقيط بن زُرارة التميمي بنِي دُبَيان لثأر أخيه فأنجذته ، وتجمعت بنو تميم غير بني سعد ، وخرجت معه بنو أسد ، وسار بهم لقيط إلى بني عامر وبني عَبَس في طلب ثأر أخيه مَعْبَد ، فأدخلت بنو عامر وبني عَبَس أموالهم في شَعْب جبلة ، فحضرهم لقيط فخرجوا عليه من الشَّعب وكسروا جماع لقيط وقتلوا لقيطاً ، وأسرُوا أخاه حاجب بن زُرارة ، وانتصرت بنو عامر وبني عَبَس نصراً عظيماً ، وقُتل أيضاً من بنِي دُبَيان وبني تميم ومن بنِي أسد جماعة مستكثرة ؛ وكان هذا اليوم من أعظم أيامهم . ويوم ذي قار ، وهو أقرب الوقائع المشهورة في الجاهلية عهداً ، وكان في سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقيل عام بدر .

وكان من حديثه أن كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ،
 فحبسه فهلك في الحبس ؛ وكان النعمان قد أودع حلقته (وهى السلاح والدروع)
 عند هانىء بن مسعود البكرى ، فأرسل أبرويز يطلبها من هانىء ، فقال هذه أمانة ،
 والحر لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لما أمسك النعمان جعل مكانه فى ملك الحيرة
 إياس بن قبيصة الطائى ، فاستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافل
 عن هانىء بن مسعود حتى يطمئن وتبته فندركه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك
 لا تألوه نصحا — فقال إياس : رأى الملك أفضل ؛ فبعث أبرويز الهزبان^(١) فى ألفين
 من الأعاجم ؛ وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن
 ذى قار ، فتلوه ووصلت إليهم الأعاجم ، وأقتلوا ساعة فأنهزمت الأعاجم هزيمة
 قبيحة ؛ فيروى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خبر بذلك أصحابه ، فقال "اليوم أول
 يوم أنتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا" .

ولأبى عبيدة مصنف مفرد فى أيام العرب ، وقد أورد منها ابن عبد ربه فى كتاب
 "العقد" جملة مستكثرة ، وفى آخر كتاب الأمثال للبدائى نبذة محزنة من ذلك ،
 وليس بنا حاجة إلى استيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وقعة الجمل ، وكانت بين على كرم
 الله وجهه ، ومعه أهل الكوفة ، وبين عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت
 راكبة يومئذ على جمل اسمه عسكر وبه عرفت الوقعة ، وقيل بين الفريقين خلق
 كثير ، وكانت النضرة فيه لعل ومن معه .

ومنها وقعة صفين ، وكانت بين على كرم الله وجهه ومعه أهل العراق ، وبين
 معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهل الشام ، وكان ابتداءؤها فى سنة ست وثلاثين ،
 وكان مدّة مقامهم بصفتين مائة وعشرة أيام أوقعوا فيها وقعات كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ؛ وكانت عدّة القتلى بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسة وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ؛ وكان عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ مع عليّ رضي الله عنه ، وقاتل حتّى قُتِلَ ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ” يَقْتُلُ عَمَّارَا الْفِئَةِ الْبَاغِيَّةُ ” ومضت عليهما مدّة ، وعلى رضي الله عنه على العراق ، ومعاوية على الشام ومصر إلى أن قتل عليّ رضي الله عنه .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في أكثر من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهادهم ، والإمساك عما شجر بينهم واجب .

ومنها وقعة مَرَجِ رَاهِطٍ ؛ وكان من حديثها أنه لما هلك يزيد بن معاوية ، كان سعيد بن بحدل على قنّسرين ، فوثب عليه زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا وَبَاعَ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ الزَّيْبِرِ ، فلما قعد زُفَرُ على المنبر ، قال : الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر وحصر ، فضحك الناس من قوله ؛ وكان حَسَّانُ بْنُ بَحْدَلٍ على فلسطين ، والأردن ، فاستعمل على فلسطين رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ الْجُدَامِيُّ ، ونزل هو الأردن ، فوثب ناتل بن قيس الجُدَامِيُّ على رَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ فَأَخْرَجَهُ مِنْ فَلَسْطِينَ وَبَاعَ ابْنَ الزَّيْبِرِ ؛ وكان النعمانُ بْنُ بَشِيرٍ على حمص فبايع لأبن الزبير ، وكان الضُّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ على دمشق ، بفعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فقدم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم على ابن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق على ذلك بنو أمية ، واليمانيون ؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلى بنى أمية تصدر إليهم ؛ وقال لمروان وعمرو بن سعيد : آكتبوا إلى حسان بن بحدل فيسير من الأردن حتّى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتّى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ؛ فلما استقلت رايات الضحاك من دمشق ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه

الأمة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلى إظهار بيعة ابن الزبير، وسار حتى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتى لقي مروان، فسار مع مروان حتى لَقُوا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك في نحو ثلاثين ألفا وأقتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصود الثالث

(في كيفية استعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع في كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومن يعد من قُرُسان حروبها، ومصاقيع خطبائها، ومُفلق شعرائها، وما جرى بينهم في ذلك من الخطب والأشعار والمناقضات، كان مستعدا لما يستشهد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه في مكتبة : أو شعر : من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معين، كما قال أبو تمام الطائي يمدح بنى شيان :

إذا أَفْتَحَرْتَ يوماً تَمِّمُ بِقَوْسِهَا * وَزَادَتْ عَلَى مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ
فَأَتَمَّ يَذِي قَارٍ أَمَالَتْ سِيوفُكُمْ * عُرُوشَ الَّذِينَ أَسْتَرَهُنَّ قَوْسَ حَاجِبِ
يشير إلى أن حاجب بن زُرارة التيمي وفد على كسرى في سنة جَدَب فقال الحاجب مَنْ أَنْتَ؟ قال رجل من العرب، فلما دخل على كسرى قال له مَنْ أَنْتَ؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب —؟ قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدي الملك سُدُّهُمْ، فمَلَأْهُ دُرّاً، وشكا إليه مَحَلَّ الحجاز، وطلب منه حِمْلَ ألف بغير بُرٍّ على أن يعيد قيمتها، — فقال وما ترهني على ذلك — قال قَوْسِي، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْلَ ألف بغير بُرٍّ، ومات حاجب فأحضر بَنُوهُ المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمام في بيتيه إلى هذه المتقبة : يقول يابني شيبان في يوم ذى قار أبديتم
جيوش كسرى الذى آسترهن قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" في خطبة كتابه "فلائد العقيان" : لو جاوره
كُتِبَ ما طرق حمَاه ، أو أستجار به أحد من الدهر حمَاه ، أو كان بواذى الأئحرم ،
لطف به ربيعةً وأحرم ، أو أستنجده الكندى ما كساه الملاء ، أو كان حاضراً
يسطام لما خرّ على الألاء .

وكما قلت في المفارقة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الزينى أبى يزيد
الدوادار الذى من أجله وضعت "فلولقيه فارس عبس لوثى عابسا ، أو طرق حمى
كُتِبَ لبات من حمَاه آيسا ، أو قارعه ربيعة بن مكدّم لعلا بالسيف مفرقه ،
أو نازله يسطام لبدد جمعه وفرقه" .

إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ويتنظم في هذا السلك .

قال في "حسن التوسل" : وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من
هذه الأيام ، عالما بما جرى فيها ، لم يدرك كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا
ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك تقصا في صناعته ، وقصورا عما يتعين
عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه .^(١)

وأما الوقائع التى وردت في حوادث خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن
الأثير" رحمه الله في "المثل السائر" : إنها كالأمثال في الاستشهاد بها وذكرها أمثلة .
منها قوله من كتاب : ولا يُعد البرّ برا حتى يلحق الغيب بالحضور ، ويصل من لم
يصله بجزاء ولا شكور ؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابت شمال
رسول الله عن عيين عثمان . يشير إلى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ، في بيعة الحديبية^(٢)

(١) لعل من زائدة من قلم النسخ . (٢) في بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمان بن عفّان رضى الله عنه إلى مكة في حاجة ، ولم يحضر البيعة ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيده الشمال على اليمين وقال ”هذه عن عثمان وشمالى خير من يمينه“ .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة : ”وإذا آستغنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترَضَ بما عرفته من مبدل حاله ، فإن الأحوال تنتقل بِثَقَلِ الأجساد ؛ وإياك أن تُخَدِّعَ بصلاح الظاهر كما خُدِّعَ عمر بن الخطاب بالرَّبيع بن زياد .

يشير بذلك إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعى أبا موسى الأشعرى ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثى ، فذهب الربيع بن زياد إلى بعض موالى عمر وسأله عما يَروُجُ عنده وَيَنفَقُ عليه ، فأشار إلى خُشُونَةِ العيش فضى ، وليس جُبَّةً صوف ، وعمامةً رثاء ، وخُفًّا مطابَقًا ؛ وحضر بين يديه في جملة العَمَّال ، فصوّب عمرُ نَظْرَهُ وصعَّده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعرى به .

ومنها قوله في معارضة كتاب القاضي الفاضل إلى ديوان الخلافة يُعَدِّدُ فيه مساعى الملك الناصر ”صلاح الدين يوسف بن أيوب“ وما قاساه في الفتوح من الأهوال وهو : ومن جملة ما فعل الخادم في الدولة المصرية . وقد قام بها منبر وسرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فردّ الدَّعوة العباسية إلى معادها ، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زهو أعوادها . يشير بذلك إلى ما تقدّم من آجتّاع الأنصار في اليوم الذى مات فيه النّبىّ صلى الله عليه وسلم ، فى سَقِيفَةِ بنى ساعدة إلى سعد بن عبادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر : مِنَّا أَمِيرٌ ومنكم أمير ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ، ولكمَّ الأُمراءُ وأتم الوزراء . إلى غير ذلك مما يحجرى هذا المجرى وينتظم في هذا السلك .

النوع الرابع عشر (في أوأبد العرب)

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية، بعضها يجري مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى الأصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهي عدة أمور :

منها الكَهانة ، وكان موضوعها عندهم الإخبار عن أمور غيبية بواسطة أستراق الشياطين السمع من السماء ، وإلقاء ما يستمعونه من الغيبيات إليهم . وقد كان في العرب قبل البعثة عدة كهنة تعتمد العرب كلامهم ، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخبرون به . ومن عجيب أخبارهم في ذلك أن هندَ ابنة عُتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه ابن المغيرة المخزومي ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت يوما فأضطجع الفاكه هو وهند فيه ، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فوجله فلما رآها وثى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل إلى هند فركضها برجله وهي نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذي نرج من عندك — فقالت لم أر أحدا وأنت الذي أنبهتني — فقال لها أذهبي إلى بيت أبيك فأقيمي عنده ! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قد رميت أبتى بأمر عظيم ، فإكفني إلى بعض كهان اليمن ، نخرجنا في جماعة من قومهما إلى كاهن من كهان اليمن ومعهما هند ونسوة أنحر ، فلما شارفوا بلاد الكاهن ، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون على سبة — فقال أبوها سأختبره لك فصفر لفرسه حتى أدلى ، فأدخل في إحليله حبة حنطة وشد عليها بسير ، فلما دخلوا على الكاهن ، قال له عتبة : إنا قد جئناك في أمر وقد خبات لك خبا أختبرك به فانظر ماهو فقال ثمرة في كمره — فقال أريد أئين من هذا — فقال حبة بر ، في إحليل

مُهرٌ — فقال له أنظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول أنهضني حتى دنا من هند فقال لها : أنهضني غير رشحاء ولا زانية ولتلدن ليكا أسمه معاوية ؛ فنفض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت إليك عني ! فوالله لأحرص على أن يكون من غيرك ، فترجها أبو سفيان ابن حرب فولدت له معاوية ، فكان من أمره ما كان إلى أن آتته به الحال إلى الخلافة . وقد أخبر جماعة من الكهنة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم قرب ظهوره منهم سطيح الكاهن وغيره .

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، حُرست السماء ومنعت الشياطين من استراق السمع كما أخبر تعالى بقوله ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمِعْ الْآنَ يَجِدْ لَهُ سِيبًا رَصَدًا ﴾ .

ومنها الزجر والطيرة : وهما في معنى واحد؛ وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ؛ فإن طار يمينا كان له حكم ، وإن طار شمالا كان له حكم ، وإن طار أماما كان له حكم ، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم ؛ ومن ثم سميت الطيرة أخذًا من أسم الطير ؛ وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب ، ثم تعدّوه إلى غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك ؛ وربما انتهى بعض الزجر إلى حد الكهانة .

ومما يحكى من زجر الطير أن رجلا من لهب : وهم بطن من العرب يعرفون بالعبافة ، خرج في حاجة له ، ومعه سقاء من لبن فسار صَدَرَ يومه فعطش فأناخ ليشرب فإذا غراب فنعب فأثار راحلته ، ثم سار حتى كان وقت الظهيرة أناخ ليشرب ، فنعب الغراب وتمرغ في التراب ، فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرشحاء بالمهمات من النساء القيحة ووقع في الأصل باعجام الشين وهو تصحيف فأحذره .

ثُعْبَانٌ عَظِيمٌ فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ سَارَ فَإِذَا غَرَابٌ وَقَعَ عَلَى سِدْرَةٍ فَصَاحَ بِهِ فَوْقَ عَلَى سَلَامَةٍ ،
فَصَاحَ بِهِ فَوْقَ عَلَى صَخْرَةٍ فَأَتَتْهُ إِلَيْهَا ، فَأَثَارَ مِنْ تَحْتِهَا كَثْرًا ؛ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَبِيهِ قَالَ
لَهُ مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ سَرْتُ صَدْرَ يَوْمِي فَأَنْخَتُ لِأَشْرَبَ فَنَعَبَ الْغَرَابُ — فَقَالَ :
أَثَرُ رَاحَتِكَ وَإِلَّا فَلَسْتَ بِأَبْنِي — قَالَ فَعَلْتُ — قَالَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ سَرْتُ حَتَّى وَقْتُ
الظَّهِيرَةِ فَأَنْخَتُ لِأَشْرَبَ فَنَعَبَ الْغَرَابُ ، وَتَمَرَّغَ فِي التَّرَابِ — فَقَالَ أَضْرِبَ السَّقَاءَ وَإِلَّا
فَلَسْتَ بِأَبْنِي . قَالَ فَعَلْتُ ؛ فَوْقَ عَلَى صَخْرَةٍ قَالَ أَثَرُ مَا تَحْتَهَا وَإِلَّا فَلَسْتَ بِأَبْنِي . قَالَ
فَعَلْتُ ؛ فَوَجَدْتُ كَثْرًا .

وقد وردت السنة بإبطال حكم الزجر والطيرة بقوله صلى الله عليه وسلم ” أَقْرِؤْوا
الطَّيْرَ فِي وَكُؤَاتِهَا “ وقوله صلى الله عليه وسلم ” لَا عَدْوَى وَلَا طِيرَةَ “ وَأَسْتَحْسِنُ صَلَّى
الله عليه وسلم ، الْفَالُ فَقَالَ ” وَيُعِجُّنِي الْفَالُ وَهِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ أَسْمَعُهَا “ . وقد فرق
العلماء بين الفال والطيرة بأن الطيرة تُقَصَّدُ والفال يأتي من غير قصد .

ومنها الميسر : وهو ضرب من القمار كانوا يقتسمون به لحم الجُزُر التي يذبحونها
بحسب قِدَاح يضرُبُونَهَا ، لكل قِدَاحٍ منها نصيب معلوم : وهي أحد عشر قِدَاحًا :
سبعة منها لها حظ إن فازت وعليها غرم إن خابت بقدر ما لها من الحظ عند الفوز ،
وأربعة منها تُثَقَّلُ بِهَا الْقِدَاحُ لَا حَظَّ لَهَا إِنْ فَازَتْ ، وَلَا غَرَمَ عَلَيْهَا إِنْ خَابَتْ .
فأما السبعة التي لها الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأولها الْقَدُّ : وهو
قِدَاحٌ فِي صَدْرِهِ حَرْزٌ وَاحِدٌ ، وَلَهُ نَصِيبٌ وَاحِدٌ فِي الْأَخْذِ وَالْغَرَمِ . والثاني التَّوَمَ ،
وفى صدره حَرَّانٌ ، وَلَهُ نَصِيبَانِ فِي الْأَخْذِ وَالْغَرَمِ . والثالث الصَّرِيبُ (ويسمى
الرقب) وفيه ثلاثة حُرُوزٍ ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَنْصِبَاءَ . والرابع الحُلْسُ وفيه أربعة حُرُوزٍ وَلَهُ
أربعة أنصباء . والخامس النَّافِئُ وفيه خمسة حُرُوزٍ ، وَلَهُ خَمْسَةُ أَنْصِبَاءَ . والسادس
المُسَيْلُ ، ويسمى المَصْفَحَ أيضًا ؛ وفيه ستة حُرُوزٍ وَلَهُ سِتَّةُ أَنْصِبَاءَ . والسابع المَعْلَى ،

وفيه سبعة حروز، وله سبعة أنصباء؛ وهو أوفرها حظًا، ولذلك يُضربُ به المثل في الحظ فيقال قَدَحُهُ المَعْلَى .

وأما الأربعة التي تُثَقَّلُ بها القداح فهي السِّفِيح، والمَنْيَح، والمُضَعَّف، والوَغْد، وكان طريقهم في ذلك أن القوم يجتمعون فيشترُون جُزُورًا فينَحْرُونها وَيُفَصِّلُونها على عشرة أجزاء، وَيَسْتَحْمُونَ فيها على سبعة أنصباء لا أكثر، وتسمى الأنصباء فيها الأيسار، فإن كانوا أقل من سبعة وأراد أحدهم قَدَحين أو أكثر، أخذ وكان له فوزها، وعليه غرمها؛ فإذا جُزُوا الجزور على ذلك، أتوا برجل يسمونه الحُرْضَة^(١)، من شأنه أنه لم يأكل لحماً قط بئس، ويؤتى بالقداح فتشَدُّ مجموعة في قطعة جلد تسمى الرِّبَابَة، ثم يُلَفُّ الحُرْضَة على يده اليمنى ثوباً لئلا يجد مس قَدَح، له مع صاحبه هوى فيحابه في إخراجها، ثم يؤتى بثوب أبيض يسمى المِجْوَل، فيُسِّط بين يدي الحُرْضَة، ويقوم على رأسه رجل يسمى الرِّقِيب، ويدفع رِبابَة القَدَاح إلى الحُرْضَة، وهو محوّل الوجه عنها، فيأخذ الرِّبابَة التي تُجْمَع فيها القَدَاح، ويدخل يده تحت الثوب فينكر القداح فإذا نهد فيها قَدَح يناوله دُفْعَة إلى الرقيب، فإن كان مما لاحظ له، رد إلى الرِّبابَة فإن خرج بعده المُسِيل مثلاً أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر، وعلى ذلك أبدا يفعل بمن فاز ومن خاب، وربما نحروا عِدَّة جُزُر، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً، وإنما الغرم على الذين خابوا، وكان عندهم أنه لا يحل للخاصين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً؛ فإن فاز قَدَح الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطأ فعلوا ذلك به؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عبَّاد أسماء القداح التي لها النصيب فوزاً وغرمًا في أبيات فقال :

(١) الحُرْضَة بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين . ووقع في الأصل الحُرْصَة بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النسخ فأحذره .

إِنَّ الْقِدَاحَ أَمْرُهَا عَجِيبٌ * الْفَدُّ وَالْتَّوْمُ وَالرَّقِيبُ
وَالْحِلْسُ ثُمَّ النَّافِسُ الْمُصِيبُ * وَالْمُصْفَحُ الْمَشْتَرُ النَّجِيبُ
ثُمَّ الْمَعْلَى حَظُّهُ الرِّغِيبُ * هَاكَ فَقَدْ جَاءَ بِهَا التَّرْتِيبُ

ومنها الأزلَام : وهى ضرب من الطَّيْرَةِ ، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه ، أخذوا قِدَاحًا مكتوبًا على بعضها آفعل ، لاتفعل ، وعلى بعضها نعم ، وعلى بعضها لا ، وعلى بعضها خُذْ ، وعلى بعضها سِرْ ، وعلى بعضها سريع ، فإذا أراد أحدهم سَفَرًا مثلاً أتى سادَنَ الأوثان ؛ فيضرب له بتلك القِدَاح ويقول : اللهم أيُّها كان خيرا له فأخرجه فما خرج له عمل به ، وإذا شكوا فى نسب رجل أجالوا القِدَاح وفى بعضها مكتوبٌ صريح ، وفى بعضها مكتوبٌ مُلْحَق ؛ فإن خرج الصريح أثبتوا نسبته ، وإن خرج المُلْحَق نَفَوَهُ . وإن كان بين اثنين اختلاف فى حق سُمى كل منهما له سهما وأجالوا القِدَاح فمن خرج سهمه فالحق له وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحِيرَةُ ، والسَّائِبَةُ ، والوَصِيلَةُ ، والحَامِي .

فأما البَحِيرَةُ ، فكانت الناقة إذا أُنتِجَتْ خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس منها ما لم يكن ذكرا فشققوا أذننها وتركوها ، فلا يُحزُّ لها وبر ، ولا يُحمل عليها شيء ولا يُذكر عليها إن ذُكِتْ أَسْمُ الله تعالى ، وتكون ألبانها للرجال دون النساء .

وأما السَّائِبَةُ فكان الرجل يُسَيِّبُ الشَّيْءَ من ماله : بهيمةً أو عبداً ، فيكون حراما أبداً وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصِيلَةُ فكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن عمدوا إلى السابع فإن كان ذكرا ذُبِحَ ، وإن كان أنثى تُرِكَتْ فى الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى قيل وصلت أخاها فحرما جميعا ، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفعل إذا صار من أولاده عشرة أبطن، قالوا حمى ظهره،
فترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركب، ولا يُمنَع ماءً، ولا مرعى؛ وقد أخبر الله
تعالى ببطلان ذلك بقوله: ﴿مَجْعَلُ اللَّهِ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمدة إلى البعير الذى
كملت به مائة فأغلق ظهره بأن يترع شيئاً من فقراته ويعقر سنامه كي لا يُركب يُعلم
أن إبل صاحبه قد أمأت .

ومنها التَّفَقُّة، والتَّعْمِيَّة . كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً فقاً عين الفعل: وهى
التفقة، فإن زادت على ذلك فقاً العين الأخرى وهى التعمية، ويُرْجَمُونَ أن ذلك
يدفع العين عن الإبل قال الشاعر:

وَهَبْتَهَا وَأَنْتَ ذُو أَمْتَانِ * تُفَقُّ فِيهَا أَعْيُنُ الْبُعْرَانِ

ومنها نكاح المقت: وهو نكاح زوجة الأب—وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا
مات قام أكبر ولده، فآلى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها
حاجة يُزَوِّجها بعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثون النكاح كما يرثون المال،
فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، وحرّم زوجة الأب بقوله
﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ
سَبِيلًا﴾ ومن ثم سُمي نكاح المقت .

ومنها رمى البعرة: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها، دخلت حفشاً
(يعنى خُصّاً) ولبست شراًبها ولم تَمَسَّ طيباً حتى تَمِضَ عليها سنة، ثم يُوقى بدابة:
حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفتض به أى تَمَسَّح به فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج
بعد ذلك فتعطى بعرة قترى بها، ثم تراجع ما شئت من طيب أو غيره فنسخ

الإسلام ذلك بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ .

ومنها وأد البنات (وهو قتلهن) . كانوا يقتلوهن خشية العار؛ ومن فعل ذلك قيس ابن عاصم المنقرئ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المال، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسبوا ذراريهم فأناب القوم وسأله فيهم فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباه ردت إليه، وكل من اختارت صاحبها تركت معه، فكلهن اخترن آباءهن إلا أبنه لقيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن الجموح، فنذر قيس أنه لا يولد له أبنه إلا قتلها فكان يقتلن بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشية الإملاق والفاقة، فكان الرجل منهم يقتل ولده مخافة أن يطمع معه إلى أن نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا﴾ .

ومنها حبس البلياء، كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ويقيمون رأسها إلى ورائها ويخطون رأسها بولية وهي البرذعة فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه في المعاد ليركبها قال أبو زيد :

كالبساياء رؤسها في الولايا * مانحات السموم حرائد الحود

ومنها الهامة — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يطالب بشأه، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة، وصاح : أسقوني أسقوني حتى يطالب بشأه، قال ذو الأصبع :

(١) في الأصل بزية وكذلك جمعها في البيت زلايا وهو تصحيف فأحذره .

(٢) في الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يَا عَمْرُو إَلَّا تَدْعُ شَيْئِي وَمَقْصَتِي * أَضْرِبَكَ حَتَّى تَقُولَ الْهَامَةُ أَسْقُونِي
ومنها تأخير البكاء على المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يَبْكِينَ المقتولَ منهم
حَتَّى يُوْخَذَ بثأره، فإذا أُخِذَ به بَكَينَهُ حينئذ، قال الشاعر :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ * فَلَيَّاتِ نِسْوَتًا بَوَاجِهِ نَهَارِ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ * يَلْطَمْنَ حُرَّ الْوَجْهِ بِالْأَنْشَارِ

ومنها تَصْفِيقُ الضَّالِّ — كان الرجل منهم إذا ضَلَّ في الْفَلَاةِ، قلب ثِيَابَهُ وَحَبَسَ
ناقته وصاح في أذُنِهَا كَأَنَّهُ يُؤَمِّى إِلَى إِنْسَانٍ وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ قَائِلًا : الْوَحَا الْوَحَا النَّجَاءُ
النَّجَاءُ هَيْكَل : السَّاعَةُ السَّاعَةُ إِلَى إِلَى عَجَلٍ ، ثم يَحْرُكُ ناقته فيزعمون أنها تهتدى ،
إلى الطريق حينئذ . قال الشاعر :

وَأَذَنُ بِالْتَّصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ * فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَىِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا
يريد إذا ساء ظَنُّهُ بنفسه حين يَضِلُّ .

ومنها الْغُولُ — كانوا يزعمون أن الْغُولَ تَرَى لأحدهم في الْفَلَاةِ فَيَتَّبِعُهَا فَتَسْتَهْوِيهِ ،
وربما ادَّعى أحدهم أنه قابلها وقَاتَلَهَا قال تَابِطُ شَرًّا :

أَلَا وَنَ مُحَمَّدٍ فِتْيَانُ فَهَمُ * بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بَطَانِ
بَأْنِي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوَى * بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَا تَانِضُو أَرْضَ * أَخُو سَفَرٍ نَحَلَّى لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شِدَّةً تَحْوَى فَأَهْوَتْ * لَهَا كَفْنِي بِمَضْقُولِ يَمَانِي
فَأَضْرَبُهَا بِلَا دَهْشٍ خَفَرْتُ * صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجَرَانِ

ومنها ضَرْبُ الثَّورِ لِشَرْبِ الْبَقْرِ — كانوا يزعمون أن الْجَنَّ تَرْكَبُ الثَّيْرَانَ فَتَصُدُّ
الْبَقَرَ عَنِ الشَّرْبِ ، فيضربون الثَّورَ لِشَرْبِ الْبَقْرِ ، قال الشاعر :

(١) في نسخة فهر . وفي باقوت قويم . وقوله في البيت الثاني سهب في الأصل سيف وهو تصحيف .

كَذَلِكَ الثَّورُ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي ^(١) * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقَرُ الظَّمَاءُ

ومنها تعليق سنّ الثعلب وسنّ الهرة وحيض السمرة — كانوا يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادت له لم تقدر عليه؛ قالت امرأة تصف ولدا :

كَانَتْ عَلَيْهِ سِنَّةٌ مِنْ هِرَّةٍ * وَتَعَلَبَ وَالْحَيْضُ حَيْضُ السَّمْرِ

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلقونه على أنفسهم، يزعمون أنه وقاية من العين والسمح، قائلين إن الجن تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر :

وَلَا يَنْفَعُ التَّعْشِيرُ إِنْ حُمَّ وَقَعَ * وَلَا وَدَعٌ يَغْنَى وَلَا كَعْبُ أَرْنَبٍ

ومنها تعليق الحلي على السليم (وهو الممسوع) — كانوا إذا ألسع فيهم إنسان علقوا عليه الحلي من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيفيق، قال النابغة :

يُسَهَّدُ مِنْ وَقْتِ الْعِشَاءِ سَلِيمُهَا * لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَايِعُ

ومنها وطء المقاتل القتل — كانوا يزعمون أن المرأة المقاتلة (وهي التي لا يعيش لها ولد) إذا وطئت قتيلًا شريفًا بقي أولادها، قال بشر بن أبي خازم :

يَظَلُّ مَقَالِيْتُ النِّسَاءِ يَطَانُهُ * يَقْلَنَ إِلَّا يُلْقَى عَلَى الْمَرْءِ مِزْرُ

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طَرفَ عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول في كل مرة : بإحدى جاءت من المدينة : بائنتين جاءتا من المدينة ، بثلاث جئن من المدينة إلى سبع سكن هيجانها .

(١) في الأصل بالهوادي وهو تصحيف فأحذره .

ومنها كى السليم من الإبل ليرأ الحرب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُر (وهو الحرب) فكَوُوا صحيجا إلى جانبه ليشم رائحته برئ، وربما زعموا أنه يؤمن معه العدوى، قال النابغة :

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ * كَذَى الْعُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

ومنها ذهاب الخدر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر، قالت امرأة من كلاب :

إِذَا خَدِرْتُ رَجُلِي ذَكَّرْتُ أَبْنَ مُصْعَبٍ * فَإِنْ قُلْتُ عَبْدُ اللَّهِ أَجَلِي فُتُورُهَا

ومنها الحلى^(١) عن الصبيان ببجاية الحى وإطعامه الكلاب — كانوا يرون أن الفتى إذا ظهر فيه الحلى بشفته (وهى بثور تنبت بالشفة) فيأخذ منخلا على رأسه ويمزج بين بيوت الحى وينادى الحلى الحلى فيلقى فى منخله من هنا ثمرة، ومن هنا كسرة، ومن هنا قطعة لحم فإذا امتلأ نثره بين الكلاب فيذهب عنه الحلى .

ومنها شق الرداء والبرقع، لدوام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحببت رجلا أو أحبا ولم تُسَقَّ عليه رداءه ويسق عليها برقعها فسد حبهما، قال الشاعر :

إِذَا سُقَّ بَرْدُ شَقِّ الْبُرْدِ بَرُقِعُ * دَوَالِيكَ حَتَّى كُنَّا غَيْرُ لَايسَ

فَكَمْ قَدْ شَقَّقْنَا مِنْ رِداء مُحَبَّرٍ * وَمِنْ بَرُقِعَ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسَ

ومنها رمى سن الصبى المتغير فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أنغر فرمى سنه فى عين الشمس بسبأته وإبهامه وقال أبدينى بها أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج والفالج والنغل، قال طرفة :

بَدَّلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنِيَّتِهِ * بَرْدًا أبيضَ مَصْقُولِ الأَشْرِ

(١) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية نخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشركما ينق الحمار ثم دخلها ، لم يصيبه وباءها ، قال عروة ابن الورد :

لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى * نُهَاقَ حَمِيرٍ إِنِّي لَجَزُوعٌ

ومنها عقد الرتم — وهو نبت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عمدا إلى رتم فعقده فإن رجع وراءه معقودا ، اعتقد أن امرأته لم تتحنه ، وإن رءاه محلولا اعتقد أنها خانتة ، قال الشاعر :

خَانَتْهُ لَمَّا رَأَتْ شَيْبًا بِمَفْرِقِهِ * وَغَرَّه حِلْفُهَا وَالْعَقْدُ لِلرَّتَمِ

ومنها اعتبار دائرة المهقوع — وهي دائرة تكون في عنق الفرس يقال لها الهقعة على ما يأتى ذكره في الكلام على الخيل في الطرف الآتى — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عرق تحت صاحبه آغتمت حليته ، وطلبت الرجال ، قال الشاعر :

إِذَا عَرِقَ الْمَهْقُوعُ بِالْمَرْءِ أَنْعَظَتْ * حَلِيلَتُهُ وَأَزْدَادَ حَرًّا عِجَانُهَا

ومنها خضاب نحر الفرس السابق — كان من عادتهم إذا أرسلوا خيلا على صيد فسبق أحدها خضبوا صدره بدم الصيد علامة له ، قال الشاعر :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْعَاوِيَاتِ بَنَحَرِهِ * عُصَارَةُ حَنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلٍ^(٢)

ومنها جزناصية الأسير — كانوا إذا أسروا رجلا ثم منوا عليه فأطلقوه ، جزوا ناصيته ووضعوها في كئانة ، قالت الخنساء .

جَزَزْنَا نَوَاصِيَ فُرْسَانِهِمْ * وَكَانُوا يُظُنُّونَ أَنْ لَا تُجْزَا

(١) في اللسان في زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتى تفسيره بذلك في الدوائر .

(٢) في نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر

(في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان)

الصنف الأول

(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" للعرب ثلاث عشرة نارا .
الأولى نار المزدلفة — وهي نار تُوقَد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراهن من دفع من
عرفة . وأول من أوقدها قُصيّ بن كلاب ، فهي تُوقَد إلى الآن .

الثانية نار الاستمطار — كانوا في الجاهلية الأولى إذا اجتهدوا المطر جمعوا البقر
وعقدوها في أذنانها وعراقيها السِّلَع والعُشَر ، ويضعّدون بها في الجبل الوعر ، ويُشعلون
فيها النار ، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر ، قال الشاعر :

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيَقُورًا مُسَلَّعَةً * وَسِيْلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ

الثالثة نار الحلف — كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف
عندها ، ويذكرون خيرها ، ويدعون بالحرمان من خيرها على من نقض العهد ، وحلّ
العقد . قال العسكري " وإنما كانوا يُحْصُونَ النار بذلك لأن منفعتها تختص
بالإنسان ، لا يشاركه فيها شيء من الحيوان غيره " .

الرابعة نار الطرد — وهي نار كانوا يُوقِدونها حَلْفَ مَنْ يَمْضِي ولا يحبون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا على
جبلهم ليلبغ الخبر أصحابهم .

السادسة نار الحرّتين : كانت في بلاد عبس فإذا كان الليل تضيء نار تسطع

وفي النهار دخان مرتفع ، وربما بَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مَرَّ بها ، فخر خالدُ بْنُ سنانِ النَّبِيُّ ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِي — تُرْفَعُ لِلتَّقَرُّ فَيَتَّبِعُهَا قَهْوَى به الغُولُ على زعمهم كما تقدَّم في الكلام على أوابد العرب .

الثامنة نار الصيد — وهي نار تُوقَدُ للظباء تغشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد — وهي نار توقد إذا خافوا الأسدَ لينفِرَ عنهم فإن من شأنه النَّفَارُ عن النار، يقال إنه إذا رأى النار حدث له فكر يصده عن قصده .

العاشرة نار القِرَى — وهي نار تُوقَدُ ليلا ليراها الأضياف فيهدوا إليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقِدون النار للملسوع إذا لدغ يُسَاهِرُونَهُ بها، وكذلك المجروح إذا نَزَفَ دَمُهُ، والمضروب بالسيَّاط ومن عَضَّ الكلب كي لا يناموا فيشتدَّ الأمر بهم فيؤدِّبهم إلى الهلكة .

الثانية عشرة نار الفداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب فيكهنون أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن أو في الظلمة فيخفن قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصَّغِيَّةِ ، فيوقدون النار لعرضهن .
الثالثة عشرة نار الوسم — وهي النار يسم بها الرجل منهم إبلة فيقال له ماسمة إبلك ؟ فيقول كذا :

الصف الثاني

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقيمونها في شهور السنة ، وينقلون من بعضها إلى بعض ويحضرونها سائر قبائل العرب : ممن قُرِبَ منهم وبعد . فكانوا يزلون دومة الجندل

أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يعيشون فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - وربما غلب على السوق كلب، فيعشونهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر. ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقهم بها، وكان يعيشون في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين. ثم يرتحلون نحو عُمان من البحرين أيضا فتقوم سوقهم بها. ثم يرتحلون فيزلون إرم وقرى الشجر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما. ثم يرتحلون فيزلون عدن من اليمن أيضا فيشترون منه اللطائم وأنواع الطيب. ثم يرتحلون فيزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويحبون منها الحرز والأدم والرود، وكانت تجلب إليها من معافر. ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجون؛ ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة أرتفع إلى من له الحكومة؛ وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم؛ وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التيمي. ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج. ثم يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآبوا بالسلامة.

النوع السادس عشر

(النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى معرفة وقائع التاريخ، وتفاصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشيء منها لأمر. منها العلم بأزمنة الوقائع والمجريات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والمجريات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متى أخل بمعرفة ذلك

أحتج بالقصة في غير موضعها ، أو نسبها إلى غير من هي له ، أو لبس عليه خصمه بالاستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلى غير من هي له ليظهر مجته عليه ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصود الأول

(في ذكر نبذة تاريخية لا يسع الكاتب جهلها مما يحتاج به الكاتب تارة
ويذاكر به ملكه أو رئيسه أخرى)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه : ما بين مختصر ، ومبسوط : من مقتصر على فن ، ومستوعب لفنون ، وفي خلال تلك المصنّفات نوادير غريبة ، ولطائف عجيبة ؛ لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظفر بالجوهر في المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل في خلالها بقتة ؛ فإذا التقت الجواهر من المعدن ، سهل تناولها لمريدها ؛ وهي على ضربين .

الضرب الأول

(الأوائل)

وهي معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكري بالتصنيف ، وأورد الثعالبي منها في كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتب التاريخ منها جملة مما لم يتعرضوا إليه ؛ وقد اقتصرت منها على ما تشوف نفوس أكثر الناس إلى معرفته والأطلاع عليه : مما توفرت الدواعي عليه ، فاستمر وجوده ، وأنسحب عليه حكم الاستعمال إلى الآن ، أو أشتهر في مبدأ أمره ، ثم زال بعد ذلك ؛ جاريا في ترتيبه على وجه يقرب تناوله ، مقدما الأهم فالأهم بالنسبة إلى حال الكاتب :

أُمُور تُتَعَلَقُ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

(سِوَى مَا يَأْتِي ذِكْرُهُ مِمَّا شَاكَلَ غَيْرَهُ)

أَوَّلُ مَنْ اسْتَرْقَى الرِّقَقَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . أَوَّلُ مَنْ شَابَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَصَّ شَارِبَهُ ، وَأَوَّلُ مَنْ فَرَّقَ شَعْرَهُ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَمَضَّمَصَ ، وَأَوَّلُ مَنْ آسَتَاكَ ، وَأَوَّلُ مَنْ قَلَّمَ الْأَطْفَارَ ، وَأَوَّلُ مَنْ آسَتَجَى ، وَأَوَّلُ مَنْ آخَتَنَ ، وَأَوَّلُ مَنْ رَمَى الْحِمَارَ .

الْخِلَافَةُ وَمَا يَتَعَلَقُ بِهَا

أَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ خَلِيفَةً أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ وَلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ يُخَاطَبُ بِخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَلْقَابِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَخْلَفَ مِنَ الْخُلَفَاءِ : اسْتَخْلَفَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى وِلَايَةِ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَقَالَةِ الْخَامِسَةِ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ خَلِيفَةِ فُرْضَ لَهُ الْعِطَاءُ فِي بَيْتِ الْمَالِ عَنِ الْخِلَافَةِ ، وَلَمَّا أَدْرَكَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْصَى بِإِعَادَةِ جَمِيعِ مَا حُمِّلَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ مِنْ مَالِهِ .

أَوَّلُ مَنْ سُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذَا اللَّقَبِ فِي جُمْلَةِ الْأَلْقَابِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ بَيْتَ الْمَالِ فِيمَا ذَكَرَهُ الْعَسْكَرِيُّ ، لَكِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ مِنْ قَبْلِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَيَكُونُ أَبُو بَكْرٍ قَدْ سَبَقَهُ إِلَى ذَلِكَ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى وَكَالَةِ بَيْتِ الْمَالِ فِي الْمَقَالَةِ الْخَامِسَةِ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَوَّرَ الْكُورَ وَمَسَحَ أَرْضَ السَّوَادِ ، وَرَتَّبَ الْخَرَاجَ عَلَى الْأَرْضِيْنَ ، وَالْحَزْبِيَّةَ عَلَى

(١) الجَمَاجِمُ ؛ وهو أول من حَمَلَ الطَّعَامَ من مصر إلى الحجاز ؛ وذلك في عام الرمادة عند غُلُوِّ السعر بالحجاز. وسيأتى ذكره في الكلام على خليج القاهرة في أوائل المسالك والممالك .

أول من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان رضى الله عنه ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على الإقطاعات في المقالة السادسة ، وهو أول من حَمَى الحِمَى لِنَعْمِ الصدقة من الخلفاء ، وهو أول من اتَّخَذَ صاحب شُرْطَةٍ من الخلفاء .

أول من اتَّخَذَ بيتاً تُرْمَى فِيهِ قِصَصُ أَهْلِ الظُّلُمَاتِ أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه ، وبقي حَتَّى كُتِبَ لَهُ شِمْثُهُ فِي رُقْعَةٍ ، وَطُرِحَتْ فِي الْبَيْتِ فَتَرَكَهُ ؛ ثُمَّ اتَّخَذَهُ الْمَهْدِيَّ بَعْدَهُ ، ثُمَّ تَرَكَ بَعْدَ ذَلِكَ .

أول من سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ قَقِيلُ السَّلامِ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ معاوية ؛ وكانوا قبل ذلك يقولون السَّلامَ عَلَيْكُمْ ؛ وهو أول من عَهِدَ إِلَى ابْنِهِ بِالْخِلَافَةِ ، عَهِدَ بِهَا إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ ، ثُمَّ تَبِعَهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْخُلَفَاءِ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَخْلَفَ فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَإِلَّا فَأَبُو بَكْرٍ لَمْ يَسْتَخْلَفْ عَمراً إِلَّا فِي مَرَضٍ مَوْتُهُ ، وَعَمْرٌ لَمْ يَجْعَلِ الْأَمْرَ شُورَى إِلَّا وَهُوَ مَطْعُونٌ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى وِلَايَةِ الْخُلَفَاءِ فِي الْمَقَالَةِ الْخَامِسَةِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْمَقْصُورَةَ فِي الْمَسْجِدِ لَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ؛ وَقِيلَ اتَّخَذَهَا مَرْوَانَ قَبْلَهُ ، وَقِيلَ عُثْمَانُ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَهَى عَنِ الْكَلَامِ بِحَضْرَتِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ يَرُدُّونَ عَلَى الْخَلِيفَةِ وَيَعْتَرِضُونَهُ فِيمَا يَقُولُ ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ دِيْوَانَ الْخَاتَمِ لَحْمِ الْكَتَبِ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْوِاحِقِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ الْبَرِيدَ فِي الْإِسْلَامِ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْبَرِيدِ فِي خَاتَمَةِ الْكُتَابِ .

(١) في الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فإنه أول من

نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء فليحذر .

أول من سار في الناس بالجبرية من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليد بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل نخاطبه باسمه فأمر به فوطئ .
 أول من رتب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، وأتخذ في قصره بيتا يجلس فيه الناس حتى يؤذن لهم ، وهو أول من أتخذ الأتراك اتخذ حمادا التركي ، ثم أتخذ المهدي بعده مباركا التركي ، ثم أكثر الخلفاء من الأتراك بعد ذلك .
 أول من جلس للصائب من الخلفاء على البساط دون الأئمّاط هارون الرشيد حين نعى إليه قريبه : إبراهيم بن علي ، فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا في المآتم .
 أول من نعت على المنبر بنعت الخلافة الأمين بن الرشيد فقيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبد الله محمدا الأمين .

أول من أضيف لقبه من الخلفاء إلى اسم الله المعتصم فقيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام على الخلفاء في المقالة الثانية .
 أول من حوّل السنة الشمسية إلى السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكل ، وسيأتي ذكره في تحويل السنين في المقالة السابعة ، وهو أول من أمر بتغيير زى أهل الذمة ، وسيأتي ذكره في الكلام على عند الصلح لأهل الذمة في المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أول من لبس التاج الضحّاك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال ، وفي زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .

أول من مسح الأرضين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخراج على الأرضين ، ووظف الموظفين على البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، وأتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أول من جلس على السرير من ملوك العرب جَذِيعَة الأبرش، وهو أول من وقعت له السُّمعة من ملوك العرب، وأول من لبس الطُّوق منهم .

أول من مَشَتْ الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية مَلَكُوهُ عليهم وتَوَجَّوه .

أول من مَشَى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ بن أبيه، وهو أول من جلس الناس بين يديه على الكرسي، وهو أول من اتَّخَذَ العَسَسَ والحَرَسَ .

أول من سَلَّمَ عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقبل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم، ثم تبعه الأمراء على ذلك .

أول من حَمَلَ إليه التَّلَجَّ الحجاج بن يوسف، وسيأتي ذكره في الكلام على حمل التلج لصاحب الديار المصرية في خاتمة الكتاب .

أول من نَقَشَ اسمه من الملوك على الدنانير والدرهم مع الخلفاء عِزُّ الدَّولة بن بويه وإخوته ملوك الديلم القائمين على الخلفاء العباسيين ببغداد، في سنة أربع وثلاثة وثلاثمائة، ثم تبعهم الملوك على ذلك .

أول من حَمَلَ السَّنَجَقَ على رأسه من الملوك غازي بن زنكي صاحب الموصل، وهو أول من آخَ تَارَ الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدُّبَابِيسَ تحت ركبهم .

أول من حَمَلَ الشمع معه على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طُغْج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفَرَّاش راكب أمامها، وهو يلتفت في كل قليل يصلحها، فأبدلها الملوك بعده بهذه الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل .

أول من لُقِّبَ من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضوان بن ولخشي وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان من قَبْلَهُ من الوزراء لا ينعت بالملك .

أول من لف العمامة على الكلوة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون ، وكانت ملوك بني أيوب يلبسون كلوة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون على أرباب الأقلام المتعممين في مقابلة أن الجند كانوا بغير عمامم .

أول من أعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند على ذلك وأستمر الأمر على ذلك إلى الآن ، وكان لهم قبل ذلك غداثر شعر مرسله كعرب الحجاز ونحوهم .

الوزراء

أول من سمي وزيرا في الإسلام أحمد بن سليمان الخلال ، وزير السفاح أول خلفاء بني العباس ، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك على ذلك ، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتباء . أول من لُقّب بالصاحب من الوزراء ، كافي الكفاة إسماعيل بن عياد ، وكان السبب في ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجّدا وتبعه الخلفاء على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام على هذا اللقب في المقالة الثالثة .

أول من لقب بالملك الفلاني من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ونحشى وزير الحافظ ، لُقّب الملك الأفضل ، ثم صار رسما لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصرية على ذلك إلى الآن .

القضاة

أول قاض كان في الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أستقضاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، في خلافته فكث سنة لا يأتيه أحد في قضية .

أول قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نَوْفَل ، استقضاه عليها أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه في خلافته .

أول قاض بالكوفة جُبَيْر بن الْقَشْعَم .

أول قاض بالبصرة أَبُو مَرْثَمَ الحَنْفِيّ ، أحد بنى حنيفة ، استقضاه أميرها عُروَة
ابن غَزْوَان في سنة أربع عشرة من الهجرة .

أول قاض بمصر قَيْسُ بْنُ أَبِي العاصِ السَّهْمِيّ ، استقضاه عليها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، في خلافته في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أول قاض جمع له القضاء والشرطة بمصر عائش بن سعيد وليهما من قَبْل أميرها
مُسْلِمَة بن مُخَلَّد .

أول قاض بمصر نظر في الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أَبُو مُحَمَّدٍ تَوْبَةُ في خلافة
هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال :
هذه مآلها إلى الْفُقَرَاء والمساكين فأنا أضع يدي عليها ، فما مضت له سنة حتّى صار
لها ديوان عظيم .

أول قاض بمصر خرج لرؤية الهلال عبد الله بن لَهَيْعَة . قال أبو عمر البكنديّ ،
وهو أول قاض وَلِيَ مصر عن خليفة ، ولها عن أَبِي جعفر المنصور في أول سنة
خمس وخمسين ومائة .

أول قاض ولي مصر ممن يقول بقول أبي حنيفة أبو الفضل إسماعيل بن الْيَسَّعِ
البكنديّ ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبي حنيفة ولم يألّفوه ، وكان يرى
بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلى أَبِي جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أول قاض بمصر أدخل النصارى فى خصوصاتهم إلى المسجد أبو عبد الرحمن محمد ابن مسروق ، وكانت ولايته لها من قبل الرشيد فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو أول من اتخذ لمجلسه الشهود من قضاة مصر .

أول قاض ولي مصر من يقول بقول مالك أبو نعيم إسحاق بن الفرات مولى معاوية ابن حديج ، وللشافعى عليه ثناء جميل فى معرفة الخلاف ، وهو أول قاض اتخذ للشهود ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قبل الرشيد فى سنة بضع وثمانين ومائة . أول قاض ولي على المصاحف أمينا بجامع القسطنطين الحارث بن مسكين ، وكانت ولايته فى خلافة المتوكل .

أول ما استقرت قضاة الديار المصرية أربعة ، من كل مذهب قاض فى سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ابن بنت الأعرز وكان شافعيًا ، فكانت تأتية المكاتب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فسق ذلك على السلطان والأمراء فاتفق رأيهم على أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقضى كل منهم بمذهبه .

أول ما خص قاضى القضاة الشافعى بالديار المصرية بالتولية فى أعمالها دون رفقته الثلاثة فى سلطنة المنصور قلاوون فى شوال سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره ابن المكرم فى تذكرته .

الأمور العلمية

أول من أخطأ فى القياس إبليس ، حيث قال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ أو لم يعلم أن ما ألقى إلى جوهر الطين زاد ونما ، وما ألقى إلى جوهر النار اضمحل وتلاشى .

- أول من نطق بالحكمة أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام .
- أول من دلَّ على تركيب الأفلاك ، وقدر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه على عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .
- أول من نظر في الطب افريدون ملك الفرس بعد الضحاك ، وفي أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا في علومهم .
- أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو أول من نقط المصاحف النقط الأول على الإعراب .
- أول من صنَّف في علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلي .
- أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفية خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثر من ذلك .
- أول من صنَّف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى .
- أول من صنَّف في أصول الفقه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، صنَّف فيه كتابه الرسالة .
- أول من صنَّف في الفقه مالك بن أنس صنَّف كتابه الموطأ .
- أول من عمل العروض الخليل بن أحمد ، وهو أول من صنَّف اللغة مرتبة على حروف المعجم صنَّف كتابه " العين " .
- أول من صنَّف في علم البديع عبد الله بن المعتز .
- أول من سنَّ الإساءة والأجتراء في البحث فرعون ؛ بينا هو وموسى عليه السلام في مقام المناظرة حيث قال ﴿ وما رَبُّ العالمين ﴾ فأجابه موسى بقوله ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ إلى آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿ لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِنْسُ خَلْقًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ .

الخطابة

أول من جمع قريشا وخطبهم ونبه على أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قُصِيَّ
 ابن كلاب، وسيأتي ذكره في الكلام على مكة في المسالك والممالك في المقالة الثانية.
 أول من خطب على العصا وعلى الراحلة قُصِيَّ بن ساعدة الإيادي، وقد تقدم
 ذكر خطبته التي خطبها على الراحلة في الكلام على الخطب .

أول من عمل المنبر تميم الدارشي عمله للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأى منابر
 الكنائس بالشام .

أول من أُرْجِحَ عليه في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال : أيها الناس إن
 اللذين كانا من قبلي كانا يُعَدَّان لهذا المقام مقالا، وأتم إلى إمام عادل أحوج منكم
 إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها في الجمعة الأخرى ثم نزل .
 أول من خطب جالسا معاوية حين كثر شحمه .

أول من أقام الجمعة بالمدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعد بن زُرارة
 الأنصاري بنى بياضة .

أول من رفع يده في الخطبة يوم الجمعة عبيد الله بن عبد الله بن عمر .
 أول من أخرج المنبر في العيد مروان بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَجُ .

الخط

أول من خط بالقلم في الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس .
 أول من كتب بالعربية قيل هود عليه السلام أنزل عليه ، وقيل إسماعيل ،
 وقيل ثلاثة نفر من بولان من طيء أصطلحوا على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام
 على الخط في الباب الثاني من هذه المقالة .

كتابة الإنشاء

أول من كتب في أول الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام ، حين كتب لِبَلْقَيْسَ كما أخبر الله تعالى عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت .

أول من كتب في أول الكتب باسمك اللهم أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ ، فكتبها قُرَيْشٌ في كتبهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتبها في ابتداء الأمر ، وسيأتي ذكر جميع ذلك في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .

أول من كتب من فلان إلى فلان قُسْ بن ساعدة فيما قاله العسكري وأقزوه النبي صلى الله عليه وسلم ، في مكاتباته ، وسيأتي ذكره في الكلام على الفوائح في المقالة الثالثة .

أول من زاد في أوائل الكتب بعد التحييد ” وأساله أن يصلى على محمد عبده ورسوله “ هارون الرشيد ، وسيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .
أول من أَرخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وسيأتي ذكره في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة .

أول من كتب في آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أبي بن كعب قاله العسكري .
أول من ختم الكتب سليمان عليه السلام فقد قيل في قوله تعالى حكاية عن بَلْقَيْسَ ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ إن المراد به المختوم . وأول من ختمها في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصفه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب ، وسيأتي ذكر ذلك في الكلام على الخواتم .

أول من آتخذ الطين لحتم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

أول من آتخذ ديوان الخاتم معاوية بن أبى سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما فى معناها

أول من آتخذ الديوان فى الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره فى الكلام على الإقطاعات فى المقالة السادسة .

أول من جعل الحساب فى دفتـر خالد بن برمك فيما قاله الثعالبي ، وكان قبل ذلك فى أدراج من كاغذ ورق .

أول من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية المجاج بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتبه زاذان قروخ فكان كُتَّابُ العـراقين علماء وتلاميذ^(١) .

أول من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبد الملك بن مروان ، نقله له سليمان بن سعيد مولى الحسين كاتب رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أول من نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد العزيز بن مروان فى إمارته على مصر، ذكره صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" .

أول من وسّع فى أرزاق الكُتَّاب الفضل بن سهل وزير المأمون .

(١) فى الأصل فروج بالمهملة فكان كبار العراقين وهو تصحيف فأحذره .

الخَرَاجُ وَالْجَزِيَّةُ

أول من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرى أنوشروان؛ وذلك أنه مر على زرع وأمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقا، ولا نستحله حتى يأخذ الملك حقه، فقرر على الزرع قدرا معلوما وخلى بين الغلة وأصحابها .

أول من وضع الخراج على الأَرْضَيْنِ وَالْجَزِيَّةَ على الجاهل في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السَّوَادَ؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصور حين خرب السَّوَادَ .

أول من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد بن أبيه فبقى حتى أسقطه زياد بن أبيه^(١) .

أول من عَرَّفَ العرفاء على الناس لجباية المال وغيره زياد، وكان يقول : العرفاء كالأيدي والمناكب فوقها .

المعاملات

أول من ضرب الدينارين والدراهم في الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشام من فضة خالصة، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بديناهم الفرس والروم؛ ولم يضربها عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك، فضرب الدراهم ونقش عليها قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إلى آخر السورة ، فسميت الدراهم الأحديّة ، وكرهها الناس لنقش القرآن عليها، مع أنه قد يحملها المحدث، فسميت المكروهة .

قلت : وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحديّة، أرانيه بعض أعيان حلب، وذكري أن فلاحا أصاب ركاذا لطيفا بها فأحضره إلى نائب حلب خوف عُهْدَتِهِ ،

فاقتسمه هو وأهل مجلسه ، وعوّضه من كل درهم أضعافه ، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أول من شدد في العيار في الدراهم يوسف بن عمر ، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها ، ثم استخفّ درهما فوجده ينقص حبة ، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرائين ألف سوط ، وكانوا مائة ضراب ، فضرب في نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أول من شدد في خلوص الذهب أحمد بن طولون صاحب مصر والشام ، وذلك أنه حين وجد الكثر المشهور بعين شمس ، وأتى له منه بميت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية فعرّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللعين أكبر منه أو ذهبه أخلص من ذهبه ، ثم شدد في التعليق حتى كان قاضى القضاة يحضّره بنفسه ، وسيأتى الكلام على ذلك في معاملة الديار المصرية في المقالة الثانية .

أول من ضرب الدراهم الزئوف في الإسلام عبيد الله بن زياد .

أول من اتخذ السنة الموازين من الحديد عبد الله بن عامر أمير المدينة من قبل عثمان .

أول من عمل الأوزان المجاج بن يوسف ، عملها له سمير اليهودي ، وذلك أن المجاج حين ضرب الدراهم الأحديّة على ما تقدّم ضربها سمير اليهودي من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد المجاج قتله ، فقال : ألا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلي ؛ قال : هاته ، فوضع الأوزان ، وزن ألف ، ووزن خمسمائة ، ووزن ثلثمائة إلى وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتى بها إلى المجاج فعفا عنه ، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوزان فيزنون به غيره .

أول من اتخذ الذراع التي يُذَرع بها الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السّواد . وقيل أول من اتخذها زياد ، نظر إلى ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصره فجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العمارة

أول بيت وضع في الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ، قال تعالى ﴿ إِنِّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ .

أول من جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .
أول من سقّف بمكة سقفا قصي بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنما يتولون في العريش .

أول من بوّب بمكة بابا حاطب بن أبي بلتعة .

أول من اتخذ بمكة رَوْشًا بُدِيل بن رِقَاءَ الْحَرَامِي . وهو أول من بنى بها بيتا مربعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربع في البناء كيلا يُشبه بناء الكعبة .

أول قرية بُنيت بعد الطوفان قرية ثمانين ، من الجزيرة الفراتية ، بناها نوح عليه السلام ، وأُزل بها من كان معه في السفينة وهم ثمانون رجلا .

أول مدينة بُنيت بمصر بعد الطوفان مدينة منّف وأصلها بالسريانية مافه ومعناها ثلاثون ، سميت باسم جماعة مصر بن بَصر الذين كانوا معه ، وسيأتي ذكرها في جملة قواعد مصر القديمة في المقالة الثانية .

أول من عمل الحماّم سليمان عليه السلام ، صنعها له الجحّ وعملوا له النّورة لإزالة شعر كان عليّ بلقيس حين تزوجها فيما يقال .

أَوَّلُ مَنْ آتَخَذَ الْآجُرَّ هَامَانُ لَفِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ لَهُ ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ .

أَوَّلُ مَنْ بَنَى بِالْخِصِّ وَالْآجُرِّ فِي الْإِسْلَامِ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ بِالْبَصْرَةِ .

الزَّرع

أَوَّلُ مَنْ غَرَسَ النَّخْلَةَ أَنُوشُ بْنُ شَيْثَ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الصَّناعات

أَوَّلُ مَنْ خَاطَ الثِّيَابَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ يَلْبَسُونَ الْجُلُودَ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الْقِرَاطِيسَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقِيلَ غَيْرُهُ ؛ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَا يَكْتَبُ فِيهِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّالِثَةِ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الصَّابُونَ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ قَالَهُ الثَّعَالِبِيُّ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الْكِيمِيَاءَ قَارُونَ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةُ عَنْهُ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ .

أَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الزَّجَاجَ مَلِكِي أَحَدُ مَلُوكِ مِصْرَ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَلُوكِهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

أَوَّلُ مَنْ آتَخَذَ الرِّحَالَ عِلَافُ بْنُ زَبَّانَ الْحَمِيرِيُّ^(١)، وَكَانَتْ الْعَرَبُ قَبْلَ ذَلِكَ يَرْكَبُونَ الْمَخَاصِرَ .

أَوَّلُ مَنْ كَسَا الْكَعْبَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُبَيْعٌ : أَسْعَدُ أَبُو كَرِيبٍ .

(١) . وَقَعَ فِي الْمَخَصَصِ رِبَانٌ بِإِهْمَالِ الزَّايِ وَفِي الْقَامُوسِ وَالصَّحَاحِ بِإِعْجَامِهَا وَهُوَ الْأَقْرَبُ .

أول من اتخذ المحامل له المجاج بن يوسف .
 أول من اتخذ السياط الأصيح بن مالك ، أحد ملوك اليمن فقيل السياط
 الأصحية .

اللباس

أول من لبس الثياب الحمر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
 فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أول من أطال ثيابه وسحبها على الأرض تحجباً وتيهاً .

أول من قور طيلسانا من العرب في الإسلام عبد الله بن عامر أمير المدينة من
 قبل عثمان . والطيلسان المقور على نحو الطرحة التي يلبسها الوزراء وقضاة القضاة
 الآن ، وكانت وزراء الفاطميين يلبسونها . وهو أول من لبس الخبز ، فقال أهل
 المدينة ليس الأمير جلد دُب .

أول ما لبس بنو العباس السواد حين قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية
 إبراهيم بن محمد الإمام أول قائم منهم بطلب الخلافة حزناً عليه ، فاستمر فيهم ، وفيه
 كلام يأتي في المقالة الثانية عند الكلام على لبس الخلفاء .

أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة زياد بن أبيه .

أول من آخذى النعال من العرب جذيمة الأبرش .

أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية الوليد بن المغيرة .

أول من لبس النعال الصمراة المرواني كان قصيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصمراة
 لتزيد في طوله وليسمعه جواريه وحرمه عند دخول بيته فتصالح شأنها من كانت على
 غير هيئة صالحة . قال العسكري : من ثم اتخذ الناس نعال الخشب يعني القباقيب .

أول من أمر بتغيير زى أهل الذمة المتوكل، أمرهم أن يلبسوا العسل، ويتخذوا ركب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين، وسيأتى ذكره في عقد صلح أهل الذمة في المقالة السابعة .

الحرب وآلاته

أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام، وكانت قبله وحوشا لا تُركب فراضا وركبها، وتعلم بنوه رياضتها منه، فصارت فيهم إلى الآن . ولذلك العرب أعرف الناس بالخيول . وهو أول من ميز بين العتاق منها والهجن في سهام أصحابها، فسبقت العتاق الهجن .

أول من اتخذ الدروع وليسها داود عليه السلام إذ يقول تعالى ﴿ وَاللَّهُ لَهُ الْحَدِيدُ أَنْ تَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَرٌ فِي السَّرْدِ ﴾ (١) وكانوا قبل ذلك يلبسون تنانير من حديد .

أول من اتخذ السلاح وجاهد سليمان عليه السلام فيما قاله العسكرى وفيه نظر . أول من اتخذ الحديد من العرب ذويزن الحميري، وكانت أسنتهم قبل ذلك صياصي البقر .

أول من اتخذ الحصن من الجبل للكائن الإسكندر .

أول من اتخذ المنجنيق الضحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار، وضعه فيه ورمى به في النار فكانت عليه بردا وسلاما . وأول من اتخذ من العرب جذيمة الأبرش .

أول من اتخذ الجواسيس والعيون على العدو الإسكندر .

أول لواء عقده النبي صلى الله عليه وسلم، لواء أبيض لعمه حمزة وقال "خُذْهُ يَلَأَسَدَ اللَّهِ" وذلك في رمضان من السنة التي هاجر فيها، وحمله له يزيد بن أبي يزيد .

(١) لعل مراده صفاخ من حديد كما هو نص الأوائيل والتفاسير واللفظة في نسخة الخط غير مجودة .

أول ما عُقدت الرايات في الإسلام يوم حُنين، عقد صلى الله عليه وسلم، راية سوداء من بُرد عائشة، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الأولوية قاله العسكري .

أول من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبي بن خلف لعنه الله، طعنه صلى الله عليه وسلم طعنة خفيفة فوجد لها ألماً شديداً ف قيل له لن تبالي فقال : لو أن ما بي بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أول حرب كان بين أهل القبلة يوم صفين ، بين عائشة وعلى رضي الله عنهما .

الأسماء والألقاب

أول من سُمي المصحف مُصحفاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين جمع القرآن .
أول من سُمي باسم النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد بن حاطب حين وُلد بأرض الحبشة في الهجرة الأولى .

أول من سمي بالحسن والحسين السبطان ولداً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو أحمد العسكري في كتابه "التصحيف والتحريف" قال المفضل حجب الله هذين الأسمين عن أن يسمي بهما حتى سُمي بهما النبي صلى الله عليه وسلم، آبنيهما السلام أما حسن وحسين الموجودان في أنساب طيئ فالأول بسكون السين والثاني بفتح الحاء وكسر السين .
أول من سُمي عبد الملك في الإسلام عبد الملك بن مروان .

أول من سُمي بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العروض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد .

أول من سُمي الغالية غالية معاوية بن أبي سفيان شهماً من عبد الله بن جعفر فوصفها له فقال إنها غالية .

أول ما سميت العَطِيَّات جوائز في زمن عثمان رضى الله عنه ، وذلك أن ابن عامر كان على العراق من قبل عُثمان فبعث جيشا مع قَطَن بن عبد عوف الهلالي إلى كَرْمَان ، فخرى الوادى بسيل خيف منه الفرق ، فقال قَطَن من عبّره فله ألف درهم ، فعبره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتى جاز جميعهم فأعطاهم قَطَن ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف ، فاستكثرها ابن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها ، وقال : كل ما كان في سبيل الله فهو جائز .

أول ما لُقّب بفلان الدولة في أيام المكتفى بالله .

أول ما لقب بفلان الدين في أيام القادر بالله ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة .

الضيفان

أول من قرئ الضيف إبراهيم الخليل عليه السلام حتى كُنِيَ أبا الضيفان لكثرة قِراءه لهم .

أول من سَنَّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحد ملوك الفُرس .

أول من هَشَم الثَّرِيد للقرى في زمن المحل هاشم بن عبد مناف ، وبذلك سمى هاشما وكان اسمه قبل عمرا .

أول من فَطَّر جيرانه في شهر رمضان عبيد الله بن العباس بن عبد المطالب . وهو أول من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرتِه وأول من أنهبه .

وجوه السب

أول من اتخذ البيمارستان بالشام للرضى الوليد بن عبد الملك .

أول من اتخذ البيارستان بمصر أحمد بن طولون بناء بالفسطاط ، وهو موجود إلى الآن .

أول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

الأعياد والمواسم

أول من اتخذ النيروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنى مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى يوم جديد عزبته العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نيروز .

أول هدية كانت فى النيروز لجما الملك المتقدم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصب إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاستحلاه فصنع منه السكر فوافق فراغه فى أول يوم ملك فيه جما وهو يوم النيروز فأهدى إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادون فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادوا بغير السكر .

أول ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القائم بعد الضحاك من ملوك الفرس ، وذلك أنه لما ظفر بالضحاك فقيده وآتقطع ، ما كان فى زمنه من الظلم والفساد سُمي اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرى : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النيروز .

أول من آتفتح المكتبة بتهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسف أهدى إلى المأمون سقط ذهب فيه قطعة عود هندية فى طوله وعرضه ، وكتب معه "هذا يوم جرت فيه العادة ، بإلطاف العبيد السادة" .

الأقوال

أول من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصل الخطاب المشار إليه بقوله تعالى ﴿وَأْتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾ . وقيل أول من قالها قُتُس بن ساعدة .

أول من قال مَرَحَبًا سيف بن ذِي يَزَنَ ، قال ذلك لعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، حين وفد عليه ليهنئه برجوع الملك إليه ، فقال له ” مَرَحَبًا وأهلاً ، وناقَةً ورَحلاً ، ومَنَاحًا سَمَلاً ؛ ومَلِكًا رَجُلًا ، يُعْطَى عَطَاءً جَزَلاً “ .

أول من قال جعلت فداك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفتنة ، فقال ” جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا أَصْنَعُ ؟ “ . وقيل أول من قالها له علي بن أبي طالب حين دعا عمرو بن وُدَّ العامري إلى المبارزة ، فقال علي ” جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذِنُ لِي ؟ “ ثم استعملها الكتاب بعد ذلك في مكاتباتهم .

أول من قال أطلال الله بقاءك عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تكلم علي رضي الله عنه بحضرته في العدل بكلام أعجبه ، فقال له : صدقت أطلال الله بقاءك ؛ ثم نقلها الكتاب إلى استعمالها في مكاتباتهم .

أول من قال أيذك الله عمر بن الخطاب قاله لعلي عليه السلام أيضا .

الشعر والغناء

أول من قصَّد القصائد مهلهل خال امرئ القيس ؛ والقصيد ما زاد على سبعة أبيات .

(١) في نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة في اللسان في مادة رب ح ل .

أول من أطلال الرِّجَز العَجَّاج . قيل إن الرجز كان في الجاهلية إنما يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثة في الحرب ونحوه حتى جاء العَجَّاج ففتح أبوابه وشبهه بالشعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات ، ونعت الإبل والطُّلول ؛ وكان في أول الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أول من أستخرج اللطيف من المعاني في الشعر وجرى على طريقه البديع مسلم ابن الوليد .

أول من أخرج الغناء العربيَّ جرادةَ جاريةُ ابنِ جُذعان فيما قاله العسكري . وفيه نظر فإن الغناء معهود من عهد عاد حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غَتَّه الجرادتان" .

أول من علم الجوارى المُنَمَّنات الغناء إبراهيم الموصلي ، وكان الناس بمكة لا يعلمون الجارية الحسنة الغناء .

النساء

أول امرأة خُفِضَتْ هاجراًم إسماعيل ؛ وذلك أنها حين تغيرت عليها سارة لَتَسْرَى^(١) إبراهيم عليه السلام بها حلفت لتقطعن شيئاً من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تخفِضَهَا ، وتثقب أذنيها ، وتجعل فيهما قرطين ففعلت فزادت حسناً .

أول امرأة آكتحل بالإنمذ زرقاء اليمامة ، وكانت تنظر مسيرة ثلاثة أيام .

أول امرأة تنبأت سباج التيمية التي تزوجها مُسْلِمَةُ الكَذَّاب .

(١) في نسخة الخط لبشرى وهو تصحيف ظاهر .

أول امرأة لبست المصبغات في الإسلام شُميلة زوج عباس ، وهي أول من
عبأت الطيب ^(١) .

الموت والدفن

أول امرأة حُملت في نعش زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم .
أول من دُفن بالبقيع عثمان بن مظعون ، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة .
أول من دُفن بقرافة مصر رجل اسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عمّرت والله .

أمور تنسب للجاهلية

أول من حرّم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة ؛ وقيل قيس بن عاصم ؛ ثم جاء
الإسلام بتقريره .

أول من حرّم القمار في الجاهلية الأقرع بن حابس التيمي ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره .
أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حذان ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن .
أول من حكم أن الولد للفراش في الجاهلية أكرم بن صيفي حكيم العرب ؛ ثم جاء
الإسلام بتقريره .

أول من قطع في السرقة في الجاهلية الوليد بن المغيرة ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره .
أول من سنّ الدية مائة من الإبل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ؛
وذلك أنه نذر إن ولد له عشرة ذكور ليذبحن العاشر فولد له عشرة ، وكان عاشرهم
عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش في أمره ، وأشير عليه
بأن يُقرع بينه وبين الإبل حتى تخرج القرعة على الإبل ؛ فأقرع بينه وبين عشرة

(١) في اللسان يقال عبأ الطيب ... يعبؤه عبأ صنعه وخطه .

نُفِجَت القُرْعَةُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ زَادَ عَشْرَةً بَعْدَ عَشْرَةٍ وَهِيَ تَقَعُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَيْهَا فَتَحَرَّهَا ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ ” أَنَا ابْنُ الدَّيْحَانِ “ يَعْنِي إِسْمَاعِيلَ وَعَبْدَ اللَّهِ ، ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِتَقْرِيرِهَا .
أَوَّلُ مَنْ أَوْقَدَ النَّارَ بِالْمُزْدَلِفَةِ حَتَّى يَرَاهَا مِنْ الْمَوْقِفِ قُصِيُّ بْنُ كَلَابٍ ، فَهِيَ تُوقَدُ إِلَى الْآنَ .

أَوَّلُ مَنْ أَهْدَى الْبُذْنَ إِلَى الْبَيْتِ إِلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ .
أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ قُسَّ بْنُ سَاعِدَةَ .
أَوَّلُ مَنْ خَضَبَ بِالْوَسْمَةِ مِنْ قَرِيشٍ عَبْدُ الْمَطْلَبِ .
أَوَّلُ مَنْ نَسَّاءَ النِّسَاءَ ، وَسَيَّبَ السَّوَابِ ، وَجَعَلَ الْوَصِيلَةَ وَالْحَاجِمِيَّ عَمْرُو بْنُ لُحِيٍّ وَهُوَ أَبُو خَزَاعَةَ .

الضرب الثاني

(من النبذ التاريخية التي لا يسع الكاتب جملتها نوادر الأمور ولطائف الوقائع والمساخرات)

العراقة وشرف الآباء

قَالَ الثَّعَالِبِيُّ ، أَشْرَفُ الْأَنْبِيَاءِ فِي النَّبُوَّةِ يَعْنِي تَوَاصُلَ الْأَبَاءِ فِيهَا يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ ابْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَشَاهِدَ مَاقَالَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ ” الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ “ وَلَا يَخْفَى أَنَّ إِخْوَتَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الرِّتَبَةِ فِي الْعِرَاقَةِ .
أَعْرَقَ الْأَكَّاسَةَ فِي الْمُلْكِ شَيْرُويه بن أْبْرُويز بن أَرْدَشِير بن بَابَك ملك ابن ملك ابن ملك .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس في حُجبة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بن أبي حنيفة رضى الله عنهم ، أربعتهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحبوه .

أعرق الخلفاء في الخلافة المتتصر ، بن المتوكل ، بن المعتصم ، بن الرشيد ، بن المهدي ، بن المنصور في آباءه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها . وفي معناه أخواه المعتمد والمعتز ، أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا في الخلافة فإنه لم تمض عليه مدة تعتبر ، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين في جملة الخلفاء .

أعرق الناس في المُلْك والخلافة جميعا باعتبار الأصول والحواشي من الذكور والإناث يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . أما من جهة الخلافة فهو خليفة ، وأبوه خليفة ، وجدّه خليفة ، وجدّ أبيه خليفة ، وعمومته خلفاء . وأما من جهة المُلْك فأمه شاهر بنت فيروز ، بن يزدجرد ، بن شهریار ، وأمها من بنات شيرويه ابن أبرويز ، وأم شيرويه مريم بنت قيصر ، وأم فيروز بنت خاقان ملك الترك .

أعرق الوزراء في الوزارة أبو علي الحسين ، بن القاسم ، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأخوه أبو جعفر محمد بن القاسم ، فإن القاسم وُزِّرَ للمقتدر ومحمد وُزِّرَ للقائم وأباهما القاسم وُزِّرَ للمعتض ثم للمكتفى بعده ، وعبيد الله وُزِّرَ للمعتض ، وسليمان وُزِّرَ للمهتدي وبعده للمعتد فكل من الحسين ومحمد وزير ابن وزير ابن وزير يعني في آباءه ثلاثة وزراء ، وهو الرابع فيها .

أعرق الناس في القتل عمارة بن حمزة بن مُصعب بن الزبير بن العوام بن خُوَيْلد ، قُتل عمارة ، وأبوه حمزة جميعا يوم قديد في حرب الإباضية ، وقتل مُصعب بدير الحائلي في الحرب بينه وبين عبد الملك ، وقتل الزبير بوادي السباع في نوبة الجمل ،

وقتل العوام في حرب الفجار ، وقُتل خُوَيْلِدٌ في حرب نُزَاعَةَ . قال الثعالبي ولا يعرف في العرب والعجم ستة مغبونون في نَسَقٍ واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس في الفقه إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمام الأعظم .

أعرق الناس في القضاء بلال بن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : كان بلال قاضيا على البصرة ، وأبو بُرْدَةَ قاضيا على الكوفة ، وأبو موسى قاضيا لأُمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

أعرق الناس في حِجَابَةِ الخلفاء العباس بن الفضل بن الربيع ، فإن العباس حجب الأُميين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدي ؛ وفي ذلك يقول أبو نَواَسٍ من أبيات :

سَادَ الرَّبِيعُ وَسَادَ فَضْلٌ بَعْدَهُ * وَنَمَتْ بَعَّاسُ الْكَرِيمِ فُرُوعُ
عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا أَحْتَدَمَ الْوُغَى * وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس في الشعر سعيّد بن عبد الرحمن بن حَسَّانَ بن ثابت بن المنذر بن حرام ، ستة كلّهم شعراء على نَسَقٍ ؛ ثم كانت العرَاقَةُ في الشعر بعده مع زيادة آباء لمتوج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيى ، بن مروان ، بن الحبوب ، بن مروان ، ابن سليمان ، بن يحيى ، بن أبي حفصة : مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ عشرة على نَسَقٍ :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس في الأُمَّة نسبا الحسن والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهما ، والقاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالهما ، وعلى بن

أبي طالب أبوهما ، وفاطمة بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت خويلد جدتهما .

أشرف النساء في النسب والصَّهر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعليّ بن أبي طالب زوجها ، والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ الناس في المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوّج إليه أربعة من الخلفاء ؛ تزوّج الوليد بن عبد الملك بنته عبدة ، وسليان بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيّد بن عبد الملك بنته أمّ سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رقية : قال الثعالبيّ ولا يُعرَف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمورٍ تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولّدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وطلحة والزبير ؛ وهي حفصة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المدينيّ ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بن عمرو بن الزبير ، وأم عمرو أسماء بنت أبي بكر ، وأمّ المدينيّ فاطمة بنت الحسين بن عليّ ؛ وأمّ الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمّ فاطمة بنت الحسين أمّ إسحاق بنت عبيد الله ؛ وأمّ عبد الله بن عمرو زينب بنتُ عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فهي من ولد كل من المذكورين .

أربع نسوة في الإسلام ولدت كل واحدة منهنّ خليفتين ؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدت الحسن والحسين ، وقد بُرِّع لهما بالخلافة ؛ وولادة بنت العباس العبسية زوجة عبد الملك بن مروان ولدت له الوليد وسليان ؛ وهما

خليفتان؛ وساهر بنت فيروز بن يزدجرد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيد وإبراهيم فوليا الخلافة، والخيزران ولدت للمهدي موسى الهادي وهارون الرشيد .

أمرأة لها اثنا عشر محرما كل منهم خليفة ، وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبي سفيان جدّها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، وعبد الملك ابن مروان زوجها ، ومروان بن الحكم حموها ، ويزيد بن عبد الملك أبنها ، والوليد وسليان وهشام أبناء عبد الملك أولاد زوجها .^(١)

ومثلها من بنى العباس زبيدة بنت جعفر بن المنصور ؛ جدّها المنصور ، وأخو جدّها السفّاح ، وزوجها الرشيد ، وعمّها المهدي ، وأبنا الأمين ، وأبناء زوجها المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .

خليفة سلم عليه بالخلافة عمّه وعم أبيه وعم جدّه ، وهو هارون الرشيد سلم عليه سليمان بن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه المهدي ، وعبد الصمد بن علي عم جدّه أبي جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم ابن خليفة ، وهو المتوكل ؛ سلم عليه أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليان بن المأمون ، وعبد الله بن الأمين ، وأبو محمد بن الرشيد ، والعباس بن الهادي ، ومنصور بن المهدي .^(٢)

خليفة قبل هو وأبنه يد خليفة فأجاز أبنه بجائزة ثم قبل المقبلة يدّه هو وأبنه يد المقبل أولا وهو خليفة فأجاز أبنه بمثل تلك الجائزة ؛ وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم ابن المهدي أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبل يده ثم أدنى منه أبنه هارون فقبل يده ، وقال يا أمير المؤمنين عبدك هارون آخى فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما

(١) المدود تسعة فقط وكذا في المثل بها فتنه .

(٢) كذا في الأصل .

أَسْتُخْلِفَ المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدي ثم ترجل في ذلك الموضع بعينه وقبل يده وأدنى منه آبنه هبة الله فقَبَّلَ يده ، وقال : يا أمير المؤمنين عبدك هبة الله آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامن أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقين من شهر ربيع الأول ومن ثم سمي المثنى .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقُسّ ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ، وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن آبن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ؛ ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلف فيها الرشيد ؛ ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما آبن الآخر بين قبريهما بُعد كبير ؛ وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطوس وقبر المأمون بطرسوس .

خليفة ركب البريد ؛ وهو موسى الهادي ، مات أبوه المهديّ وهو نائبه على جرجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدَة والقضيب فركب البريد وأتى إلى بغداد بعد ثلاثة عشر يوما من موت المهديّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفان اسم كل منهما جعفر قتل كل منهما في يوم الأربعاء وهما المتوكل والمقتدر .

خليفة وليّ الخلافة ستين سنة متوالية ؛ وهو المستنصر بالله الفاطميّ خليفة مصر على أن الثعالبيّ في "لطائف المعارف" قال استقرت ولاية معاوية بن أبي سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوما أو بعض يوم ، هو عبد الله بن المعتز ، بويع بعد خلع المقتدر ، فلما كان من الغد حاربه غلمان المقتدر وعاونهم العامة فهرب وأختفى ثم ظفربه .

أربعة إخوة ولي كل منهم الخلافة ، وهم الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حتى سوى أبي بكر الصديق والطائع لله وكلاهما اسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة من أبواه هاشميّان سوى الحسن بن عليّ من فاطمة ومحمد الأمين ابن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من اسمه العباس سوى أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس بن المتوكل على الله محمد خليفة العصر ، على كثرة هذا الاسم في أولاد الخلفاء العباسيين وكونه اسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرني أمير المؤمنين المستعين

المشار إليه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشيخ بدر الدين البهنسى بمكة المشرفة، رأى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل على الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .

وسياتى ذكر ذلك فى الكلام على العهد الذى أنشأه قبل ولايته الخلافة بنحو ثمان سنين أمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى : الناس يرون أن كل سادس يقوم بأمر الدين منذ أول الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن نخلع . ثم معاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله ابن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فالنبي . ثم كانت الدولة العباسية فكان السفاح، والمنصور، والمهدى، والهادى، والرشيد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمتنصر، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفى، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم رد إلى الخلافة ثم قتل، ولم يعتد بخلافة ابن المعتز لخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النديم" والثعالبي فى "لطائف المعارف" : ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتنى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاء عند استيلائه على بغداد . قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدى لا يليق بمثله فانه أسقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين ابن نباتة في تاريخ الخلفاء أنهم لما بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحيثئذ فيكون من بعد المستنصر المستعصم المذكور ثم المستنصر أحمد ، الذي أتى به الظاهر بيبرس وتوجه إلى الديار المصرية ، ثم الحاكم أحمد ، ثم آبنه المستكنى سليمان ، ثم آبنه المستعصم أحمد ، ثم الواثق ، إبراهيم نخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكنى ، ثم آبنه المتوكل ، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر ، ثم المستعين أبو الفضل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالى أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدى : وكذلك العبيدئون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهديّ ، والقائم بأمر الله ، والمنصور ، والمُعزُّ باني القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزیز ، والحاكم فقتلته أخته . ثم الظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر نخلع وقتل ؛ ثم الفائز ، والعاقد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب في ملك مصر أولهم صلاح الدين ، ثم ولده العزيز ، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين ، والعاقل الكبير أخو صلاح الدين ، والكاامل ولده ، والعاقل الصغير نخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدين أيوب ، ثم المعظم توران شاه ، ثم أم خليل شجرة الدر ، ثم الأشرف موسى وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أولهم المعز أيك ، وآبنه المنصور ، والمظفر قُطر ، والظاهر بيبرس ، وآبنه السعيد برّكة ، وأخوه العاقل سلامش نخلع ، وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم آبنه الأشرف خليل ، ثم المعظم بيدرا ولم يعتد به لخلعه من يومه كما لم يعتد بابن المعتز في الخلفاء ، ثم الناصر محمد بن قلاوون ، ثم العاقل كتبغا ، ثم المنصور لاجين ، ثم المظفر بيبرس الجاشنكير نخلع ، ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد ، ثم الأشرف بكك ابن الناصر محمد ، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد ، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجى بن الناصر محمد نخلع ؛ ثم الناصر حسن بن الناصر محمد ، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد ، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجى ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم آبنه المنصور على ، ثم الصالح حاجى بن الأشرف شعبان نخلع ؛ ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثانى والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلك وهو فى بطن أمه ؛ وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقدوا التاج على رأس أمه على أن يكون من فى بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملكوه .

ثلاثة من ملوك فارس آبن وأب وجد أسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ؛ ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الثعالبي : وهذا التناسق لا يقع إلا فى الأكابروالرؤساء وقد جاء من هذا النمط فى سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أول أسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أول أسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثانى أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتل أبا مسلم الخراسانى وأسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن على وعبد الجبار بن عبد الرحمن وإلى خراسان .

قال الثعالبي : أربعة فى الإسلام قتل كل واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراسانى ، وبارك ، والبرقي .

قلت : وقد وقع لتيemor كور كان المعروف بتمرنك صاحب ما وراء النهر على رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك ، فإنه قد فتح من الهند إلى الخليج القسطنطيني ، وقتل من كل إقليم من الخلق ما لا يحصى حتى كان يبنى بالرؤوس في كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسراة الناس

ثلاثة بنو أعمام في زمن واحد ، كل منهم سيد جليل ، لم يصلح للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ابن اسمه محمد كذلك ، وهم علي بن عبد الله بن عباس وأبنة محمد وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأبنة محمد ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وأبنة محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق في العالم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وأبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العاص وأبنة عبد الله كان بينهما في السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبي ولا يعهد مثل ذلك . أخوان تباعد ما بينهما في السن تباعدا شديدا وهما موسى بن عبيدة الربذي المحدث^(١) وأخوه عبد الله كان بينهما في السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك في غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسن من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبي طالب كان طالب أسن من عقيل بعشر سنين ، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسن من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا في سنة واحدة وقتلوا في يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة ، وهم مزيد ، وزباد ، ومدرِك أولاد المهلب بن أبي صفرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) في الأصل الزبيري وهو تصحيف عن الربذي كما يعلم من الخلاصة للزرجي .

رجل مكث عشر سنين لا يولد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلب
ابن أبي صفرة في غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال في الإسلام لم يميت كل منهم حتى رأى من ولده وولد ولده أكثر
من مائة فيما قاله الثعالبي وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وخليفة بن براء السعدي ، وعبد الرحمن بن عمر الليثي ، وجعفر بن سليمان
الهاشمي ، ومنهم من يذكر بده أبا بكره مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشد تباعد ، وهم بنو العباس بن عبد المطلب قبر
عبد الله بالطائف ، وقبر عبيد الله بالمدينة ، وقبر معد بأفريقية ، وقبر الفضل بالشام ،
وقبر قثم بسمرقند .

فاض قضى في الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكندي
استقضاه عمر على الكوفة فبق بها خلافة عمر وما بعدها إلى تمام المدة المذكورة لم
يتعطل منها سوى ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

”من كان من الخلفاء أصلع“ قال الثعالبي : كان الصلح في عمر ، وعثمان ، وعلي ،
ومروان بن الحكم ، وعمر بن عبد العزيز ، قال ثم أقطع الصلح من الخلفاء .

”من كان في غاية الطول“ ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنه راكب
والناس يمشون لطوله ؛ وكان عدي بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط في الأرض ؛
وكذلك جرير بن عبد الله البجلي ، وكان قس بن ساعدة في نهاية الطول والجسام ،
وكان عبد الله بن زياد إذا رآه الرائي وهو ماش ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان
علي بن عبد الله بن عباس في غاية من الطول ، وكان أبوه عبد الله أطول منه ، وجده

العباس أطول من أبيه ؛ ويقال إن جبلة بن الأيهم الغساني كان طوله اثني عشر شبرا .

”من كان في غاية القصر“ قال الثعالبي : كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه شديداً القصر يكاد الجُلوس يوازونه من قصره ؛ وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دحداحا ، وكان الحطيئة الشاعر مُقَرَّب القصر ، ولذلك لُقِّب بالحطيئة ، وكان ذو الرمة الشاعر قصيرا جدًّا ، ورأيت في بعض التواريخ أن كثيرَ عزة كان طوله ثلاثة أشبار ؛ وكان العباس بن الحسن في غاية من القصر وفيه قيل :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ * وَأَنْظُرْ إِلَى الْفَضْلِ وَالْمُجَدِّى شَادَا
إِنَّ النُّجُومَ تُجُومُ الْجَوَّ أَصْغَرُهَا * فِي الْعَيْنِ أَبْعَدُهَا فِي الْجَوِّ أَصْعَادَا

”من عُرف بالدهاء من العرب“ معاوية بن أبي سفيان ، زياد ابن أبيه ، عمرو بن العاص ، المغيرة بن شعبه ، قيس بن سعد بن عبادة ، عبد الله بن بديل الخزاعي .
”من نُسِبَ منهم إلى الخُمق“ عامر بن كُرَيْز ، معاوية بن مروان بن الحكم ، بَكَّار ابن عبد الملك بن مروان ، العاص بن هشام ، عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان ، سهل بن عمرو وأخوه سهيل ، العاص بن سعيد بن العاص .

”المؤلفة قلوبهم في أول الإسلام“ قال الثعالبي : هم من قريش أبو سفيان ابن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وهبَّار بن الأسود ، والحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وصَفْوَان بن أمية ، وأنس بن عدى . ومن فَرَازَة عِيْنَة بن حصن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُلَيْم العباس بن مُرْدَاس . ومن ثَقِيف العلاء بن الحارث .

”من أصيبت عينه“ أبو سفيان بن حرب ، ذهب عينه يوم الطائف ثم عمي بعد ذلك . الأشعث بن قيس ، ذهب عينه يوم اليرموك ، المغيرة بن شعبه كذلك

الأشتر النخعي جري بن عبد الله البجلي ، عدى بن حاتم ، عتبة بن أبي سفيان ، المختار
أبن أبي عبيد ، الأحنف بن قيس ، المهلب بن أبي صفرة ، طاهر بن الحسين ، عمرو
أبن الليث الصفار .

”من سُمِلَتْ عيناه من الخلفاء والملوك“ أما من الخلفاء فالقاهر ، والمتقى ،
والمكتفي ؛ وأما من الملوك فهزم بن أنوشروان أحد الملوك الأكاسرة ، صمصام
الدولة بن بويه ، منصور بن نوح بن منصور الساماني .

”من كان مكفوف البصر من أشرف الناس“ زهرة بن كلاب بن كعب ؛
عبد المطلب بن هاشم ؛ العباس بن عبد المطلب ؛ الحَكَم بن العاص ؛ أبو سفيان بن
حرب ؛ الحارث بن العباس بن عبد المطلب ؛ مطعم بن عدى بن نوفل بن
عبد مناف ؛ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ؛ عتبة بن
مسعود الهذلي ، عبد الله بن عبيد الله بن عتبة ؛ أبو أحمد بن جحش بن مسعود
الأسدي ؛ جابر بن عبد الله الأنصاري ، عبد الله بن أرقم ؛ البراء بن عازب ؛ حسان
ابن ثابت ؛ أبو أسيد الساعدي ؛ قتادة بن دَعَامَة ؛ دُرَيْد بن الصَّمَّة الجُشَمي ؛ عزيمة
ابن نوفل الزُهري ؛ الفاكه بن المغيرة المخزومي ؛ جذيمة بن حازم النهشلي ؛ أبو العباس
الشاعر ؛ علي بن زيد بن جُدعان ؛ المغيرة بن مِقْسَم الضبي ؛ الترمذي الكبير الحافظ
الفقيه ؛ منصور الشاعر المصري ؛ ابن سيده اللغوي ؛ أبو العلاء المعري ؛ بشار بن
برذ ؛ أبو البقاء العكبري ؛ أبو العيْناء هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي ؛
أبو القاسم السَّمِيلِي صاحب الروض الأئنف ؛ أبو القاسم الشاطبي ؛ الصرصري
الشاعر ؛ أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري ؛ أبو عبد الله بن خَلْصَة المغربي
النحوي ؛ أبو عبد الله بن الخياط .

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنف . ومن ملوك الفرس أنوشروان كان أعور، يزدجرد كان أعرج . ومن ملوك العرب جذيمة الوضاح، كان أبرص، النعمان ابن المنذر، كان أحمر العينين والشعر . ومن الخلفاء عبد الملك بن مروان أنجر، يزيد ابن عبد الملك أققم، هشام بن عبد الملك أحول، مروان الحمار أشقر أزرق، موسى الهادي شفته العليا متقلصة، حتى كان أبوه المهدي قدرتب له خادما يلازمه متى غفل وفتح فاه قال: موسى أطبق، إبراهيم بن المهدي كان أسود سمينا يلقب بالثنين . ومن أشراف قريش وغيرهم أبو طالب أعرج، وأبو جهل أحول، أبو لهب كذلك، وكذلك زياد، وعدى بن زيد . الأحنف بن قيس، أحنف متراكب الأسنان، صعل الرأس، مائل الذقن . والربيع بن زياد أبرص، وكذلك الحارث بن حنظلة، وأيمن بن حريم، والحسن بن حنظلة، وكان عبيدة السلماني أصم، وكذلك ابن سيرين والكبيش الشاعر، والمرقس الأكبر الشاعر أجذع .

أصحاب النوادر

ابن أبي عتيق، أشعب الطمع، أبو الغصن مجحأ، أبو العبر، أبو العنابس، ابن الجصاص مزيد المدني .

أجواد الإسلام

عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، عبد الله بن عامر بن كرز، حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام، عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، خالد بن عبد الله

(١) في العقد الفريد اسم الجواد عبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، عتاب بن أبي
ورقاء الحنظلي ، أسماء بن خارجة بن حصن بن بدر الفراري ، عبد الله بن أبي بكر
مولي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطلحات المعروفون بالجود

طلحة الفيّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحد العشرة ؛ وطلحة الجود — وهو
طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله
ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علي
أبي طالب ؛ وطلحة الندى — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ؛ وطلحة
الطلحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وزمعة ^(١)
ابن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن
غزوم : سُموا بذلك لأنهم لم يترؤد معهم أحد في سفر قط لجودهم .

من أشهر عند أهل الأثر بلبقه

غسيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبي عامر الأنصاري أصيب يوم أحد فأخبر
النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غسلته . قتيل الجن ، هو سعد بن عبادة ،
بال في مجرقتله الجن . مُصاغ الملائكة ، هو عمران بن حصين . حمى الدبر ، هو
عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، حمته النحل إلى أن كان الليل . ذو الشهادتين هو
خزيمة بن ثابت الأنصاري ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دين اليهودي
حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه وفاه ، اعتمادا على خبر النبي صلى الله عليه

(١) في الأصل مسلمة وبيعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وسلم ، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليدين هو عُبَيْد بن عُبَيْد عمرو الخزاعي كان يعمل بيديه معا . ذو العِمَامَةِ ، هو أبو أُحِيحة سعيد بن العاص بن أمية ، كان إذا لبس عمامته لم يلبس قرشي عمامته حتى يترعها . ذو الثَّنِيَّةِ ، كانت إحدى يديه مُحْدَجَةً كاللدى ، كان رأس الخوارج . ذو الثَّنِفَاتِ ، كان يقال ذلك لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولعلي بن عبد الله بن عباس لما على أعضاء السَّجَدَاتِ منهما من شبه ثَنِفَاتِ البعير . ذو السَّيْفَيْنِ ، هو أبو الهيثم ابن التَّيَّهَانِ ، سمي بذلك لتقلده في الحرب بسيفين . سَيْفُ الله ، هو خالد بن الوليد . أَسَدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النَّطَاقَيْنِ ، هي أسماء بنتُ أبي بكر ، سميت بذلك لأنها شَقَّتْ نِطَاقَهَا للسُّفَرَةِ في الليلة التي هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأبوها إلى المدينة . عُرْوَةُ الصَّعَالِيكِ ، هو عُرْوَةُ بن الوَرْدِ ، كان إذا شَكَا إليه أحد أعطاه فرسا ورُحْمًا وقال له : إِنْ لم تستغنِ بذلك فلا أغناك الله . سُلَيْكُ المَقَانِبِ ، هو سُلَيْكُ بن سُلَيْكَةَ ، كان أعدى الناس حتى إن الفرس لا يُدْرِكُهُ . طَفِيلُ الأعراس ، رجل من غَطَفَانَ ؛ وقيل هو من مَوَالِي عُثْمَانَ بن عفَّان رضي الله عنه ، كان يتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوَةٍ وإليه تنسب الطُّفَيْلِيَّةُ . أُشَيْجُ بنُ أمية هو عمر بن عبد العزيز . جَبَّارُ بنِ العَبَّاسِ هو هَارُونُ الرَّشِيدِ : لأنه أغزى ابنه القاسم الرومَ فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسَّروج والنبُومِ الفِضَّةِ ، وأغزى علي بن عيسى بن ماهان بلادَ التُّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هِرَقْلَةَ ، وأخذ الجزية من ملك الروم . بَنَاتُ طَارِقٍ ، هن بنات العلاء بن طارق بن أمية بن عبد شمس ؛ سُمِّيْنَ بِجَدِّهِنَّ ، يضرب بهنَّ المثل

(١) في الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان في مادة س ل ك .

في الحسن والشرف . بنات الحارث ، هن بنات الحارث بن هشام ؛ يضرب بهن
المثل في الحُسْن وغلُو المهر .

من كان فردا في زمانه بحيث يضرب به المثل في أمثاله

كان الإسكندر ، في طَوْفان الأرض ، وكسرى أُنُوشروان ، في العدل ، وزرقاء
اليَمَامة ، في حِدَّة النظر ، وحاتم الطائي ، في الكرم ، وكعب بن مامة ، في الإيثار ،
وارسطاطاليس ، في الحكمة ، وبقرط ، في الطب ، وقس بن ساعدة ، في الفصاحة ،
وسُبحان وائل ، في البلاغة ، وعمرو بن الأَهم ، في البيان ، وباقل ، في العِجى ، وأبو بكر
الصديقي رضي الله عنه ، في معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في قوة
الهُيئة ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه ، في التلاوة ، وعلي بن أبي طالب رضي الله
عنه ، في القضاة ، ومعاوية ، في كثرة الاحتمال ، وأبو عبيدة بن الجراح ، في الأمانة ،
وأبو ذر ، في صدق اللُهجة ، وأبي بن كعب ، في القراءة ، وزيد بن ثابت ، في الفرائض ،
وآبن عباس ، في تفسير القرآن ، وعمرو بن العاص ، في الدِّهاء ، وأبو موسى الأشعري ،
في سَلَامَة الباطن ، والحسن البصري ، في الوعظ والتذكير ، ووهب بن منبه ،
في القصص ، وآبن سيرين ، في تعبير الرؤيا ، ونافع ، في القراءة ، وأبو حنيفة ، في القياس
في الفقه ، وآبن إسحاق ، في المغازي ، ومقاتل ، في التأويل ، والكلبي ، في قصص القرآن ،
وآبن الكلبي الصغير ، في النسب ، وأبو الحسن المدائني ، في الأخبار ، ومحمد بن جرير
الطبري ، في علوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، في العروض ، وفُضَيْل بن عياض ، في العبادة ،
ومالك بن أنس ، في العلم ، والشافعي ، في فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، في القريب ، وعلي
آبن المديني ، في علل الحديث ، ويحيى بن معين ، في رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ،
في السنة ، والبخاري ، في نقد الصحيح ، والجنيد ، في التصوف ، ومحمد بن نصر المروزي ،

في الاختلاف، وأبو علي الجبائي، في الاعتزال، وأبو الحسن الأشعري، في علم الكلام، وأبو القاسم الطبراني، في عوالي الحديث، وعبد الرزاق، في آرتحال الناس إليه، وآبن منده، في سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، في سُرعة القراءة، وآبن حزم، في مذهب الظاهر، وسيبويه، في النحو، وأبو الحسن البكري السيري، في الكذب، وإيأس بن معاوية، في الذكاء والتفكرس، وعبد الحميد، في الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخراساني، في علو الهمة والحزم، وإسحاق الموصلي النديم، في الغناء، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، في المحاضرة، وأبو معشر، في النجوم، والرازي، في الطب، وعَمار بن حمزة، في التَّيه، والفضل بن يحيى، في الجُود، وجعفر بن يحيى، في التوقيع، وآبن زيدون، في سعة العبارة، وآبن القرية، في البلاغة، والجاحظ، في الأدب والبيان، والحريري، في المقامات، والبديع الهمداني، في الحفظ، وأبونؤاس، في المجون والخلاعة، وآبن حجاج الشاعر، في سُخف الألفاظ، وانتبى، في الحِكم والأمثال شعرا، والزخشرى، في تعاطى العربية، والنسفي، في الجدل، وجرير الشاعر، في الهجاء الخبيث، وحماد الراوية، في شعر العرب، والاحنف بن قيس، في الحِلْم، والمأمون، في حُبِّ العفو، والوليد، في شُرْب الخمر، وعطاء السلمي، في الخوف من الله تعالى، وآبن البواب، في الكتابة، والقاضي الفاضل، في الترسل، والعباد الكاتب، في الجناس، وأشعب، في الطمع، وأبو نصر الفارابي، في معرفة كلام القدماء ونقله وتفسيره، وحنين بن إسحاق، في ترجمة اليوناني إلى العربي، وآبن سينا، في الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام نغر الدين الرازي، في الأطلاع على العلوم، والجاحظ في سعة العبارة، والسيف الأمدى، في التحقيق، والنصير الطوسي، في معرفة المجسطى، وآبن الهيثم، في الرياض ونجم الدين الكاتبي، في المنطق، وآبن الأعرابي، في الأطلاع على اللغة، وأبو العيناء، في الأجوبة المسبكتة، ومزید، في البخل، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد، في المروءة

وحسن التقاضى؛ وآبن المعتز، فى التشبيه، وآبن الرسمى، فى التطير، والصولى
فى الشطرنج، والغزالى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وآبو الوليد بن رُشد، فى تلخيص
كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيى الدين بن عربى، فى علوم التصوف، وجابر
ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب اتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِدَ النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين،
وهاجر يوم الاثنين، وتُوفى يوم الاثنين .

اتفاقية أخرى — قَتَلَ عبدُ الله بن زياد الحسين بنَ عليّ عليهما السلام يوم
عاشوراء، وقتله الله على يد إبراهيم بن الأستر فى يوم عاشوراء .

أخرى — قال عبد الملك بن عمير اللبثى : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس
الحسين بنِ عليّ بين يدي عبد الله بن زياد على تُرسٍ ؛ ثم رأيت فيه رأس عبد الله
آبن زياد بين يدي المختار بن أبى عبيد ؛ ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدي مُصعب
آبن الزبير ؛ ثم رأيت فيه رأس مُصعب بين يدي عبد الملك بن مروان . قال :
فحدثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدثنى الحسين بن يحيى الكاتب أنه لما ولى المعتز لم
تمض مدة لطيفة حتى أحضر الناس وأنُحِرَ المؤيد ^(١) وقيل أشهدوا أنه دُعِيَ فأجاب،
وليس به أثر ؛ ثم مضت مدة شهر فأحضر الناس وأنُحِرَ المستعين وقال : إن منيته
أتت عليه ، وها هو لا أثر به فأشهدوا ؛ ثم خلع المعتز ، واستخلف المهتدى ؛ ولم
يمض إلا مُدَّةٌ حتى أُنُحِرَ المعتز ميتاً وقال : أشهدوا ، أنه قد مات حتف أنفه

ولأثر به ، ثم لم تكمل السنة حتى استُخلف المعتمد فأنحرج المهتدى ميتا وقال : اشهدوا أنه قد مات حتف أنفه من جراحته ، فتعجب الناس من تلايحهم في مدة يسيرة .
 عبء — مات المكتفى بالله عن مائة ألف ألف دينار ، ولما غُسل لم توجد بحجرة ينخر فيها إلا بحجرة من خرف أحمر ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة .
 قال أحمد بن أبي دواد : لقد شددت لحي المأمون ، والمعتمد ، والواثق ، بعد موتهم فلم أجد خرقه أشد بها لحي واحد منهم إلا ما أخرقه من الدراريح التي تكون على .
 لطيفة — في سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد برّد فاضل سهام المواريث على ذوى الأرحام ، وأبطل ديوان المواريث ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

لطيفة — في سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بفرق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفظ الناس من ذلك فقلّت الأمطار حتى استسقوا ببغداد مرّات .

غريبة — ذكر ابن سينا في المقالة الأولى من كتابه الشفاء أنه نزل بجرجان صاعقة من الهواء فشبت في الأرض ، ثم نبت نبوة الكرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفروا عليها فإذا هي قطعة من حديد تقدير مائة وخمسين مترا ، وهي أجزاء جاورشية صغار مستديرة ، التصق بعضها ببعض ، فكتب محمود بن سبكتكين ، صاحب نراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثقله فحاولوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات ، ففوج كسره فقطع منه قطعة لطيفة ، وحملت إليه فرام أن يطبع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى — في سنة إحدى عشرة وخمسمائة جاء سيل عظيم فغرق مدينة سنجان من بلاد الجزيرة ، وهدم المنازل ، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكى

أن السيل حمل مهّدا فيه صبيّ صغير فتعلق المهّد بشجرة زيتون ، وغاض الماء ، وبقى المهّد معلقا بالشجرة فسلم الصغير .

أعجوبة — في سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وقَلَسِطِينَ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ ، طَلَعَ فِيهَا الْمَاءُ مِنْ رِءُوسِ الْآبَارِ ، وَزَالَ الْبَحْرُ عَنْ السَّاحِلِ مَسِيرَةَ يَوْمٍ ، فَتَزَلَّ النَّاسُ إِلَى أَرْضِ الْبَحْرِ يَلْتَقِطُونَ مَا أَنْكَشَفَ الْبَحْرُ عَنْهُ مِمَّا فِي أَرْضِهِ فَرَجَعَ الْمَاءُ عَلَيْهِمْ فَأَهْلَكَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا .

ثم في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلّلة عظيمة خربت شيزر ، وحماة ، وحمص ، وحصن الأكراد ، وطرابلس وأنطاكية ، وغيرها من البلاد التي حولها ، ووقعت الأسواق والقلاع حتى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة .
فائدة — في سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتنى الخليفةُ باب الكعبة ، وعمل عوضه بابا مصفّحا بالفضة المذهبية ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا ليُدْفَنَ فيه .

نادرة — في سنة خمس وستين وسبعمائة وقع ثلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعمّكراء وما حولها .

أخرى — في سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وأمتدّ من مكة إلى الشام ، وعظم بحورات حتى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصبغة والقماش ، وسدّت أعين الماء خوفا من أن يفسدها ، وكان من شأنه بعبّلون أنه امتلأت منه المدينة وغلّقت الأسواق ، وطُبّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسدّت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فملا عليهم الجامع ، وتراعى على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة ، وكذلك حير الناس حتى خرجوا من الجامع يُحبّون فيه خبا إلى الركب ، وأتنت لكثرة ما قتل منه حتى صار أهل البلد يشمون القطران ليغطي رائحته (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

أجرى — في سنة اثنتين وسبعين وسبعائة رأى أهل الشام في السماء بعد مغيب الشفق حمرة عظيمة من جهة الشمال ، ثم اشتدت الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة وانتشرت في السماء حتى كاد يغطي ثلثها ، وعم بلاد الشام حتى كان يدمشق ، وبعبك وحلب ، وقاقون ، والرملة ، والقدس ، وطرابلس ، حتى خاف جميع أهل هذه البلاد على أنفسهم الهلاك ، وضرعوا إلى الله تعالى ، وأبتلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتى داخلني منه أنه عذاب قد صبَّ على الناس ، ثم آنقش بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجمله فوقائع الدهر وعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

وَاللَّيَالِي كَمَا عَلِمْتَ حَبَالِي * مُقَرَّبَاتٌ يَلْدَنَ كُلُّ عَجِيبٍ

المقصد الثاني

(في وجه بيان استعمال الكاتب ذلك في خلال كلامه)

لا يخفى أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدمين وسيهرم ، وأخبارهم ، ومن برع منهم ، صار عنده علم بما لعله يسأل عنه ، واعتداد لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتاج عليه به من صورة قديمة : ليكون على يقين منها ، مع ما يحتاج إلى إيراده في خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حسن الاحتجاج بذكره في أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الحمداني إلى أبي الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر في مجلسه فقال : إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه ، وعقنا ،
وشمخ بأنفه عنا ، والحمد لله على فساد الزمان ، وتغير نوع الانسان . فكتب إليه :
” نعم أطل الله بقاء الشيخ الإمام ، إنه الحمأ المسنون ، وإن ظننت الظنون ؛
والناس لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم ، وأرتكبت الأضداد ، وأختلط الميلاد .
والشيخ يقول فسد الزمان ، أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية ، وقد
أبنا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة الروانية ، وفي أخبارها ” لا تكسع الشول
بأخبارها ؟ ” أم السنين الحربية ، والسيوف يغمد في الطلا ، والرُح يركز في الكلا ،
وميت حجر في الفلا ، والحرتان وكر بلا ، أم البيعة الهاشمية ، وعلى يقول : ليت العشرة
منكم براس ، من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية ، والتغير إلى الحجاز ، والعيون إلى
الأعجاز ؟ أم الإمارة العدوية ، وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا التزول ؟
أم الخلافة التيمية ، وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأاة الإسلام ؟ أم على عهد
الرسالة ويوم الفتح قيل آسكتي يافلانه ، فقد ذهبت الأمانه ؟ أم في الجاهلية
وليد يقول :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَافِهِمْ * وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ يَحْلِدُ الْأَجْرِبُ .

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بِلَادُ يَهَا كُنَّا وَكُنَّا نُحِبُّهَا * إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانُ .

أم قبل ذلك ، ويروى لآدم عليه السلام :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا * فَوَجَّهْ الْأَرْضَ مُسَوِّدٌ قَبِيحُ !

أم قبل ذلك والملائكة تقول : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ؟

وما قسد الناس ، ولكن أطرده القياس ؛ ولا ظلمت الأيام ، إنما امتد الإظلام ؛ وهل

يفسُد الشيء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صَبَاح ؛ ولعمري ! لئن كان كَرَمُ
العهد كتاباً يَرِدُ وجواباً يصدرُ إنه لقريب المثال ، وإنى على توبيخه لى لفقيه إلى لقائه ،
شفيق على بقاءه ؛ منتسب إلى ولائه ، شاكر لآلائه .

والغاية القصوى فى ذلك ما كتب به ذو الوزارتين ”أبو الوليد بن زيدون“
رحمه الله على لسان محبوبته ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلى إنسان
استمالها عنه إلى نفسه وهى :

أما بعدُ أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ؛ البين سَقَطه ، الفاحش غلطه ؛ العائر
فى ذيل أغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ؛ الساقط سُقُوط الدُّباب ، على الشراب ،
المتهافت تهافت القَرَّاش فى الشَّهاب ؛ فإن العُجب أ كَذِبُ ، ومعرفة المرء نفسه
أ صوب ؛ وإنك راسلتنى مستهدياً من صِلَتى ما صِفرت منه أيدى أمثالك ، متصدِّياً
من خُلَّتى لما قُدِعت فيه أنوف أشكالك ؛ مرسلًا خيلتك مرثاه ، مستعملاً
عشيقتك قواده ؛ كاذباً نفسك فى أنك ستزل عنها إلى ، وتخلف بعدها على :

وَلَسْتُ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ * دَعْتُهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ !

ولا شك أنها قلَّتْكَ إذ لم تَضُنَّ بك ، وملَّتْكَ إذ لم تَغِرْ عليك ؛ فإنها أعذرت
فى السَّفارة لك ، وما قصرت فى النيابة عنك ؛ زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ،
والإنسانية أسم أنت جسمه وهيولاه ؛ قاطعة أنك أنفردت بالجمال ، وأستأثرت
بالكمال واستعليت فى مراتب الخلال ؛ حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك
فغَضَضت منه ، وأن امرأة العزيز رأَتْكَ فسَلَّتْ عنه ؛ وأن قارونَ أصاب بعض
ما كثرَتْ ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقصر رعى
ماشيتك ؛ والإسكندر قتل داراً فى طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم
عن جماعتك ؛ والضحاك أَسَدَعى مُسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ويشيرين

قد نافست بُورانَ فيك ، وبلقيسَ غايرتَ الرِّبَاءِ عليك ؛ وأن مالك بن نُؤيرةٍ إنما أَرَدَفَ لك ، وُعرُوةَ بن جعفرٍ إنما رَحَلَ إليك ؛ وكُليبُ بن ربيعةٍ إنما حَمَى المَرعىَ بعزَّتكَ ، وجَسَّاسا إنما قتلَه بَأَنفَتِكَ ، ومُهلهِلا إنما طَلَبَ ثأْرَه بهِمَّتِكَ ؛ والسَّموَعْلُ إنما وَفَى عن عهدِكَ ، والأحنَفُ إنما آحَتَبَى في بُرْدِكَ ؛ وحاتمُ إنما جادَ بوفَرِكَ ، ولقيَ الأضيافَ بِبُشْرِكَ ؛ وزيدُ بن مُهلهِلٍ إنما ركبَ بِفَخْذِكَ ، والسُّلَيْكُ بن السُّلَكةِ إنما عدا على رجلِكَ ؛ وعامرُ بن مالكٍ إنما لاعبَ الأسنَةَ بيدِكَ ؛ وقيسُ بن زُهَيْرٍ إنما آسْتَعانَ بِدَهَانِكَ ، وإياسُ بن معاويةٍ إنما آسْتَضَاءَ بِمَصْبَاحِ ذَكَائِكَ ؛ وسُجبانُ وائلُ إنما تكلمَ بلسانِكَ ، وعمرُو بن الأَهمِّ إنما سَحَرَ بِبيانِكَ . وأن الصلحَ بين بكرٍ وتغلبَ تَمَّ بِرسالتِكَ ، والحمالاتُ في دِماءِ عَنَسٍ وذُبْيَانٍ أُسْنِدَتْ إلى كَفَالَتِكَ ؛ وأن آحتيالَ هَرِمٍ لعامرٍ وعلقمةٌ حتَّى رَضِيَا كانَ عن إشارَتِكَ ، وجوابه لُعمَرَا ، وقد سألَه عن أيهما كان يَنْقُرُ وقعَ بعد مَشُورَتِكَ ؛ وأن الحجاجَ تقلدَ ولايةَ العراقِ بِجِدِّكَ ، وقُتَيْبَةَ فتحَ ما وراءَ النهرِ بِسَعْدِكَ ؛ والمهلبُ أوهنَ شَوْكَةَ الأزارقةِ بِأيدِكَ ، وأفسدَ ذاتَ بينهم بِكيدِكَ ؛ وأن هَرَمِسَ أعطى بيلينوسَ ما أخذ منك ، وأفلاطونُ أوردَ على أرسطاطاليسَ ما حَدَّثَ عنكَ ؛ وبطليموسُ سَوَى الإِصْطِرلابَ بِتَدْيِيرِكَ ، وصوَرُ الكُرَّةِ على تَقْدِيرِكَ ؛ وأبقراطُ علمَ العللَ والأمراضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وجالينوسُ عرَفَ طبائِعَ الحشائشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ؛ وكلاهما قَلَّدَكَ في العِلاجِ ، وسألكَ عن المِزاجِ ؛ وآستوصفَكَ تركيبَ الأعضاء ، وآستشارَكَ في الداءِ والدواءِ ؛ وأذكُ نَهَجْتَ لأبى معشرٍ طريقَ القضاءِ ، وأظهرتَ جابرَ بن حَيَّانَ على سِرِّ الكيمياءِ ؛ وأعطيتَ النِّظامَ أصْلا أدركَ به الحقائقُ ، وجعلتَ لِلِكِنْدِيِّ رَسْمًا آستخرجُ به الدقائقَ ؛ وأن صناعةَ الألحانِ آخترَأَكُ ، وتألَّفَ الأنقارُ توليدَكَ وآبتدَأَكَ ؛ وأن عبد الحميدَ بنَ يحيىَ بارىَ أَفلامَكَ ، وسهلَ بنَ هارونَ مدوْنَ كَلامِكَ ؛ وعمرُو بن بحرٍ مستمليكَ ، ومالكُ بن أنسٍ مُستفتيكَ ؛ وأنكَ الذي

أقام البراهين ، ووضع القوانين ؛ وحدّ الماهية ، وبين الكيفية والكيفية ؛ وناظر في الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ؛ وحلّ المعنى ، وفصل بين الأسم والمسمى ؛ وضرب وقسم ، وعلل وقوم ؛ وصنف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظرف والحال ؛ وبني وأعرب ، ونفى وتعجب ؛ ووصل وقطع ، وثنى وجمع ؛ وأظهر وأخمر ، وأبدأ وأخبر ؛ وأسفهم وأهمل ، وقيد وأرسل ؛ وأسند وبحث ، ونظر وتصفح الأديان ، وزجّ بين مذهبي ماني وغيلان ؛ وأشار بذبح الجعد ؛ وقتل بشار ابن برد ؛ وأنك لو شئت تحرق العادات ، وخالفت المعهودات ؛ فأحلت البحار عذبه ، وأعدت السلام رطبه ؛ ونقلت غداً فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت خمسا ؛ وأنك المقول فيك "كلّ الصيد في جوف الفراء" ، والمقول فيك :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

والمعنى بقول أبي تمام :

فلو صوّرت نفسك لم تزدها * على ما فيك من كرم الطّباع

والمراد بقول أبي الطّيب :

ذكر الأناّم لنا فكان قصيدة * كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت في غير مكدم ، وأسسمنت ذا ورم ، وففخت في غير ضرّم ، ولم تجد لمح مهزّا ، ولا لشفرة محزّا ، بل رضىت من الغنيمة بالإياب ، وتمنت الرجوع بحنّى حنين ، لأنى قلت لها :

* لقد ذلّ من بالث عليه الثعالب *

وأنشدت :

على أنها الأيام قد صرن كلّها * عجائب حتى ليس فيها عجائب

ونخرت وكفرت ، وعبست وبسرت ، وأبدأت وأعدت ، وأبرقت وأرعدت ،

وَهَمَّتْ ولم أفعل ، وَكِدْتُ ولِيتَنِي ، وَلَوْ لَا أَنْ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضَّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَدَالِ الدُّمُسْتَقِ ؛ وَالتَّلْعُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمَكِّنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمُذْنِبُ ؛ وَهَبَهَا لَمْ تَلَا حِظَّكَ بَعِينَ كَلِيلَةٍ عَنْ عِيوبِكَ مَلُؤَهَا حَبِيبُهَا وَحَسَنٌ فِيهَا مِنْ تَوَدُّ ؛ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحِلَالِكَ ، وَوَسَمَّتْكَ ، بِسِيَامِكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَهُ ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَهُ ؛ بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكْرَهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتْ الْهِنَاءَ مُوَاضِعَ النَّقَبِ فَمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ؛ وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتَ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعَيَّدَى تَسْمَعُ بِهِ خَيْرَ مَنْ أَنْ تَرَاهُ ، هَجِينُ الْقَدَالِ ، أَرْعَنُ السَّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ ؛ مُفْرِطُ الْحُجْقِ وَالْعَبَاوَةِ ؛ جَانِي الطَّبَعِ ، سَيِّئُ الْإِجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُنْتَنُ الْأَنْفَاسِ ؛ كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمُنَالِبِ ؛ كَلَامُكَ تَمْتَمُهُ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمُهُ ؛ وَيَبْأُكَ فَهَفَفَهُ ، وَضَحْكُكَ قَهْقَهَهُ ، وَمَشْيُكَ هَرُولَهُ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَهُ ، وَدِينُكَ زَنْدَقُهُ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقُهُ :

مَسَاوِ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي * لَمَّا أُمِيزَتْ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

حَتَّى إِنْ بَاقِلًا مَوْصُوفٌ بِالْبَلَاجَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبْتَقَةً مَسْتَحَقٌّ لِأَسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ؛ وَأَبَا غَبْشَانَ مَجْهُودٌ مِنْهُ سَدَادُ الْفِعْلِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْكَ ، وَطُوسًا مَأْتُورٌ عَنْهُ يَمُنُ الطَّائِرُ إِذَا قَبِسَ عَلَيْكَ ، فَوْجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالْأَعْتَاءُ بِكَ نَدَمٌ ؛ وَالْخَلِيَّةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَلْنَةُ مَعَكَ سَقَرٌ ؛ كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمُكَ لِكِرْمِي كِفَاءً ! وَضَعْتَكَ لَشَرَفِي وَفَاءً ؛ وَأَتَى جَهْلَتِ أَنْ الْأَشْيَاءُ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى آلَافِهَا ، وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ نَارِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ لَا تَتَرَاءِيَانِ ، وَقُلْتَ الْخَلِيبُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ ، وَتَمَثَّلْتَ :

* عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ *

وذكرت أنى علق لأبياع من زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه
إلا من أجاد، فما أحسبك إلا قد كنت تهيأت للتهنيه، وترشحت للترفيه،
لولا أن جرح العجاء جبار، للقيت ما لقي من الكواعب يسار؛ فما هم إلا بدون
ما هممت به، ولا تعرض إلا لأيسر مما تعرضت له؛ أين أدعائك رواية الأشعار،
وتعاطيك حفظ السير والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع * وتكح في أكفائها الحباط

وهلا عشت ولم تغتر، وما أمك أن تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة
التمس، أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة^(١) بالجهنى الذى جاء خاطبا، فذهن
أسته بزيت وأدناه من قرية النبل، ومتى كثر تلاقينا، وأتصل ترائينا؟ فيدعوني
إليك مادعا ابنة الخس إلى عبدها من طول السواد، وقرب الوساد؛ وهل فقدت
الأراقيم فأنكح في جنب، أو عضلنى همام بن مرة، فأقول زوج من عود، خير من
قعود، ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لأرتفعت عن هذه الخطئة، وما رضيت بهذه
الخطئة، فالنار ولا العار، والمينة ولا الدنية، والحرة تجوع ولا تأكل بشديها :

فكيف وفى أبناء قومي منكح * وفتيان هزان الطوال الغرائقه

ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور دون الجواد؛ وإنما يتيم من
لا يجد ماء، ويرعى الهشيم، من عدم الجيم؛ ويركب الصعب من لا ذلول له؛ ولعلك
إنما غرك من علمت صبوتى إليه، وشهرت مساعفتى له من أقمار العصر، ورياحين
المصر، الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب شيم .
* من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم *

(١) فى الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة عل فى فى القاموس .

فَحَنَّ قَدَحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهْمٌ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَاعْمُرُو فِيهِمْ ؟
وَكَا لَوْ شَيْطَانٌ فِي الْعِظَمِ بَيْنَهُمْ ؛ وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَاوَيْتَ لَقَمِيصَكَ
عَنْ بَعْضِ قُوَّتِكَ ؛ وَعَطَّرْتَ أُرْدَانَكَ ، وَجَرَّرْتَ هِمْيَانَكَ ؛ وَأَخْتَلْتَ فِي مِشْيَتِكَ ،
وَحَدَقْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ؛ وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ؛ وَرَقَّقْتَ خَطَّ
عِذَارِكَ ، وَأَسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الْاِكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْاِعْتِدَادِ مِنْهُمْ
فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ أَسْتِكَ الْحُقُورَةَ . وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مَحْرَقُ الْبُرْدَيْنِ ، وَحَلَّتْكَ
مَارِيَّةُ الْبُقْرَطَيْنِ ، وَقُلْدُكَ عَمْرُو الصَّمْصَامَةِ ، وَحَمَلَكِ الْحَارِثُ عَلَى النِّعَامَةِ ، مَا شَكَّكَتُ
فِيكَ ، وَلَا تَكَلَّمْتَ بِمَلَأَ فِيكَ ، وَلَا سَتَرْتُ إِيَّاكَ ، وَلَا كُنْتُ إِلَّا ذَاكَ . وَهَبَكَ سَامِيَتِهِمْ
فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارِيَتِهِمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ؛ أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى
بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَاعٍ ، إِذْ كُلَّهُمْ عَزَبَ خَالِي الذَّرَاعِ ، وَأَيْنَ مِنْ أَنْفَرْدَ بِهِ مَنْ لَا غَلَبَ
إِلَّا عَلَى الْأَقْلَى الْأَخْسَسِ مِنْهُ ؛ وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يِعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ،
وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَى ، وَبَيْنَ آخِرَقْدَ نَزَحَتْ بِرِهِ ، وَنَضَبِ
غَدِيرِهِ ، وَذَهَبِ نَشَاطِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضَرَاطُهُ . وَهَلْ كَانَ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ
وَسُوءُ الْيَكِيلَةِ ، وَيَقْتَرِنُ عَلَى بَكَ إِلَّا الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سُلُولِيهِ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو * أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بَأْنَ تُقَدَّرُ بِذُرْعِكَ ، وَتَرَبَّعَ بِذَلِكَ عَلَى ظُلْمَعِكَ ، وَلَا تَكُونُ بَرَاقِشَ
الدَّالَّةِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعِزَّ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةِ لِحَتْفِهَا ؛ فَمَا أُرَاكَ إِلَّا قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى
سِرْحَانٍ ، وَبِكَ لَا يَطْبِي أَعْفَرٌ ؛ قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا ،
وَقَرَعْتُ عَصَا الْعِتَابِ ، وَحَدَّرْتُ سُوءَ الْعِقَابِ .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ * وَالشَّيْءُ تَحْقَرَهُ وَقَدْ يَنْمِي

فَإِنْ بَادَرْتُ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتُ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ؛ كُنْتُ قَدْ أَشْتَرَيْتُ الْعَافِيَةَ
لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ؛ وَإِنْ قُلْتُ جَعَجَعَةً وَلَا طِخْنَ ، فَرُبَّ صَالِفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتُ :

لَا يُؤْسِنَكَ مِنْ مُحَدَّرَةٍ * قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا

فَعُدَّتْ لِمَا نَهَيْتُ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتُ مَا أَسْتَعْفِيْتُ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مِنْ يُزْعِجُكَ إِلَى
الْخَضِرَاءِ دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكُرًّا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرَتْ إِلَيْهَا عَبَثْتُ أَكْأَرُوهَا بِكَ ،
وَتَسْلُطُ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ : فَمِنْ قَرَعَةٍ مُعْجَظَةٍ تَقُومُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلةٍ مُنْتِنَةٍ تُرْمَى بِهَا
تَحْتَ خِصَالِكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ ، لَكِنِّي تَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قُدْرِكَ :
فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ * رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

فلولا المعرفة بالتاريخ، والإحاطة بالوقائع والسِّيَر، والأقاصيص، والأمثال السائرة
في معنى ذلك، لما تأتى للنائر الاقتدار على سبك هذه الوقائع، والتلويح بمقتضياتها.

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المصنفة فيها
وأسماء الرجال المبرزين في فنونها ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام، وكمال اعتناء، حتى حصلوا منها
على العدد الجَمِّ، وحصلوا على الخزائن الجليلة . ويقال إن أعظم خزائن الكتب
في الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى
كثرةً، ولا يقوم عليه نقاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دَهَمَت التتربغداد، وقتل
ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيها ذهب،
وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها .

الثانية — خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية. ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، وأستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضى الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدار بلوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدى فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة — خزانة خلفاء بنى أمية بالأندلس، وكانت من أجل خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلى أنقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كل مذهب.

أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كتب المدارس التى آبتنوها من حيث إنها بذلك أمس.

واعلم أن الكتب المصنفة أكثر من أن تُحصى، وأجل من أن تُحصَر، لا سيما الكتب المصنفة فى الملة الإسلامية فإنها لم يصنف مثلها فى ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم؛ إلا أن منها كتب مشهورة قد توفرت الدواعى على نقلها، والإكثار من نسخها، وطارَت سُمُعتها فى الآفاق ورُغِبَ فى اقتنائها.

المقصد الثانى

(فى ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلى سبعة أصول، يتفرع عنها أربعة ونحسون علما)

الأصل الأول

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأول علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المتخَب، والمجرد لكُراع؛ وأدب الكاتب لأبن قتيبة، وفتح اللغة للتحالى، والفصيح لثعلب، وكفاية المتحفظ

لأبن الأجدابي، والألفية لأبن أصبع. ومن المتوسطة فيه المجمل لأبن فارس، وديوان الأدب للفارابي، وإصلاح المنطق لأبن السكيت. ومن المبسوطة الجامع للأزهري والعباب الزاهر للصاغاني، والصاحح للجوهري. قال في إرشاد القاصد: ولا أنفع ولا أجمع من المحكم لأبن سيدة.

الثاني علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكي لأبن جنى والتعريف لأبن مالك. ومن المتوسطة تصريف أبن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوععة فيه وأجمعها. ومن المبسوطة فيه المتع لأبن عصفور، وشرح تصريف أبن الحاجب وغيره.

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لأبن الحاجب، والدرة الألفية لأبن معطى، والخلاصة لأبن مالك. ومن المتوسطة المفصل للزخشري والمقرب لأبن عصفور، والكافية الشافية لأبن مالك، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدة اختصاره. ومن المبسوطة كتاب سيويوه وشرجه، وشرح أبن قاسم على الألفية، وشرجه على التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه؛ وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبي حيان على التسهيل.

(١)
الرابع علم المعاني — من الكتب المنفردة فيه مصنف تيمم الحرى، وهو عزيز الوجود.

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام فخر الدين الرازى، والجامع الكبير لأبن الأثير الجزرى.

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختصرة فيه زهر الربيع للطرزى. ومن المتوسطة فيه البديع للتيفاشى، وشرح البديعية للصنفى الحلى. ومن المبسوطة كتاب التحجير لأبن أبى الأصبع.

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة على علوم المعاني والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك ، والإيضاح لابن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضى القضاة جلال الدين القزوينى وعليه عدة شروح . منها شرح الخلخلى ، وشرح الشيخ أكل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكى ، وهو من أجل شروحه ، والمعول عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازانى .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عروض ابن مالك ، ولابن الحاجب فيه لامية كافية ، اعتنى الناس بشرحها ، ومن شرحها الشيخ جمال الدين ابن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوى . وللساوى لامية ضاهى فيها لامية ابن الحاجب ، والإمام القزوينى عليها شرح حسن ، وللأيكى فيه مختصر بديع ، وللجوهرى فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عروض ابن القطاع ، وعروض ابن الخطيب التبريزى . ومن المبسطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبى الحسن العروضى المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثرى محتسب مصر ألفية فائقة سماها "هداية الضليل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعى .

الثامن علم القوافى — من الكتب المختصرة فيها قوافى الأيكى . ومن المتوسطة قوافى ابن القطاع ، ومن المبسطة قوافى ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — فى أصول الخط ألفية لشعبان الآثرى ، ولابن الحسين كتاب فى قلم الثلث ، ولابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنف فى قلم النسخ ، وفى صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبى ، وفى خلال كتب النحو الجامعة كالتسهيل وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت فى هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فى كتاب التنبيه لأبى عمرو الدانى .

الأصل الثاني

(العلوم الشرعية، وفيه تسعة علوم)

الأول علم النواميس المتعلق بالنبؤات — وفيه كتاب لأرسطاطاليس، وكتاب لافلاطن، وأكثر مسائله في "كتاب المدينة الفاضلة" لأبي نصر الفارابي، وفي آخر الطوالع والمصباح للبيضاوي مسائل من ذلك ^(١).

الثاني علم القراءات — من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبي عمرو الداني، ونظامه الشاطبي في قصيدته التي وسمها بحorz الأمانى، فأغنت عما سواها من كتب القراءات وأعنتى الناس بشرحها، ولأبن مالك دالية بديعة في علم القراءات لكنها لم تشتهر. ومن الكتب المبسطة فيه كتاب الروضة في القراءات، وشرح الشاطبية كالقاسى وغيره.

الثالث علم التفسير — من الكتب المختصرة فيه زاد المسير لأبن الجوزى، والوجيز للواحدى، والنهر لأبي حيان. ومن المتوسطة فيه الوسيط للواحدى والكشاف للزَّمَخْشَرى، ومعالم التنزيل للبعوى. ومن المبسطة البسيط للواحدى، وتفسير القرطبي، وتفسير الامام نحر الدين، والبحر المحيط لأبي حيان.

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فن من الفنون يميل إليه في تفسيره، فالتيفاشى تغلب عليه القصص، وأبن عطية تغلب عليه العربية، وأبن عطية تغلب ^(٢) عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعانى وغير ذلك.

الرابع علم رواية الحديث — أضبط الكتب المصنفة فيه وأصحها رواية صحيح البخارى، وصحيح مسلم رضى الله عنهما، وبعدهما بقية كتب السنن المشهورة، كسنن أبى داود، والترمذى، والنسائى، وأبن ماجه، والدارقطنى. والمستندات المشهورة كسنن أحمد، وابن أبى شيبه، والبزار ونحوها.

(١) هو كتاب البيضاوى في علم الكلام. (٢) هما مفسران أحدهما متقدم على الآخر وكلاهما مسمى بأبى محمد عبدالله إلا أن المتقدم دمشقى والمتأخر غرناطى كذا يؤخذ من كشف الظنون.

ومن كتب السير السيرة لأبن هشام ، وزهر الخمائل لأبن سيد الناس .
ومن الكتب المبسطة المشتملة على متون الأحاديث دون الرواة جامع الأصول
لأبن الأثير . ومن المتوسطة الجمع في ذلك الجمع بين الصحيحين للحميدى ، ومختصر جامع
الأصول لمصنفه . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام ، الإمام بأحاديث الأحكام ،
للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسى .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووى . ومما يتعلق بالأدعية
كتاب الأدكار له ، وسلاح المؤمن لأبن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنفات
المختلفة المقاصد مما لا يحصى كثرة .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول في ذلك علوم الحديث
لأبن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووى ، وعلوم الحديث للحاكم ، والكفاية للخطيب
أبى بكر ، وفى أول جامع الأصول المقدم ذكره فى كتب رواية الحديث قطعة من
ذلك . ومن الكتب المبسطة فى أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسطة
فى معانى الحديث شرح البخارى لأبن بطلال ، وشرحه لأبن التين المغربى ، وشرحه
لمغلطائى ، وشرحه لاكماني ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم
للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيى الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ،
وشرح العمدة للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدين الفاكهاني .
ومن الكتب فى غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبى السعادات
أبن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطوالع للقاضى ناصر الدين
البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للنوارجا نصير الدين الطوسى ، وكتاب الأربعين

للقاضى جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام نجر الدين ، والصحائف
 للسمرقندى ، وشرح الطوابع للسيد العبرى ، وشرحها للشيخ عز الدين الأصفهاني .
 السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن الحاجب ،
 ومنهاج البيضاوى ، والتنقيح للقرافى ، والقواعد لأبن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه
 التحصيل للأرموى . ومن المبسوطه فيه الإحكام للآمدى ، والمحصل للإمام
 نجر الدين ، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى ، وشرى
 المسلى ، وشرح الشيخ شمس الدين الأصفهاني ، وأتقن شرح عليه للعصدي ، وكشرح
 منهاج البيضاوى لأبن المطهر ، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى ، وغير ذلك ؛
 وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المغنى للأبهري ، والفصول للنسفى
 والخلاصة للراغى ، والمعونة لأبن إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس
 للعميدى ، والوسائل للأرموى . ومن المبسوطه تهذيب النكت للأبهري .
 التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المزنى ، ومختصر البويطى
 والوجيز للغزالى ، والتنبيه لأبن إسحاق الشيرازى ، والمحرر للرافعى ، والمنهاج للنووى
 والحاوى الصغير لعبد الغفار القزوينى ، والعجب العجائب ، وجامع المختصرات ،
 ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المتوسطة المذهب لأبن إسحاق
 الشيرازى ، والوسيط للغزالى ، والشرح الصغير للرافعى ، والروضة للنووى ، والجواهر
 للقموى ، وأجمعها على اختصار المتقى للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المبسوطه
 الأثم للإمام الشافعى ، والحاوى للآوردى ، والبحر للرويانى ، والنهاية لإمام الحرمين ،
 والبسيط للغزالى ، والشامل لأبن الصباغ ، والتمة للتولى ، والعدة لأبن المكارم
 الرويانى ، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى ، وشرح المذهب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كل لأغنى عن جُل كتب المذهب ، والكفاية في شرح التنبيه لأبن الرقعة ، والمطلب في شرح الوسيط له ، والبحر المحيط في شرح الوسيط للقمولي . ومن محاسنها المهمات على الرافعي ، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوي .

ومن كتب الحنفية المختصرة البداية ، والنافع ، والكثرة ، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسطة المحيط ، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضي عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجلاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكي ، هذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعي ، والجواهر لأبن شاس ، ونظم الدرر للشارمساحي . ومن المبسطة النوادر لأبن أبي زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب أبن يونس ، وشرح التلقين للآزري ، وليس بكامل ، والذخيرة للقراقي .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الحذقي ، والنهاية للصغري لأبن رزين . ومن المتوسطة المقيع ، والكافي . ومن المبسطة المغني لأبن قدامة . ومن كتب الخلاف في المذاهب الأربعة الاختلاف والجمع لأبن هبيرة الحنبلي . ومن المشتمل على مذاهب السلف الإشراف لأبن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعي ، وفيه اثنا عشر علما)

الأول علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجز لأبن النفيس ، والفصول لأبقراط ، ومن المتوسطة المختار لأبن هبل ، والمائة للسيجي ، والشافي لأبن القف . ومن المبسطة كامل الصناعة المعروف بالملكي ، والقانون للرئيس أبي علي بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلى التهذيب والترتيب ، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظاً وأحسنها تصنيفاً .

- الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .
- الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفى كتاب العلاجين لأبن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .
- الرابع علم الفِرَاسة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِرَاسة للامام نحر الدين الرازى ، ولقلين فيه كتاب مختص بالنفّرس فى النساء .
- الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لأبن الدقاق ، وتعبير الحنبلى المرتب على حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للحنبلى .
- ومن المبسوطه فيه تأليف أبى سهيل المسيحى ، والبشرى فى شرح كتاب الكرماني .
- السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحبي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لأبن هنبنا .
- ومن المبسوطه مجموع آبن سريخ . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبى معشر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرتى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القبيصى ، والنهيم للبيرونى مدخل إلى هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .
- السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوقاف — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام نحر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوارزمى ، وكتاب طيارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للجريطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .
- ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتبرة من اللغة النورانية للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطَّلَسمات — في كتاب طبنا الذي نقله ابن وحشية عن النبط أُمُودَج لعمل الطَّلَسمات ومدخل إلى علمها، وفي غاية الحكم للجريطي قواعد هذا العلم . قال في إرشاد القاصد إلا أنه ضَنَّ بالتعليم كل الضن، ولأبني يعقوب السكاسكي فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتباً مجهولة المصنِّفين . العاشر علم الكيميا — من الكتب المطولة فيه كتب جابر بن حيان . قال في إرشاد القاصد : وأمثلة كتب الإسلاميين في ذلك التذكرة لأبن كونه ، ورُبَّة الحكيم للجريطي ، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذوري . الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب ، وفي مثلثات ابن محقق ^(١) حصر صوره .

تتبيه — لارسطاطاليس ثمانية كتب في الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها ابن سينا في مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصاً مفيداً، والمتأخرون جمعوا في غالب كتبهم بينه وبين الالهى في التصنيف كما في الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصل الرابع

(علم الهندسة ، وفيه عشرة علوم)

الأول علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لأبن الهيثم ، ومصنف للكنجى .

(١) في كشف الظنون محقوق .

- الثانى علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب على بن عيسى الوزير . ومن المبسوطه كتاب ابن الهيثم .
- الثالث علم المرايا المحرقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لابن الهيثم .
- الرابع علم مراكز الأثقال — من الكتب المعتمدة فيه كتاب ابن الهيثم ، وفيه كتاب لأبى سهل الكوهي .
- الخامس علم المساحة — من الكتب المختصرة فيه كتاب ابن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة كتاب ابن المختار . ومن المبسوطه ، كتاب ارشميدس .
- السادس علم إنباط المياه — للكرنجي فيه مختصر جليل ، وفي خلال الفلاحة النبطية لابن وحشية مهمات هذا العلم .
- السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .
- الثامن علم البنكومات — فيه كتاب لارشميدس عمدة في بابه .
- التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبنى موسى بن شاكر .
- العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بحيل بنى موسى ، وفيه كتاب مختصر لفيلن ، وكتاب مبسوط للبديع الجزرى .

الأصل الخامس

(علم الهيئة ، وفيه خمسة علوم)

- الأول علم الزيجات — قال فى إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصد الزيج العلائى . قال وأهل مصر فى زماننا إنما يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدة أزياج ولقبوه بالمصطلح ؛ وأتم الزيجات فى زماننا الذى نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي ، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطه جامع المبادئ والغايات لأبى على المرأ كشى .
 الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتره فيه كتاب الأرصاد لأبن الهيثم ، وكتاب الآلات العجيبه للهارثى يشتمل عليه .
 الرابع علم تسطيح الكره — من الكتب القديمه فيه كتاب تسطيح الكره لبطليموس . ومن الكتب المحدثه فيه الكامل للفرغانى ، والأستيعاب للبىرونى ، وآلات التقويم للزرا كشى .
 الخامس علم الآلات الظليه — فيه عدّه مصنفات ، ولابراهيم بن سنان الحرّازى فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق ، وفيه خمسة علوم)
 الأول علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس الماردىنى ، ومختصر السموئل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطه الكافى للكرنى . ومن المبسوطه الكامل لأبى القاسم بن السمع .
 الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندى كتب مغدّه ، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الفبار كتاب الحصار ، وكتاب المدخل وغيرهما .
 الثالث علم الجبر والمقابله — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لأبن فلوس الماردىنى ، والمفيد لأبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطه فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطه جامع الأصول لأبن المحلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .
 الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعه كتاب لزين الدين المعزى الخامس علم حساب الدور والوصايا — من الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحوينى .

الأصل السابع

(العلوم العملية، وفيه ثلاثة علوم)

الأول علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه لاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيه ، كتاب للشيخ أبى على ابن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسطة كتاب للإمام نحر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الانتفاع فيها بالاطلاع على السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم، ولا أنفع من السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره : كما وقع لى فى تقرير مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن، أبى سيدنا شيخ الإسلام أبى حفص عمر البلقينى الكافى الشافعى ” إن تكلم فى الفقه فكأنما بلسان الشافعى تكلم ، والربيع عنه يروى ، والمنزى منه يتعلم ، أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام باتفاق، وقطع السيف الآمدى بأنه المقدم فى هذا الفن على الإطلاق ، أو جرى فى التفسير قال الواحدى هذا هو العالم الأوحى، وأعطاه أبى عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد ، وأعترف له صاحب الكشف بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام نحر الدين هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخلاف واندفع المعارض ، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى ، وعدا شأو الشاطبى

في الرائية وتقدمه في حرز الأمانى ؛ أو تحدث في الحديث شهد له السفينان بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له ابن معين في التبريز والتقدم في الدراية ؛ وهتف الخطيب البغدادي بذكره على المنابر ، وقال ابن الصلاح لمثل هذه الفوائد ثنتين الرحلة ، وفي تحصيلها تنفد المحابر ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعري بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا في الكلام ؛ أو دقق النظر في المنطق بهر الأبهري في مناظرته ، وكتب الكاشي وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألم بالجدل رمي الأرموي نفسه بين يديه ، وجعل العميدى عمدته في آداب البحث عليه ؛ أو بسط في اللغة لسانه أعترف له ابن سيده بالسيادة ، وأقر بالعجز لديه الجوهرى وجلس ابن فارس بين يديه مجلس الاستفاده ، وأنحا إلى النجو والتصريف أربى فيه على سيبويه ، وصرف الكسائي له عزمه فسار من البعد إليه ، أو وضع أنموذجا في علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجاني ، ولم يتعد حده ابن أبي الأصبغ ولم يحاوز وضعه الرماني ؛ أو روى أشعار العرب ، أزرى بالأصمعي في حفظه ، وفاق أبا عبيدة في كثرة روايته وغزير لفظه ؛ أو تعرض للعروض والقوافي استحقهما على الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارك وأعترف الجوهرى بأنه ليس له في هذا الفن مثيل ؛ أو أصل في الطب أصلا ، قال ابن سينا هذا هو القانون المعبر في الأصول ، وأقسم الرازي بحجي الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنف الفصول ؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فانقاد ذلك العلم إليه ، أو سلك في علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض ابن الهيثم عن حل الشكوك ووثى وهو كظيم ، وحمد المؤتمن بن هود عدم إكمال

كتابه الاستكمال، وقال عرفت بذلك نفسى وفوق كل ذى علم عليم، أو عرج على علوم الهيئة لأعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأنجوبة النادرة، وقال ابن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائرة؛ أو صرف إلى علم الحساب نظره لقال السموئل ابن يحيى، لقد أحيا هذا العز الدارس، وأنجلت عن هذا العلم غياهبه حتى لم يبق عمه لعميه ولا عمّة على ممارس :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فإن وجدت لساناً قائلًا فقل

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقدّم ذكر شىء مما يجرى هذا المجرى فى الكلام على النحو ونحوه .

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى، أوله "النوع الثامن عشر—المعرفة بالأحكام السلطانية"

صحيفة

الباب الرابع - في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء الخ؛ وفيه فصلان ٨٩

الفصل الأول - في التعريف بحقيقته ٨٩

الفصل الثاني - في أصل وضعه في الإسلام وتفترقه عند بعد ذلك

في الممالك ٩١

الباب الخامس - في قوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله وآداب

أهله؛ وفيه أربعة فصول ١٠١

الفصل الأول - في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعته قدره الخ ١٠١

الفصل الثاني - في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه ١٠٤

الفصل الثالث - فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدبيره الخ؛

وفيه اثنا عشر أمرا ١١٠

الفصل الرابع - في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية الخ؛

وفيه ضربان ١٣٠

المقالة الأولى

في بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان ١٤٠

الباب الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية؛ وفيه

ثلاثة فصول ١٤٠

الفصل الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال ١٤٠

الفصل الثاني - فيما يحتاج إليه الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء؛

وفيه طرفان (صوابه ثلاثة أطراف) ١٤٨

الطرف الأول - فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل العرض منه

على خمسة عشر نوعا (صوابه تسعة عشر نوعا) ١٤٨

- النوع الأول — المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد ... ١٤٨
- النوع الثاني — المعرفة باللغة العجمية الخ؛ وفيه مقصدان ... ١٦٥
- النوع الثالث — المعرفة بالنحو؛ وفيه مقصدان ... ١٦٧
- النوع الرابع — المعرفة بالتصريف ... ١٧٧
- النوع الخامس — المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع؛
وفيه مقصدان ... ١٨٠
- النوع السادس — حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان ... ١٨٩
- النوع السابع — الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية؛
وفيه مقصدان ... ٢٠١
- النوع الثامن — الإكثار من حفظ خطب البلغاء، والتفنن
في أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان ... ٢١٠
- النوع التاسع — مما يحتاج إليه الكاتب الخ؛ وفيه ثلاثة مقاصد ... ٢٢٧
- النوع العاشر — الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة الخ؛
وفيه مقصدان ... ٢٧١
- النوع الحادي عشر — الإكثار من حفظ الأمثال؛ وفيه مقصدان ... ٢٩٥
- النوع الثاني عشر — معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم ... ٣٠٦
- النوع الثالث عشر — المعرفة بمفاحرات الأمم ووفراتهم الخ؛
وفيه مقصدان ... ٣٧٢
- النوع الثالث عشر (مكرر) المعرفة بأيام الحروب الواقعة؛ وفيه
ثلاثة مقاصد ... ٣٩٠

صحيفة

النوع الرابع عشر - في أوابد العرب ... ٣٩٨

النوع الخامس عشر - في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان ... ٤٠٩

النوع السادس عشر - النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال ؛

وفيه مقصدان ... ٤١١

النوع السابع عشر - المعرفة بخزائن الكتب وأنواع العلوم الخ ؛

وفيه مقصدان ... ٤٦٦